

مَعَهُدُ الْأَحْيَاءِ الْيَتِيمِ وَالْوَلَدَاتِ الْتَوَلَّى

زَهْرُ الْكَمَلِ فِي الْأَمْثَالِ وَالْحِكْمِ لِلْحَسَنِ الْبُوسِيِّ

الْجُزْءُ الثَّانِي

مَقْفَه

الدكتور محمد جحي و الدكتور محمد راغفر

المشرفة العامة
دار الثقافة

34-32 شارع فتور هيكو

الهاتف 26-53-46 - 26-23-75

ص.ب. 4038 الدار البيضاء (المغرب)

الطبعة الأولى 1401 — 1981
حقوق الطبع محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم :

من ذا الكتاب وقف الله تعالى له

مكتبة المسجد النبوي من مديرة و

السيرة محمد واعد أمين من الدار البيضاء

المغرب .

نحلب مقنت يتطلع عليه أو يستفيد منه الدماء

لنا بصلاح الدارين وحسن الخاتمة ولو الدنيا

بالمفخرة وحسن الثواب .

والله الموفق وعليه

البركات .

الأمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بَابُ الثَّاءِ

الثَّبَاتُ يَكْسِرُ الْوَثْبَاتِ.

الثَّبَاتُ : الرزانة والحلم، وهو ضد الخفة والطيش. والوَثْبَاتُ : جمع وثبة، وهي الصولة والانتقام . وهذا مثل ظاهر المعنى، وهو مصنوع فيما أظن.

أَثْقَفُ مِنْ سِنَوْرٍ.

يقال ثَقِفَ الرجل، بضم القاف، يَثْقِفُ ثَقَافَةً، فهو ثَقِيفٌ وثَقِيفٌ ؛ وثَقِفَ، بكسرهما، يَثْقِفُ ثَقَفًا، فهو ثَقِفٌ وثَقِفٌ، كَنَدَسَ وَنَدَسَ، إذا كان حاذقا فطنا خفيفا . ومنه، حديث أنس : وَكَانَ غُلَامًا ثَقِيفًا . السِّنَوْرُ، على وزن جِرْدَحْلٍ : الهريرُ المعروف، والأنثى سِنَوْرَةٌ، وله أسماء كثيرة، حتّى حكى أن أعرابيا صاده ولم يعرفه . فلقيه إنسان، فقال له : ما هذا السِّنَوْرُ ؟ ثمّ لقيه آخر، فقال : ما هذا الهريرُ ؟ ثمّ لقيه آخر، فقال : ما هذا القِطْ ؟ ثمّ آخر، ثمّ آخر . فلمّا رأى كثرة أسمائه ظنّ أنّ ذلك لخير عظيم فيه، فقال : أبيعك، لعنّ الله تعالى يبرزقني مالا كثيرا . فلمّا وقفه في السوق قيل له : بِكَمْ تَبِيعُهُ ؟ قال : بمائة دينار . فقيل له انه لا يساوي إلا نصف درهم . فرمى به وقال : لعنه الله ! ما أكثر أسمائه، وأقلّ بركته ! وهو في الخفّة وسرعة الاختطاف النهاية . فمن ثمّ ضُرب به المثل .

أَثْقَلُ رَأْسًا مِنْ فَهْدٍ.

الفَهْدُ، بفتح الفاء وسكون الهاء بعدها دال مهملة، الحيوان المعروف الذي يُتَصَيَّدُ به، وهو سَبْعٌ، يزعمون أنه متولّد من بين الأسد والنمر . وَفَهْدُ الرجل، بالكسر، تَشَبَّهَ بالفهد في نومه وتمدّده، كما في حديث أمّ زرع : إِنْ دَخَلَ فَهْدٌ، وَإِنْ خَرَجَ أَسَدٌ . ويقال فَهْدٌ أيضا إذا نام وتغافل عمّا يجب تعهده . والفهد كثير النوم ثقيله، ومن ثمّ قالوا : أَنُومٌ مِنْ فَهْدٍ، وَأَثْقَلُ رَأْسًا مِنْ فَهْدٍ.

مُنْقَلٌ اسْتَعَانَ بِذَقْنِهِ .

المُنْقَلُ، من الثَّقَلِ المذكور، وهو ضدُّ الخَفَّةِ . يقال : ثَقُلَ الشيء بالضمِّ ، يَثْقُلُ ، ثِقْلًا ، على مثال عِنَبٍ ، فهو ثَقِيلٌ ؛ وَثَقَلَهُ تَثْقِيلًا ؛ وَأَثَقَلَهُ . والاستِيعَانَةُ : طلب العون . والذَّقْنُ ، بفتحتين والذَّالَّ معجمة ، : مجمع اللحيين من أسفل .

يُضْرَبُ هذا المثلُّ للذليل يستعين بمثله أو أذلَّ منه . وأصله في البعير يحمل عليه ثقل فلا يستطيع أن ينهض به ، فيضرب بذقنه على الأرض ، معتمداً عليه ليقوم .

أَثَقَلُ مِنْ حَدِيثٍ مُعَادٍ .

الثَّقَلُ تقدَّم ؛ والحديث : الخبر ؛ والمعاد : الذي سمعته ثم أعيد عليك مرة أخرى ، فهو يثقل على السماع كثيراً لعدم الداعي الى سماعه ، مع الملك الحاصل للنفس من تكراره . والنفس ، للطافتها وروحانيَّتها ، أكثر من البدن تألماً بالاذاية وأقلَّ صبراً واحتمالاً ، فلا تكاد ترتاح إلا إلى ما فيه غذاؤها ، من علوم تستحصلها ، أو غرائب ولطائف تتفكَّه بها . فإذا عذمت ذلك غلبها الضجر ، ونفرت غاية النفر ؛ ومن ثمَّ تَسْتَثْقِلُ الكلام المعاد وتملَّ منه ، ولو كان في نفسه بليغاً عجيباً ، إذ لم يبق لها حظ فيه . وكان عدم الملك في كتاب الله تعالى ، مع معاودته على مرور الليالي والأيام ، معجزة ظاهرة للعيان ؛ ومن ثمَّ قيل : كُلُّ مُكَرَّرٍ مَمْلُوكٌ إِلَّا الْقُرْآنَ . ومما قيل في ثَقِيلٍ :

يَا ثَقِيلًا عَلَى الْقُلُوبِ إِذَا عَنَّ	لَهَا أَيَقْنَتَ بِطُولِ الْجِهَادِ !
يَا قَذَى فِي الْعَيُونِ يَا غَلَّةَ بَيْنِ	التَّرَاقِي حَرَارَةً فِي الْفُؤَادِ !
يَا طَلُوعَ الْعَذُولِ يَا بَيْنَ الْفِرِّ	يَا غَرِيمًا أَتَى عَلَى مِيعَادِ !
يَا رَكُومًا فِي يَوْمٍ غَيْمٍ وَصِيفٍ	يَا وَجْهَ التُّجَّارِ يَوْمَ الْكَسَادِ !
خَلُّ عَنَّا فَإِنَّمَا أَنْتَ فِينَا	وَأَوْعَمِّرُوْهُ وَكَالْحَدِيثِ الْمُعَادِ !
وَأَمْضِ فِي غَيْرِ صُحْبَةِ اللَّهِ مَا عَشْتَ	مُلَقًى مِنْ كُلِّ فَجٍّ وَوَادِ
يَتَخَطَّى بِكَ الْمَهَامِهِ وَالْبَيْدِ	دَلِيلٌ أَعْمَى كَثِيرُ الرُّقَادِ
خَلْفَكَ الثَّائِرُ الْمُصَمَّمُ بِالسَّيْفِ	وَرَجُلَاكَ فَوْقَ شَوْكِ الْقِتَادِ !

(1) في ج : يا قذى في العين.... وهو لا يستقيم وزنًا .

وقال بعضهم في صفة ثقيل : هو أثقل من دواء بلا علة ، وأبغض من خراج بلا غلة ؛ قد خرج عن حد الاعتدال، وذهب من ذات اليمين إلى ذات الشمال ؛ يحكي ثقل الحديث المعتاد، ويمشي على القلوب والأكياد ؛ إذا نظرت الى مشيته أنشدت : مَشَى فِدْعًا مِنْ ثِقْلِهِ الْحَوْتُ رَبَّهُ وقال : إلهي زِدْتِ الْأَرْضُ ثَامَنَهُ ! وقد يُستحسن إعادة الحديث، لا لذاته، بل لأمر عارض، فيه للنفس أرب، إمّا رغبة في كلام المتكلم خصوصاً، أو في نغمته، أو في النظر إليه، أو في دوام جلوسه، أو عدم قضاء الوطر من ذلك الكلام بعد أو نحو ذلك . ومن ثمَّ يُستعاد حديث المحبين والمغنين، كما قيل :

وَكُنْتُ إِذَا مَا جِئْتُ سَعْدَى أَزُورُهَا أَرَى الْأَرْضَ تَطْوِي لِي وَيَدْنُو بَعِيدُهَا
مِنْ الْخَفَرَاتِ الْبَيْضِ وَدَّ جَلِيسُهَا إِذَا مَا انْقَضَتْ أَحَدُوَّةٌ لَوْ تُعِيدُهَا
ولهذا الشعر حديث عجيب : ذكروا أنَّ رجلاً خرج في طلب إبل له أضلّها . قال : فبينما أنا
في واد إذ سمعت صوت منشد ينشد : وَكُنْتُ إِذَا مَا جِئْتُ سَعْدَى أَزُورُهَا
(البيتَيْن) . فدنوت من الصوت، فإذا أنا براعٍ قد ضمَّ غنماً له تحت شجرة وهو يترنم،
فسلمت عليه، فردَّ عليَّ السلام وقال : من الرجل ؟ فقلت : منقطع به المسالك، أتاكَ
يستعين بك ويستجير . فقال : أهلاً ومرحباً، انزل على الرحب ! فعندي وطاء وطبي، وطعام
غير بطي . فنزلت، فنزعت شملته، فبسطها تحتي، ثمَّ أتاني بتمر وزبد ولبن وخبز، ثمَّ
قال : اعذرنِي فِي هَذَا الْوَقْتِ ! فقلت : واللّه إنَّ هذا لخير كثير ! فمال إلى فرسي فربطه
وسقاه وعلق عليه . فلمَّا أَكَلْتُ صَلَّيْتُ وَاسْتَنْدَت . فبينما أنا بين النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ، إِذْ
أَقْبَلْتُ مِنْ فَوْقِ الْوَادِي جَارِيَةٌ أَطْلَعَتِ الشَّمْسُ لَغِيرِ أَوَانِ طُلُوعِهَا، فَوَثَبَ الْفَتَى إِلَيْهَا، وَجَعَلَ
يَقْبَلُ الْأَرْضَ حَتَّى وَصَلَ إِلَيْهَا . فَأَخَذَا فِي حَدِيثٍ مُسْتَلْذٍ، مَعَ شَكْوَى وَزَفَرَاتٍ، وَأَنَا
مُتَنَاوِمٌ، وَهَمَا لَا يَهْمُ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ بِقَبِيحٍ . وَلَمْ يَزَالَا كَذَلِكَ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَعَانَقَهَا
وَتَنَفَّسَ الصَّعْدَاءُ وَبَكِيَا، ثُمَّ قَالَ لَهَا : يَا ابْنَةَ الْعَمِّ، بِاللّهِ لَا تَبْطِئِي عَلَيَّ كَمَا أَبْطَأْتُ
الليلة ! فقالت : يَا ابْنَ الْعَمِّ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّي أَنْتَظِرُ الرِّقْبَاءَ وَالْوَشَاةَ حَتَّى يَنَامُوا ؟ فَوَدَّعَهَا
وَافْتَرَقَا، وَكُلٌّ مِنْهُمَا يَنْظُرُ لِصَاحِبِهِ وَيَبْكِي . فَبَكَيْتَ رَحْمَةً لَهَا ثُمَّ قَلْتُ فِي نَفْسِي :
أَسْتَضِيْفُهُ اللَّيْلَةَ الْآخَرَى حَتَّى أَنْظُرَ مَا يَكُونُ مِنْ أَمْرِهِمَا . فَلَمَّا أَصْبَحْنَا قُلْتُ لَهُ : جَعَلَنِي اللّهُ
فِدَاكَ، الْأَعْمَالُ بِخَوَاتِمِهَا، وَقَدْ نَالَني أَمْسٌ تَعَبٌ، وَأَحْبَبُّ أَنْ أُسْتَرِيحَ عِنْدَكَ الْيَوْمَ . فَقَالَ :

على الرحب والسعة ! لو بقيت عندي بقيّة عمرك ما وجدتني إلاّ كما تحب . فعمد إلى شاة، [فذبحها] وشواها، فقدّمها إليّ، فأكلت وأكل معي إلاّ أنّه [أكل] أكل من لا يريد أكلاً . فلم أزل معه نهاري ذلك، ولم أر أشفق منه على غنمه ولا ألين جانباً ولا أحلى كلاماً منه ؛ إلاّ أنّه كالولهان، ولم أعلمه بشيء ممّا رأيت . فلمّا أقبل الليل وطأ وطائي، وصليت وأعلمته أنني أريد الهجوم لتعبي . فقال : نَمْ هنيئاً ! فتناومت، فقام ينتظرها إلى هنيئة من الليل، وأبطأت . فلمّا حان وقت مجيئها قلق قلقاً شديداً، فبكى ثمّ جاء فحرّكني، فأوهمته أنني كنت نائماً، فقال : يا أخي، هل رأيت الجارية التي كانت تتعهدني وجاءتني البارحة ؟ قلت : قد رأيته . قال تلك ابنة عمّي وأعزّ الناس عليّ، وإنني لها محبّ وفيها عاشق، وهي كذلك وأكثر . ومنعني أبوها من تزويجها لفقرّي وفاقتي، وتكبّر عليّ، فصرت راعياً بسببها، فكانت تزورني كلّ ليلة . وقد حان وقت مجيئها، واشتغل قلبي عليها، وتحدّثني نفسي أن الأسد قد افترسها، ثمّ أنشأ يقول :

ما بالُ ميّة لا تأتي لعادتها ؟ أعاقها طربٌ أم شدّها شغل ؟
نفسى فداؤك قد أحلت بي سقمًا تكاد من حرّه الأعضاء تنفصل !
ثمّ ذهب فغاب عنّي ساعة، ثمّ أتى بشيء فطرحة بين يديّ، فإذا بالجارية⁽²⁾ قتلها الأسد وأكل أعضائها وشوّه خلقها . ثمّ أخذ السيف وانطلق . فغاب ساعة، فإذا هو قد جاء برأس الأسد، فطرحة ناحية ثمّ قال :

ألا أيّها اللّيث المدلّ بنفسه هلكت لقد جرّيت حقّاً لك الشرّاً !
أخلّقتني فردّاً وقد كنت أنيساً وقد عادت الأيام من بعدها صيفاً
ثمّ قال : بالّله يا أخي إلاّ ما سمعت منّي، فإنّي ميت لا محالة ! فإذا أنا متّ، فكفّتي في عبائتي، وضمّ [إليّ] ما بقي من أعضائها، وادفناً في قبر واحد . وخذ شويّهااتي هؤلاء وعصاي وثيابي، فسوف تأتيك عجوز، فأعطها ذلك فهي والدتي . وقل لها : مات ولدك كمداً، فإنّها تموت عند ذلك . فادفنها إلى جانب قبرنا، وعلى الدنيا [منّاً] السلام ! فلم يكن إلاّ قليلاً حتّى صاح صيحة، ووضع يده على صدره فمات من ساعته . ففعلت به جميع ما أوصاني، وبتّ حزينا [باكياً] فلمّا أصبحنا، أقبلت عجوز ولّهيّ، فسألتنّي عنه، فأخبرتها خبره، فجعلت تبكي حتّى إذا أقبل الليل شهقت شهقة فارقت

(2) في ج : فإذا أنا بالجارية...

الدنيا . فدفنتها إليه، وبتّ الليلة الرابعة . فلمّا أصبحت، ركبت فرسي، وسقت الغنم، وإذا أنا بهاتف يقول :

كُنَّا عَلَى ظَهَرِهَا وَالْدَّهْرُ يَجْمَعُنَا وَالشَّمْلُ مُجْتَمِعٌ وَالِدَارُ وَالْوَطَنُ
فَفَرَّقَ الدَّهْرُ بِالتَّفْرِيقِ الْفَتْنَا فَصَارَ يَجْمَعُنَا فِي بَطْنِهَا الْكَفَنُ
قال : فَأَتَيْتُ الْحَيَّ، وَدَفَعْتُ الْغَنَمَ لِبَنِي عَمِّهِمْ، وَأَنْصَرَفْتُ.

أَثْقَلَ مِنْ حِمْلِ الدُّهُيْمِ .

الثَّقْلُ تَقَدَّمَ ؛ وَالْحِمْلُ مَعْرُوفٌ ؛ وَالِدُّهُيْمُ عَلَى وَزْنِ زُبَيْرٍ :- اسم ناقة عمرو بن
الرَّيَّانِ الدُّهُلِيِّ، قَتْلُ هُوَ وَإِخْوَتُهُ، فَحُمِلَتْ رُؤُوسُهُمْ عَلَيْهَا . وَتَقَدَّمَتْ هَذِهِ الْقِصَّةُ فِي
حَرْفِ الْهَمْزَةِ، فَقَالُوا : أَشْأَمُ مِنَ الدُّهُيْمِ، وَأَثْقَلَ مِنْ حِمْلِ الدُّهُيْمِ .
وظاهر كلام الصحاح أنَّ قولهم للداهية الدُّهُيْمُ وأُمُّ الدُّهُيْمِ مأخوذ من هذا .

أَثْقَلَ مِنَ الزَّوَاقِي .

الثَّقْلُ مَرٌّ ؛ وَالزُّقَاءُ : الصِّيَاحُ . يُقَالُ : زَقَا الصَّدَا، يَزْقُو، وَيَزْقِي، زُقَاءٌ
وَزُقِيًّا إِذَا صَاحَ . قَالَ :

وَلَوْ أَنَّ لَيْلَى الْأَخِيلِيَّةَ سَلَّمَتْ عَلَيَّ وَفَوْقِي جَنْدَلٌ وَصَفَائِحُ
لَسَلَّمْتُ تَسْلِيمَ الْبَشَاشَةِ أَوْ زَقَى إِلَيْهَا صَدَى مِنْ جَانِبِ الْقَبْرِ صَائِحُ
وَالزَّوَاقِي فِي الْمَثَلِ : الدِّيَكَةُ، جَمْعُ زَاقٍ وَزَاقِيَّةٍ . وَكَانُوا يَسْمُرُونَ بِاللَّيْلِ، فَإِذَا صَاحَتْ
الدِّيَكَةُ تَفَرَّقُوا، فَيَسْتَقْبِلُونَهَا بِذَلِكَ فَقَالُوا : أَثْقَلَ مِنَ الزَّوَاقِي .

أَثْقَلَ مِنْ مُغْنٍ وَسَطٍ .

الثَّقْلُ مَرٌّ، وَالْمُغْنَى اسْمُ فَاعِلٍ مِنَ الْغِنَاءِ، بِالْمَدِّ، وَهُوَ الصَّوْتُ . وَالْوَسْطُ يَكُونُ
تَارَةً اسْمًا غَيْرَ وَصْفٍ . فَإِنْ كَانَ بِالتَّحْرِيكِ، فَاسْمٌ صَرِيحٌ لِمَا بَيْنَ طَرَفَيْ الشَّيْءِ ؛ وَإِنْ كَانَ
بِالسَّكُونِ فَظَرْفٌ، كَقَوْلِ عَنَتْرَةَ :

مَا رَاعَنِي إِلَّا حَمُولَةُ أَهْلِهَا وَسَطَ الدِّيَارِ تَسْفُ حَبَّ الْخِمْمِ
ويقال : كُلُّ مَوْضِعٍ صَلَحَ فِيهِ بَيْنَ فَهْوَ بِالتَّسْكِينِ، وَإِلَّا فَبِالْفَتْحِ . وَقِيلَ : هُمَا جَارِيَانِ فِيمَا

كان مصمتا كالحلقة ؛ فإن كان متباين الأجزاء فبالسكون فقط . قال صاحب الفصيح فيما يُثَقَّل ويُخَفَّف باختلاف المعنى : تقول جلس وسط القوم - يعني بينهم - أي بالتسكين؛ وجلس وسط الدار، واحتجم وسط رأسه، أي بالتحريك، وهذا الذي قلنا أولا . وقد يكون الوسط وصفا، إمّا بمعنى الأعْدَل، كقوله تعالى : **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا** ؛ وإمّا بمعنى المتوسط بين أمرين، ومنه المثل . قال السَّهْيَلِي : الوسط من أوصاف المدح والتفضيل، ولكن في موضعين : في ذكر النسب، وفي ذكر الشهادة . إمّا النسب فلأنَّ أوسط القبيلة أعرقها وأولاه بالصميم وأبعدها عن الأطراف وأجدر ألا تُضاف إليه الدعوة ، لأنَّ الآباء والأمّهات قد أحاطوا به من كلِّ جانب، فكان الوسط، من أجل هذا، مدحا في النسب بهذا السبب . وأمّا الشهادة فنحو قوله سبحانه : **قَالَ أَوْسَطُهُمْ . جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** . فكان هذا مدحا في الشهادة، لأنَّها غاية العدالة في الشاهد أن يكون وسطا كالميزان لا يميل مع أحد، بل يصمّم على الحقّ تصميمًا، لا يجذبه هوى ولا تميل به رغبة ولا رهبة من هاهنا ولا من هاهنا، فكان وصفه بالوسط غاية في التزكية والتعديل . وظنَّ كثير من الناس أنَّ معنى الأوسط الأفضل على الإطلاق، وقالوا : معنى الصلاة الوُسْطَى الفضلى . وليس كذلك، بل هو في جميع الأوصاف لا مدح ولا ذمّ، كما يقتضيه لفظ المتوسط . فإذا كان وسطا في السَّمْن، فهو بين المُمِخَّة والعجفاء، والوسط في الجمال بين الحسناء والشوّهاء، الى غير ذلك من الأوصاف، لا تعطى مدحا ولا ذما . غير أنَّهم قالوا في المثل : **أَثْقَلُ مِنْ مُغْنٍ وَسَطٍ عَلَى الذَّمِّ**، لأنه إن كان مُجيدا جدا أمتع وأطرب ؛ وإن كان باردا جدا أضحك وألهى، وذلك أيضا ممّا يُمتع . قال الجاحظ : « **وَإِنَّمَا الْكَرْبُ الَّذِي يَجْتُمُّ عَلَى الْقُلُوبِ وَيَأْخُذُ بِالْأَنْفَاسِ الْغِنَاءُ الْبَارِدُ الَّذِي لَا يُمْتَعُّ لِحَسَنِ وَلَا يُضْحَكُ بِلَهْوٍ** » انتهى . وقال ابن رشيّق : « **قال بعضهم : الشعر شعران : جيّد مُحَكَّكٌ، ورديّ مضحك . ولا شيء أثقلُ من الشعر الوسط، والغناء الوسط** » . وقد قال ابن الرومي يهجو ابن طيفور :

عَدِمْتُكَ يَا ابْنَ أَبِي الطَّاهِرِ وَأَطَعِمْتُ ثُكْلَكَ مِنْ شَاعِرِ
فَمَا أَنْتَ سَخَنٌ وَلَا بَارِدٌ وَمَا بَيْنَ هَذَا سِوَى الْفَاتِرِ
وَأَنْتَ كَذَاكَ تَغْثِي النَّفُوسَ تَغْثِيَةَ الْفَاتِرِ الْخَائِرِ

ونحو هذا قول الآخر⁽³⁾ :

مَسِيخٌ مَلِيخٌ كُلِّحُمُ الحَوَارِ فَلَا أَنْتَ حُلُوٌّ وَلَا أَنْتَ مُرٌّ !
وسياتي هذا المعنى بعد، إن شاء الله تعالى .

أَثْقَلَ مِنْ الْفِيلِ .

الثَّقَلُ مَرٌّ ؛ والفِيلُ، بالكسر، الحيوان المعروف، وثقله معروف . وممَّا قال بعض

الثقلاء يخاطب ثقيلًا :

أَنْتَ يَا هَذَا ثَقِيلُ	وَتَقِيلُ
أَنْتَ فِي الْمَنْظَرِ إِنْسَانُ	وَفِي الْمَخْبَرِ فِيلُ
لَوْ تَعَرَّضْتَ لِظِلِّ	فَسَدَ الظِّلُّ الظَّلِيلُ !

وقال الآخر :

فَمَا الْفِيلُ تَحْمِلُهُ مَيِّتًا بِأَثْقَلَ مِنْ بَعْضِ جُلَاسِنَا!
ويُحْكِي أَنَّ الْأَعْمَشَ كَانَ يَنْشُدُ هَذَا الْبَيْتَ عِنْدَمَا يَسْتَثْقِلُ جَلِيسًا، وَزَعَمُوا أَنَّهُ قَالَ : مَنْ
فَاتَتْهُ رَكَعَتَا الْفَجْرِ فَلْيَلْعَنِ الثَّقَلَاءُ ! وَأَنَّهُ نَقَشَ عَلَى خَاتَمِهِ : يَا مَقِيَّتِ، أَبْرَمْتَ فَقُمْ !
فَإِذَا اسْتَثْقَلَ جَلِيسًا نَاوَلَهُ إِيَّاهُ ؛ وَأَنَّهُ قَالَ لَهُ رَجُلٌ يَوْمًا : مِمَّ عَمَشْتَ عَيْنَاكَ ؟ فَقَالَ : مَنْ
النَّظَرُ إِلَى الثَّقَلَاءِ !

وَفِي حَقِّ الثَّقَلَاءِ قَالَ جَالِينُوسُ : لِكُلِّ شَيْءٍ حُمَّى، وَحُمَّى الرُّوحِ النَّظَرُ إِلَى الثَّقِيلِ .
وَقِيلَ لَهُ : لِمَ صَارَ الرَّجُلُ الثَّقِيلُ أَثْقَلَ مِنَ الْحَمْلِ الثَّقِيلِ ؟ فَقَالَ : لِأَنَّ ثِقْلَهُ عَلَى الْقَلْبِ دُونَ
الْجَوَارِحِ، وَالْحَمْلُ الثَّقِيلُ يَسْتَعِينُ الْقَلْبَ عَلَيْهِ بِالْجَوَارِحِ . وَقَالَ زِيَادُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ : قِيلَ
لِلشَّافِعِيِّ : هَلْ يَمْرُضُ الرُّوحُ ؟ قَالَ : نَعَمْ، مِنْ ظِلِّ الثَّقَلَاءِ . قَالَ : فَمَرَرْتُ بِهِ يَوْمًا وَهُوَ بَيْنَ
ثَقِيلَيْنِ، فَقُلْتُ لَهُ : كَيْفَ الرُّوحُ ؟ فَقَالَ : فِي النَّزَمِ !

كَانَ بَعْضُهُمْ إِذَا رَأَى ثَقِيلًا يَقُولُ : قَدْ جَاءَكُمْ الْجَبَلُ . فَإِذَا جَلَسَ قَالَ : قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ !
قِيلَ لِبَعْضِ الظُّرَفَاءِ، وَكَانَ لَهُ ثَلَاثَةُ بَنِينَ ثَقَلَاءَ : أَيْ بَنِيكَ أَثْقَلَ ؟ فَقَالَ : لَيْسَ بَعْدَ الْكَبِيرِ
أَثْقَلُ مِنَ الصَّغِيرِ إِلَّا الْوَسْطُ . وَكَانَ بَشَّارٌ يَأْتِيهِ ثَقِيلٌ يَقَالُ لَهُ أَبُو سَفْيَانَ . فَسَأَلَ عَنْهُ بِشَّارٌ

(3) هُوَ الْأَشْعَرُ الرِّقْبَانِ الْأَسَدِيُّ الْجَاهِلِيُّ يَخَاطَبُ رَجُلًا اسْمُهُ رِضْوَانٌ كَمَا فِي لِسَانِ الْعَرَبِ، وَذَكَرَ ثَلَاثَةَ أَبْيَاتٍ قَبْلَ الْبَيْتِ الْمَذْكُورِ هُنَا .
(انظر مادة مسخ).

يوما فقال : لا أدري لِمَ لا تحمل الأمانة أرض⁴ حملته، ولا كيف احتاجت الى الجبال بعدما أَقْلَتَتْه ! كأنَّ قربه أيَّام المصائب، وليالي النوائب ؛ وكأنَّ عشرته فقد الحباب، وسوء العواقب . ثمَّ أنشد :

رُبَّمَا يَثْقُلُ الْجَلِيسُ وَإِنْ كَانَ خَفِيفًا فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ
وَلَقَدْ قُلْتُ حِينَ وَتَدَ فِي الْبَيْتِ ثَقِيلٌ أَرْبَى عَلَى ثَهْلَانِ⁽⁴⁾
كَيْفَ لَا تَحْمِلُ الْأَمَانَةَ أَرْضُ حَمَلَتْ فَوْقَهَا أَبَا سُفْيَانَ ؟
وكان لبشار أيضا صديق يقال له هلال، فقال لبشار يوما : يا أبا معاذ ! إنَّ الله لم يذهب بصر أحد إلاَّ عَوْضَهُ منه شيئا، فما عَوْضُكَ ؟ قال : الطويل العريض . قال : وما هو ؟ قال : ألاَّ أراك ولا أرى الثقلأ أمثالك ! ثمَّ قال : ياهلال، أطيعني في نصيحة أخصك بها ؟ قال: نعم ! قال : إنَّك كنت تسرق الحمير زمانا، ثمَّ تت وصرت رافضيا ؛ فعُدْ إلى سرقة الحمير، فهي والله خير لك من الرفض ! وفي هلال هذا يقول بشار :

وَكَيْفَ يَحِقُّ⁽⁵⁾ لِي بَصْرِي وَسَمْعِي حَوْلِي عَسْكَرَانِ مِنَ الثَّقَالِ⁽⁶⁾
قُعُودًا عِنْدَ دَسْكَرَتِي وَدَارِي كَانَ لَهُمْ عَلَيَّ فُضُولٌ مَالِ ؟
إِذَا مَا شِئْتُ صَبَحَنِي هِلَالٌ وَأَيُّ النَّاسِ أَثْقَلُ مِنْ هِلَالِ ؟
واستأذن بعض الثقلأ على ابن المبارك، فلم يأذن له . فكتب إليه ذلك الثقيل :
هَلْ لِيذِي حَاجَةً إِلَيْكَ سَبِيلُ ؟ لَا طَوِيلٌ قُعُودُهُ بَكَ قَلِيلُ !
فأجاب ابن المبارك :

أَنْتَ يَا صَاحِبَ الْكِتَابِ ثَقِيلُ ! وَقَلِيلٌ مِنَ الثَّقِيلِ طَوِيلُ !
ووصف بعض الأذكياء ثقيلًا فقال : هو ثقيل السكون بغيب الحركة، كثير الشؤم قليل البركة، كأنَّه ثَقُلُ الدين، ووجع العين . وما أحقَّه بقول القائل :

ثَقِيلٌ يُطَالِعُنَا مِنْ أَمَمٍ إِذَا سَرَّهُ رَغَمٌ أَنْفِي أَلَمِ
لِنَظَرَتِهِ وَخَزَّةٌ فِي الْقُلُوبِ كَوْخَزِ الْمَحَاجِمِ فِي الْمُلتَزَمِ
أَقُولُ لَهُ إِذْ أَتَى : لَا أَتَى وَلَا حَمَلَتُهُ إِلَيْنَا قَدَمِ
عَدَمْتُ خَيْالَكَ لَا مِنْ عَمَى وَسَمِعَ كَلَامِكَ لَا مِنْ صَمَمِ !

(4) سقط هذا البيت الثاني من ج .

(5)

(6) سقط هذا البيت الأول من ج .

ووصف آخر ثقيلاً فقال : هو بين الجفن والعين قذاة، وبين القدم والنعل حصة . ما أشبهه طلعتَه إلا بِغَدَاةِ الفِرَاقِ، أو كتابِ الطَّلَافِ، أو طلعةِ الرقيب، أو موتِ الحبيب !

مُسْتَمِلٌ⁽⁷⁾ بِالْبُغْضِ لَا تَنْتَنِي إِلَيْهِ طَوْعًا لِحُظَّةِ الرَّامِقِ
يَظَلُّ فِي مَجْلِسِنَا مُبْرَمًا أَثْقَلَ مِنْ وَاشٍ عَلَى عَاشِقِ
وذكر عند العباس بن الحسن العلوي ثقيك يقال له أبو عمّار، [فقال]⁽⁸⁾ : ما الحمام على الاصرار، وحلول الدين على الاقتار، وشدة السقم في الأسفار، بأثقل على النفس من طلعة أبي عمّار . وأنشد :

تَحْمِلُ مِنْهُ الْأَرْضُ أَضْعَافَ مَا يَحْمِلُهُ الْحَوْتُ مِنَ الْأَرْضِ
وقال الآخر :

إِلْمَامُ كُلِّ ثَقِيلٍ قَدْ أَضْرَّ بِنَا
وَمَنْ يَخْفُ عَلَيْنَا لَا يَلِمُ بِنَا
وقال الآخر :

وَتَقِيلُ أَشَدَّ مِنْ ثِقَلِ الْمَوْتِ
لَوْ عَصَتْ رَبَّهَا الْجَحِيمُ لَمَا كَانَ
وقال جحظة البرمكي في صفة ثقيك :

يَا لَفُظَّةِ النَّعْيِ بِمَوْتِ الْخَلِيلِ
يَا شُرْبَةِ الْيَارِجِ يَا أَجْرَةَ الْمَنْزِلِ
يَا طَلْعَةَ النَّعْشِ وَيَا مَنْزِلًا
يَا نَهْضَةَ الْمَحْبُوبِ عَنْ غَضْبَةٍ
وَيَا كِتَابًا جَاءَ مِنْ مُخْلِيفِ
يَا بُكْرَةَ الثَّكْلَى إِلَى حُفْرَةٍ
يَا وَثْبَةَ الْحَافِظِ مُسْتَعْجِلًا
يَا وَقْفَةَ التَّوْدِيْعِ بَيْنَ الْحُمُولِ
يَا وَجْهَ الْعَدُوِّ الثَّقِيلِ
أَقْفَرُ مِنْ بَعْدِ الْأَنْبَاسِ الْحُلُولِ
يَا نِعْمَةَ قَدْ آذَنْتِ بِالرَّحِيلِ
لِلْوَعْدِ مَمْلُوءًا بِعُذْرٍ طَوِيلِ
مُسْتَوْدَعٌ فِيهَا عَزِيزُ الثَّكُولِ
بِصَرْفِهِ الْقَيْنَاتِ⁽⁹⁾ عِنْدَ الْأَصِيلِ

(7) في ج : مشتعل.... وهو تحريف.

(8) سقطت هذه الكلمة من ب .

(9) في ج : الغانيات بدل القينات، وهو لا يصح وزنًا.

ويا طبيبًا قَدْ أَتَى بَاكِراً
يا شَوْكَةً فِي قَدَمٍ رَخْصَةً
يا عِشْرَةَ الْمَجْدُومِ فِي رَحْلِهِ
يا رِدَّةَ الْحَاجِبِ عَنْ قَسْوَةٍ
وقال آخر في ثَقِيل :

لَيْسَ مِنَ النَّاسِ وَلَكِنَّهُ
أَثْقَلُ فِي أَنْفُسِ أَصْحَابِهِ
وقال آخر :

يَا مَنْ تَبَرَّمْتَ الدُّنْيَا بَطَلَعَتِهِ
إِنِّي لِأَذْكُرُهُ حِينَئِذَا فَاحْسَبُهُ
وقال آخر :

نَظَرُ الْعَيْنِ نَحْوَهُ - عِلْمُ اللَّهِ - يُمْرِضُ
فَإِذَا مَا أَرَدْتُمْ أَنْ تَرَوْهُ فَغَمَضُوا
لَا تُصِيبُكُمْ مُلِمَّةٌ وَالْمُلِمَّاتُ تَعْرِضُ
وقال آخر :

شَخْصُكَ فِي مُقَلَّةِ النَّدِيمِ أَوْحَشُ مِنْ نَحْسَةِ النُّجُومِ
يَا رَجُلًا وَجْهُهُ عَلَيْنَا أَثْقَلُ مِنْ مِثَّةِ التَّلِيمِ
إِنِّي لِأَرْجُو بِمَا أَقْصَى مِنْكَ خَلَاصِي مِنَ الْجَحِيمِ
والشعر في هذا المعنى كثير . وقد قال المفسرون نزلت آية في الثقلاء : فَإِذَا طَعِمْتُمْ
فَانْتَشِرُوا . أدَّ بهم الله بذلك . وكان حماد بن سلمة إذا رأى ثَقِيلًا قال : رَبَّنَا
اكَشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ . وذكر الأعمش ثَقِيلًا كان يجلس إلى جانبه فقال :
والله إِنِّي لِأُبْغِضُ شَقِيَّ الذي يليه منِّي . وقال سهل بن هارون : مَنْ ثَقُلَ عَلَيْكَ
بِنَفْسِهِ ، وَأَغْمَكَ بِحَدِيثِهِ أَوْ سَوَّاهُ ، فَأَعْرَهْ عَيْنَا عَمِيَاءَ ، وَأَذْنَا صَمَاءَ . وأنشد أيضا في ذلك
هَذَا فَتَى أَثْقَلُ مِنْ أَحَدٍ يُصْبِحُ مَنْ يَلْقَاهُ فِي جُهْدِ
عَلَامَةِ الْبُغْضِ عَلَى وَجْهِهِ بَيِّنَةٌ مُذْ كَانَ فِي الْمَهْدِ

(10) في ج : نفوس بدل أنفس ، وراس بدل راسي .

لَوْ دَخَلَ النَّارَ طِفْلاً حَرًّا وَمَاتَ مَنْ فِيهَا مِنَ الْبَرْدِ !
وفي الاستبراد قال آخر في قينة :

وَلَوْ مَازَجَ النَّارَ فِي حَرِّهَا حَدِيثُكَ أَخْمَدَ مِنْهَا اللَّهَبُ
وقال كشاجم⁽¹¹⁾ :

غِنَاءُ بَرِيحٍ بِأَرْضِ الْحِجَازِ يَطِيبُ وَأَمَّا بِحِمَصٍ فَلَا
لِبَرْدِ الْغِنَاءِ وَبَرْدِ الْهَوَاءِ فَإِنْ جُمِعَا خِفْتُ أَنْ يَقْتُلَا
ولقي برد الخيار المغنّي أبا العباس المبرّد على الجسر في يوم ثلج، فقال له : أنت
المبرّد، وأنا برد الخيار، واليوم كما ترى، اعتزلنا لا يهلك الناس الفالج بسببنا . وأذكرني
هذا قول ابن الخطيب :

(بياض بمقدار نصف صفحة في النسخ كلها)

تُكَلُّ أَرْأَمَهَا وَلَدًا.

التُّكَلُّ، بضمّ التاء : الهلاك والموت وفقد الأحبة وفقد الأولاد، وهذا هو الكثير
الاستعمال . يقال : تَكَلَّه، بكسر الكاف تُكَلَّا، فهو تَكَلَّان، وهي تُكَلَّى، مثل
سَكْرَى . قالت الحماسية :

سَيَتْرَكُهَا قَوْمٌ وَيَصِلَى بِحَرِّهَا بَنُو نِسْوَةٍ لِلتُّكَلِّ مُصْطَبِرَاتٍ
ويُحْكِي أَنَّ عُمَيْرَ بْنَ جُنْدُبٍ مَاتَ قُبَيْلَ الْإِسْلَامِ . فجهّزوه، ثمّ كشف القناع عن رأسه
فقال : أين القُصْلُ ؟ والقُصْلُ بالقاف على الصحيح، وبالصاد المهملة واللام - على مثال
صُرْد - وهو أحد بني عمّه . فقالوا : سبحان الله ! مرّ أنفا فما حاجتك إليه ؟ فقال :
أَتَيْتُ فَقِيلَ لِي : لَأَمْكُ الْهَبَلُ ! ألا ترى إلى حفرتك تَنْثَلُ، وقد كادت أَمْكُ تَتُكَلُّ ؟
أَرَأَيْتَ إِنْ حَوَّلْنَاكَ إِلَى مُحَوَّلٍ، ثُمَّ غُيِّبَ فِي حَفْرَتِكَ الْقُصْلُ، الَّذِي مَشَى فَاحْزَأَلَّ،
ثُمَّ مَلَأْنَاهَا مِنَ الْجَنْدَلِ ؟ أَتَعْبُدُ رَبَّكَ وَتُصَلِّ، وَتَتْرَكَ سَبِيلَ مَنْ أَشْرَكَ وَضَلَّ ؟
فقلت : نعم ! فأفاق عمير وتزوَّجَ ووُلِدَ لَهُ الْأَوْلَادُ . ولبث القُصْلُ ثَلَاثًا ثُمَّ مَاتَ، وَدُفِنَ
فِي قَبْرِ عُمَيْرِ.

(11) تحرف في ب إلى كاشم.

وقالت أسماء المربية :

أَيَا جَبَلِيَّ وَادِي عُرْيَعَرَةَ الَّتِي
أَلَا خَلِيًّا مَجْرَى الْجَنُوبِ لَعَلَّهُ
وَكَيْفَ تُدَاوِي الرِّيحَ شَوْقًا مُمَاطِلًا
وَقُولَا لِرُكْبَانِ تَمِيمِيَّةٍ غَدَتُ
بَأَنَّ بَاكَنَافِ الرِّغَامِ غَرِيبَةً
مُفَجَّعَةً أَحْسَاؤُهَا مِنْ جَوَى الْهَوَى
وَالْإِرَامُ : التَّحْبِيبُ وَالتَّعْطِيفُ . يَقَالُ : رَأَيْتُ فُلَانًا كَذَا بِالْكَسْرِ ، يَرَأُوهُ : أَحَبَّهُ وَأَلِفَّهُ ؛
وَرَأَيْتُ النَّاظِقَ وَلَدَهَا ، رَأَيْتُنَا : عَطَفْتُ عَلَيْهِ ؛ وَأَرَأَيْتُهَا : عَطَفْتُهَا عَلَى غَيْرِ وَلَدِهَا
أَوْ عَلَى الْبَوِّ ، وَهُوَ الْجِلْدُ يُحْشَى لَهَا لِتَنْدِرَ عَلَيْهِ . قَالَ :

رَأَيْتُ لِسَلَمَى بَوَضَّيْمٍ وَإِنِّي قَدِيمًا لِلْأَبِيِّ الضَّيْمِ وَابْنُ أَبَاةٍ
وَقَالَ الْحَمَاسِيُّ :

وَمَوْلَى جَلْتُ عَنْهُ الْمَوَالِي كَأَنَّهُ
رَأَيْتُ إِذَا لَمْ تَرَأِ الْبَارِكُ ابْنَهَا
وَقَالَ الْآخَرُ :

أَتَى جَزْوًَا عَامَرًا سُوءًا بِفِعْلِهِمْ
أَمْ كَيْفَ يَنْفَعُ مَا تُعْطَى الْعُلُوقُ بِهِ
وَالْوَلَدُ مَعْرُوفٌ . وَالْمَثَلُ لِبَيْهَسَ الْمَعْرُوفِ بِنِعَامَةٍ . وَكَانَ مِنْ حَدِيثِهِ أَنَّهُ خَرَجَ مَعَ إِخْوَةٍ لَهُ
سَبْعَةٍ ، فَلَقِيَهُمْ قَوْمٌ فِي مَوْضِعٍ يَقَالُ لَهُ الْأَثَلُ ، فَقَتَلُوهُمْ إِلَّا بَيْهَسًا ، وَكَانَ أَصْغَرَهُمْ .
فَاسْتَحْقَرُوهُ وَاسْتَبْقَوْهُ ، ثُمَّ احْتَمَلُوهُ مَعَهُمْ حَتَّى إِذَا قَامَ قَائِمُ الظَّهِيرَةِ نَزَلُوا فَنَحَرُوا نَاقَةً مِنْ
وَسِيقَتِهِمْ فَأَكَلُوا مِنْهَا ، ثُمَّ قَالَ قَائِلُهُمْ : ظَلَّلُوا لِحْمَ جَزْوَركم ! فَقَالَ بَيْهَسُ : لَكِنْ
عَلَى الْأَثَلِ لَحْمٌ لَا يُظَلَّلُ⁽¹²⁾ . يَعْنِي لِحُومَ إِخْوَانِهِ الْمَقْتُولِينَ . فَأَرْسَلَهَا مَثَلًا .
فَقَالَ أَحَدُهُمْ : إِنِّي لَأَسْمَعُ مِنْ هَذَا الْأَنْبِيسِيَّانِ أَمْرًا يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ وَرَاءَهُ شَرٌّ : فَاقْتَلُوهُ !
فَقَالَ زَعِيمُهُمْ : أَيْعَدُّ عَلَيْنَا [هَذَا] بِقَتْلِكَ ؟ خَلَّوْهُ لَصَغَرِ سَنِهِ ، فَهُوَ أَحَقُّ مِنْ ذَلِكَ !
فَاحْتَمَلُوهُ حَتَّى إِذَا بَلَغُوا بِهِ سَمَتَ الْحَيِّ قَالُوا لَهُ : ائْتِ أَهْلَكَ وَانْعَمِ إِخْوَتَكَ ! فَانْطَلَفَ

(12) الرواية المشهورة لهذا المثل : « لَكِنْ بِالْأَثَلِ لَحْمًا لَا يُظَلَّلُ » .

حتَّى دخل على أمّه، فقالت له : أين إخوتك ؟ قال : قُتِلُوا . فقالت : وما الذي أتى بك دونهم ؟ فقال لها : لَوْ خَيْرَكِ الْقَوْمُ لاختَرْتِ ! فأرسلها مثلا . وكانت تبغضه لكثرة شرّه، وتحبّ إخوته . فلما فقدتهم أَحَبَّتْهُ ورَكِمَتْهُ . فقال حينئذ : ثُكُلُ أَرَامَهَا وَلَدًا، أي ما عطفها على هذا الولد - يعني نفسه - ولا رَقَقَهَا عليه ولا أَلْفَهَا إِيَّاهُ إِلَّا ثُكُلَهَا أولادها الباقين، وفقدتها أولادها المحبوبين . ومضرب المثل من هذا المعنى ظاهر . ثم جمعت له أمّه تَرَاثَ إِخْوَتِهِ وأعطته إِيَّاهُ . فجعل يدير فيه وكان يقول : يَا حَبْدَا التَّرَاثُ لَوْلَا الذَّلَّةُ ! فسارت مثلا . وصنع بعض أهل الحِوَاء عرسًا وحضره صبيان الحيّ، فلما رَأَهُم بِيْهَسَ يلعبون، تجرَّد عن ثيابه وجعل يرقص معهم . فأنته أمّه فقالت له : ما هذا يا بيهس ؟ [فقال] :

النَّبَسُ لِكُلِّ حَالَةٍ لِبُوسِهَا إِمَّا نَعِيمِهَا وَإِمَّا بُوسِهَا ! فذهبت مثلا . فبينما هو ذات يوم يرعى غنما له إذ ألجأه الحرّ إلى غار يستظل فيه . فرأى قتلة إخوته، وهم عشرة، قد عقلوا إبلهم على طرف الغار وقالوا . فخلّى غنمه وبادر إلى الحيّ، فأخذ سلاحه وأتى خلاّ له يقال له أَبُو حَنْشٍ⁽¹³⁾ وكان جباناً . فقال له : أبا حنش هك لك في طباء تصطادهنّ ألجأهنّ الحرّ إلى غار ؟ قال : نعم . قال : فتَنَكَّبْ قَوْسَكَ وَحِيَّهَلَا ورائي ! فأقبل به حتّى هجم على فم الغار . وخاف بيهس أن يهرب خالّه، فصاح على القوم حتّى ثاروا . فتقدّم بيهس وتبعه خاله، علماً منه أنّه غير ناجٍ إن فرّ، وقتلا القوم ورجعا بسلاحهم إلى الحيّ، وقد ثار بيهس بإخوته . فكان من لقي خاله يقول له: ما أشجعك أبا حنش ! فيقول له : مُكْرَهُ أَخَاكَ لَا بَطْل ! فذهبت مثلا . ويقال إنّ مُدْرَكِي الأوتار في الجاهليّة ثلاثة : قَصِير بن سعد - وتقدّم أمره - وسيف بن ذي يَزَن الحِمِيرِي - وسنذكره - وبيهس هذا . قال الشاعر :

وَمِنْ طَلَبِ الأوتارِ مَا حَزَّ أَنْفَهُ قَصِيرٌ وَخَاضَ المَوْتَ بالسَّيْفِ بِيْهَسُ⁽¹⁴⁾
وَإِنَّمَا لُقِّبَ بنِعَامةٍ لَطُولَ رَجُلَيْهِ ، فرأته أمّه يوماً فقالت : نِعَامةٌ وَاللَّهِ ! فقال : نِعَامةٌ عرفتني، نَسَاها اللَّهُ ! أي أَخَرَهَا فِي أَجْلِهَا . وقيل لَصَمَمِهِ، وكان أصمّ أصلاً، والعرب

(13) في مخطوطاتنا : أبوحش، وفي مجمع الامثال : أبو حنش، وقد اخترناه لأن « حش » اسم موضع لا اسم انسان فيما نعرف .

(14) بعد هذا البيت :
نِعَامةٌ لِمَا صَرَّعَ القَوْمُ رَهْطَهُ تَبَيَّنَ فِي أَثَوَابِهِ كَيْفَ يَلْبَسُ
ويظهر أن هذا البيت سقط من النسخ، لأن اليوسي شرح عقبه سبب تلقب بيهس بالنِعَامة .

تصف النعام بذلك، يزعمون أنه مُصَلَّمٌ لا أذن له ولا يسمع الأصوات، إمّا حقيقة أو إنّه لا يلتفت إليها . قال علقمة يصف الظلّيم :

فُوهُ كَشَقِّ الْعَصَا لَأَيَّا تَبَيَّنَهُ أَسَكُّ مَا يَسْمَعُ الْأَصْوَاتَ مَصْلُومُ
وقال زهير :

كَأَنَّ الرَّحْلَ مِنْهَا فَوْقَ صَعْلٍ مِنَ الظَّلْمَانِ جُوجُؤُهُ هَوَاءُ
أَسَكُّ مَصَلَّمُ الْأَذْنَيْنِ أَجْنَى لَهُ بِالسَّيِّئِ تَنْتُومُ وَأَءُ
وقال عنترة :

فَكَأَنَّنِي أَطِيسُ الْإِكَامَ عَشِيَّةً بِقَرِيبٍ بَيْنَ الْمَنَسِمِينَ مُصَلَّمُ⁽¹⁵⁾

الثَّورُ يَحْمِي أَنْفَهُ بِرَوْقِهِ.

الثَّورُ، بفتح الثاء وسكون الواو، معروف، يطلق على الانسي والوحشي . والحماية : المنع والحفظ، يقال : حَمَاهُ من كذا يَحْمِيهِ، منعه وحفظه . والرَّوْقُ، بالفتح، القرنُ . قال امرؤ القيس :⁽¹⁶⁾

والمعنى أَنَّ الثور يدافع عن نفسه بقرنه، فيُضْرَبُ في الحثِّ على حفظ الحريم، والذب بما أمكن . وتقدّم في كلام عمرو بن أمّارة حيث قال :

لَقَدْ عَرَفْتُ الْمَوْتَ قَبْلَ ذَوْقِهِ : إِنَّ الْجَبَانَ حَتَفَهُ مِنْ فَوْقِهِ
كُلُّ أَمْرٍ مَقَاتِلٌ عَنْ طَوْقِهِ كَالثَّورِ يَحْمِي أَنْفَهُ بِرَوْقِهِ
وفي خبر ابن إسحاق عن عائشة أمّ المؤمنين، رضي الله عنها، قالت : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قدمها وهي أوبأ أرض الله من الحمى . فأصاب أصحابه منها بلاء، وصرف الله ذلك عن نبيّه . قالت : فكان أبو بكر، وعامر بن فهيرة وبلال مولى أبي بكر في بيت واحد، فأصابتهم الحمى . فدخلت عليهم أعودهم، وذلك قبل أن يُضْرَبَ علينا الحجاب، وبهم مالا يعلمه إلا الله من شدة الوعك . فدنوت من أبي بكر، فقلت له : كيف تجدك يا أبت ؟ قال :

(15) ورد صدر هذا البيت في الشعر الجاهلي هكذا : فكَأَنَّنِي أَقِطُ الْإِكَامَ... والوقط والوطس متقاربان في بعض معانيهما . لكن عنترة كثيراً ما يستعمل الوطس في شعره، كقوله :

خَطُّ غَابَةِ غَيْبِ السُّؤْرِى مَوَارَةً تَطِيسُ الْإِكَامَ بِذَاتِ خُفٍّ مَيْثَمَ

(16) بياض في ب و د . ولم يرد في ج اسم امرئ القيس .

كلُّ امرئٍ مَصَبَحٌ في أهله والموتُ أدنى من شراكِ نَعْلِهِ
قالت : فقلت والله ما يدري أبي ما يقول ! قالت : ثمَّ دنوتُ إلى عامر بن فهيرة ففنت :
كيف تجدك يا عامر ؟ فقال :

لقد وجدتُ الموتَ قبلَ ذوقِهِ إِنَّ الجَبَانَ حتْفُهُ من فوقِهِ
كلُّ امرئٍ مُجَاهِدٌ بِطَوْقِهِ كالثَّورِ يَحْمِي جِلْدَهُ بِرَوْقِهِ
قالت : فقلت والله ما يدري عامر ما يقول ! قالت : وكان بلال إذا تركته الحمى اضطجع
بفناء البيت، ثمَّ رفع عقيرته فقال :

ألا ليت شعري هك أبيتنَّ ليلةً بوادٍ وحولي إذْخِرٌ وجليلُ ؟
وهك أردنَ يوماً مياهَ مجنَّةٍ وهك يبدونَ لي شامةً وطفيلُ ؟
قالت : فذكرتُ لرسول الله، صلَّى الله عليه وسلَّم، ما سمعتُ منهم وقلت : إنَّهم
ليَهْذُون وما يَعْقِلُونَ من شدَّة الحمى . فقال رسول الله، صلَّى الله عليه وسلَّم :
اللهمَّ حبِّب إلينا المدينة كما حبَّبت إلينا مكَّة أو أشدَّ، وبارك لنا في مُدَّها
وصاعِها، وانقلُ وباءها إلى مَهْيَعَةٍ . ومَهْيَعَةُ الجُحْفَةُ.

والظاهر أنَّ عامراً، رضي الله عنه، تمثَّل بالشعر وإن كان فيه بعض مخالفة . وبعد كتبي
هذا رأيت السهيلي قال : يُذكر أن قول عامر : لَقَدْ وَجَدْتُ المَوْتَ قَبْلَ ذَوْقِهِ، أنَّه
لعمر بن أمامة . انتهى . وهو ما استظفرناه قبل . وقول بلال : بِيوَادٍ، يُروى بفخٍّ أيضاً،
وفخٍّ موضع بمكة فيه ماء، وفيه اغتسل رسول الله، صلَّى الله عليه وسلم وهو مُحَرَّمٌ
لدخول مكة، وفيه قال الشاعر :

ماذا بفخٍّ مِنَ الاشراقِ والطَّيبِ وَمِنْ جِوَارِ نَقِيَّاتِ رَعَابِيْبِ !
ومجنَّة سوقٌ من اسواق العرب ؛ وشامة وطفيل عيان من ماء، وقيل جبلان . قال
السهيلي : وفي هذا الخبر وما ذُكر من حنينهم إلى مكة، ما جُبِلت عليه النفوس من حب
الوطن والحنين إليه، وما كانوا عليه من الحنين إلى الاوطان الذي هو جبلَّة في البشر كما
رُوي في حديث أصيَّك الغِفاري - ويقال فيه الهذلي - حين قدَّم مكة، فسألته عائشة :
كيف تركت مكة يا أصيَّك ؟ فقال : تركتها قد ابيضَّت أباطِحُها، وأحجَرَ ثَمَامُها،
وأعَذَقَ إذْخِرُها، وأمَشَرَ سَلْمُها، فاغْرُورَقَ عينا رسول الله، صلَّى الله عليه

وسلّم، وقال : لا تُشَوِّقُنَا يَا أَصِيكَ ! وَيُرَوَّى أَيْضَا أَنَّهُ قَالَ لَهُ : دَمِ الْقُلُوبَ تَقَرِّ !
وفي هذا المعنى قول الآخر :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبَيْتَنَ لَيْلَةً بوادي الخُزَامِي حَيْثُ رَبَّتَنِي أَهْلِي
بِلَادٍ بِهَا نَيْطَتْ عَلَيَّ تَمَائِمِي وَقُطِّعُنْ عَنِّي حِينَ أَدْرَكَنِي عَقْلِي
انتهى كلا السهيلي . وهذا المعنى مستوفى في هذا الكتاب في غير هذا الموضع .

ثَارَ حَابِلُهُمْ عَلَى نَابِلِهِمْ

الثَّوْرُ : الهَيَجَانُ والوَثْبُ : ثَارَ، يَثُورُ، ثَوْرًا، فَهُوَ ثَائِر . وَاثْرَتُهُ،
وَتَوَرَّتُهُ، وَاسْتَثْرَتُهُ .

والحَابِلُ يُطْلَقُ عَلَى مَنْ شَدَّ الشَّيْءَ بِحَبْلٍ، وَمِنْهُ الْمَثَلُ الْآتِي : يَا حَابِلُ اذْكُرْ حَلَاةَ !
وعلى مَنْ نَصَبَ الْحَبَالَةَ لِلصَّيْدِ أَوْ أَخَذَهُ فِيهَا . يُقَالُ : حَبَلَ الصَّيِّدَ وَاحْتَبَلَهُ : إِذَا
أَخَذَهُ أَوْ نَصَبَ لَهُ . وَالنَّابِلُ وَالنَّبَالُ : صَاحِبُ النَّبْكِ وَصَانِعُهُ . وَالنَّبْكَ : السَّهْمُ قَالَ
أَمْرُ الْقَيْسِ :

نَطَعْنُهُمْ سُلْكَى وَمَخْلُوجَةً كَرَكًا لِأَمِينٍ عَلَى نَابِلٍ
أَيُّ نَطَعْنُهُمْ طَعْنًا مُسْتَقِيمًا وَطَعْنًا مُعْجَاجًا مِنْ كُلِّ وَجْهِ . كَرَكًا لِأَمِينٍ، أَيُّ كَرَدَكٍ
لَأَمِينٍ، أَيُّ سَهْمَيْنِ، عَلَى نَابِلٍ، أَيُّ عَلَى رَاحِمٍ بِهِمَا فِي السَّرْعَةِ . وَقَالَ أَيْضَا :
وَلَيْسَ بَذِي رُمَحٍ فَيَطْعَنُنِي بِهِ وَلَيْسَ بَذِي سَيْفٍ وَلَيْسَ بِنَبَالٍ
وَيُقَالُ إِنَّ الْحَابِلَ فِي هَذَا الْمَثَلِ السَّدَى، وَالنَّابِلُ الطُّعْمَةُ : فَإِذَا قِيلَ فِي الْقَوْمِ إِنَّهُمْ ثَارَ
حَابِلُهُمْ عَلَى نَابِلِهِمْ كَانَ مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ اسْتَجَرُوا وَأَوْقَدُوا الشَّرَّ فِيمَا بَيْنَهُمْ .

ومِمَّا يَلْتَحِقُ بِهَذَا الْبَابِ قَوْلُكَ : أَثْقَلُ مِنَ الْحَدِيدِ، وَمِنْ الرِّصَاصِ، وَمِنْ حُلُولِ
الدَّيْنِ . مَعَ الْاِقْتَارِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَهُوَ مَطَرَّدٌ . وَقَوْلُهُمْ :

ثُلَّ عَرْشُ فُلَانٍ إِذَا هَوَى⁽¹⁷⁾ أَمْرُهُ وَتَضَعُضَ عِزُّهُ وَذَهَبَ مَلَكُهُ . قَالَ زَهِيرٌ :
تَدَارَكْتُمَا الْأَخْلَافَ قَدْ ثُلَّ عَرْشُهُمْ وَذُبْيَانٌ قَدْ زَلَّتْ بِأَقْدَامِهَا النَّعْلُ
وَتُلَّ اللَّهْ عَرْشُهُ : فَعَلَ بِهِ ذَلِكَ . قَالَ الْآخَرُ :

(17) فِي ج : وَهَى .

إن يَقْتُلوكَ فقد ثَلَّتْ عُرُوشَهُم بِعُتَيْبَةَ بنِ الحارثِ بنِ شِهَابٍ
والعرشُ سريرُ الملك، وسقف البيت، والعزّ، وقوام الأمر. ومنه ما ذكر.

ولنذكر بعض ما تيسر من الشعر . قال ابن الرومي :

يا مادمَ الحِقْدِ مُحْتالاً له شُبْهًا لَقَدْ سَلَكْتَ إِلَيْهِ مَسْلكًا وَعَثَا
يا دافنَ الحِقْدِ فِي ضِعْفِي حَوَانِحِهِ سَاءَ الدَّفْنِ الَّذِي أَضْحَتْ لَهُ جَدَثَا
الحِقْدُ داءٌ دَوِيٌّ لَا دَوَاءَ لَهُ يُدَوِي الصُّدُورَ إِذَا مَا جَمَرَهُ حُرْتَا
فَاسْتَشْفَيْنَهُ بِصَفْحٍ أَوْ مُعَاتَبَةٍ فَإِنَّمَا يُبْرِئُ الْمَصْدُورَ مَا نَفِثَا
إِنَّ الْقَبِيحَ وَإِنْ ضِيَعَتْ ظَاهِرُهُ يَعُودُ مَا لَمْ مِنْهُ مَرَّةٌ شَعَثَا
كَمْ زَخْرَفَ الْقَوْلُ ذُو زُورٍ وَلَيْسَهُ عَلَى الْقُلُوبِ وَلَكِنْ قَلَّ مَا لَبِثَا

وإنَّمَا قال ذلك لَأَنَّهُ قال أَيْضاً فِي مَدْحِ الحَقْدِ :

لئن كُنْتُ فِي حَفْظِي لَمَّا أَنَا مَوْدَعٌ مِنْ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ انْتَحَيْتُ عَلَى عَرْضِي
لَمَّا عِبَيْتَنِي إِلَّا بِفَضْلِ أَمَانَةٍ وَرَبِّ أَمْرٍ يَزْرِي عَلَى خُلُقٍ مُحْضٍ
وَلَوْلَا الْحَقُودُ الْمُسْتَكْنَاتُ لَمْ يَكُنْ لِيَنْقُضَ وَتَرًا آخِرَ الدَّهْرِ ذُو نَقْضٍ
وَمَا الْحَقْدُ إِلَّا تَوَامٌ الشُّكْرِ فِي الْفَتَى وَبَعْضُ السَّجَايَا يَنْتَسِبُنَ إِلَى بَعْضٍ
فَحَيْثُ تَرَى حَقْدًا عَلَى ذِي إِسَاءَةٍ فَثُمَّ تَرَى شُكْرًا عَلَى حَسَنِ الْقَرْضِ

وأخذ ذلك من قول ابن صالح، حين أتى به الرشيد وهو في قيوده، فقال له يحيى بن خالد - وأراد أن يسكته - : بلغني أنك حقود ! فقال له : أيها الوزير، إن كان الحقد هو بقاء الخير والشر، إنَّهما لباقيان في قلبي ! ويروى أَنَّهُ قال له : إنَّما صدري خزانة لحفظ ما استودعت من خير وشر . فقال الرشيد : تالَّه ما رأيت أحدا احتجَّ للحقد بمثل ما احتج به ! وقال الآخر :

ما طابَ فَرَعٌ أَصْلُهُ خَبِيثٌ وَلَا زَكَا مَنْ مَجْدُهُ حَدِيثٌ
وقال الآخر :

إِنَّ قَوْمًا يَلْحُون فِي حُبِّ سَعْدَى لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا
سَمِعُوا وَصَفَهَا فَلَامُوا عَلَيْهَا أَخَذُوا طَيِّبًا وَأَعْطَوْا خَبِيثًا

وتقدّم هذا المعنى قبل مستوفى.

وقال أبو دلالة⁽¹⁸⁾ :

إنَّ النَّاسَ غَطَّوْنِي تَغَطَّيْتُ عَنْهُمْ وَإِنْ بَحَثُوا عَنِّي ففِيهِمْ مَبَاحُثُ
وكانت لرجل عنده شهادة في حقّ، فلمّا طلبه بالأداء قال له : إنَّ شهادتي لا تنفك عند
القاضي . فقال له الرجل : لا بدّ من شهادتك ! فشهد أبو دلالة وانصرف وهو يقول الشعر
المذكور . فحكم القاضي بشهادته، وغرّمَ المشهود عليه المال حتّى قبضه المشهود له،
فغرمه القاضي للمشهود عليه خوفا من ظلمه ليجمع بين المصلحتين . وقيل إنَّ أبا دلالة
استأجر طبيبا ليعالج ابنًا له بمبلغ من الأجرة، فلمّا داواه قال للطبيب : إنّه ليس عندي ما
أعطيك، ولكن اذهب وادّع بهذا المبلغ على من شئت ! وقيل إنّه قال له ادّع على فلان
اليهودي [به]، وأنا وابني نشهد لك ! فادّعى الطبيب على اليهودي، فجاء أبو دلالة
وابنه يشهدان له عند القاضي ابن أبي ليلي - أو ابن أبي شبرقة - فلمّا علم أبو دلالة أنّ
القاضي لا يجيز شهادتهما أنشد بحيث يسمعه القاضي ما مرّ . فلمّا سمع القاضي ذلك
حكم بشهادتهما خوفاً من أذاه، وغرّم ذلك المبلغ للمحكوم عليه، واللّه أعلم.

ومن هذا المعنى ما ذكر ابن رشيق عن العتبي من أنّ رجلا من أهل المدينة ادّعى حقّا على
رجل، فدعاه إلى ابن حنطب، قاضي المدينة، فقال : من يشهد بما تقول ؟ فقال : زنقطة
فلمّا ولّى قال القاضي : ما شهادته له إلّا كشهادته عليه . فلمّا جاء زنقطة أقبل على
القاضي وقال له : فداك أبي وأمّي ! أحسن واللّه الشاعر حيث يقول :

مِنَ الحُنْظُوبِيِّينَ الَّذِينَ وَجُوهُهُمْ دَنَانِيرُ مِمَّا شِيفَ فِي أَرْضِ قَيْصَرَا
فَأَقْبَلَ الْقَاضِي عَلَى الْكَاتِبِ وَقَالَ : كَبِيرُ رَبِّ السَّمَاءِ ! مَا أَحْسَبَهُ شَهِدَ إِلَّا بِالْحَقِّ . أَجِزْ
شهادته !

وقال الصّفي :

صَبْرِي الَّذِي اقْتَسَمْتَهُ غُرْبَةً وَنَوَى كَأَنَّمَا لَهُمَا فِي ذَاكَ مِيرَاثُ
وَكُلَّ يَوْمٍ عَلَى مَا فِيهِ مِنْ هَرَمٍ يَلْقَى صُرُوفَ اللَّيَالِي وَهِيَ أَحْدَاثُ
وقال ابن الحدّاد يرثي :

(18) سقط اسم أبي دلالة من جـ.

شَمَسَ الظَّهيرةَ هَكَ تَدْرِينَ ما حَدَثا ؟
 انظُرْ ثَبِيرًا هَلْ انْهَدَّتْ جَوَانِبُهُ
 ومن المستحسن في باب الرثاء قول أبي الفرج الجوزي، وقد ليمَ على اكتحاله يوم عاشوراء:
 ولائمٍ لِي على اكْتَحَالِي
 فَقُلْتُ : كَفُّوا ! أَحَقُّ شَيْءٍ
 وقال الآخر يرثي بعض الأمراء :

كان الأميرُ نظامُ الدِّينِ لؤلؤةَ
 عزَّت فلم تقدر الأيَّامُ قِيَمَتَهَا
 وقول الآخر في غلام له يُلقَّب بالسيف :
 ستَذرفُ أجفاني عليك دموعها
 بَكَتْكَ عيونُ الشَّهْبِ إذ كنت بدرها
 وشقَّتْ يمين الصُّبحِ فيك عن الدُّجَا
 وقال الرمخشري يرثي شيخه :

وقائلة : ما هذه الدُّرُورُ الَّتِي
 فقلت : هُوَ الدُّرُّ الذي قد حشا به
 وقول ابن الحداد :

شَقِيقَكَ غُيِّبَ فِي لَحْدِهِ
 فَهَلَّا خَسَفَتْ فَكانَ الخُسُوفُ
 وقول ابن المعتز :

لَمْ تَمُتْ أَنْتَ إِنَّمَا ماتَ مَنْ لَمْ
 لَسْتُ مُسْتَسْقِيًّا لِقَبْرِكَ غِيثًا
 وقول العطوي في رجل كان يعول أناسا كثيرين فمات :

وَلَيْسَ صَرِيرَ النَّعْشِ ما تَسْمَعُونَهُ
 وَلَيْسَ فَتِيَتَ الْمَسْكِ ما تَجِدُونَهُ
 وَلَكِنَّهُ أَصْلَابُ قَوْمٍ تَقْصِفُ
 وَلَكِنَّهُ ذَاكَ الثَّنَاءُ الْمُخْلَفُ

(19) في الديوان : والمحامد بدل والسماحة.
 (20) « لقبرك » حرف « لغيرك » في ب. وفي الديوان : « كيف يظما » بدل كيف يسقى.

وقال ابن عبدون الورّاق :

قَبْرٌ بِسُوسَةٍ قَدْ قَبِرْتُ بِهِ الْفَتَى
أَسْكَنْتَهُ سُكْنَى وَرَحْتُ كَأَنَّي
صَمَمْتُ عَلَيَّ مَسَامِعِي فِي وَجْهِهِ
وَجَهَدْتُ أَنْ أَبْكِي فَلَمْ أَجِدِ الْبُكَاءَ
هَبْنِي بِكَيْتٍ لَهُ، وَمَا يَجْدِي الْبُكَاءُ ؟
وهذا الباب كثير، لا يأتي عليه الحصر.

ومن أشهر المراثي وأحسنها مراثية أبي الحسن الأنباري في ابن بقيّة، حين قتله عضد الدولة وصلبه، وأولّها :

عَلُّوْ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ : لِحَقٍّ أَنْتَ إِحْدَى الْمُعْجَزَاتِ !
وهي مشهورة معروفة . ولما اشتهرت ووصلت الى عضد الدولة، وأنشدت بين يديه، تمنّى أن يكون هو المصلوب !

وقال ابن نباتة في النسيب :

يَارُبَّ خَالٍ عَلَى خَدِّ الْحَبِيبِ لَهُ
أَوْرَثَتْهُ حَبَّةُ الْقَلْبِ الْقَتِيلِ بِهِ
وفي الخال قول الحاجري :

عَجِبْتُ لَخَالٍ يَعْبُدُ النَّارَ دَائِمًا
وَأَعْجَبَ مَنْ ذَا أَنَّ طَرْفَكَ مَنْذُرٌ
وَمَا أَخْضَرَ ذَاكَ الْخَدُّ نَبْتًا وَإِنَّمَا
وَمُذْ أَخْبَرُونِي أَنَّ قَدِّكَ بَانَةٌ
وفي القدّ قول الآخر :

يُرَوِّجُنِي مَعْشُوقُ الْجَمَالِ فَمَا لَهُ
تَتَنَنَّى فَمَاتَ الْغُصْنُ مِنْ حَسَدٍ لَهُ
وقول الآخر :

(21) في ب و ج : لا يشرفني د : لا بشري.

(22) في ب و ج : وضعفت بدل وصعقت.

قُلْتُ لِأَهْيَفِ الَّذِي فَضَحَ الْغُصْنَ كَلَامُ الْوُشَاةِ مَا يَنْبَغِي لَكَ (23)
 قَالَ : قَوْلُ الْوُشَاةِ عِنْدِي رِيحٌ قُلْتُ : أَخْشَى ١٠ غُصْنٍ أَنْ يَسْتَمِيلَكَ
 وَيُشَبِّهَ هَذَا مَا حُكِيَ أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ دَارًا يَنْظُرُهَا لِيَشْتَرِيَهَا، فَسَمِعَ فِي بَعْضِ خَشْبِهَا صَوْتًا،
 فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ فَقَالَ صَاحِبُ الدَّارِ : أَعَزَّكَ اللَّهُ ! هَذَا السَّقْفُ يَسْبَحُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ . فَقَالَ :
 أَخْشَى أَنْ يَلْحَقَهُ الْخُشُوعُ فَيَسْجُدَ .
 وَقَالَ ابْنُ خَفَاجَةَ :

وَعَشِيٌّ أَنْسَبُ أَضْجَعْتَنِي نَشْوَةٌ فِيهِ تَمْهَدُ مُضْجَعِي وَتُدْمَتُ
 خَلَعْتُ عَلَيَّ بِهَا الْأَرَاكَةَ ظَلَّهَا وَالْغُصْنَ يُصْغِي وَالْحَمَامُ يَحْدَثُ
 وَالشَّمْسُ تَجْنَحُ لِلْغُرُوبِ مَرِيضَةٌ وَالرَّعْدُ يَرْقِي وَالْغَمَامَةُ تَنْفُثُ
 وَمِمَّا يَسْتَلْذُّ فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ الْآخَرِ :
 عَرَجٌ بِمَنْعَرَجِ الْكَتِيبِ الْأَعْفَرِ بَيْنَ الْفُرَاتِ وَبَيْنَ شَطِّ الْكَوْثَرِ
 وَلِتَغْتَبِقَهَا قَهْوَةٌ ذَهَبِيَّةٌ مِنْ رَاحَتِي أَحْوَى الْمَدَامِعِ أَحْوَرِ
 وَعَشِيَّةٌ كَمْ كُنْتُ أَرْقُبُ وَقَتَهَا سَمَحْتُ بِهَا الْأَيَّامَ بَعْدَ تَعَذُّرِ
 نِلْنَا بِهَا آمَالَنَا فِي رَوْضَةٍ تُهْدِي لِنَاشِقِهَا نَسِيمَ الْعَنْبَرِ
 وَالْوُرْقُ تَشْدُو وَالْأَرَاكَةُ تَنْثَنِي وَالشَّمْسُ تَرْفُلُ فِي قَمِيصِ أَصْفَرِ (24)
 وَالرَّوْضُ بَيْنَ مَفْضَضٍ وَمُذْهَبٍ وَالزَّهْرُ بَيْنَ مُدْرَهَمٍ وَمُدْنَرِ
 وَالنَّهْرُ مَصْقُولُ الْأَبَاطِحِ وَالرُّبَا وَالشَّطُّ بَيْنَ مَزْعَفَرٍ وَمُعْصَفَرِ
 وَكَأَنَّهُ وَكَأَنَّ خُضْرَةَ شَطِّهِ سَيْفٌ يُسَلُّ عَلَى بَسَاطِ أَخْضَرِ (25)
 وَكَأَنَّمَا ذَاكَ الْحَبَابُ فِرْنَدُهُ مَهْمَا طَفَا فِي صَحْفَةِ كَالْجَوْهَرِ (26)
 وَكَأَنَّهُ وَجْهَاتُهُ مَحْفُوفَةٌ بِالْوَرْدِ وَالرَّيْحَانِ خَدُّ مُعْذَرِ
 نَهْرٌ يَهِيمُ بِحُسْنِهِ مَنْ لَمْ يَهْمِ وَيُجِيدُ فِيهِ الشَّعْرُ مَنْ لَمْ يَشْغُرْ
 مَا أَصْفَرَ وَجْهَ الشَّمْسِ عِنْدَ غُرُوبِهَا إِلَّا لِفَرْقَةٍ حُسْنِ هَذَا الْمَنْظَرِ
 وَقَوْلُ مَالِكِ بْنِ الْمَرْحَلِ :

(23) فِي ج : لَا يَنْبَغِي لَكَ.

(24) فِي ج : وَالشَّمْسُ تَرْفُصُ...

(25) صَحَّفَتْ كَلِمَةَ « خُضْرَةَ » فِي ب، فَكُتِبَتْ خَطَاةً.

(26) صَحَّفَتْ كَلِمَةَ « صَحْفَةِ » فِي ج، فَكُتِبَتْ صَفْحَةً.

وعشيّة سبَق الصَّبَاحُ عشاءها
مسكِّة لبست حُلَى ذهبية
وكان شُغْب الرِّجْمِ بعضُ حُلِيِّها
وقال أبو النصر بن عبد الجبَّار :

عليك بإغْبابِ الوصالِ فضدّه
فلو كلفَ الإنسانُ رُؤيةَ وجهه
ومثله قول الآخر :

عليك بإغْبابِ الزَّيَّارةِ إنَّها
وسياأتي هذا المعنى إن شاء الله تعالى .
وقال الحموي :

إنَّ قَوْمًا يَلْحَوْنَ فِي حُبِّ سَعْدَى
سَمِعُوا وَصَفَهَا وَلاَمُوا عَلَيْهَا
وهذا من الاقتباس، وهو أن يؤتى في الكلام المنثور أو المنظوم بلفظ يشبه لفظ القرآن أو الحديث غير منويّ به أنّه قرآن أو حديث . ولا بدّ من هذا القيد الأخير، ولذلك ساغ سوق اللفظ مع تغيير فيه أو في معناه، ولا يلزم فيه كفر بتدريك القرآن ولا خلاف نقل الحديث بالمعنى . ولنذكر طرفا من ذلك ها هنا :

فمن الاقتباس من القرآن في النثر قول الحريري : فلم يكن إلّا كلمح البصر أو هو أقرب، حتّى أنشد فأغرّب . وهو في الشعر أكثر . ثمّ إنّّه قد يكون اللفظ المقتبس بيتا كاملا، كقول أبي محمّد بن السَّيِّد البَطْلَيْوسِي في بعض مواضعه :

خَفِّقُوا ثِقَلَ الْخَطَايَا
أَفْلَحَ الْقَوْمُ الْمُخْفِقُونَ !
كَيْفَ تُعْطُونَ مِنَ الْبَاقِي
وَبِالْفَائِي تَضْنُونَ ؟
لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى
تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ !
وقول ابن العفيف :

يَا عَاشِقِينَ حَازِرُوا
مُبْتَسِمًا مِنْ ثَغْرِه !

(27) صَحَّفَتْ « بعض حليها » في ج، فكتبت : بعد حليها.

(28) في ب و د : « فهذه » بدل « فضده ».

فَطَرَفُهُ السَّاحِرُ قَدْ
يَرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ
وقد يكون شطر بيت، كقول أبي فراس :
قَدْ كَانَ بَدْرُ السَّمَاءِ حُسْنًا
لَا تَعْجَبُوا ! رَبُّنَا قَدِيرٌ
وقول محيي الدين البغدادى :

إِنْ لَا مَنِي مَنْ لَا رَأَهُ فَقَدْ
وَإِنْ لِحَانِي مَنْ رَأَهُ فَقَدْ
وقول ابن الدماميني، وقد رأى جرّة خمر كسرت فساخت الخمر على الأرض :
كَسَرُوا الْجَرَّةَ عَمْدًا
قُلْتُ، وَالْإِسْلَامُ دِينِي :
وقد قلت أنا في نحو هذا، أخذًا منه :

عَثَرْتُ هَيْفَاءُ تَحْكِي
قَبْلَ التُّرْبِ لَمَاهَا
وَجَنَى وَرْدًا وَنَدًا
قُلْتُ لَمَّا عَانَقْتَهُ :
بَدْرَ تَمَّ [حِينَ غَابًا] (28)
وَنَضًا عَنْهَا النَّقَابَا
وَارْتَوَى مِنْهَا رُضَابَا
لِيَتَنِي كُنْتُ تُرَابَا !

وقد يكون أقلّ من الشطر، كقول ابن النّبيّه :

قُلْ لِرَاسِي الْجُفُونِ إِنَّ لِحْفَنِي
وهي قصيدة على هذا النمط، أخذ قوافيها من سورة المزمل .
وَلَابِن سَهْلِ الْإِسْرَاقِيلِي قَصِيدَةُ أُخْرَى مِثْلَهَا، أَخَذَ قَوَافِيهَا مِنْ سُورَةِ مَرْيَمَ، وَكِلْتَاهُمَا مَشْهُورَةٌ .
ومن ذلك قول بعضهم :

إِذَا رُمْتُ عَنْهَا سَلْوَةً قَالَ شَافِعٌ
سَيَبْقَى لَهَا فِي مُضْمَرِ الْقَلْبِ وَالْحَشَى
وقولنا :

فِي ظِلِّبَةِ هَيْفَاءَ مِنْ أَجْفَانِهَا
سَحَرِ الْجُفُونِ الْبَابِلِيُّ تَوَاتَرَا

فإذا انتصت من جفنها عَصْبَيْنِ من جفنين قلنا : ساحران تظاهراً
وفيه التورية في الجفنين . وهذا الاقتباس هنا ممّا اختلف فيه الأصل والفرع معنى من جهة
الحقيقة والمجاز . ومثله قول ابن الرومي يخاطب رجلاً مدحه ولم يُثبه :

لَئِنْ أَخْطَأْتُ فِي مَدْحِكَ مَا أَخْطَأْتُ فِي مَنَعِي :
لَقَدْ أَنْزَلْتُ حَاجَاتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زُرْعٍ
فإنّه جعله مجازاً عن الرجل الذي لا خير فيه، وهو في الآية حقيقة .

ومن الاقتباس في الحديث قول بعضهم :

قال لي إنَّ رَقِيبِي سَيِّئُ الْخُلُقِ فَدَارُهُ⁽²⁹⁾
قُلْتُ : دَعْنِي وَجَهْكَ الْجَنَّةُ حُقَّتْ بِالْمَكَارِهِ
أَخْذًا من حديث : حُقَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُقَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ .
وقول بعضهم في غلام اسمه بدر، وجعل فيه تورية :

يَا بَدْرُ أَهْلُكَ جَارُوا وَعَلَمُوكَ التَّجَرِّي
وَقَبَّحُوا لَكَ وَصَلِّي وَحَسَّنُوا لَكَ هَجْرِي
فَلْيَفْعَلُوا مَا أَرَادُوا فَإِنَّهُمْ أَهْلُ بَدْرٍ !

أَخْذًا من حديث : لَعَلَّ اللَّهَ أَطْلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ : افْعَلُوا مَا
شِئْتُمْ !

وقول بعضهم :

وْمُهْفَهْفٍ يُزْرِي عَلَى الْقَمَرِ وَجَنَاتُهُ رَوْضٌ مِنَ الزَّهْرِ
خَالِسَتْهُ نَوَارٌ وَجَنَّتِهِ وَأَخَذَتْهُ مِنْهَا عَلَى حَذَرٍ
فَأَخَافَنِي قَوْمٌ فَقُلْتُ لَهُمْ : لَا قَطْعَ فِي ثَمَرٍ وَلَا كَثْرَ
فَقَوْلُهُ : لَا قَطْعَ فِي ثَمَرٍ وَلَا كَثْرَ هو لفظ حديث . والكثْرُ جُمَارُ النَّخْلِ .

وقد زاد بعضهم الاقتباس من الفقه، وزاد آخرون الاقتباس من سائر العلوم . فمن الاقتباس
من علم الفقه قول أبي تمام :

إِنْ حَرَامًا قَبُولُ مَدْحَتَنَا وَتَرَكُ مَا نَرْتَجِي مِنَ الصَّفَدِ
مِثْلُ الدَّنَانِيرِ بِالذَّرَاهِمِ فِي الصَّرْفِ حَرَامٌ إِلَّا يَدًا بِيَدٍ

(29) في د : « رقيمي » بدل رقيب، وهو تحريف.

شَرَطْتُ عَلَيْهِمْ عِنْدَ تَسْلِيمِ مُهْجَتِي
فَلَمَّا أَرَدْتُ الْأَخْذَ بِالشَّرْطِ عَرَّضُوا
وَقَوْلَ مَالِكِ بْنِ الْمَرْحَكِ مُورِيًّا :

مُذْهَبِي تَقْبِيلُ خَدِّ مُذْهَبِ
لَا تُخَالِفْ مَالِكًا فِي رَأْيِهِ
وَقَوْلَ ابْنِ الْعَفِيفِ :

قُضَاةَ الْحُسَيْنِ، مَا صُنْعِي بِطَرْفِ
رَمَى فَأَصَابَ قَلْبِي بِاجْتِهَادِ
وَقَوْلَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الشَّرَّانِ، وَقَدْ كَانَ عِنْدَ ابْنِ جَمَاعَةَ إِعْذَارُ، فِدْعَا أَعْيَانِ الْبَلَدِ، وَلَمْ يَدْعُ
الشَّرَّانَ، فَكُتِبَ إِلَيْهِ الشَّرَّانُ :

مَاذَا أَعَدَّ الْمَجْدُ مِنْ أَعْذَارِهِ
إِنْ كَانَ رَسْمٌ "دُونِ" مُحَضَّرِنَا اِكْتَفَى
وَمِنَ الْاِقْتِبَاسِ مِنْ عِلْمِ النَّحْوِ قَوْلُ أَبِي بَكْرٍ بِنِ حِجَّةِ الْحَمَوِيِّ :

أَيَا عَرَبَ الْوَادِي الْمُنِيعِ حِجَابُهُ
رَفَعْتُمْ قِبَابًا نُصِبَ عَيْنِيَّ نَحْوَهَا
مَنْعْتُمْ تَحِيَّاتِ السَّلَامِ لِمَوْتِنَا
وَقَوْلَ الْبُوصَيْرِيِّ :

خَفَضْتُ كُلَّ مَقَامٍ بِالْإِضَافَةِ إِذْ
وَقَوْلَ بَهَاءِ الدِّينِ زَهِيرٍ :

يَقُولُونَ لِي أَنْتَ الَّذِي طَارَ ذِكْرُهُ
هَبُونِي كَمَا قَدْ تَزْعُمُونَ أَنَا الَّذِي،
وَمَرَضَ شَرَفُ الدِّينِ بْنِ عَنِينَ، فَكُتِبَ إِلَى الْمَلِكِ الْمُعَظَّمِ بْنِ الْمَلِكِ الْعَادِلِ :

انْظُرْ إِلَيَّ بَعِينَ مَوْلَى لَمْ يَزَلْ
أَنَا كَالَّذِي يَحْتَاجُ مَا يَحْتَاجُهُ
فَلَمَّا بَلَغَهُ الْبَيْتَانِ، نَهَضَ إِلَى زِيَارَتِهِ، وَاسْتَصْحَبَ أَلْفَ دِينَارٍ . فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ وَعَايَنَهُ قَالَ
لَهُ : أَنْتَ كَالَّذِي هُوَ مَوْصُولٌ، يَحْتَاجُ إِلَى صَلَاةٍ وَعَائِدٍ، فَهَذِهِ الصَّلَاةُ، وَأَنَا الْعَائِدُ.

وقول السليمانى :

وَإِنِّي الَّذِي أَقْصَيْتَهُ وَهَجَرْتَهُ فَهَلْ صِلَةٌ أَوْ عَائِدٌ مِنْكَ لِلَّذِي ؟
وقولنا من أبيات :

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَنْ ذَاكَ فَعَلِي مُعْرَبًا تَغْنَيْتُ بِالْمَاضِي مِنَ الْحَالِ وَالْأَمْرِ⁽³⁰⁾
وقولنا من أخرى :

قَصِرَ الْهَنَاءُ أَسَى لَغَيْرِ ضَرُورَةٍ لَوْلَا نَوَاكُمُ، وَالْهَوَى مَمْدُودُ
ومن أظرف ما وقع في ذلك قول ابن جابر يخاطب معزولا عن ولاية :
فَلَا تَغْضَبَنَّ إِذَا مَا صُرِفْتَ فَلَا عَدْلَ فَيْكَ وَلَا مَعْرِفَهُ !⁽³¹⁾
ومن الاقتباس من علم الحديث قول ابن جابر :

نَقَلَ الْمَسَاكُ فِيمَا قَدْ رَوَى أَنَّ ذَاكَ الرَّيِّقَ مَسَكٌ وَعَسَلُ
قُلْتُ : عَنْ مَنْ ؟ قَالَ : عَنْ مَبْسِمِهَا قُلْتُ : هَذَا خَيْرٌ صَحٍّ وَجَلَّ
مُدُّ تَبَدَّى جَوْهَرُ الثَّغْرِ لَنَا صَحٍّ فِي الْحُسْنِ لَدَيْنَا مَا نَقَلَ
وقولنا في هذا المعنى :

نَقَلَ النَّسِيمُ عَنِ الْأَرَاكِ مُحَدَّثًا عَنْ ثَغْرِ سَلَمَى الْأَشْنَبِ الْوَضَّاحِ
وَحَدِيثُهُ الْمَرْوِيُّ أَنَّ رِضَابَهُ عَسَلٌ وَمَسَكٌ شَوْبًا بِالرَّاحِ
يَفْتَرُّ عَنْ عَقْدَيْنِ مِنْ بَرْدٍ صَفَا وَلِأَلَى مِنْضُودَةٍ وَأَقْلَامِ
صَدَقَ أَحَادِيثُ الصَّحِيحِينَ اعْتَلَّتْ عَنْ رَيْبَةٍ تُعْزَى لَهَا مِنْ لَاحِ
ومن الاقتباس من علم أصول الفقه قول ابن جابر :

جِئْتُهَا طَالِبًا لِسَالِفٍ وَعُدَّ فَأَجَابَتْ : لَقَدْ جَهِلْتَ الطَّرِيقَةَ
إِنَّمَا مَوْعِدِي مَجَازٌ فَقُلْتُ : الْأَصْلُ فِي سَائِرِ الْكَلَامِ الْحَقِيقَةُ
وقوله أيضا :

لَا تَعْجَبُوا مِنْ عُمُومِ الْحُبِّ فِي رِشَاءٍ كُلُّ الْجَمَالِ لَهُ فِي النَّاسِ مَخْصُوصُ
بَدْرٌ وَلَكِنْ إِلَى الْغَرْلَانِ مُنْتَسِبٌ قَدْ نَصَّ ذَلِكَ جَيِّدٌ مِنْهُ مِنْصُوصُ !
وقول آخر :

(30) في ب : تَغْنَيْتُ بِالْمَاضِي مِنَ الْفَعْلِ وَالْأَمْرِ.

(31) اسقطت « ما » في بعض النسخ.

كيف لي بالسُّلُو عنها وقلبي قد هوى حلمه بمهوى الخرص ؟
 ما تعاصيتُ ظاهر الصَّبر إلا ردَّني جيدها بأوضح نصٍّ
 وقول أبي بكر بن حجة، رحمه الله تعالى، وهو في الفتنين معاً :

بوادي حَمَاةِ الشَّامِ عن أيمن الشَّطِّ وحقَّك تطوى شقَّةُ الهمِّ بالبسطِ
 بلادٌ إذا ما ذُقْتُ كَوَثَرَ مائِهاً أهيم كأنِّي قد ثملتُ بإسْفَنطِ
 فَمَنْ يجتهد في أنَّ بالأرض بُقْعةً ثُمَّائِلُها قل : أنت مُجتهدٌ مُخطي
 [وصوبٌ حديثي مائِها وهوائِها فإنَّ أحاديثَ الصَّحَّاحين ما تُخطي] (32)

ومن الاقتباس من علم الكلام قول ابن جابر :

عَرَضُ الحُبِّ دونَ جَوْهرِ ذاكَ الثَّغر من أَكْبَرِ المُحالِ بجود :
 أَجمَعُ النَّاظِرُونَ في ذاكَ أن لا عَرَضٌ دونَ جَوْهرٍ في الوجودِ
 وقولنا من أبيات :

فالجِسْمُ بالِ ذو وبالٍ بَعْدَكُمْ أبدأً به عَرَضُ الشُّحوبِ جديداً
 وفي هذا البيت الجناس بين بَالٍ وبَالٍ، والاقتباس في الجسم والعرض، ومراعاة النظم
 بذلك الاعتبار، والطِّباق بين البلى والجدَّة.

ومن الاقتباس من علم المنطق قول ابن جابر :

مَقْدَمَاتُ الرَّقِيبِ كيف غَدَتْ عند لِقَاءِ الحَبِيبِ مُتَّصِلَةً
 تَمَنَعْنَا الجَمْعَ والخُلُوَّ معاً وإِنَّمَا ذاكَ حُكْمُ مُنْفَصِلَةٍ (33)
 وقول ابن الخطيب :

حتَّى إذا فَرَضَ الجِلَادُ جداله ورأيتَ رِيحَ النَّصْرِ ذاتَ هبوبٍ (34)
 قَدَّمَتْ سَالِبَةَ العَدُوِّ وبعدها أخرى بعزُّ النَّصْرِ ذاتُ وجوبِ
 وإذا تَوَسَّطَ حدُّ سِيفِكَ عندها جَزْئي قِياسك فَرَزَتْ بالمطلوبِ (35)
 وقول الآخر :

يا دَمْعَ أَجفاني اطَّردْ يا حرَّ أضلاعي اتَّقِدْ يا قَرَحَ أَكبادي انتك

(32) سقط هذا البيت الأخير من جـ.

(33) صُحِّفَت كلمة « منفصلة » في ب، فكتبت « متصلة ».

(34) في ج : حتى إذا فرض الجِلاد جِلاده.

(35) صُحِّفَت كلمة « جزئي » في ب : « جزمي »، وفي ج : « جرمي ».

ويقل اتلاف النفوس تلهفا
أملّي يشكّ وعفوكمّ متواطىء
مالى سواك لمن أمدّ يد الرجا
ومن الاقتباس من علم العروض قول الآخر :
له جيش نصر قد نصّى السعد دونه
إذا ما قوافي الخيل فيه تداركت
وقولنا من قصيدة :

لفوات حظّ منك لم يستدرّك
فأصار من متواطىء لمشكّ
مستمسكا يا ملجا المستمسك !⁽³⁶⁾
صوارم روع لا تقيها القوانيس
فأبشّر بنصر بحرّه متكأوس !

سلام طويك الحبّ فيكمّ مديده
وقولنا أيضا في التغزل :

فليس بذي نهك وليس بذي شطر
بقوس صدغين وسهم كحيك
قتلي وحرمت وصالى الحليك ؟⁽³⁷⁾
دكّ وذا لا يرتضيه الخليك
وفي الخليك التورية، وفي الأبيات أنواع أخرى من البديع ظاهرة.

يا شادنا يصيد آساد غيل
بم استبحتّ دمي الحرّم في
[واخترت قطع سببي من ودا
ومن الاقتباس من علم الهيئة قول الغزالي :

فيها فأنجز ما مضى من وعده !
في عقرب الصدغ الذي في خده
وقوله أيضا :

يا حسن ليلتنا التي قد زارنا
قومت شمس جماله فوجدتها
حلت عقارب صدغ من خده
ولقد عهدناه يحلّ يبرجها

قمرًا يجلّ به عن التشبيه
ومن العجائب كيف حلت فيه !
ومن الاقتباس من علم الهندسة قول ابن جابر :

محيط بأشكال الملاحه حسنه
فعارضه خط استواء وخاله
ومن الاقتباس من علم الخط قول ابن جابر أيضا :

كأنّ به أقليرسا يتحدث⁽³⁸⁾
به نقطة والشكل شكل مثلث
في ج : متمسكا يا ملجا المتمسك.
في ج : حرمت وصال الخلي . وهي وإن صحت وزننا ومعنى فإنها تفوت على الناظم الطبايع بين الحرام والحلال.
في ج : محيط يشك... وهو لا يستقيم وزنا.

فوقَ خديهِ للعذار طَريقٌ" قد بدا تحتَه بياضٌ وحُمْرَةٌ
 قِيلَ ماذا ؟ فقلتُ : أشكالُ حسنٍ تقتضي أن أبيعَ قلبي بنظره
 واعلم أنَّ معظم ما أنشدنا، لك أن تجعله من باب الإيهام تورية أو توجيهها لا من [باب]
 الاقتباس، والخطب سهل.

وممَّا جمع ثلاثة فنون ممَّا مرَّ قول بعضهم :

دارستُ قلبي الصَّبْرَ اعتدَّه
 فلم يكنْ يرفعُ ما حلَّ بي
 ضلَّ بي المذهبُ يامالكِ
 فهك لذاك الوجه من شافعٍ ؟
 ومثك هذا قول الآخر :

منْ شافعٌ لي عند مالِكٍ مُهجتي ؟
 فمن المُحقِّقِ أنَّ مذهبَ مالِكٍ
 مالي سوى حُبِّي وليسَ بِنافعي
 لا تستقيمُ لديه حُجَّةُ شافعٍ
 وهذا الباب أكثر من أن يأتي عليه الحصر.

وقال ابن العربي، وقد وقف عليه مليح وهو في المجلس فهُزَّ رمحا بيده، ارتجالاً :
 يهُزُّ عليَّ الرُّمَحَ ظُبِّيُّ مُهْفَفٌ لِعُوبٍ بِالْبَابِ البريَّةِ عَابِثُ
 فلو كان رُمَحًا واحدًا لانتَقَيْتُهُ ولكنَّه رُمَحٌ وَثَانٌ وَثَالِثُ !
 وهذا غاية قي قوَّة العارضة انسجاما وحسن سبك وصحَّة معنى، مع الارتجال وصعوبة
 القافية . وقد وقع إشكال لجماعة من الأدباء في الشعر وما أريد فيه، وذلك من حيث لم
 يعتد استعمال الرماح في العيون ؛ وإلَّا فهو بيِّن واضح.

وقلت أنا :

لا يلهينك من فتى سرباله
 أو تفتحيمه من رثائه زيّه
 حتَّى تبينَ قدره عن فرّه
 وتميزَ عن طول الزَّمان هشيمه
 ونفاذه غرضَ النِّوائب إن دجت
 ومقامَ ما استودعته من كامين
 وبهاء منظره ورونقُ نفثه
 فتجولُ في إطرائه أو مغثه
 ولجينه ولجينه عن بحثه
 من غصه وسمينه من غثه
 من طيشه ووفاءه من ملثه
 الأسرار في كتمانِه أو نثه

وترى إذا ما شمتَ بارقَ وعده
وترى جليّة قوله إمّا روى
وترى بمرجاسِ البصيرة غوره
فهناك إن أحمَدته فلتصفه
فلربّ ذي ورمٍ يروقُ رؤاؤه
ولربّ مرعى مونقٍ في دمنه
ولربّ حسيّ ترتوي من عذبه
ومهندٍ ذكرٍ حسامٍ باتِرٍ
أزرت به مرآته وإذا انتضي
هذا وإنّ المرءَ ليسَ بحاصِدٍ
ولسوفَ يجني كلّ ما هو غارسٌ
ويرى مغبّة سعيه مذخورة
النَّفَقْتُ : المراد به الكلام . والاطراءُ : المبالغة في المدح ؛ والمغثُ ضدّه ؛ واللّجَيْنُ
- مصغراً : الفضّة ؛ واللّجَيْنُ - مثلك أمير - : زَبَدُ أفواهِ الابلِ ، وما سقط من الورق
عند الخبط . وأُطلق اللّجَيْنُ واللّجَيْنُ على محمود الأخلاق ومذمومها ، كما يقولون : إنّ
فلانا لا يفرّق بين لُجَيْنِ الكلام ولّجِينِهِ ، أي بين جيّدِهِ ورديّهِ ؟ والنَّفَاقُ
والطّيْشُ أصلهما في السهام ، وذكرهما مع ذكر الغرض في النوائب استعارة ، وفي الغرض
- مع ذلك - توجيه . والمَلْتُ : الوعد بلا نيّة الوفاء . والدَثْتُ : المطر الضعيف .
والمرجّاسُ : حجر يُرمى في البئر ليعلم به عمقها ، وفيه أقوال أخرى . وأحمَدَتَ الرجلُ :
وجدتَه محمّوداً ؛ وكذا أذمّته : فان قلتَه بلا همزة كان بمعنى الثّناء ، والمناسب
هنا الأوّل . والدّاثُ ، بفتح الدال المهملة وسكون الهمزة : الأكل ، والحسيّ : بئر غير غارقة
يستنقع فيها الماء وينبع منها ؛ وأكْدَى الحافر : بلغ كُدْيَةً في حفرة . والرّمْتُ ،
بكسر الراء : شجرة معروفة من أشجار البادية ، وليس لها من الثمرة ما للكرم وهو شجر العنب ،
فكنّي بالكرم والرّمْتُ عن السعي الذي يُجدي نفعاً والذي لا نفعَ فيه ، كغارس

(39) في هامش كل من ب و د : « وإن تدمم فحد » فيصير الشطر الثاني هكذا : « ودّا وإن تدمم فحد عن وعثه » . ويظهر أن هذا التعديل الممكن هو للمؤلف نفسه .

الرَّمْثُ المذكور . والرَّمْثُ، بفتح الراء : الاصلاح، وضدّه العَيْثُ وهو الفساد.
وقول الآخر :

لَيْلُ الْبَرَاغِيثِ دَاءٌ لَا دَوَاءَ لَهُ لَا بَارَكَ اللَّهُ فِي لَيْلِ الْبَرَاغِيثِ !
كَأَنَّهُنَّ بِجِسْمِي إِذْ عَلَقْنَ بِهِ أَيْدِي الشُّهُودِ عَلَى مَالِ الْمَوَارِيثِ
وقال ابن شرف في معناه :

لَكَ مَنْزِلٌ كَمَلْتَ سِتَارَتَهُ لَأَهْوُ لَكِنْ تَحْتَ ذَاكَ حَدِيثُ
غَنَى الذُّبَابُ وَظَلٌّ يَزْهُو حَوْلَهُ فِيهِ الْبَعُوضُ وَيَرْقُصُ الْبُرْغُوثُ
ومثله قول الآخر :

لَيْلُ الْبَرَاغِيثِ وَالْبَعُوضِ لَيْلٌ طَوِيلٌ بِلَا غُمُوضِ
فَذَاكَ يَنْزُو بِغَيْرِ رَقْصِ وَذَا يُغَنِّي بِلَا عَرُوضِ
وقول أعرابيّ بات بمصر فأذاه البرغوث :
تَطَاوَلَ بِالْفُسْطَاطِ لَيْلِي وَلَمْ يَكُنْ بَارِضِ الْغَضَا لَيْلِي عَلَيَّ يَطُولُ
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبَيْتَنَ لَيْلَةً وَلَيْسَ لِبُرْغُوثٍ عَلَيَّ سَبِيلُ ؟
وقول الكتاني ملغزا فيه :

وَمَعْشَرٌ يَسْتَحِلُّ النَّاسَ قَتْلَهُمْ كَمَا اسْتَحَلُّوا دَمَ الْحَجَّاجِ فِي الْحَرَمِ⁽⁴⁰⁾
إِذَا سَفَكَتُ دَمًا مِنْهُمْ فَمَا سَفَكَتَ يَدَايِ مِنْ دَمِهِ الْمُسْفُوكِ غَيْرَ دَمِي
وقول ابن سكرة في مليح يُعرف بابن بُرْغُوث :

بُلَيْتُ وَلَا أَقُولُ بِيَمْنٍ لَأَنْتِي مَتَى [مَا] قُلْتَ مَنْ هُوَ يَعْشَقُوهُ
حَبِيبٌ قَدْ نَفَى عَنِّي رُقَادِي فَإِنْ غَمَّضْتُ أَيْقُظَنِي أَبُوهُ
وقال البستي :

لَا دَرٌّ دَرٌّ نَوَازِلِ الْأَحْدَاثِ نَقَلْتُ أَحْبَبْتَنَا إِلَى الْأَجْدَاثِ
فَعَدَّتْ مَانِسُنَا وَهَنَّ مَقَابِرُ وَغَدَتْ مَدَائِحُنَا وَهَنَّ مَرَاثِ
وفي هذا القدر من الباب كفاية . والله يقول الحقّ وهو يهدي السبيل.

(40) في ج : «الحجاج» بدل «الحمام»

بَابُ الْجِيمِ

أَجْبَنُ مِنْ صَافِرٍ.

الْجُبْنُ : الْخَوَرُ وَهَيْبَةُ الْأَقْدَامِ عَلَى الْأُمُورِ . يُقَالُ : جَبُنَ ، بِالضَّمِّ ، يَجْبُنُ ، جُبْنًا ، بِالضَّمِّ [وَبُضْمَتَيْنِ] ، وَجَبَانَةً ، بِالْفَتْحِ ، فَهُوَ جَبَانٌ - بوزن سَحَابٍ - ، وَجَبَانٌ كَشْدَادٍ ، وَجَبِينٌ كَأَمِيرٍ ، وَالْجَمْعُ جُبِنَاءٌ . وَهِيَ جَبَانٌ وَجَبَانَةٌ وَجَبِينٌ . وَالصَّافِرُ : الْمَصَوَّتُ ، يُقَالُ : صَفَرَ ، يَصْفِرُ ، صَفِيرًا إِذَا صَوَّتَ ، فَهُوَ صَافِرٌ وَصَفَّارٌ . قَالَ :

خَلَائِكِ الْجَوِّ فَبِضْيِي وَاصْفِرِي

وَيُقَالُ الصَّافِرُ لِلْخَشَّاشِ وَالْبُغَاثِ مِنَ الطَّيْرِ ، [وَهُوَ مَا لَا يَصِيدُ مِنْهَا . وَاخْتَلَفَ فِي الْمُرَادِ مِنَ الصَّافِرِ فِي هَذَا الْمَثَلِ ، فَقِيلَ أَيْدِ كُلِّ صَافِرٍ مِنَ الطَّيْرِ] ⁽¹⁾ وَلَا يَكُونُ الصَّافِرُ إِلَّا فِي ضِعَافِهَا وَخَشَّاشِهَا ، وَيُوصَفُ بِالْجُبْنِ لِكثَرَةِ مَا يَنْتَقِي مِنْ جَوَارِحِ الْجَوِّ وَمَصَائِدِ الْأَرْضِ . وَقِيلَ : الصَّافِرُ طَائِرٌ بَعِينُهُ ، إِذْ أَمْسَى تَعَلَّقَ بِالشَّجَرَةِ بِرَجْلَيْهِ ، وَنَكَسَ رَأْسَهُ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَنَامَ فَيُؤْخَذَ ، فَيُبَيِّتُ مَنَكُوسًا ، وَلَا يَزَالُ يَصِيحُ حَتَّى يَصْبَحَ . وَقِيلَ : الصَّافِرُ هُنَا بِمَعْنَى الْمَصْفُورِ بِهِ ، وَهُوَ الَّذِي يُنْذَرُ بِالصَّافِرِ فَيَفْزَعُ وَيَهْرَبُ ، كَمَا قَالُوا : مَا بِالْدَّارِ صَافِرٌ - أَيِ مَصْفُورٌ بِهِ - . قَالَ الشَّاعِرُ :

خَلَّتِ الدِّيَارَ فَمَا يَهَا مِمَّنْ عَهْدَتْ يُهِنُّ صَافِرٍ
وَعَلَيْهِ يَكُونُ فَاعِلًا بِمَعْنَى مَفْعُولٍ ، كَمَا فِي دَافِقٍ - أَيِ مَدْفُوقٍ - ، وَرَاحِلَةٍ - أَيِ مَرْحُولَةٍ - ، وَذَلِكَ فِي الْمَثَلِ الْمَذْكُورِ . وَالْبَيْتُ مُحْتَمَلٌ غَيْرُ مُتَعَيَّنٍ . وَقِيلَ : الصَّافِرُ هُوَ الَّذِي يَصْفَرُ لِلْمَرَأَةِ بِالرَّيْبَةِ ، وَهُوَ مَوْصُوفٌ بِالْجُبْنِ سَاعَتَهُ لَوَجَلِهِ وَحَذَرِهِ أَنْ يُطْلَعَ عَلَيْهِ . قَالَ الْكُمَيْتُ :

(1) مَا بَيْنَ مَعْقُوفَتَيْنِ سَاقِطٌ مِنْ جِ .

أَرْجُو لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا فِي مَوَدَّتِكُمْ كَلْبًا كُورَهَاءَ تَقْلَى كُلُّ صَفَّارٍ
لَمَّا أَجَابَتْ صَفِيرًا كَانَ أَتِيهَا مِنْ قَابِسٍ شَيْطَانٍ الْوَجْعَاءَ بِالنَّارِ
وهذه المرأة التي ذكرها الكميّ وضرب بها المثل امرأة من العرب كان من حديثها أن رجلاً كان
يعتادها، فكان يأتيها وهي جالسة مع زوجها وبنيتها، فيصفر لها، فإذا سمعت صفيره أخرجت
إليه عجيزتها من وراء البيت، وهي تحدث ولدها، فيقضي منها وطره ويرجع . ثم إن
بعض بنيتها فطن للأمر، فلمّا جاء صاحبها وصفر بها فأخرجت عجيزتها على العادة، فأخذ
مسماراً مُحْمِيَّ كان معه، فكوى به صدغها حتّى أحسّت بالموت وتجلّدت . فلمّا جاء
الخِدْنُ بعد ذلك وصفر بها قالت : لَقَدْ قَلَيْتَا صَفِيرَكُم ! فضرب بها الكميّ المثل.

أَجْبَنُ مِنَ الْكَرَوَانِ .

الْجُبْنُ تَقْدَمُ . وَالْكَرَوَانُ، بِفَتْحَتَيْنِ، طَائِرٌ يَشْبَهُ الْبَطَّ لَا يَنَامُ اللَّيْلَ . وَقِيلَ هُوَ
الْحَجَلُ . وَأَنشَدَ الْجَوْهَرِيُّ :

يَا كَرَوَانَا صُكَّ فَاكْبَأْنَا فَشَنَّ بِالسَّلَمِ فَلَمَّا شَنَّا
بَلَّ الذُّنَابَى عَبَسًا مُبِينًا⁽²⁾

وَقَالَ : أَرَادَ بِهِ الْحُبَارَى يَصْكُهُ الْبَازِي فَيَتَّقِيهِ بِسَلَحِهِ ؛ وَيُقَالُ هُوَ الْكَرْكِيُّ . وَيُقَالُ
لِلْأُنْثَى كَرَوَانَةٌ . وَيُقَالُ لِلذَّكَرِ الْكَرَا، وَمِنْهُ الْمَثَلُ الْآتِي : أَطْرَقُ كَرَا . وَيُقَالُ إِنَّهُ سَمِّيَ
بِالْكَرَا - وَهُوَ النِّعَاسُ - ضِدًّا مَا كَانَ عَلَيْهِ لِمَا مَرَّ مِنْ أَنَّهُ لَا يَنَامُ، وَهُوَ أَيْضًا مَوْصُوفٌ بِالْجُبْنِ
الكَثِيرِ وَالْفَرْعِ مِنْ سَبَاعِ الطَّيْرِ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ فِي خَالِدِ بْنِ صَفْوَانَ :
تَرَى خُطْبَاءَ النَّاسِ يَوْمَ ارْتِجَالِهِ كَأَنَّهُمْ الْكَرَوَانُ عَايِنٌ أَجْدَلًا
وَالْكَرَوَانُ، بِالْكَسْرِ فَالسُّكُونِ، جَمْعُ الْكَرَوَانِ السَّابِقِ . وَقَالَ الْآخَرُ :
أَمِيرٌ أَبُو مُوسَى تَرَى النَّاسَ حَوْلَهُ كَأَنَّهُمْ الْكَرَوَانُ أَبْصَرَنَ بِأَرْيَا
وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى قَوْلِهِمْ : أَطْرَقُ كَرَا، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

أَجْبَنُ مِنَ الْمَنْزُوفِ ضَرْطًا .

الْجُبْنُ مَرَّةً ؛ وَالنَّزْفُ : النَّزْمُ . يُقَالُ نَزَفْتُ مَاءَ الْعَيْنِ أَنْزَفُهُ، أَيْ نَزَحْتُهُ

(2) صُحِّفَتِ الْكَلِمَتَانِ الْأَخِيرَتَانِ فِي ب فَكَتَبْتُ : عَابَسَا مِثْلَنَا.

كُلَّهْ، وَنَزَفَتِ الْبَثْرُ، فَهِيَ مَنْزُوفَةٌ . وَيُقَالُ : نَزَفَتْ عَبْرَةُ الرَّجُلِ، بِكسر الزاي، إِذَا فَنِيَتْ، وَأَنْزَفَهَا الشَّقَوُفُ . وَيُقَالُ : نَزَفَ فُلَانٌ دَمَهُ - بِالْبِنَاءِ لِلْمَجْهُولِ - إِذَا سَالَ عَلَيْهِ سَيْلَانًا مُفْرَطًا، وَنَزَفَ الدَّمُ، فَهُوَ مَنْزُوفٌ فِيهِمَا . وَالضَّرْطُ، بِالْفَتْحِ، وَالضَّرَاطُ، بِالضَمِّ، صَوْتُ الرِّيحِ . يُقَالُ : ضَرَطَ، بِالْكَسْرِ، ضَرَاطًا وَضَرَطًا، فَهُوَ ضَرَّاطٌ، كَشْدَادٍ، وَضَرُوطٌ، كَصَبُورٍ، وَضِرَّوْطٌ، كَسِنَوْرٍ . وَاخْتَلَفَ فِي الْمَنْزُوفِ ضَرَطًا، فَقِيلَ إِنَّ نِسْوَةَ كُنَّ لَمْ يَكُنْ لَهَا أَزْوَاجٌ، [فَزَوَّجْنَ إِحْدَاهُنَّ] رَجُلًا، فَكَانَ يَنَامُ الصُّبْحَةَ، فَإِذَا أَتَيْنَهُ بِالصَّبُوحِ وَنَبَّهْنَهُ قَالَ : لَوْ نَبَّهْتُنِّي لِعَادِيَةِ - أَيِ الْخَيْلِ - فَلَمَّا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ قُلْنَا بَيْنَهُنَّ : إِنَّ صَاحِبَنَا لَشُجَاعٌ، فَتَعَالَيْنَ ! فَأَتَيْنَهُ بِالصَّبُوحِ عَلَى الْعَادَةِ، فَقَالَ : لَوْ لِعَادِيَةِ نَبَّهْتُنِّي، كَمَا كَانَ يَقُولُ . فَقُلْنَا لَهُ : هَذِهِ نَوَاصِي الْخَيْلِ ! فَجَعَلَ يَقُولُ : الْخَيْلُ ! الْخَيْلُ ! وَيَضْرِبُ حَتَّى مَاتَ . وَقِيلَ إِنَّ الْمَنْزُوفَ ضَرَطًا دَابَّةً بِالْبَادِيَةِ، إِذَا صِيحَ لَهَا وَقَعَ عَلَيْهَا الضَّرَاطُ، فَلَا تَزَالُ تَضْرِبُ حَتَّى تَمُوتَ . وَقِيلَ إِنَّهُ رَجُلٌ خَرَجَ مَعَ رَفِيقٍ لَهُ . فَبَيْنَمَا هُمَا فِي فَلَاةٍ، إِذْ لَاحَتَ لهُمَا شَجَرَةٌ، فَقَالَ : أَرَى قَوْمًا رَصَدُونَا . فَقَالَ رَفِيقُهُ : إِنَّمَا هِيَ عَشْرَةٌ - أَيِ شَجَرَةٍ - . وَالْعُشْرُ، بِضَمِّ الْعَيْنِ وَفَتْحِ الشَّيْنِ، شَجَرٌ يُحْشَى فِي الْمَخَادِ، وَهُوَ أَجُودُ مَا يُقْتَدَحُ بِهِ . فَظَنَّهُ يَقُولُ عَشْرَةً، بِالْفَتْحِ . فَجَعَلَ يَقُولُ : وَمَا غَنَاءُ اثْنَيْنِ عَنْ عَشْرَةٍ، وَيَضْرِبُ حَتَّى مَاتَ.

أَجْبَنُ مِنْ نَعَامَةٍ.

الْجُبْنُ مَرٌّ ؛ وَالنَّعَامَةُ : وَاحِدَةُ النَّعَامِ، وَهُوَ مَعْرُوفٌ، اسْمُ جَنْسٍ، مِثْلُ حَمَامٍ وَحَمَامَةٍ، وَجَرَادٍ وَجَرَادَةٍ ؛ وَالذَّكَرُ مِنْهُ يُقَالُ لَهُ ظَلِيمٌ . وَالنَّعَامُ يُوصَفُ بِالْجُبْنِ كَثِيرًا . وَيُقَالُ إِنَّ النَّعَامَةَ، إِذَا خَافَتْ مِنْ مَوْضِعٍ لَا تَرْجِعُ إِلَيْهِ أَبَدًا . وَقَالَ الشَّاعِرُ فِي الْحَجَّاجِ :

أَسَدٌ عَلِيٌّ وَفِي الْحُرُوبِ نَعَامَةٌ فَتَخَاءُ تَنْفَرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ
هَلَّا بَرَزْتَ إِلَى غَزَالَةٍ فِي الْوَعَى ؟ بَلْ كَانَ قَلْبُكَ فِي جَنَاحِي طَائِرِ !
وَلِلشَّعْرِ قِصَّةٌ تَذَكَّرُ بَعْدَ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

الْجَحْشُ لَمَّا بَذَكَ الْأَعْيَارُ !

الْجَحْشُ ولد الحمار، أهليًا كان أو وَحْشِيًّا، والأنثى جَحْشَةٌ، والجمع جِحَاشٌ .

قال زهير يصف حمار وحش :

وَقَدْ خَرَّمَ الطَّرَادُ عَنْهُ جِحَاشَهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا نَفْسُهُ وَحَلَائِلُهُ
وَالْبَذُّ، بالذال المعجمة، : الغلبة . يقال بَذَكَ هذا الأمر، أي غلبَكَ . قال علقمة
يصف بقرة وحشية :

تَعَفَّقُ بِالْأَرْطَى لَهَا وَأَرَادَهَا رَجَالٌ فَبَذَّتْ نَبْلَهُمْ وَكَلِيبُ
وَالْأَعْيَارُ جمع عَيْرٍ، بفتح العين، وهو الحمار، أهليًا كان أو وحشيًا . قال امرؤ القيس في
الوحشي :

كَأَنِّي وَرَدَفِي وَالْقِرَابَ وَنُمُرْقِي عَلَى ظَهْرِ عَيْرٍ وَارِدُ الْخَبَرَاتِ
وَقَالَ الْآخِرُ فِي الْأَهْلِيِّ :

وَلَا يُقِيمُ عَلَى ضِيمٍ يَرَادُ بِهِ إِلَّا الْأَذْلَانِ عَيْرُ الْحَيِّ وَالْوَتْدُ
وَيَجْمَعُ أَيْضًا عَلَى مَعْيُورَاءَ .

ومعنى المثل أَنَّهُ إِذَا غَلِبَكَ الْأَعْيَارُ وَلَمْ تَدْرِكْهَا فَعَلَيْكَ بِالْجِحَاشِ . وذلك أَنَّ الصائد
إِذَا أَثَارَ طَرِيدَةً مِنَ الْوَحْشِ، فَإِنَّ الْكِبَارَ الْقَوِيَّةَ مِنْهَا تَسْبِقُ، وَتَتَأَخَّرُ الصَّغَارُ . فإذا أَعْجَزَتْهُ
الْكِبَارُ السَّوَابِقُ، فَمِنْ حَقِّهِ أَنْ يَظْفَرَ بِالصَّغَارِ وَلَا يَفْرُطَ فِيهَا . فيُضْرَبُ فِي الرَّجْلِ يَطْلُبُ الْأَمْرَ
الْعَظِيمَ الْخَطِيرَ فِيْفُوتِهِ، فيقال له : اطلب ما دون ذلك امالاً، ولا ترجع خائباً، كما قيل :
إِذَا حَاجَةً وَلَتَّكَ لَا تَسْتَطِيعُهَا فَخُذْ طَرَفًا مِنْ غَيْرِهَا حِينَ تَسْبِقُ
ولفظ الْجَحْشُ فِي الْمَثَلِ يَكُونُ مَنْصُوبًا عَلَى الْإِعْرَاءِ، أَيِ : عَلَيْكَ الْجَحْشُ ! ويجوز أَنْ
يُرْفَعَ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ أَوْ الْخَبَرِ، أَيِ : الْجَحْشُ حَسْبُكَ، أَوْ حَسْبُكَ الْجَحْشُ .

جَدُّكَ كَدُّكَ .

الْجَدُّ، بالفتح، : الرَّزْقُ وَالْحِظُّ . وَرَجُلٌ مَجْدُودٌ : ذُو حِظٍّ . وَالْكَدُّ، بالفتح، :

الشَّدَّةُ وَالْإِلْحَاحُ . ومعنى المثل أَنَّكَ إِنَّمَا تَعِيشُ وَتَنَالُ الْمُنَى بِمَالِكَ مِنَ الْحِظَّةِ
وَالْبَخْتِ، لَا بِتَعَبِكَ وَكَدِّكَ، فَإِنَّ الْكَدَّ لَا يَنْفَعُ مَعَ الْحَرَمَانِ، كما قيل :

عِشْ بَجْدٌ وَلَا يَضُرُّكَ نَوَكٌ . إِنَّمَا عَيْشُكَ مِنْ تَرَى بِالْجُدُودِ
وكما قلت أنا :

كَمْ لَبِيبٍ ذِي نَجْدَةٍ مَاتَ هُزْلاً وَغَيْبٌ يَحْتَقُّهُ أَلْفُ هَانٍ !
وتقدّم هذا المعنى مستوفى، وسيأتي أيضا.

قيب : وأوّل من قال هذا المثل حاتم بن عميرة الهمداني . وكان بعث ابنه : الحِسلَ
وعاجية في تجارة لوجهتين مُختلفتين . فذهب الحسل حتّى لقيه قوم من بني أسد،
فأسروه وأخذوا ماله . وسار أخوه أيّاماً حتّى وقع على مال الحسل، فاتبعه حتّى بلغ
نجران، فنادى في قومه همدان، فأخذه من أيدي ساليبه قبل أن يبلغ الى موضع متجره .
وكانت الابل موسومة بسمة أبيهما، وعرفوا أنّ ما كان عليها من المتاع له، فأخذه ورجع الى
أهله . وقال في ذلك :

كفاني اللهُ بعدَ السّيرِ أنّي رأيتُ الخيرَ في السّفرِ القريبِ
مهذا القُربُ نلنا فيه خيراً ولم نلقَ الخسارةَ في الدُّؤوبِ
فلمّا رجع، تباشر به أهله، وانتظروا الحسل . فلمّا أبطأ عنهم بعث أبوه أخاً له يقال له
شاكِر في طلبه والبحث عنه . فلمّا دنا شاكر من الأرض التي فيها الحسل - وكان الحِسلُ
عائفاً يزجر الطير -، فقال الحسل :

تُبشّرني بالنّجاةِ القطاةُ وقولُ الغُرَابِ لها شاهدُ
تَقُولُ : أَلَا قَدْ دَنَا نَارُحٌ فِدَاءٌ لَهُ الطَّارِفُ التَّالِدُ
أخٌ لم تَكُنْ أُمْنَا أُمّه وَلَكِنْ أَبُونَا أَبٌ وَاحِدُ
تَدَارِكُنِي زُلْفَةُ حَاتِمٍ فَنِعْمَ الْمُرَبِّبُ وَالْوَالِدُ
تَدَارِكُنِي بَكَ يَا شَاكِرٌ وَمَنْ بَكَ الْمَلِكُ الْمَاجِدُ

فسأل عنه شاكر حتى أعلم بمكانه، فاشتراه منهم بأربعين بابلًا . فلمّا رجع به، وأخبر بما
لقي من البلاء، قال أبوه : اسمعَ بجدك، لا بكذك ! وهذا مثك قولهم : عاركُ
بجدٌ أو دَعُ ! وسيأتي :

جَدَعَمَ مَازَنٌ أَنْفَهُ بِكَفِّهِ .

يأتي هذا في الكاف، وهو هناك البق.

أَجْرًا مِنْ خَاصِي خِصَافٍ .

الْجُرْأَةُ - عَلَى وَزْنِ الْجُرْعَةِ - الشَّجَاعَةُ وَالْإِقْدَامُ . تَقُولُ : جَرُّوْهُ ، بِالضَّمِّ ، جُرْأَةً وَجُرْأَةً ، فَهُوَ جَرِيٌّ . وَجُرْأَتُهُ عَلَى الْأَمْرِ تَجَرُّؤَةً ، فَاجْتَرَأَ عَلَيْهِ . وَتَقُولُ : خَصَيْتُ الْفَحْلَ أَخْصِيهِ خِصَاءً ، بِالْكَسْرِ وَالْمَدِّ ، إِذَا سَلَّتْ خُصْيَيْهِ ، فَهُوَ خَصِيٌّ . وَخِصَافٌ - عَلَى وَزْنِ كِتَابٍ أَوْ وَزْنِ قَطَامٍ - : اسْمُ فَرَسٍ كَانَ لِحِمْلَ بْنِ بَدْرِ بْنِ عَوْفِ بْنِ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ ، طَلَبَهُ مِنْهُ الْمَنْذَرُ بْنُ أَمْرِئِ الْقَيْسِ لِيَسْتَفْعِلَهُ ، فَخَصَاهُ بَيْنَ يَدَيْهِ لَجُرْأَتِهِ وَمَنْعَهُ مِنْهُ ، فَسَمَّيْ خَاصِي خِصَافٍ ، وَقِيلَ : أَجْرًا مِنْ خَاصِي خِصَافٍ .

أَجْرًا مِنْ خَاصِي الْأَسَدِ .

الْأَسَدُ مَعْرُوفٌ . وَخَاصِي الْأَسَدِ تَزْعَمُ الْعَرَبُ أَنََّّهُ رَجُلٌ مَرَّ بِهِ الْأَسَدُ ، فَوَجَدَهُ يَحْرَثُ بِثَوْرَيْنِ بَادِنَيْنِ ، فَقَالَ لَهُ : يَا حَرَّاءُ ، مَا أَسْمَنَ ثَوْرَيْكَ ! فَبِمَ أَسْمَنْتَهُمَا وَمَا أَطْعَمْتَهُمَا ؟ فَقَالَ لَهُ الْحَرَّاءُ : إِنِّي خَصَيْتُهُمَا فَسَمِنَا لِأَجْلِ ذَلِكَ . قَالَ الْأَسَدُ : فَهَلْ لَكَ أَنْ تَخْصِيَنِي عَسَى أَنْ أَسْمَنَ سَمْنَهُمَا ؟ فَقَالَ لَهُ : نَعَمْ ! وَأَمَكْنَهُ الْأَسَدُ مِنْ نَفْسِهِ ، فَخَصَاهُ الْحَرَّاءُ . وَزَعَمُوا أَنَّ مَرَّ عَنْهُ الْأَسَدُ وَدَمَهُ يَسِيلُ ، حَتَّى رَقَى رُبُوعَةً فَأَقْعَى فِيهَا حَزِينًا يَنْظُرُ إِلَى الْحَرَّاءِ . فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا بَثْعَلٌ قَدْ مَرَّ بِهِ ، قَالَ لَهُ : مَالِي أَرَاكَ حَزِينًا يَا أَبَا الْحَارِثِ ؟ فَذَكَرَ لَهُ مَا فَعَلَ بِهِ الْحَرَّاءُ ، وَمَا دَهَمَهُ مِنَ أَلَمِ الْخِصَاءِ . فَقَالَ لَهُ الثَّعْلَبُ : هَلْ لَكَ فِي أَنْ آتِيَ الْحَرَّاءَ وَأَسْتَدْبِرَهُ⁽³⁾ ، عَسَى أَنْ تَمَكِّنَنِي مِنْهُ فَرِصَةً فَأَتَّخِرَ لَكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ! فَدَاكَ أَبِي وَأُمِّي . فَمَضَى الثَّعْلَبُ وَجَعَلَ يَرَاوِغُ الْحَرَّاءَ وَيُطِيفُ بِهِ . فَتَنَاولَ الْحَرَّاءُ حَجْرًا وَقَذَفَهُ بِهِ فَدَقَّ فَخْدَهُ . فَآتَى الْأَسَدُ وَهُوَ عَلَى ثَلَاثِ [قَوَائِمٍ ، فَأَقْعَى مَعَهُ عَلَى الرَّابِيَةِ يَشْكُوَانِ بَثْنَهُمَا وَمَا دَهِيَا بِهِ مِنْ ذَلِكَ الْحَرَّاءِ]⁽⁴⁾ حَتَّى مَرَّتَ بِهِمَا نُغْرَةٌ فَقَالَتْ لَهَا : مَا لَكَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ ؟ فَأَخْبَرَاهَا خَبْرَهُمَا ، فَقَالَتْ لَهَا : أَنَا آتِيهِ ، فَأَسْتَدْبِرُهُ حَتَّى أَدْخُلَ فِي أَنْفِهِ . فَجَاءَتْ إِلَيْهِ ، وَتَغَافَلَ الْحَرَّاءُ عَنْهَا حَتَّى إِذَا دَنَتْ مِنْهُ قَبِضَ عَلَيْهَا وَأَخَذَ عَوْدًا فَدَسَهُ فِي اسْتِهَا وَأَرْسَلَهَا ، فَجَاءَتْ إِلَى الْأَسَدِ وَالثَّعْلَبِ وَهِيَ فِي شَرٍّ مِنْ حَالِهِمَا ، قَدْ سَدَّ الْعَوْدُ دَبْرَهَا

(3) فِي ب : وَأَسْتَدْبِرُهُ .

(4) سَقَطَ مَا بَيْنَ مَعْقُوفَتَيْنِ مِنْ ج .

ومنعها وأثقلها عن الطيران . فبينما الثلاثة جلوس على الربوة يتشاكون، جاءت امرأة الحرّاء بغذائه . فتقدّم إليها، ورفع رجليها، وجعل يطؤها، وهي بمرأى من تلك الحيوانات . فقال الأسد : ما ترون هذا المشؤوم يفعل بهذه المرأة المسكينة ؟ والله إنّي لأظنّه يخصيها . فقال الثعلب : ما أظنه إلّا يكسر فخذها . فقالت النعرة : لا والله ! بل يدخل في استها عودا . فكانت النّعرة أقربهنّ إلى الصدق ظنّاً . [وقيل إنّ خاصي الأسد هو الأصبع التي يفرس بها من برائينه . حكاة البكري عن قاسم بن ثابت، والله أعلم.]⁽⁵⁾

أَجْرًا مِنْ فَارَسٍ خَصَافٍ .

خَصَافٍ، بفتح الخاء - على مثال قَطَامٍ -، وهي فرس كانت لملك بن عمرو الغسّاني .
[وخصّاف - بوزن كِتَاب : حصان كان لشهير بن ربيعة الباهلي]⁽⁶⁾

جَرَبٌ، ثُمَّ بَاعِدٌ أَوْ قَرَبٌ .

هذا مثك مصنوع فيما أظنّ، وهو ظاهر المعنى . ومثله قول الشاعر :
أَبْكُ الرَّجَالَ إِذَا أُرِدْتَ إِخَاءَهُمْ وَتَوَسَّمَنَ فَعَالَهُمْ وَتَفَقَّدَ
فَإِذَا ظَفَرْتَ بِذِي الثَّلَابَةِ وَالْعُلَى فَبِهِ الْيَدَيْنِ قَرِيرَ عَيْنٍ فَاشْدُدْ

يَجْرِي بُلَيْقٌ وَيُذَمُّ .

الجَرَيَان : العَدْوُ، وهو معروف ؛ وبُلَيْقٌ مصغّر اسم فرس كان سباقاً، وكان مع ذلك يُذَمُّ، فضرب به المثل في المُحَسَّنِ يُذَمُّ .

جَرَيِ الْمَذَكِّي حَسَرَتْ عَنْهُ الْحُمُرُ .

الجَرَيُّ تقدّم ؛ والمَذَكِّي من الخيل المُسَنُّ . يقال : ذكّى الفرس، تَذَكِيَةً بذاك معجمة - إذا أسنّ . والمَذَاكِي من الخيل : التي أتى على قُروحها سنة أو سنتان . والْحُمُر جمع حِمَار⁽⁷⁾ . والمعنى أنّ الحمار لا يستطيع أن يسابق القارح من الخيل، [بل]

5 - 6) سقط ما بين معقوفتين أيضاً من ج .
7) نسي المؤلف شرح « حسرت » وهي بمعنى أعيت وعجزت .

والبيرذون، كما قال زهير يمدح هرم بن سنان :

يَطْعَنُهُمْ مَا ارْتَمَوْا حَتَّى إِذَا اطَّعَنُوا ضَارِبَ حَتَّى [إِذَا] مَا ضَارِبُوا اعْتَنَقَا
فَضَلَ الْجِيَادَ عَلَى الْخَيْكِ الْبِطَاءِ فَلَا يَعْطِي بِذَلِكَ مَمْنُوقًا وَلَا نَزَقًا
يَضْرِبُ هَذَا الْمَثْلَ فِي الرَّجْلِ الْبَارِعِ الْمُبَرِّزِ عَلَى غَيْرِهِ فِي الْفَضْلِ .

جَرَيُ الْمَذْكِيَّاتِ غِلَابٌ .

المثل من معنى ما قبله . والجريُّ تقدّم ؛ وكذا المذكيّاتُ من الخيك . والغِلَابُ :
المُغَالَبَةُ، كأنّها تغالب الجري . ويروى غِلَاءٌ، أي مُغَالَاةٌ فِي السَّيْرِ . والغِلَاءُ، بكسر
الغين أيضًا، جمع غَلْوَةٍ، وقد رُوِيَ المثل بذلك . والغَلْوَةُ من كلِّ غَايَةٍ مقدار رمية
السهم . وهذا المثل قاله قيس بن زهير، وذلك أنّه لمّا تراهن - هو وحَمَكُ بن بدر - على ما
مرّ في هذه القِصَّةِ، فأرسلَا فرسَيْهِمَا : فرس قيس وهو داحس، وفرس حمك وهو الغبراء،
على ما في ذلك من الاضطراب، ظهرت الغبراء على داحس . فقال حمك بن بدر : سبقتك يا
قيس ! فقال قيس : رُوَيْدًا ! يَعْدُوْا أَنْ الْجَدَدَ ، فأرسلها مثلاً . فلمّا خرجا عن الجَدَدِ
وصارا في الوعث، برز داحس على الغبراء . فقال قيس حينئذ : جَرَيُ الْمَذْكِيَّاتِ
غِلَابٌ - أو غِلَاءٌ - كما مرّ، فذهبت مثلاً .

جُرُّوا لَهُ الْخَطِيرَ مَا أَنْجَرَ لَكُمْ !

الجُرُّ : السَّحْبُ عَلَى الْأَرْضِ مَثَلًا . وَجُرَّرَتِ الْفَرَسُ بِمَقْوَدِهِ، وَالْجَمْلُ بِزِمَامِهِ، فَانْجَرَّ ؛
وَالْخَطِيرُ، بِالْخَاءِ الْمَعْجَمَةِ وَالطَّاءِ الْمَهْمَلَةِ - عَلَى مِثَالِ أَمِيرٍ - زِمَامُ النَّاقَةِ وَجَدِيلُهَا .
يُسَمَّى بِذَلِكَ لِأَنَّهُ يَخْطُرُ أَي يَهْتَرِزُ عِنْدَ مَشْيِهَا . وَبِذَلِكَ سُمِّيَ الرَّمْحُ خَطَّارًا .
وَالْجَدِيدُ مَا كَانَ مِنْ جُلُودٍ، وَقَدْ يُقَالُ لَغَيْرِهِ . وَالْحَبْلُ إِذَا كَانَ مِنْ خَوْصِ سُمِّيَ شَرِيطًا،
وَإِذَا كَانَ مِنْ كَتَانِ سُمِّيَ مَرَسًا، كَمَا قَالَ أَمْرُؤُ الْقَيْسِ :

كَأَنَّ الثُّرَيَّا عُلِّقَتْ فِي مَصَامِيهَا بِأُمْرَاسٍ كَتَّانٍ إِلَى صُمٍّ جَنْدَلٍ
وَإِذَا كَانَ مِنْ لَيْفٍ فَهُوَ مَسَدٌ . وهذا المثل يُروى عَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ
قَالَ فِي عَثْمَانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حِينَ أَنْكَرَ عَلَيْهِ النَّاسَ مَا أَنْكَرُوا، أَي اتَّبَعُوهُ مَا كَانَ فِيهِ

موضع متبَع.

أَجْرُ الْأُمُورِ عَلَى أَذْلَالِهَا !

الأُمُورُ جمعُ أَمْرٍ ؛ والأَذْلَالُ، بالذال المعجمة، جمع ذِلٌّ، بالكسر وذِلُّ الطَّرِيقِ : مَحَجَّتُهُ . والمعنى : أَجْرُ الْأُمُورِ عَلَى مَجَارِيهَا وَمَسَالِكِهَا . يُضْرَبُ فِي الْأَمْرِ بِحَسَنِ التَّجْدِيدِ وَيُقَالُ أَيْضًا : أُمُورُ اللَّهِ جَارِيَةٌ أَذْلَالُهَا، وَعَلَى أَذْلَالِهَا، أَي عَلَى مَجَارِيهَا. وَيُقَالُ : دَعَاهُ عَلَى أَذْلَالِهِ، أَي حَالِهِ ؛ وَجَاءَ عَلَى أَذْلَالِهِ، أَي عَلَى وَجْهِهِ.

التَّجْرِيدُ لِغَيْرِ نِكَاحٍ مُثَلَّةٌ .

التَّجْرِيدُ معروف . تقول : جَرَدْتُ زَيْدًا مِنْ ثِيَابِهِ، وَتَجَرَّدَ هُوَ مِنْ ثِيَابِهِ ؛ وَكَذَا النِّكَاحُ . وَالْمُثَلَّةُ : النِّقْصُ وَالْعَيْبُ وَالشَّيْنُ . وَالْمَعْنَى أَنَّ تَجْرِيدَ الْعَوْرَةِ لِغَيْرِ النِّكَاحِ عَيْبٌ . يُضْرَبُ فِي وَضْعِ الْأَشْيَاءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا .

وَذَكَرُوا أَنَّ الْمَثَلَ لِرَقَاشِ بِنْتِ عَمْرِو بْنِ ثَعْلَبِ بْنِ وَائِلٍ، وَكَانَتْ شَرِيفَةً عَاقِلَةً . فَتَزَوَّجَهَا كَعْبُ بْنُ مَالِكِ بْنِ تَيْمِ اللَّهِ، فَقَالَ لَهَا : اخْلَعِي دَرْعَكَ ! فَقَالَتْ : خَلَعْتُ الدَّرْعَ بِيَدِ الزَّوْجِ . فَقَالَ : اخْلَعِي دَرْعَكَ لِأَنْظُرَ إِلَيْكَ ! فَقَالَتْ : يَا ابْنَ عَمٍّ، إِنَّ التَّجْرِيدَ لِغَيْرِ نِكَاحٍ مُثَلَّةٌ ! فَأَرْسَلَتْهَا مَثَلًا . فَطَلَّقَهَا مَكَانَهَا، فَحُمِلَتْ⁽⁸⁾ إِلَى أَهْلِهَا، فَفَرَمَتْ بِذُحُلِ ابْنِ شَيْبَانَ⁽⁹⁾ بِنِ ثَعْلَبَةٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهَا وَخَطَبَهَا إِلَى نَفْسِهَا، فَقَالَتْ لِخَادِمِهَا : انْظُرِي أَيَبْعَثُ أَمَّ يُقْعِرُ إِذَا بَالَ ؟ فَانْظُرْتُ الْأُمَّ فَقَالَتْ لِمَوْلَاتِهَا : يُقْعِرُ . فَتَزَوَّجَتْهُ .

وَيُحْكِي أَيْضًا أَنَّ عَثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لَمَّا تَزَوَّجَ نَائِلَةَ بِنْتَ الْفَرَاغِصَةِ بِنِ الْأَحْوَصِ الْكَلْبِيَّةِ، وَسَاقَهَا إِلَيْهِ أَخُوهَا، فَأَدْخَلَتْ عَلَيْهِ، وَخَلَّابَهَا قَالَ لَهَا : تَقُومِينَ إِلَيَّ أَمْ أَقُومُ إِلَيْكَ ؟ قَالَتْ : مَا قَطَعْتَ إِلَيْكَ عَرْضَ السَّمَاءِ وَأَنَا أَحَبُّ أَنْ تَقْطَعَ إِلَيَّ عَرْضَ الْبَسَاطِ . فَقَامَتْ إِلَيْهِ وَجَلَسَتْ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهَا : لَا يَسُوءَنَّكَ مَا تَرَيْنَ مِنْ شَيْبِي، فَإِنَّ وَرَاءَهُ مَا تَحْبِبِينَ . قَالَتْ : إِنِّي لَمِنْ نِسْوَةِ أَحَبِّ رَجَالِ هِنِّ السَّيِّدِ الْكَهْلِ . إِلَى أَنْ قَالَ لَهَا : ضَعِي الْخِمَارَ ! فَوَضَعَتْهُ . فَقَالَ لَهَا : اخْلَعِي الدَّرْعَ ! فَخَلَعَتْهُ . فَقَالَ لَهَا : اخْلَعِي الْإِزَارَ !

(8) فِي ب : فَتَحُمِلَتْ.

(9) فِي ج : ذُبْيَانُ بْنُ شَيْبَانَ، وَهُوَ تَحْرِيفٌ.

قالت : ذلك إليك ! فلماً دُخِلَ على عثمان، رضي الله عنه، يوم الدار، أكَبَّتْ عليه وجعلت تنافح بيدها حتَّى أصيبت بجراحات . فلماً قُتِلَ، رحمه الله، رثته فقالت :
 ألا إنَّ خَيْرَ النَّاسِ بَعْدَ ثَلَاثَةٍ قَتِيلُ التَّحِيْبِيِّ الَّذِي جَاءَ مِنْ مِصْرَ وَمَالِي لَا أَبْكَى وَتَبْكِي قَرَابَتِي وَقَدْ حُجِبْتَ عَنَّا فَضُولُ أَبِي عَمْرٍ ؟
 ويُرَوَّى هَذَا الشَّعْرُ أَيْضًا لِلْوَلِيدِ بْنِ عَقْبَةَ، وَلِلْكَمَيْتِ . وَالتَّحِيْبِيُّ هُوَ كِنَانَةُ ابْنِ بَشَرَ قَاتِلُ
 عُثْمَانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . وَهُوَ مَنْسُوبٌ إِلَى تَحِيْبٍ، بِضَمِّ التَّاءِ وَفَتْحِهَا، بَطْنٌ مِنْ كَنْدَةَ .
 فَمَّا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا خَطْبُهَا مَعَاوِيَةَ، فَقَالَتْ لِنِسَائِهَا : مَا يَعْجِبُ الرَّجَالَ مِنِّْي ؟ قُلْنَ لَهَا :
 ثَنَائِيَاكَ . فَعَمِدَتْ إِلَى فِهْرٍ فَدَقَّقَتْ بِهِ ثَنِيَّتَيْهَا وَبَعَثَتْ بِهِمَا إِلَى مَعَاوِيَةَ، فَكَفَّ . وَلَمْ تَزَلْ
 مُحْدِثًا بَعْدَ قَتْلِ عُثْمَانَ حَتَّى لَحِقَتْ بِهِ .

أَجْرَى مِنْ ذُبَابٍ .

الْجَرِيَانُ مَرٌّ، وَالذُّبَابُ مَعْرُوفٌ، الْوَاحِدَةُ ذُبَابَةٌ، وَجَمْعُ الْقَلَّةِ أَذْبَةٌ . قَالَ الشَّاعِرُ :
 ضَرَابَةٌ بِالْمِشْفَرِ الْأَذْبَةِ
 وَجَمْعُ الْكَثْرَةِ ذُبَّانٌ، بِالْكَسْرِ - كَغَرِبَانٍ - قَالَ أَمْرُؤُ الْقَيْسِ :
 عَصَافِيرٌ وَذُبَّانٌ وَدُودٌ وَأَجْرَأُ مِنْ مُجْلِحَةِ الذُّنَابِ
 وَلَا يَخْفَى مَالَهُ مِنَ الْجَرِيَانِ، وَسُرْعَةُ الدَّوْرَانِ، وَخَفَّةُ الطَّيْرِانِ.

جَزَاهُ جَزَاءَ سِنِمَارٍ .

الْجَزَاءُ : الْمُكَافَأَةُ . تَقُولُ : جَزَيْتُ فُلَانًا، أَجْزِيهِ، جَزَاءً ؛ وَجَازَيْتُهُ مُجَازَاةً .
 وَسِنِمَارٌ، بِكَسْرِ السِّينِ الْمَهْمَلَةِ وَالنُّونِ، وَشَدَّ الْمِيمَ بَعْدَهَا أَلْفَ فَرَاءٍ : اسْمُ رَجُلٍ، وَهُوَ إِسْكَافٌ
 كَانَ النُّعْمَانُ الْأَكْبَرُ، لَمَّا أَرَادَ أَنْ يَبْنِيَ الْخَوْرَنَقَ لِسَابُورَ، لِيَكُونَ وَلَدُهُ فِيهَا مَعَهُ، اتَّخَذَ
 هَذَا الْإِسْكَافَ، فَبَنَاهَا لَهُ وَأَحْسَنَ رَصْفَهَا، وَأَبْدَعَ وَصْفَهَا⁽¹⁰⁾، وَأَكْمَلَهَا فِي عَشْرِينَ حَوْلًا . فَلَمَّا
 أَتَمَّ بِنَاءَهَا، وَأَعْجَبَ النَّاسَ بِحُسْنِهَا، قَالَ الْإِسْكَافُ : إِنِّي لَوْ شِئْتُ جَعَلْتُ الْقَصْرَ يَدُورُ مَعَ
 الشَّمْسِ حَيْثُمَا دَارَتْ . فَقَالَ الْمَلِكُ : إِنَّكَ لَتَحْسُنُ أَنْ تَبْنِيَ أَجْمَلَ مِنْهُ ؟ فَطَرَحَهُ مِنْ أَعْلَاهُ .
 فَضُرِبَ بِهِ الْمَثَلُ لِمَنْ يَجْزِي الْإِحْسَانَ بِالْإِسَاءَةِ . قَالَ الشَّاعِرُ :

(10) فِي بِ حَرْفٍ « وَصَفَهَا » فَكُتِبَ « وَصَفَاهَا » . وَفِي جِ كُتِبَ خَطَأً : « وَأَحْسَنَ وَصَفَهَا » مَكْرَرًا مَعَ « وَأَبْدَعَ وَصَفَهَا » .

جَزَانِي جَزَاهُ اللَّهُ شَرَّ جَزَائِهِ جَزَاءَ سِنِمَّارٍ وَمَا كَانَ ذَا ذَنْبٍ
 سِوَى رَصْفِهِ الْبُنْيَانُ عَشْرِينَ حِجَّةً يُعَلِّ عَلَيْهِ بِالْقَرَامِدِ وَالسَّكَبِ
 فَلَمَّا انْتَهَى الْبُنْيَانُ يَوْمَ تَمَامِهِ وَاضَ كَمَثَلِ الطَّوْدِ وَالْبَاذِخِ الصَّعْبِ
 رَمَى بِسِنِمَّارٍ عَلَى حَقٍّ رَأْسِهِ وَذَاكَ لَعَمْرُ اللَّهِ مِنْ أَعْظَمِ الذَّنْبِ! (11)
 وَقَالَ الْآخِرُ :

جَزَى بَنُوهُ أَبَا الْغِيلَانَ عَنْ كَبِيرٍ وَحُسْنُ فَعْلٍ كَمَا يُجْزَى سِنِمَّارُ
 وَقِيلَ إِنَّ سِنِمَّارَ هُوَ غُلَامٌ لِأُحْيَاةَ بَنَى أُطُمًا فَلَمَّا فَرَّغَ قَالَ : أَحْكَمْتَهُ ! فَقَالَ : إِنِّي
 لَأَعْرِفُ حَجَرًا لَوْ نَزَعْتُ لَتَقَوَّضَ مِنْ آخِرِهِ . فَسَأَلَهُ عَنِ الْحَجَرِ ، فَأَرَاهُ إِيَّاهُ ، فَدَفَعَهُ أُحْيَاةَ مِنْ
 الْأُطُمِ فَخَرَّ مَيِّتًا . وَفِي النُّوَادِرِ أَنَّهُ إِنْسَانٌ عَمِلَ أُطُمًا لِبَعْضِ الْمُلُوكِ ، فَقَالَ لَهُ : إِنْ نَزَعْتَ
 هَذَا الْحَجَرَ تَدَاعَى الْبِنَاءُ كُلُّهُ . فَرُمِيَ مِنْ فَوْقِهِ لَثْلًا يَعْلَمُ بِهِ أَحَدٌ غَيْرِهِ وَأَنْشَدَ :
 جَزَاءَ سِنِمَّارٍ بِمَا كَانَ يَفْعَلُ

تَجَشَّى لُقَيْمٌ مِنْ غَيْرِ شَبْعٍ .

التَّجَشَّى : تَنَفَّسُ الْمَعِدَةِ ، وَيَكُونُ عِنْدَ الشَّبْعِ . وَلُقَيْمُ اسْمُ رَجُلٍ ؛ وَالشَّبْعُ -
 بوزن عِنَبٍ - مَعْرُوفٌ . وَالمَثَلُ ظَاهِرُ الْمَعْنَى ، يُضْرَبُ فِي التَّشَبُّعِ بِمَا لَمْ يَعْطَ . وَهُوَ
 كَقَوْلِهِمْ : عَاطِرٌ بِغَيْرِ نَوَاطِرٍ (11) ، وَقَوْلُهُمْ : كَالْحَادِي وَلَيْسَ لَهُ بَعِيرٌ ؛ وَسَيَأْتِيَانِ .

أَجْلَسَتْهُ عِنْدِي فَأَتَكَأَ .

الجلوس معروف ، وكذا الاتكاء . وهذا المثل يُضْرَبُ فِي عَادَةِ السُّوءِ يَعْتَادُهَا صَاحِبُهَا .
 وَهُوَ كَقَوْلِهِمْ : أَعْطَى الْعَبْدَ كِرَاعًا فَطَلَبَ ذِرَاعًا .

جَلَّى مُحِبًّا نَظْرَهُ .

التَّجَلِّيَّةُ : الْإِبْدَاءُ وَالْإِظْهَارُ ؛ وَالْمُحِبُّ خِلَافُ الْمُبْغِضِ ؛ وَالنَّظَرُ الْبَصَرُ .
 وَالْمَعْنَى أَنَّ نَظَرَ الْإِنْسَانِ يُظْهِرُ مَا انْطَوَى عَلَيْهِ مِنْ مُحِبَّةٍ أَوْ بُغْضٍ . وَمِثْلُهُ قَوْلُهُمْ : شَاهِدْ

(11) فِي ج : وَذَاكَ لَعَمْرِي... ، وَهُوَ لَا يَسْتَقِيمُ وَزْنًا .

البغض اللحظ ؛ وقولهم : رُبَّ لَحْظٍ أَتَمُّ مِنْ لَفْظٍ . وقول الشاعر :

فإن تكُ في عدوٍّ أو صديقٍ تُخْبِرُكَ العيونُ عن القلوبِ
وقول الآخر :

خَذْ مِنْ الْعَيْشِ مَا كَفَى وَمِنْ الدَّهْرِ مَا صَفَا
عَيْنُ مَنْ لَا يُرِيدُ وَصْلَكَ تُبْدِي لَكَ الْجَفَا
وقول الآخر :

تُخْفِي الْعَدَاوَةَ وَهِيَ غَيْرُ خَفِيَّةٍ نَظَرُ الْعَدُوِّ بِمَا أَسْرَ يَبُوحُ
وقالوا : يُعْبَرُ عَنْ الْإِنْسَانِ اللِّسَانُ، وَعَنِ الْمَوَدَّةِ وَالْبَغْضِ الْعِيَانُ⁽¹²⁾

جَمَعَ بَيْنَ الْأَرْوَى وَالنَّعَامِ .

الجمع ضدّ التفريق ؛ وتقدّم تفسير كلّ من الأروى والنعام في هذا الكتاب . وهذا المثلّ يضرب في الجمع بين أمرين متنافيين، والتأليف بين شيئين متخالفين . يقال : تَكَلَّمَ زَيْدٌ فَجَمَعَ بَيْنَ الْأَرْوَى وَالنَّعَامِ، وذلك لأنّ الأروى مسكنها قنن الجبال، كما قال امرؤ القيس :

تَلَاعِبُ أَوْلَادِ الْوَعُولِ رَبَاعُهَا دُوَيْنَ السَّمَاءِ فِي رُؤُوسِ الْمَجَادِلِ
وَالنَّعَامُ مَسْكَنُهَا السَّهْلُ مِنَ الْأَرْضِ، فَلَا يَجْتَمِعَانِ ؛ وكذا الأروى والبقرة .

وسئل أعرابيٌّ عن صفة مطر فقال : اسْتَقَلَّ سُدٌّ مَعَ انْتِشَارِ الطِّفْلِ فَشَصَا وَاحْزَأَلْ ؛

ثُمَّ اكْفَهَرَتْ أَرْجَاؤُهُ، وَاحْمَمَوْتْ أَرْحَاؤُهُ، وَابْذَعَرَتْ فَوَارِقُهُ، وَتَضَاكَتْ بَوَارِقُهُ، وَاسْتَطَارَ وَادِقُهُ، وَارْتَقَتْ حُؤُبُهُ، وَارْتَعَنَ هَيْدَبُهُ، وَحَشَكَتْ أَخْلَاقُهُ، وَاسْتَقَلَّتْ

أَرْدَافُهُ، وَانْتَشَرَتْ أَكْنَافُهُ ؛ فالرعد مُرْتَجِسٌ، والبرق مُخْتَلِسٌ، والماء مُنْبَجِسٌ ؛

فَأَتَرَعَمَ الْغُدُرُ، وَانْتَبَثَ الْوَجُرُ، وَخَلَطَ الْأَوْعَالَ بِالْآجَالِ، وَقَرَنَ الصِّيرَانَ بِالرِّثَالِ ؛ فالأودية

هَدِيرٌ، وَالشَّرَاجِمُ خَرِيرٌ، وَالتَّلَاعُ زَفِيرٌ ؛ وَحَطَ النَّبْعُ وَالْعَتَمُ، مِنَ الْقَلْقِ الشُّمُّ، إِلَى

الْقَيْعَانِ الصُّحْمِ . فلم يبق في القللك إلّا مُعَصِمٌ مُجَرَّنْتِمٌ، أو داحص

مُجَرَّجِمٌ، وذلك من فضل ربّ العالمين، على عباده المذنبين !

(12) حرف « البغض » في ج فكتب : « النقص » .

قوله استقل سُدّ : السُدّ، بضمّ السين : السحاب المظلم ؛ وكذا الجراد، لأنّه يسدّ الأفق . واستقل : ارتفع ؛ والطّفَل، بفتح التّين، العشيّ الى المغرب ؛ وشصا ارتفع، يقال : شصا الرّق إذا امتلأ فارتفعت قوائمه ؛ واحزّأَل : ارتفع أيضا، وهو بالحاء المهملة والزاي ؛ واكفهرّت تراكمت ؛ أرجأؤه : نواحيه، واحمومت : اسودّت ؛ أرحأؤه : جمع رحى، وهي الوسط، وابدعرت، بذاك معجمة : تفرّقت ؛ فوارقه : جمع فارق، وهي القطعة من السحاب الخارجة عن معظمه. والفارق في الأصل : الناقة تندّ عن الابل عند نتائجها. واستطار : انتشر ؛ وادّقه : الوادق الذي كثر ماؤه، أو الذي دنا من الأرض. وارتتقت: التأمت ؛ حوَّبه : فرجه. وارتعن : استرخى ؛ هيدبُه : ما تدلّى منه الى الأرض، كهذب القطيفة . وحشكّت : امتلأت ؛ أخلاقه : ضروعه، جمع خلف، وهو ما يقبض عليه الحالب من ضرع الناقة والبقرة . واستقلت : ارتفعت ؛ أردافه : ماخره . وهذه كلّها استعارات. وأكنافه : نواحيه . ومُرتجِس : مُصوّت، ومُختَلِس : كأنّه لشدة لمعانه يختلس الأبصار، ومُنْبَجِس : مُنْفَجِرُهُ وأترع : ملأ، والغُدْرُ، بضمّتين، جمع غدير؛ والوَجُرُ، بضمّتين، جمع وَجَار، وهو الجُحْرُ يلجه الثعلب والضبع، وانتَبَهَتْها، بالثاء المثناة، أخرج نباتها، وأصل النبيتة تراب البئر ؛ والأوعال جمع وعَل، وهو التيس الجبليّ، والآجال جمع إَجْلٍ، بكسر فسكون، وهو القطيع من بقر الوحش. يقول : إنّ هذا المطر لشدّته جمع بين الأوعال التي مساكنها قُنن الجبال، وبين البقر التي مساكنها القيعان . والصيّران جمع صيوار، وهو القطيع من بقر الوحش، والرّثّاك : فِراخ النعام، جمع رَأَك، بفتح فسكون، وهي تسكن الجلد من الأرض، والصيران تسكن الرمال والقيعان، فجمع بينهما أيضا لشدّته، والهدير : الصوت ؛ والشّراج مجاري الماء من الحرار، واحدها شَرَج، والتلاع : الشعاب التي يجري بها الماء من الجبال، واحدها تَلْعَة، بفتح فسكون، والنبع شجر تتخذ منه القيسيّ ؛ والعُتْم، بعين مهملة وتاء مثناة - على مثال جرُف : الزيتون الجبليّ ؛ والقلل أعالي الجبال ؛ والشمّ المرتفعة ؛ والقيعان جمع قاع، وهو الأرض المطمئنة ؛ والصُحْم : التي تعلوها حمرة، جمع أصْحَم ؛ والمُعْصِم : الذي استمسك بالجبال وتمنّع فيها من الأوعال . يقال : فارس مُعْصِم إذا أخذ بعرف فرسه، والمُجرَنّيم : المنقبِض، والداحص الذي يفحص برجليّه عند الموت . قال علقمة :

رَغَا فَوْقَهُمْ سَقَبُ السَّمَاءِ فِدَا حَصَّ" بِشِكَّتِهِ لَمْ يُسْتَلَبْ وَسَلَّيْبُ
والمجرم المصدوع.

جَمَعَ بَيْنَ الضَّبِّ وَالنُّونِ.

الضَّبُّ حيوان معروف، جمعه ضِبَابٌ وأَضْبٌ، وكنيته أبو حِسَك، والحِسَك ولدُهُ،
كما سيأتي، والنُّونُ : الحوت، وجمعه نِينَانٌ . وهذا المثل كالذي قبله في المعنى، لأنَّ
الضَّبَّ حيوان بَرِّيٌّ، لا يرد الماء ويلزم الصحراء، وأكثر ما يكون في الكُدَى، كما قال خالد
ابن علقمة :

تَرَى الشَّرَّ قَدْ أَفْنَى دَوَائِرِ وَجْهِهِ كَضَبُ الكُدَى أَفْنَى بَرَاثِينِهِ الحَفْرِ
وقال الآخر :

فَلَلَهُ أَرْضٌ يَعْلَمُ الضَّبُّ أَنَّهَا بَعِيدٌ مِنَ الْآفَاتِ طَيِّبَةُ الْبَقْلِ
بَنَى بَيْتَهُ فِيهَا عَلَى رَأْسِ كُدِيَةٍ وَكَلُّ أَمْرِيءٍ فِي حَرْفَةِ الْعَيْشِ ذُو عَقْلٍ
وَمِنْ عَجِيبِ أَمْرِهِ أَنَّهُ يَعِيشُ سَبْعِمِائَةَ سَنَةٍ وَلَا تَسْقُطُ لَهُ سِنَّةٌ، وَهُوَ لَا يَشْرَبُ الْمَاءَ . وَيَقَالُ
إِنَّهُ يَبُولُ فِي كُلِّ أَرْبَعِينَ يَوْمًا مَرَّةً . وَمِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ : لَا أَفْعَلَ ذَلِكَ حَتَّى يَرْدَ
الضَّبُّ، كَمَا يَقُولُونَ : حَتَّى يَشِيبَ الْغُرَابُ . وَمِنْ الْكَلَامِ الْمَوْضُوعِ عَلَى أَلْسِنَةِ
الْعَجَمَاوَاتِ، قَالَتِ السَّمَكَةُ : رَدُّ يَاضِبٌ ! فَقَالَ :

أَصْبَحَ قَلْبِي صَرْدًا لَا يَشْتَهِي أَنْ يَرْدَا
وَالنُّونُ حيوان بحريٌّ لَا يَفَارِقُ الْمَاءَ أَبَدًا، فَلَا يَجْتَمِعَانِ . قَالَ الصَّابِيُّ :

الضَّبُّ وَالنُّونُ قَدْ يُرْجَى اجْتِمَاعُهُمَا وَلَيْسَ يُرْجَى اجْتِمَاعُ الْمَالِ وَالْأَدَبِ⁽¹³⁾
وقال الآخر :

وَلَوْ أَنَّهُمْ جَاؤُوا بِشَيْءٍ مُقَارِبٍ لَقُلْتُ : هُوَ الشَّكُّ الْمَوَافِقُ لِلشَّكْلِ
وَلَكِنَّهُمْ جَاؤُوا بِحِيتَانِ لُجَّةٍ تَقَامِسُ وَالْمَدْعُوَّ فِينَا أَبَا الْحِسَكِ⁽¹⁴⁾
وَلِمَا بَيْنَ الضَّبِّ وَالنُّونِ مِنَ التَّنَافِي وَالتَّقَابِلِ، قَالَ حَاتِمُ الْأَصَمِّ أَوْ غَيْرُهُ :

(13) فِي ج : « وَلِلْوَلَدِ » بَدَلُ « وَالْأَدَبِ » .

(14) فِي ج : أَبُو الْحِسَكِ .

وكيف أخافُ الفقيرَ واللَّهُ رازقي ورأزق هذا الخلق في العسر واليسر ؟
تكفك بالأرزاق للخلق كلَّهم وللضَّبَّ في البيدا وللحوت في البحر
ولوضوح ذلك يقال، عند التجهيل، : فلان لا يفرِّقُ بين الضَّبِّ والنُّون.

أَجْمَلُ مِنَ الْمُذْهَبِ .

الْجَمَالُ : الْحُسْنُ ؛ جَمَلَ الشَّخْصِ، بِالضَّمِّ، يَجْمَلُ، فَهُوَ جَمِيلٌ، وَالْمُذْهَبُ هُوَ
ابنِ عَدْنَانَ، كَانَ فَائِقًا فِي الْجَمَالِ وَالْبَهَاءِ . فَضَرَبَتِ الْعَرَبُ بِجَمَالِهِ الْمَثَلُ.

الْجَمَلُ مِنَ جَوْفِهِ يَجْتَرُّ .

الْجَمَلُ، يَفْتَحَتَيْنِ مِنَ الْإِبِلِ مَعْرُوفٍ، وَالْجِرَّةُ، بِكَسْرِ الْجِيمِ وَتَفْتَحٍ، مَا يَخْرُجُهُ الْبَعِيرُ
مِنْ جَوْفِهِ، فَيَأْكُلُهُ ثَانِيَةً . وَيُقَالُ : اجْتَرَّ الْجَمَلُ فَعَلَ ذَلِكَ، يَجْتَرُّ اجْتِرَارًا . وَهَذَا الْمَثَلُ
يُضْرَبُ لِمَنْ يَأْكُلُ مِنْ كَسْبِهِ، أَوْ يَنْتَفِعُ بِشَيْءٍ يَعُودُ مِنْهُ الضَّرَرُ .

تَجَنَّبَ رَوْضَةً وَأَحَالَ يَعْدُو .

التَّجَنَّبُ مَعْرُوفٌ، وَالْأَحَالَةُ هُنَا الْإِقْبَالُ . يُقَالُ : أَحَالَ عَلِيدٌ بِالسُّوْطِ، أَيِ أَقْبَلَ عَلَيْهِ .
قَالَ الشَّاعِرُ :

وَكُنْتُ كَذَنْبُ السُّوءِ لَمَّا رَأَى دَمًا بِصَاحِبِهِ يَوْمًا أَحَالَ عَلَى الدِّمِّ
وَمَعْنَاهُ : تَجَنَّبَ الْخَصْبَ وَاخْتَارَ الضَّيْقَ . يُضْرَبُ فِي الرَّجُلِ تَعَرُّضُ عَلَيْهِ الْكَرَامَةُ فَيَخْتَارُ
الْهُوَانَ.

أَجَنُّ مِنْ دُقَّةَ .

الْجُنُونُ مَعْرُوفٌ . يُقَالُ : جُنَّ الرَّجُلُ، بِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، فَهُوَ مَجْنُونٌ، وَأَجَنُّ مِنْ كَذَا،
بَنَوُهُ مِنْ فَعَلَ الْمَفْعُولَ شَذُوذًا، كَمَا قَالُوا : أَشْغَلَ مِنْ ذَاتِ النَّحِييْنِ، وَأَزْهَى مِنْ
دِيكٍ، وَسَيَّاتِيَانِ، وَدُقَّةٌ، بِضَمِّ الدَّالِ الْمَهْمَلَةِ وَتَشْدِيدِ الْقَافِ، اسْمُ [رَجُلٍ]، وَهُوَ دُقَّةُ بْنُ
عَبَابَةَ، يُضْرَبُ بِجُنُونِهِ الْمَثَلُ.

أَجُودٌ مِنْ لَافِظَةٍ .

الجُودُ معروف، ضِدُّ البُخْلِ . ويُقال أيضا : أَسَمَحُ مِنْ لَافِظَةٍ ؛ والسَّمَاحُ هو الجود . واختلف في اللفظة، ف قيل : البَحْرُ لَأَنَّهَا تَلْفُظُ بِالذُّرَّةِ الْجَلِيلَةِ الَّتِي لَا قِيَمَةَ لَهَا، وَالهَاءُ لِلْمَبَالِغَةِ . قال الشاعر :

يَدَاكَ يَدٌ خَيْرُهَا يُرْتَجَى وَأُخْرَى لِأَعْدَائِهَا غَائِظَةٌ
فَأَمَّا الَّتِي خَيْرُهَا يُرْتَجَى فَأَجُودٌ جُودًا مِنْ اللَّافِظَةِ
وَأَمَّا الَّتِي شَرُّهَا يُتَّقَى فَفَنَفْسُ الْعَدُوِّ بِهَا فَائِظَةٌ

وقال الآخر :

تَجُودُ فَتَجَزُلُ قَبْلَ السُّؤَالِ وَكَفُوكَ اسْمَحُ مِنْ لَافِظَةٍ
وقيل : اللَّافِظَةُ الرَّحَى، لِأَنَّهَا تَلْفِظُ مَا تَطْحَنُهُ وَلَا تَبْقَى . وقيل إِنَّهَا الْعَنْزُ، وَجُودُهَا أَنَّهَا تُدْعَى إِلَى الْحَبِّ، وَهِيَ تَعْتَلِفُ، فَتَلْقِي مَا فِي فِيهَا . وتقبل إلى الحالب . وقيل إِنَّهَا الْحَمَامَةُ، لِأَنَّهَا تُخْرِجُ مَا فِي بطنها لفرخها . وقيل هي الديك، لِأَنَّهُ يَأْخُذُ الْحَبَّةَ بِمَنْقَارِهِ، فَلَا يَأْكُلُهَا، وَلَكِنْ يَلْقِيهَا إِلَى الدَّجَاجَةِ، إِلَّا الْمُسْنَ مِنْهَا، فَإِنَّهُ لَا سَتَغْنَاءَهُ عَنِ الدَّجَاجِ يَأْكُلُ الْحَبَّ دُونَهَا وَيَمْنَعُهَا مِنْهُ .

الْجَوَادُ يَكْبُو .

الْجَوَادُ هُوَ الْكَرِيمُ مِنَ الْخَيْلِ، يَجُودُ بِمَا فِي طَاقَتِهِ مِنَ الْحَرْبِ . وَالْكَبُوُ : الْعِثَارُ . يُقَالُ : كَبَا، يَكْبُو، كَبُوءًا وَكَبُوءًا . وَيُقَالُ فِي هَذَا الْمَثَلِ أَيْضًا : لِكُلِّ جَوَادٍ كَبُوءَةٌ، وَهُوَ أَنَّ الْكَامِلَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُذَمَّ إِذَا وَقَعَتْ مِنْهُ هَفْوَةٌ، كَقَوْلِهِمْ فِي الْمَثَلِ الْآخَرِ: لَا تَعْدِمُ الْحَسَنَاءُ ذِمَّتًا . وَسَيَأْتِي جَمِيعُ ذَلِكَ . وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ دُرَيْدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى :

وَالطَّرْفُ يَجْتَازُ الْمَدَى وَرُبَّمَا عَنْ لَمْعَدَاهُ عِثَارٌ فَكَبَا
وَقُلْتُ أَنَا :

وَكَرِيمُ الْجِيَادِ يَكْبُو، وَمَا فِي كَبُوءَةٍ لِلْجَوَادِ مِنْ نَقْصَانِ

أَجْنَأُهَا أَبْنَأُهَا .

الأَجْنَاءُ جمع جَانٍ . يُقَالُ : جَنَى فلانٌ على فلانٍ، يَجْنِي عليه، فهو جَانٍ، وهُم جُنَاءٌ⁽¹⁵⁾ وأَجْنَاء . وهذا الثاني نادر، إذ لا يُجمع فاعلٌ على أفعَال، والأَبْنَاء جمع بَانٍ، وهو نادر . والمعنى أن الذين جنوا على هذه الدار - مثلاً بالهدم - هم الذين كانوا بنوها . ومضرب المثل من هذا واضح . قال الجوهري : وأنا أظن أن أصل المثل : جُنَاتُهَا بُنَاتُهَا، لأنَّ فاعِلًا لا يجمع على أفعَال ؛ أمّا الأشهاد والأصحاب، فإنما هو جمع شَهِد وصَحْب، إلا أن يكون هذا من النوادر، لأنَّه يجيء في الأمثال مالا يجيء في غيرها . انتهى . وهو ظاهر .

يُجْنَى مِنَ الشَّوْكِ الثَّمَرُ .

تقدّم تفسير هذه الألفاظ في الباب الأوّل . والمعنى أنك إذا ظلمت فاحذر الانتصار والانتقام !

تَجُوعُ الحرّةُ ولا تَأْكُلُ بِثَدْيَيْهَا .

الجُوعُ ضدّ الشَبَع . والحرّةُ ضدّ الأمّة، والأكل معروف ؛ وكذا الثدي وجمعه ثُدَيٌّ . قال الشاعر :

أَبَتِ الرِّوَادِفُ والثُّدَيُّ لِقَمَصِهَا مسَّ البطونَ وأن تَمَسَّ ظُهورَهَا⁽¹⁶⁾
ويحكى أن النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سئل : أيكون المؤمن كذاباً ؟ فقال : تَجُوعُ الحرّةُ ولا تَأْكُلُ بِثَدْيَيْهَا . ومعناه أن الحرّة قد يصيبها ألم الجوع وشدة الاضطرار، ولا تؤاخر نفسها على الارضاع [لتأكل أجرة رضاعها]، فتلزم نفسها الاضطراب صوتاً لنفسها عن الهوان والابتذال . فيضرب في الحرّ يصون نفسه عن قبيح المكاسب، ولا تمنعه شدة فقره وحاجته أن يلزم صيانتته ويحفظ مروءته .

وأصل المثل للحارث الأزدي - أو الأسدي - وكان خطب الى علقمة بن حفص الطائي بنته

(15) في بعض النسخ جُنَاء، وفي بعضها جُنَاءة، وكلاهما صحيح.

(16) في ب : ظهورا.

ريًا بنت علقمه، وكان الحارث شيخا . فقال علقمة لامرأته : اختبري ما عند ابنتك ! فقالت لابنتها : أي بنيّة، أيّ الرجال أحبّ إليك : الكهل الجحاح، الواصل المياح، أم الفتى الوضّاح، الذهول الطمّاح ؟ قالت : بل الفتى . قالت : إنّ الفتى يغريك، وإنّ الشيخ يمرّيك . قالت : يا أمّته، إنّ الفتاة تحب الفتى كحبّ الرعاء أنف الكلا . قالت : يا بنيّة، إنّ الفتى شديد الحجاب، كثير العتاب . قالت : يا أمّته، أخاف من الشيخ أن يدنس ثيابي، ويبلّي شبابي، ويشمت بي أترابي ! فلم تزل بها أمّها حتى غلبتها على رأيها، فتزوّجها الحارث وارتحل بها الى أهله . فبينما هو ذات يوم بفنائها، وهي الى جنبه، إذ أقبل شباب من بني أسد . فتنفّست الصعداء ثمّ بكت . فقال لها : ما يبكيك ؟ قالت : مالي وللشيوخ، الناهضين/الفُروخ، من كلّ حَوْقَلٍ فَنِيخ ؟ فقال : ثكلتك أمّك ! تَجُوعُ الحرّةُ ولا تَأْكُلُ بِثَدْيَيْهَا . ثمّ قال : وأبيك ! لربّ غارة شهدتها، وسبيّة أرفدتها، وخمرة شربتها، فالحقي بأهلك، فلا حاجة لي فيك !

وقال أبو عبيد في هذا المثل إنّه من أمثال أكثمَ بن صيّفي . قال : وهو مثل قديم، لكن العامّة ابتذلتة وحوّلته فقالت : ولا تَأْكُلُ ثَدْيَيْهَا، يعني بإسقاط حرف الجرّ . قال بعض العلماء : ليس هذا بشيء إنّما بِثَدْيَيْهَا، ومعناه عندهم الرضاع . يقول لا تكون ظيّر القوم على جُعَلٍ تأخذه منهم . انتهى .

وقال بعض الأئمّة : إنّ العرب كانوا يعدّون أخذ الأجر على الرضاع سُبّةً، ولذلك قيل : تَجُوعُ الحرّةُ ولا تَأْكُلُ ثَدْيَيْهَا . وقال العلماء : بِثَدْيَيْهَا . والقولان صحيحان، لأنّها إذا أكلت ثمن لبنها فكأنّها قد أكلت ثدييها . قال الرازي :

إِنَّ لَنَا أَحْمِرَةً عِجَافًا يَأْكُلْنَ كُلَّ لَيْلَةٍ أَكْافًا

أي : نبيع كلّ ليلة أكافًا من أكفّتها ونعلفها ثمنه . قال : وكذلك قول الآخر في وصف إبل : نَطْعِمُهَا إِذَا شَتَّتْ أَوْلَادَهَا، أي أثمان أولادها . انتهى .

وقال السهيلي في الروض : والتماس الأجر على الرضاع لم يكن محمودًا عند أكثر نساء العرب، حتّى جرى المثل : تَجُوعُ الحرّةُ ولا تَأْكُلُ بِثَدْيَيْهَا . وكان عند بعضهم لا بأس به، فكانت حلّمة وسيطة في بني سعد، كريمة من كرائم قومها، بدليل اختيار اللّه إيّاها لرضاع نبيّه صلّى اللّه عليه وسلّم، كما اختار له أشرف البطون والاصلاب . والرضاع كالنسب، لأنّه يغيّر الطباع.

وفي المسند عن عائشة ترفعه : لا تَسْتَرْضِعُوا الحَمَقَى، فَإِنَّ اللَّبَنَ يُوْرث !
ويُحتمل أن تكون حليلة وقومها طلبن الرضعاء للأزمة التي أصابتهم، والسنة الشهباء التي
أقحمتهم اضطرارا . قال : وأما دفع قريش وغيرهم من أشراف العرب أولادهم الى المراضع،
فقد يكون ذلك لوجوه : أحدها تفريغ النساء الى الأزواج، كما قال عمّار بن ياسر لأمّ سلمة
- وكان أخاها من الرضاعة - حين انتزع من حجرها زينب بنت أبي سلمة، فقال : دعي هذه
المقبوحة المشفوعة التي آذيت بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ! وقد يكون ذلك
منهم أيضا لينشأ الطفل في الأعراب، فيكون أفصح للسانه، وأجلد لجسمه، وأجدر أن لا يفارق
الهيئة المَعْدِيّة، كما قال عمر : تَمَعْدُدُوا وَتَمَعَزُّزُوا وَاخْشَوْشِنُوا ! وقد قال
عليه الصلاة والسلام لأبي بكر - حين قال له : ما رأيت أفصح منك، يا رسول الله - فقال :
وَمَا يَمْنَعُنِي، وَأَنَا مِنْ قَرَيْشٍ، وَأَرْضِعْتُ فِي بَنِي سَعْدٍ ؟ فهذا ونحوه
كان يحملهم على دفع الرضعاء الى الأعرابيات . وقد ذكر أنّ عبد الملك بن مروان كان
يقول: أضرب بنا حبّ الوليد ! لأنّ الوليد كان لحّانا، وكان سليمان فصيحا، لأنّ الوليد أقام
مع أمّه وسليمان وغيره من إخوته أسكنوا البادية فتعرّبوا، ثمّ أدّبوا فتأدّبوا . انتهى .
وقد قلت في نظم المثل المذكور، من قصيدة :

يَعْرِى الْفَتَى وَيَجُوعُ وَهُوَ يُرَى مُتَجَمِّلًا بِالصَّبْرِ وَالْبَشْرِ
وَالْحُرَّةُ الشَّمَاءُ رُبَّتَمَا جَاعَتْ وَلَمْ تَرْضِعْ عَلَى أَجْرِ

جَوْعُ كَلْبِكَ يَتْبَعُكَ !

الجَوْعُ تقدّم . وجَوَّعْتَ فلانا، وأَجَعْتَهُ : تركته بلا طعام حتّى جاع ؛ والكلب
معروف ؛ وكذا الاتِّبَاعُ . والمثل ظاهر المعنى . قيل : وأوّل من قاله ملك من ملوك حِمْيَرَ
كان جبّارا عنيفا على أهل مملكته، يغصبهم أموالهم وما في أيديهم . وكانت الكهنة تخبره
أنّهم سيقتلونه وهو لا يبالي بذلك . وسمعت امرأة له أصوات السؤّال فقالت له : إنّني
لأرحم هؤلاء لِمَا يلقون من الجهد، ونحن في العيش الرغد . وإنّني أخاف أن يكونوا عليك
سباعا، بعد أن كانوا لك أتباعا ! فردّ عليها : جَوْعُ كَلْبِكَ يَتْبَعُكَ ! فأرسلها
مثلا . ثمّ إنّّه لبث كذلك زمانا، ثمّ أغزاهم مع أخيه، فغنموا ولم يقسم فيهم شيئا . فقالوا

لأخيه : قد ترى ما نحن فيه من الجهد، ونحن نكره خروج الملك منكم الى غيركم، فساعدنا على قتل أخيك واجلس مكانه ! وعرف أخوه بغيه واعتداه، فأجابهم الى ذلك، فوثبوا عليه فقتلوه . فيقال إنَّه مرَّ به رجل يقال له عامر بن جذيمة، وهو مقتول، وقد سمع قوله : حَوْعٌ كَلْبِكَ يَتَّبَعُكَ ! فقال : ربَّما أكل الكلبُ مُجَوَّعَه، إذا لم ينل شبعه ! وقال أبو جعفر المنصور يوماً لقواده : صدق الأعرابي حيث يقول : أجمعُ كَلْبِكَ يَتَّبَعُكَ ! فقال له أبو العباس الطوسي منهم : يا أمير المؤمنين أخشى أن يلوِّح له رجل برغيف فيتبعه ويدعك !

أَجْوَعُ مِنْ ذَنْبٍ .

الذَّئْبُ معروف، يُهْمَز وَيُخَفَّف، والأنثى ذَيْبَةٌ . قال الشاعر :

فصِرتُ كَنَعَجَةٍ تَضْحِي وتُمْسِي تَرَدَّدُ بَيْنَ أَخْبَثِ ذَيْبَتَيْنِ
والذئب يوصف بالجوع المفرط، ومن ثمَّ يقال للجوع داء الذئب . يُقال : رَمَاهُ اللَّهُ بِدَاءِ
الذَّئْبِ، أي الجوع . وهو - مع ذلك - شديد الصبر عليه، وربَّما اكتفى بالنسيم . ويقال
إنَّه إذا ألحَّ عليه الجوع عوى، فتجتمع عليه الذئاب، فتحمل على الانسان حملة واحدة،
وكلَّ منها حريص عليه ؛ إلاَّ أنَّه إذا أدْمى منها واحدٌ وثبت عليه البواقي وترك الانسان
. ومن ثمَّ قال الشاعر يعاتب صديقاً له أعان عليه في أمر نزل به :

وكنْتَ كذئب السَّوءِ لمَّا رأى دماً بصاحبه يوماً أحوال على الدَّمِ (17)
وقال العُجَيْرُ السَّلُولِي :

تركنا أبا الأضيافِ في ليلة الدُّجى يَمَرُّ ومِرْدَى كلِّ خصمٍ يُجادله (18)
تركنا فتى قد أيقن الجوع أنَّه إذا ما ثوى في أرحك القوم قاتله
فتى قدَّ قَدَّ السيف لا متضائل ولا رهك لمَّاته وبَّأدله (19)
إذا القوم أمَّوا بيته فهو عامدٌ لأحسن ما ظنَّوا به فهو فاعله
جوادٌ بدنياه بخيلٌ بعرضه عطوفٌ على المولى قليلٌ غوائله

(17) هذا البيت مكرر، إذ أورده المؤلف في المثل السابق : تجنب روضة وأحوال يعدو .

(18) في الحماسة : « في ليلة الصَّيا » بدل «ليلة الدجى» .

(19) في الحماسة : « لبَّاته وأباجَّله » بدل « لماته وبَّأدله » .

فتى ليس لابن العم كالدئب إن رأى
بصاحبه يوماً دماً فهو أكيد
إذا جدّ عند الجدّ أرضاك جدّه
وذو باطلٍ إن شئت أرضاك باطله
يسرُّك مظلوماً ويرضيك ظالماً
وكلُّ الذئبي حملته فهو حامله

أَجْوَعُ مِنْ كَلْبَةٍ حَوْمَكِ .

الكلبة الأنثى من الكلاب معروفة ؛ وحومك، بالحاء المهملة، - على مثال جوهَر - امرأة من العرب كانت لها كلبة تجوعها بالنهار، وهي تحرسها بالليل . فكانت تربطها بالليك للحراسة وتطردها بالنهار، وتقول : التمسى لا ملتمس لك ! حتّى طال عليها الأمر فأكلت ذنبها جوعاً . قال الشاعر :

كما رضيتُ جوعاً وسوءَ ولايةٍ لكلبتِها في أوّلِ الدَّهرِ حومَكُ

أَجْوَعُ مِنْ لَقْوَةٍ .

اللقوة، بفتح اللام : الكلبة . وفيها يقال : أجوعُ من لقوةٍ، قاله بعض النّاس . والمعروف في كتب اللغة أنه اللقوة، بالفتح وتكسر، المرأة السريعة اللقاح كالناقة . ومنه المثل الآتي : لقوةٌ صادقتُ قبيساً ؛ وكذا العقاب الأنثى . قال امرؤ القيس : كأني بفتّخ الجناحين لقوة صيودٍ من العقبان طأطأتُ شملالي وقال أبو عبيدة : سميت العقاب لقوة لسة أشداقها . وكأنّه عنده مأخوذ من اللقوة، وهو الداء المعروف الذي يصيب في الوجه . يقال لقيّ الرجل - بالبناء للمفعول -، فهو ملقوّ .

أَجُولُ مِنْ قُطْرُبٍ .

يقال : جالٌ، جولاناً، فهو جائلٌ وجوّالٌ ؛ والقُطْرُب طائر يبيت سائراً لا ينام اللّيل كلّهُ . ويقال دؤيبة . ويقال إنه دؤيبة لا تستريح نهارها سعيّاً . وكان محمد بن المستنير النحوي يكرّ الى مجلس سيبويه، فلا يفتح الباب إلّا وجده، فقال له : ما أنت إلّا قُطْرُب ليل ! فبقي عليه قطرب لقباً . ويُطلق القطرب أيضا على الذئب الأمعط، وعلى الفأر، وعلى

اللص، وعلى ذكر الغيلان، وغير ذلك من المعاني .

وذكر ابن ظفر أن القطرب حيوان يكون بالصعيد من أرض مصر، يظهر للمنفرد من الناس، فربما صدّه عن نفسه إن كان شجاعا، وإلا، لم يزل به حتّى ينكحه، فإذا نكحه داد دبره فهلك . وهم إذا رأوا من ظهر له قطرب قالوا : منكوح أم مروّع ؟ فإن قال : منكوح أيسوا منه، وإن قال : مروّع عالجوه، واللّه أعلم . وسيأتي ذكر نحو هذا الحيوان في قولهم ألوط من عُدَار، في حرف اللّام، إن شاء اللّه تعالى .

الجار، قَبْلَ الدَّار .

روى هذا حديثا عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : الجارُ قَبْلَ الدَّارِ، والرّفيقُ قَبْلَ الطّريقِ . ويروى : الجارَ والرّفيقَ، مرفُوعَيْنِ، والنصب فيهما حسن، أي : التمس الجار قبل الدّار، والتمس الرفيق قبل الطريق . وقال أبو تمام في هذا المعنى :
مَنْ مُبْلَغٌ أَبْنَاءَ يَعْرُبَ كُلِّهَا أَنِّي ابْتَنَيْتُ الْجَارَ قَبْلَ الْمَنْزِلِ ؟
وقال الآخر :

يقولون : قبل الدّار جارٌ مُوافقٌ وقبل الطّريق النّهج أنسُ طريق
فقلتُ : ونَدَمَانُ الْفَتَى قَبْلَ كَأْسِهِ فما حَتَّ كَأْسَ الْخَمْرِ مِثْلُ صَدِيقٍ
وقال الآخر في المعنى :

يلومونني أن يَعتُ بالرُّخصِ منزلي ولم يعلموا جارًا هُناكَ يُنْغَصُ
فقلت لهم : بعضُ الملام ! فَإِنَّمَا يجيرانها تغلو الدّيارُ وترْخَصُ

جاء بالضّم والريّح

المجيء معروف، والضّم بكسر الضاد المعجمة بعدها حاء مهملة مشدّدة يطلق على الشمس وما طلعت عليه الشمس . وفي الحديث : لا يَقْعُدَنَّ أَحَدُكُمْ بَيْنَ الضّمِّ والظّلِّ، فَإِنَّهُ مَقْعَدُ الشَّيْطَانِ . ذكره في الصحاح، وأنشد لذي الرمة :
غَدَا أَكْهَبَ الْأَعْلَى وَرَاحَ كَأَنَّهُ من الضّمِّ واستقباله الشَّمْسُ أَخْضَرُ
أي استقباله عين الشمس . وقال علقمة : أَبْيَضُ أَبْرَزُهُ لِلضّمِّ رَاقِبُهُ⁽²⁰⁾

والريّح معروفة . ومعنى جَاءَ بالضّم والريّح : جاء بما طلعت عليه الشمس وما جرت

(20) هذا شطر بيت أنشده الأصمعي، وشطره الثاني :
مَقْلَدٌ قُضِبَ الرِّيحَانِ مَفْغُومٌ .

عليه الريح . يقال ذلك عندما يجيء بالشيء الكثير . قال في الصحاح : والعامّة تقول :
جاءَ بِالضَّيْحِ والرَّيْحِ، يعني الضيْح، بالياء المثناة من تحت . قال : وليس بشيء .
انتهى . ومثله لصاحب القاموس .

جاءَ بِالْحَظْرِ الرَّطْبِ .

الْحَظْرُ، بالطاء المشالة - على مثال كَتَفَ - الشجر المحتظر به والشوك الرطب .
والرَّطْبُ خلاف اليابس، فيقال : جاء فلان بِالْحَظْرِ الرَّطْبِ، أي بكثرة من المال والناس،
وقيك بالكذب المُسْتَبْشَع . ويقال أيضا : أوقد فلان في الحَظْرِ الرطب، إذا نَمَّ . ووقع
في الحظر الرطب إذا وقع فيما لا طاقة له به . وذلك كَلَّه ظاهر .

جاءَ بِالطَّمِّ والرَّمِّ .

الطَّمُّ، بكسر الطاء المهملة، قيق الماء، وقيق ما على وجه الماء، وقيق ما ساقه من الغُثَاءِ
[ويطلق أيضًا على البحر، وعلى العدد الكثير، وعلى العجب وغير ذلك من المعاني . والرَّم
بكسر الراء : ما يحمله من الغُثَاءِ]،⁽²¹⁾ أو ما على وجه الأرض من فُتَات الحشيش . ومعنى
جاءَ بِالطَّمِّ والرَّمِّ : جاءَ بِالمالِ الكَثِيرِ . وقيق : بِالرَّطْبِ وَالْيَابِسِ، أو بالتُّرَابِ
والماء، أو بالبحر والثرى . وقال بعض الناس : الطَّمُّ، بالكسر، إذا كان مع الرَّمِّ ؛ فإذا
أُفرد فُتِمَ فقيق : جاءَ بِالطَّمِّ مفتوحًا، كما قالوا : هَتَّانِي بالطعام ومَرَّانِي ؛ فإذا
أفردوا لم يقولوا إلا أمرَّانِي .

جاءَ بِمَا صَأَى وَصَمَتَ .

يقال : صَأَى الفَرخُ وغيره، يَصْأَى - كَسَعَى يَسْعَى - صَائِيًا - على مثال
فَعِيل - إذا صَوَّتَ . قال :

مَالِي إِذَا أَنْزَعُهَا صَائِتُ ؟ أَكْبَرُ غَيْرَنِي أَمْ بَيْتُ ؟
وَصَمَتَ، يَصْمِتُ، كَكَتَبَ، يَكْتُبُ، صَمَتًا وَصُمُوتًا، إِذَا سَكَتَ . فيقال :
جاءَ بِمَا صَأَى وَصَمَتَ : إِذَا جاءَ بِالمالِ الكَثِيرِ، أي بِالمالِ الناطق والصامت . والتقدير :
جاءَ بِمَا صَأَى وَبِمَا صَمَتَ، بحذف الموصول الثاني اختصارًا، كقول حسان رضي
الله عنه :

أَمِنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءٌ ؟
 أي : مَنْ يَهْجُوهُ وَمَنْ يَمْدَحُهُ ، لاسْتِحَالَةِ اجْتِمَاعِ الْوَصْفَيْنِ فِي مَوْصُوفٍ وَاحِدٍ ، وَكَذَا
 الصَّنَائِيُّ وَالصَّمْتُ لَا يَجْتَمِعَانِ . وَالصَّامِتُ مِنَ الْمَالِ : الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ ، وَالنَّاطِقُ :
 الْإِنْسَانُ مَثَلًا . وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ : حَصَلَ النَّاطِقُ وَالصَّامِتُ ، وَهَلَكَ الْحَاسِدُ وَالشَّامِتُ .
 وَقَدْ يُقَالُ : جَاءَ بِمَا صَاءَ وَصَمَّتْ . وَصَاءٌ مَقْلُوبٌ صَائِي ، كَمَا قَالُوا : رَأَى فِي رَأَى .
 وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ فِي الْمَثَلِ الْآخِرِ فِي الْعَقْرِ : تَلَدَّغُ وَتَصَيَّءُ .

جَاءَ صَرِيمٌ سَخِرَ .

أي خائبًا آيسًا . (22)

جَاءَ يَضْرِبُ أَسْدَرِيَهُ .

ويقال أيضًا : جَاءَ يَضْرِبُ أَسْدَرِيَهُ - بِالضَّادِ - وَأَزْدَرِيَهُ - بِالزَّايِ - ، وَالْمَعْنَى
 فِي الْجَمِيعِ وَاحِدٌ . وَالْأَسْدَرَانِ عِرْقَانِ تَحْتَ الصُّدْغَيْنِ ، وَقِيلَ الْمَنْكِبَانِ ، وَقِيلَ
 الْعِطْفَانِ ، يُقَالُ : جَاءَ يَضْرِبُ أَسْدَرِيَهُ ، أَوْ أَسْدَرِيَهُ ، أَيِ يَضْرِبُ عِطْفِيهِ
 وَمَنْكِبِيهِ . وَمَعْنَاهُ : جَاءَ فَارِعًا لَيْسَ بِيَدَيْهِ شَيْءٌ وَلَمْ يَقْضِ حَاجَةً . فَإِذَا قَضَاهَا قِيلَ :
 جَاءَ ثَانِيًا مِنْ عِنَانِهِ .

ويروى أَنَّ الْحَسَنَ الْبَصْرِيَّ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، رَأَى النَّاسَ يَوْمَ عِيدٍ يَضْحَكُونَ فَقَالَ : تَلْقَى
 أَحَدَكُمْ أَبْيَضَ بَضًا ، يَمْلَخُ فِي الْبَاطِلِ مَلَخًا ، يَنْفَضُ مِذْرَوِيَهُ ، وَيَضْرِبُ
 أَسْدَرِيَهُ ، يَقُولُ : هَا أَنَا ذَا فَاعْرِفُونِي ! قَدْ عَرَفْنَاكَ ، فَمَقَّتْكَ اللَّهُ وَمَقَّتْكَ الصَّالِحُونَ !
 وَمَعْنَى يَمْلَخُ فِي الْبَاطِلِ يَلْجُ فِيهِ ؛ وَقِيلَ يَتَتَنَّى .

جَاءَ يَفْرِي وَيَقْدُ .

الْفَرِيُّ : الْقَطْعُ . تَقُولُ : فَرَيْتُ الشَّيْءَ ، أَفْرِيهِ ، فَرِيًّا ، إِذَا قَطَعْتَهُ عَلَى

(21) سَقَطَ مَا بَيْنَ مَعْقُوفَتَيْنِ مِنْ ب .

(22) الصَّرِيمُ : الصَّبِيحُ وَاللَّيْلُ أَوْ الْقِطْعَةُ مِنْهُ . وَالسَّجَرُ : الرَّيَّةُ . وَأَنْشُدُوا فِي هَذَا الْمَعْنَى :
 أَيْذَهَبُ مَا جَمَعْتُ صَرِيمَ سَخِرَ
 وَمَعْنَى الطَّلِيفِ : الْمَجَانُ .

وجه الإصلاح . وأَفَرَيْتُهُ إِذَا قَطَعْتَهُ عَلَى وَجْهِ الْإِفْسَاد . قَالَ زَهِير :

وَلَأَنْتَ تَفَرِّي مَا خَلَقْتَ، وَبَعْضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفَرِّي
أَصْلُهُ أَنَّ الرَّجُلَ يَخْلُقُ الْأَدِيمَ أَيَّ يَتَهَيَّأُ لِإِصْلَاحِهِ وَيَقْدَرُهُ، ثُمَّ يَفْرِيه أَيَّ يَقْطَعُهُ . لِذَلِكَ
يَقُولُ : إِنَّكَ إِذَا تَهَيَّأْتَ لِأَمْرٍ أَنْفَذْتَهُ وَأَمْضَيْتَهُ، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَهْمُ وَلَا يَفْعَلُ .
وَقِيلَ : إِنَّ فَرَى، وَأَفَرَى، وَفَرَى، بِمَعْنَى وَاحِدٍ، كُلُّ ذَلِكَ يَكُونُ فِي الْقِطْعِ لِلِإِصْلَاحِ
وَالْإِفْسَادِ وَتَقُولُ : فَرَيْتُ الْمَزَادَةَ إِذَا خَلَقْتَهَا وَصَنَعْتَهَا . قَالَ الرَّاجِزُ :

شَلَّتْ يَدَا فَارِيَةٍ فَرَّتْهَا مَسَكَ شَبُوبٍ ثُمَّ وَفَرَّتْهَا
لَوْ كَانَتْ السَّاقِي صَغَرَتْهَا

وَالْقَدُّ : الْقِطْعُ طَوْلًا . يُقَالُ : قَدَّ الْأَدِيمَ إِذَا شَقَّهُ طَوْلًا . وَمَعْنَى : جَاءَ يَفَرِي وَيَقْدُ :
جَاءَ يَعْمَلُ عَمَلًا مُحْكَمًا . وَيُقَالُ أَيْضًا : هُوَ يَفَرِي وَيَقْدُ . وَيُقَالُ : يَفَرِي الْفَرَى،
بِمَعْنَاهُ .

جَاءَ بِأُمِّ الرُّبَيْقِ، عَلَى أَرَيْقِ .

أُمُّ الرُّبَيْقِ : الدَّاهِيَةُ ؛ وَالْأَرَيْقُ أَصْلُهُ وَرَيْقٌ - بِالْوَاوِ - فَقُلِبَتْ هَمْزَةٌ . وَالْوَرَيْقُ
تَصْغِيرُ أَوْرَقٍ، تَصْغِيرُ التَّرْخِيمِ، كَمَا يُقَالُ فِي أَسْوَدَ سُؤِيدٍ، وَفِي أَحْمَرَ حُمَيْرٍ، وَفِي
أَدْرَدَ دُرَيْدٍ . وَالْأَوْرَقُ مِنَ الْإِبِلِ مَا فِي لَوْنِهِ بَيَاضٌ إِلَى سُودٍ . وَقِيلَ : كَانَ أَصْلُهُ أَنْ يَقُولَ
أَوْيَرِقُ عَلَى أَصْلِهِ، فَحُذِفَتِ الْوَاوُ لِإِزْدِجِ الْكَلَامِ . وَيُقَالُ إِنَّهُ مِنْ أَطْيَبِ الْإِبِلِ لِحَمَلًا لَا حَمْلًا
وَسِيرًا . وَقِيلَ لِابْنَةِ الْخَسِّ : أَيُّ الْجَمَالِ شَرٌّ ؟ فَقَالَتْ : الْأَوْرَقُ . وَزَعَمُوا أَنَّ رَجُلًا رَأَى غَوْلًا عَلَى
جَمَلٍ أَوْرَقٍ فَقَالَ : جَاءَ بِأُمِّ الرُّبَيْقِ عَلَى أَرَيْقٍ، أَيُّ الْغَوْلِ عَلَى جَمَلٍ أَوْرَقٍ، فَضْرَبَ
مَثَلًا فِي جَنَاحِ عَظِيمِ الدَّوَاهِي (23).

جَاؤُوا مُخْلِينَ فَلَاقُوا حَمَضًا .

يُقَالُ : أَخْلَى الرَّجُلُ إِذَا رَعَى إِبْلَهُ فِي الْخُلَّةِ - وَالْخُلَّةُ، بضمّ الخاءِ المعجمة : كُلُّ مَا
فِيهِ حَلَاوَةٌ مِنَ النَّبَاتِ . مُقَابِلَةُ الْحَمَضِ، بِفَتْحِ الْحَاءِ الْمُهْمَلَةِ . وَيُقَالُ : الْخُلَّةُ خَبِزَ الْإِبِلِ،
وَالْحَمَضُ فَاهَكْتَهَا أَوْ لَحَمَهَا . وَجَاؤُوا مُخْلِينَ : جَاؤُوا وَقَدْ أَكَلَتْ إِبِلُهُمُ الْخُلَّةَ .

(23) فِي ذِ : عَظَامُ الدَّوَاهِي.

وهذا المثل يُضرب لكلّ من جاء متهدّدا فصادف ما يقمع تهدّده . وسنزيده بيانا بعد في محلّه من الشعر، إن شاء الله تعالى .

جَاؤُوا عَلَى بَكْرَةٍ أَبِيهِمْ .

البَكْرَة، بالفتح فالسكون : الفتية من الابل، والفتى منها بكر . وكان يقال البكر من الابل بمنزلة الفتى من الناس ؛ والبكرة بمنزلة الفتاة ؛ والقلوص بمنزلة الجارية الشابة ؛ والبعر بمنزلة الانسان ؛ والجمال بمنزلة الرجل ؛ والناقة بمنزلة المرأة . والبكرة أيضا بكرة الدلو التي يُستقى عليها . واختلف في معنى هذا المثل ف قيل : معنى جَاؤُوا عَلَى بَكْرَةٍ أَبِيهِمْ : جَاؤُوا مُجْتَمِعِينَ ، لم يتخلف منهم أحد . وليس هناك بكرة على الحقيقة . وفي الحديث جَاءَتْ هَوَازْنُ عَلَى بَكْرَةٍ أَبِيهَا . وقيل هو وصف بالقلّة والذلّة، أي جاؤوا بحيث تكفيهم بكرة واحدة يركبون عليها، وذكر الأب احتقار .

وقيل إنّ أصل هذا المثل أنّ قوما قتلوا فحُمِلوا على بكرة أبيهم، ف قيل فيهم ذلك، ثم صار مثلا للقوم يحيئون معًا . وقيل إنّ البكرة هاهنا هي بكرة الدلو، والمعنى : جاؤوا بعضهم في إثر بعض، كدوران البكرة على نسق واحد . وقيل : أريد بالبكرة الطريقة، أي : جاؤوا على طريقة أبيهم يقتفون أثره.

جَاءَ يَنْفُضُ مِذْرَوِيَهُ .

النَّفْضُ معروف ؛ والمِذْرَى الخشبة التي يُنْقَى بها الزرع ؛ والمِذْرَوَانِ جانِبَا الرَّأْسِ، وما يقع عليه الوترُ في القَوْسِ من أعلى وأسفل . قال بعض هُذَيْل : على كلِّ هَتَافٍ المِذْرَوَيْنِ صَفْرَاءَ مُضْجَعَةٍ فِي الشَّمَالِ والمِذْرَوَانِ أيضا طرفَا الأليتين . قال عنتره لعمارة بن زياد :
أَحُولِي تَنْفُضُ اسْتُكَ مِذْرَوِيَهَا ؟ لَتَقْتُلَنِي فَهَا أَنْذَا عُمَارَا !
أي : يا عمارة ! ولا واحد للمِذْرَوَيْنِ في شيء من هذه المعاني . وقيل إنّ واحده مِذْرَى . وردّ بأنّه لو كان كذلك ل قيل في التثنية مِذْرَيَانِ، بالياء لا بالواو . وهذا بحسب الظهور

والرجحان ؛ وإلا فلا مانع من أن يكون هذا من الشَّوْاذٍ .

ومعنى جَاءَ يَنْفُضُ مِذْرَوِيَهُ : جَاءَ يَنْفُضُ طَرْقِيَهُ . ويقال ذلك إذا وُصف بالخِيَلَاء . وأكثر أهل اللغة يقولون : معناه أَنَّهُ جَاءَ متهدِّدًا ، وهذا المفهوم من قول عنترة السابق ؛ والخِيَلَاء هو المفهوم من كلام البصري السابق .

جَاءَ عَلَى غُبَيْرَاءِ الظَّهْرِ .

الغُبَيْرَاءُ تصغير الغِبْرَاءِ، مَوْنَتْ الأَعْبَر . والمراد هنا الأرض ذات الغُبَرَةِ . والظَّهْرُ خلاف البطن . ويقال أيضا : تَرَكَ فُلَانٌ أَبَاهُ عَلَى غُبَيْرَاءِ الظَّهْرِ . ومعناه أَنَّهُ لم ينجح سعيه، ولا ظفر بحاجته، بمنزلة الرجل الطالب المرعى، فصادف أرضاً مُغْبِرَةً الظهر مُجْدِبَةً، لا كلاً فيها ولا ماء . والتصغير في المثل للتعظيم، كقوله : وَكُلُّ أَنَاسٍ سَوْفَ تَدْخُلُ بَيْنَهُمْ دُويهيَّةٌ تَصْفِرُ مِنْهَا الْأَنَامِلُ

جَاءَ وَقَدْ لَفَظَ لِحَامَهُ .

اللَّفَظُ الرَّمْيُ ؛ واللِّجَامُ معروف . فيقال : جَاءَ فُلَانٌ مِنْ حَاجَتِهِ وَقَدْ لَفَظَ لِحَامَهُ، إذا رجع منها وهو مجهود من الأعياء والعطش . ويقال أيضا : جَاءَ وَقَدْ دَلَقَ لِحَامَهُ .

جَاءَ وَقَدْ قَرَضَ رِبَاطَهُ .

هذا كالذي قبله، قاله أبو عُبَيْد . وقال غيره : أكثر ما يقال ذلك في الموت . يقال : فُلَانٌ قَدْ قَرَضَ رِبَاطَهُ، وَلَعَقَ أَصْبُعَهُ، وَعَطَسَتْ بِهِ اللَّجْمُ، وَضَحَا ظِلُّهُ . كل ذلك يقال إذا مات .

جَاؤُوا قَضَهُمْ بِقَضِيهِمْ .

معناه جَاؤُوا جميعًا . يقال بنصب قَضَهُمْ على نيَّة المصدر أو الحال ؛ ويرفعه .

ويقال أيضا بفتح القاف وكسرهما . قال حصين بن الحمام المرِّي :
 وجاءتْ جِحَاشٌ قَضَّهَا بِقَضِيضِهَا وَجَمَعُ عَوَالٍ مَا أَدَقَّ وَالْأَمَّا⁽²⁴⁾
 وَجِحَاشٌ - على مثل كِتَاب - أبو حيٍّ من غَطَفَان، وهو جِحَاشٌ بن ثعلبة بن سعد بن
 ذُبْيَان بن بغيض بن ريث بن غَطَفَان، رَهط الشَّمَاخ . وقال الآخر :
 أَتَتْنِي سَلِيمٌ قَضَّهَا بِقَضِيضِهَا تُمَسِّحُ حَوْلِي بِالْبَقِيعِ سَبَالَهَا⁽²⁵⁾
 ويقال أيضا جَاؤُوا قَضَّهُمْ وَقَضِيضَهُمْ - بالواو - وقد قيل : الْقَضُّ : هو الصغير
 من الحصان، والقضيض : الكبير منه . والمعنى : جَاؤُوا صَغِيرُهُمْ وَكَبِيرُهُمْ . وقيل
 الْقَضُّ بمعنى القاض، والقضيض بمعنى المقضوض .

وممَّا يلتحق بهذا الباب قولهم في الرجل :

جُحَيْشٌ وَحْدَهُ، وهو ذمٌّ ؛ والجُحَيْشُ تصغير جَحَشٍ، وقد تقدَّم . وقولهم :
 أَجَدَّ فُلَانٌ بِهَا أَمْرًا ! أي أَجَدَّ أَمْرُهُ بِهَا، بنصب أمر على التمييز، كما قالوا : قَرَرْتُ
 بِهَا عَيْنًا، أي قَرَرْتُ بِهَا عَيْنِي . وقولهم :

أَجِدَّكَ تَقُولُ هَذَا ؟

بنصب جِدٍّ، أي أَبِجِدُ مِنْكَ ؟ فانتصب على طرح الباء ؛ أو : أَتَجِدُّ جِدَّكَ ؟
 فانتصب على المصدر . قال الشاعر :
 أَجِدَّكَ مَا لِعَيْنِكَ لَا تَنَامُ ؟ كَأَنَّ جُفُونَهَا فِيهَا كِلَامٌ !
 وقولهم :

أَجَدْتُ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ قُرُونِي،

أي تركته . وقولهم :

جَعَلُوا الْأَرْضَ عَلَيْهِ حَيْصَ بَيْصٍ، وَحَيْصًا بَيْصًا.

أي ضَيَّقُوا عَلَيْهِ ومنعوه من التصرُّف . وقولهم للرجل :

⁽²⁴⁾ ينسب البيت أيضًا لَأَوْسَ بن حجر، ويروى هكذا :
 وجاءتْ جِحَاشٌ قَضَّهَا بِقَضِيضِهَا
⁽²⁵⁾ هذا البيت أنشده سيبويه للشماخ .
 بَأَكْثَرِ مَاكَانُوا عَدِيدًا وَأَوْ كَعُورًا

جَعَدُ الْقَفَا،

أي لئيم الحسب .

وَجَعَدُ الْبَنَانِ،

أي بخيل، وقولهم :

جَاءَ بِالْأَمْرِ عَلَى قَنَادِيدِهِ،

أي من وجهه . وقولهم :

جَاءَ بِذَاتِ الرَّعْدِ وَالصَّلِيلِ،

أي جاء بالحرب، لأنَّ هديرها يشبه الرَّعْدَ، وفيها صليل السلاح، كما قال مُهَلِّهِلٌ :
فَلَوْ لَا الرِّيحُ أَسْمِعَ مَنْ بِنَجْدٍ صَلِيلَ الْبَيْضِ تَقْرَعُ بِالذُّكُورِ
وقولهم :

جَاءَ بِالصُّقْرِ وَالْبُقْرِ

- على مثال زُفَرَ فيهما -، وبِالصُّقَارَى والبُقَارَى، بفتح الرَّاء فيهما مع ضمِّ الأوَّلِ،
أي بالكذب الصُّرَاحِ، وهو اسم لما لا يُعرف . وقولهم :

جَاءَ بِهِ مِنْ حَسَّةٍ وَبَسَّةٍ،

مثلثي الأوَّلِ، أي من جهده وطاقته . وقولهم :

جَاءَ مُضْطَرَبَ الْعِنَانِ،

أي منهزمًا منفردًا . وقولهم :

جَاءَ وَلَكِنْ لَمْ يَجِيءْ لِعُصْرٍ

- بضمّ العين -، أي لم يَجِيءْ حِينَ الْمَجِيءِ.

ومن الأمثال المُحدّثة :

الْجَوَابُ مَا تَرَى لَا مَا تَسْمَعُ !

وأصله أنَّ أبا يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، أحد الملوك الموحّدين بمراكش، كان بينه وبين الأدفونش النصراني صاحب طليطلة - لعنه الله - مكاتبات . فكان منها رسالة كذب بها الأدفونش الى الأمير يعقوب يتوعّده ويتهدّده، ويطلب منه بعض الحصون من إنشاء وزيره ابن النجار، وهي :

« باسمك اللهمّ فاطر السماوات والأرض، وصلّى الله على السيّد المسيح، روح الله وكلمته الفصيح . أمّا بعد، فإنّه لا يخفى على ذي ذهن ثاقب، وعقل لازب، أنّك أمير الملة الحنيفيّة، كما أنا أمير الملة النصرانيّة . وقد علمت ما عليه رؤساء الأندلس من التخاذل والتواكل والتكاسل، وإهمالهم أمر الرعيّة، وإخلادهم الى [(26) الامنية . وأنا أسومهم بحكم القفر إخلاء الديار وإسبَاء الذراري وأمثك بالرجال، وأذيقهم عذاب الهون وشديد النكال . ولا عذر لك في التخلّف عن نُصرتهم إذا أمكّنَتْكَ يدُ القدرة، وساعدك وعسا كرك وجنودك رأيي وخبرة . وأنتم تزعمون أنّ الله تعالى قد فرض عليكم [قتال] (27) عشرة منا بواحد منكم، الآن خفف الله عنكم وعلم أنّ فيكم ضِعْفًا رحمةً منه ومنّا، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منّا، إذ لا تستطيعون دفاعًا، ولا تملكون امتناعًا . وقد حُكي عنك أنّك أخذت في الاحتفال، وأشرفت على ربوة القتال، وتماطل نفسك سنة بعد أخرى، وتقدّم رجلا وتؤخّر أخرى . فلا أدري أكان الجبن أبطأ بك، أم التكذيب بما وعدك به ربّك الى آخر الرسالة، وفيها طول . فلمّا وصل الكتاب الى أمير المسلمين مزّقه وكتب على قطعة منه : ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ أَذَلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ . الْجَوَابُ مَا تَرَى لَا مَا تَسْمَعُ ! وتمثّل ببيت أبي الطيّب في مدح سيف الدولة :

(26) بياض بالأصل

(27) سقطت كلمة « قتال » من ب.

ولا كُتِبَ إِلَّا الْمَشْرِفِيَّةُ عِنْدَهُ ولا رُسُلٌ إِلَّا الْخَمِيسُ الْعَرْمَرُ
ثمَّ ضرب السراقات من يومه بظاهر البلد، وأمر باستنفار الجيوش من الأمصار، وعبر من زقاق
سبته، ودخل بلاد الافرنج، فكسرههم كسرة شنيعة، وعاد بغنائمهم، رحمه الله تعالى . ثمَّ
رأيت الحصري ذكر هذا الكلام عن المعتصم العباسي قال : كتب إليه ملك الروم كتابا
يتهدده فيه، فأمر بجوابه . فلما قرىء عليه لم يرض بما فيه، فقال لبعض الكتاب :
اكتب : أمّا بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت ما تَضَمَّنَه خطابك، والجواب ما ترى لا ما
تسمع . وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ لِمَنْ عُقِبَى الدَّارُ . قال : وهذا نظير قول قَطَرِيَّ بن
الفُجَاءة الى الحجاج، وقد كتب إليه كتابا يتهدده فيه، فأجاب : أمّا بعد، فالحمد لله
الذي لو شاء لجمع بين شخصينَا، فعلمت أين مَثَاقِفَةُ الرجال، من تسطير المقال، والسلام.
انتهى .

ومن معنى هذا المثل قول عنتره :

وَمَكْرُوبٍ كَشَفْتُ الْكَرْبَ عَنْهُ بِطَعْنَةٍ فَيُصَلِّ لِمَا دَعَانِي⁽²⁸⁾
دَعَانِي دَعْوَةً وَالْخَيْلُ تَرْدِي فَمَا أَدْرِي أَبَاسْمِي أَمْ كَنَانِي ؟
فَلَمْ أَمْسِكْ بِسَمْعِي إِذْ دَعَانِي وَلَكِنْ قَدْ أَبَانَ لَهُ لِسَانِي
فَكَانَ إِبَاجَتِي إِيَّاهُ أَنِّي عَطَفْتُ عَلَيْهِ خَوَّارَ الْعِنَانِ
بِأَسْمَرٍ مِنْ رِمَاحِ الْخَطِّ لَدُنْ وَأَبْيَضَ صَارِمٍ ذَكَرَ يَمَانَ
أي : كان جوابي له، حين دعاني واستغاث بي، أن عطفت عليه فرسا خوار العنان⁽²⁹⁾، أي
سهل العنان، يعني مرتاضا قد اعتاد الدخول في الحروب والولوج في المضائق، وذلك
بأسمر إلخ....، أي برمح وسيف صفتها ما ذكر . ومنه قول الحماسي :
وَتَجْهَلُ أَيُّدِينَا وَيَحْلُمُ رَأْيُنَا وَنَشْتَمُ بِالْأَفْعَالِ لَا بِالتَّكَلُّمِ
وقول الآخر :

كُنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِخٌ فَرَعٌ كَانَ الصُّرَاخُ لَهُ قَرَعُ الظَّنَابِيبِ
أي الاجتهاد في نصرته . وقَرَعُ الظَّنْبُوبِ كناية عن ذلك، وقد تقدّم .
ومن أمثال العامة قولهم ::

(28) في مختار الشعر الجاهلي : بضربة فيصل..
(29) حرف « العنان » في ب فكتب فيها « النعاس ».

جَزَاؤُهُ عَلَى حِمَارِهِ .

وقولهم :

جَاءَ يُعِينُهُ فِي قَبْرِ أُمِّهِ فَهَرَبَ بِالْفَأْسِ .

ومعناها ظاهر .

ولنذكر في هذا الباب ما تيسر من الشعر . قال الحماسي محمد بن بشير :

كَمْ مِنْ فَتَى قَصُرَتْ فِي الزَّرَقِ خُطُوتُهُ أَلْفَيْتُهُ بِسَهَامِ الرِّزْقِ قَدْ فَلَجَا !
إِنَّ الْأُمُورَ إِذَا انْسَدَّتْ مَسَالِكُهَا فَالْصَّبْرُ يَفْتَحُ مِنْهَا كُلَّ مَا ارْتَجَا⁽³⁰⁾
لَا تَيَأْسَنَّ وَإِنْ طَالَتْ مُطَالِبَةُ إِذَا اسْتَعْنَتْ بِصَبْرٍ أَنْ تَرَى فَرْجَا !
أَخْلَقَ بِذِي الصَّبْرِ أَنْ يَحْطَى بِحَاجَتِهِ وَمُدْمِنْ الْقَرَمِ لِلْأَبْوَابِ أَنْ يَلْجَا !
قَدَّرَ لِرَجْلِكَ قَبْلَ الْخَطْوِ مَوْضِعَهَا : فَمَنْ عَلَا زَلَقًا عَنْ غِرَّةٍ زَلْجَا !⁽³¹⁾
وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الرَّبِيعِ الْأَسَدِيُّ :

لَا أَحْسِبُ الشَّرَّ جَارًا لَا يَفَارِقُنِي وَلَا أَحْزُرُ عَلَى مَا فَاتَنِي الْوُدْجَا
وَلَا نَزَلْتُ مِنَ الْمَكْرُوهِ مَنْزِلَةً إِلَّا وَثَقْتُ بِأَنْ أَلْقَى لَهَا فَرْجَا
وَحَزَّ الْوُدْجَ : قَطَعَهُ . وَضَرِبَهُ مِثْلًا لِلْغَمِّ عَلَى مَا فَاتَ مِنْ عَرْضِ الدُّنْيَا .
وَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ الطَّائِيُّ :

اصْبِرِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ : فَإِنَّ الصَّبْرَ أَحْبَبَا
نَهْنِهِي الْحُزْنَ فَإِنَّ الْحُزْنَ إِنْ لَمْ يَنْهَ لَجَا
وَالْبَيْسَى الْيَأْسَ مِنَ النَّاسِ فَإِنَّ الْيَأْسَ مَلْجَا
رُبَّمَا خَابَ رَجَاءُ وَأَتَى مَا لَيْسَ يُرْجَى
وَقَالَ أَيْضًا يَهْجُو يَوْسُفَ السَّرَّاجَ :

وَوَجْهُ الْبَحْرِ يُعْرِفُ مِنْ بَعِيدٍ إِذَا يَسْجُو، فَكَيْفَ إِذَا يُمُوجُ ؟
وَقَالَ الْآخَرُ :

(30) فِي الْحِمَاسَةِ : فَالْصَّبْرُ يَفْتَحُ...

(31) فِي الْحِمَاسَةِ : أَبْصِرْ لِرَجْلِكَ...

وَإِنِّي لَأَغْضِي مُقْلَتِي عَلَى الْأَذَى
وَإِنِّي لَأَدْعُو اللَّهَ وَالْأَمْرُ ضَيِّقٌ
وَكَمْ مِنْ فَتَى ضَاقَتْ عَلَيْهِ وَجْوهُهُ
وقال الآخر :

إِذَا تَضَايَقَ أَمْرٌ فَاَنْتَظِرْ فَرَجًا :
وقال الآخر :

رُبَّ أَمْرٍ عَزَّ مَطْلِبُهُ
وقال الآخر :

دِيَارٌ عَلَيْهَا مِنْ بَشَاشَةِ أَهْلِهَا
وقال الآخر :

رَأَى الْبَيْتَ يُدْعَى بِالْحَرَامِ فَحَجَّه
وقال الآخر :

عَلَى أَنِّي وَإِنْ لَأَقَيْتُ شَرًّا
وقال الآخر :

كَمْ عَالِمٍ لَمْ يَلِجْ بِالْعِلْمِ بَابَ غِنَى
وقال الآخر :

مَنْ رَاقِبَ النَّاسَ لَمْ يَظْفَرْ بِحَاجَتِهِ
ومثله قول الآخر :

مَنْ رَاقِبَ النَّاسَ مَاتَ غَمًّا
وقال الآخر :

يَا نَفْسَ صَبْرًا فَعُقِبِي الصَّبْرَ صَالِحَةً
وقال الآخر :

وَلِي فَرَسٌ بِالْحِلْمِ لِلْحِلْمِ مُلْجَمٌ
فَمَنْ رَامَ تَقْوِيْمِي فَإِنِّي مُقَوِّمٌ

وَأَلْبَسَ ثَوْبَ الصَّبْرِ أَبْيَضَ أَبْلَجًا
عَلَيَّ فَمَا يَنْفَكُ أَنْ يَتَفَرَّجًا
أَصَابَ لَهَا فِي دَعْوَةِ اللَّهِ مَخْرَجًا !

فَأُضْيِقُ الْأَمْرَ أَدْنَاهُ إِلَى الْفَرْجِ !
قَرَّبَتْهُ سَاعَةُ الْفَرْجِ

جَمَالٌ تَسْرُ النَّاطِرِينَ وَتُبْهِجُ
ولو كَانَ يُدْعَى بِالْحَلَالِ لَمَا حَجًّا

لِخَيْرِكَ بَعْدَ ذَاكَ الشَّرُّ رَاجِعٌ (32)
وَجَاهِلٌ قَبْلَ طَرَقِ الْبَابِ قَدْ وَلَجَا !

وَفَازَ بِالطَّيِّبَاتِ الْفَاتِكِ اللَّهُمَّ
وَفَازَ بِاللَّذَّةِ الْجَسُورِ (33)

لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ الرَّحْمَانُ بِالْفَرْجِ !
وَلِي فَرَسٌ بِالْجَهْلِ لِلْجَهْلِ مُسْرَجٌ

وَمَنْ رَامَ تَعْوِيْجِي فَإِنِّي مُعَوِّجٌ
وَمِنْ رَامَ تَعْوِيْجِي فَإِنِّي مُعَوِّجٌ

(32) فِي جِ بَدَلِ « لَاقَيْتُ » كَتَبَ : « رَأَيْتُ » ؛ وَفِي د : « لَقَيْتُ » ، وَكِلَاهُمَا غَيْرُ مُسْتَقِيمٍ وَزْنَ .
(33) فِي ب وَ ج : وَفَازَ بِاللَّذَاتِ ...

وينسب هذا لمصالح بن جناح . وقبله :
لَنْ كُنْتُ مُحْتَاجًا إِلَى الْحِلْمِ إِنَّنِّي
وَمَا كُنْتُ أَرْضَى الْجَهْلَ خِدْنًا وَصَاحِبًا
وَلِي فَرَسٌ بِالْخَيْرِ لِلْخَيْرِ مَلْجَمٌ
فَمَنْ رَأَى تَقْوِيمِي... (البيت)

وبعده :

فَإِنْ قَالَ بَعْضُ النَّاسِ فِي سَمَاجَةٍ
وَنَحْوِهِ قَوْلَ النَّابِغَةِ الْجَعْدِيِّ :

وَلَا خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ
وَلَا خَيْرَ فِي جَهْلٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ
وَقَوْلُ الْآخِرِ :

إِذَا أَغْضَبْتَ ذَا كَرَمٍ تَخْطِئِي
وَقَوْلُ الْآخِرِ :

أَلَا لَا يَجْهَلُنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا
وَقَوْلُ الْآخِرِ :

وَلَا خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا ذَلَّ جَانِبُهُ
وَقَوْلُ الْآخِرِ :

وَالْعَاقِلُ النَّحِيرُ مُحْتَاجٌ إِلَى أَنْ يَسْتَعِينَ بِجَاهِلٍ مُعْتُوهُ

وَقَوْلُ الْآخِرِ :

وَلَرْبَّمَا اعْتَصَدَ الْحَلِيمُ بِجَاهِلٍ : لَا خَيْرَ فِي يُمْنِي بَغِيرِ يَسَارٍ !
وَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو الْفَضْلِ يُوسُفُ بْنُ النَّحْوِيِّ ، قَدَسَ اللَّهُ سِرَّهُ :

وَالرَّفِيقُ يَدُومُ لِصَاحِبِهِ وَالْخُرْقُ يَصِيرُ إِلَى الْهَرَجِ
وَقَالَ :

وَخِيَارُ الْخَلْقِ هُدَاتُهُمْ وَسِوَاهُمْ مِنْ هَمَجِ الْهَمَجِ

(34) سقطت الباء من : اليك ببعض ... في ب.

ومن أظرف ما يحكى فيما يناسب هذا المعنى ما حُدِّثَ به عن الزهري قال : دخلت على عبد الملك بن مروان، فقال : من أين أقبلت يا زهري ؟ قال قلت : من مكّة . قال : فَمَنْ خَلَّفَتْ بها يسود أهلها ؟ قلت ؟ عطاء بن أبي رباح . قال : فَمِنْ العرب أم من الموالي ؟ [قلت: من الموالي]⁽³⁵⁾ قال : وبِمِ سادهم ؟ قلت : بالديانة والرواية . فقال إِنَّ أَهْلَ الديانة والرواية ينبغي أن يسودوا النَّاسَ . قال : فَمَنْ يسود أهل اليمن ؟ قلت : طاوس بن كيسان قال : فمن العرب أم من الموالي ؟ قلت : من الموالي . قال : فبِمِ سادهم ؟ قلت : بما ساد به عطاء . قال : مَنْ كان كذلك ينبغي أن يسود النَّاسَ . قال : فَمَنْ يسود أهل مصر ؟ قلت : يزيد بن أبي حبيب . قال : فمن العرب أم الموالي ؟ قلت : من الموالي . فقال كما قال في الأوّلين . قال فَمَنْ يسود أهل الشام ؟ قلت : مكحول الدمشقي . قال : فمن العرب أم الموالي ؟ قلت : من الموالي، عبد نوبيّ اعتقته امرأة من هَذَيْل . فقال كما قال . ثمَّ قال: فَمَنْ يسود أهل الجزيرة ؟ قلت ميمون بن مهران . قال : من العرب أم من الموالي ؟ قلت من الموالي . فقال كما قال . ثمَّ قال : فَمَنْ يسود أهل البصرة ؟ قلت : الحسن بن أبي الحسن البصري . قال : فمن العرب أم من الموالي ؟ قلت من الموالي . قال : ويُلَك ! فَمَنْ يسود أهل الكوفة ؟ قلت : إبراهيم النخعي . قال : فمن العرب أم من الموالي ؟ قلت : من العرب . فقال : ويُلَك يا زهري ! فرَجَّت عَنِّي واللّه ! : تسودون الموالي على العرب حتّى يخطب بها على المنابر وإنَّ العرب تحتها ! قال قلت : يا أمير المؤمنين، أمر اللّه ودينه . فَمَنْ حفظه ساد، ومَنْ ضيَّعه سقط !

وقالت جارية من العرب ماتت أمّها وأضرَّت بها زوجة أبيها :
ولو يأتني رسولي أمّ سَعْدٍ أتى أمّي ومَنْ يَعْنِيهِ حَاجِرُ
ولكن قد أتى مَنْ بَيْنَ ودِّي وبينَ وداده غَلَقُ الرّتاجِرِ
ومَنْ لا يؤذيه ألمٌ برأسي وما الرّثْمان إلا بالنّتاجِرِ
وقالت أمّ الضحّاك المحاربيّة :

حديثٌ لو أنَّ اللّحمَ يَصْلَى ببحرِه طريّا، إذا أضْحى به وهو مُنضَجُ
وكانت تحت رجل من الضباب وهي تحبّه حبّا شديدا، ثمَّ طَلَّقَهَا فقالت :

(35) سقط ما بين معقوفتين من ب.

هَكَ الْقَلْبُ إِن لاقى الضَّيْبَ خَالِيًا
وَأَعْجَلْنَا قُرْبُ الْمَزَارِ وَبَيْنَنَا
حَدِيثٌ لَوْ أَنَّ اللَّحْمَ (الْبَيْتَ)
وَقَالَ الْآخِرُ :

لَدَى الرُّكْنِ أَوْ عِنْدَ الصِّفَا مُتَحَرِّجٌ ؟
حَدِيثٌ كَتَشْنِيجِ الْمَرِيضِ مُزَعَجٌ

لَقَدْ عَلِمْتُ أُمُّ الصَّيِّينِ أَنَّنِي
إِذَا الْمُرْغِثُ الْعَوْجَاءُ بَاتَ يَعْزُّهَا
وَإِنِّي لِأَغْلِي اللَّحْمَ نِيًّا وَإِنَّنِي
يُرِيدُ : إِنِّي أَخَذَهَا جَيِّدَةً غَالِيَةَ الثَّمَنِ، فَأَنْحَرَهَا وَأَخْلَى بَيْنَهَا وَبَيْنَ النَّاسِ تَهَاوُنًا بِهَا،
كَمَا قَالَ الْآخِرُ :

وَإِنِّي لِأَغْلِي لَحْمَهَا وَهِيَ نِيَّةٌ
وَقَالَ الْحَارِثُ الْيَشْكُرِي :

قُلْتُ لِعَمْرُو حِينَ أُرْسَلَتْهُ
لَا تَكْسَعِ الشُّوْلَ بِأَغْبَارِهَا :
وَاصْبُبْ لِأَضْيَافِكَ أَلْبَانَهَا
يَقُولُ : لَا يُبْقِ اللَّبَنُ فِي ضَرْعٍ هَذِهِ النُّوقُ ! وَالْأَغْبَارُ جَمْعُ غُبْرٍ وَهُوَ بَقِيَّةُ اللَّبَنِ فِي
الضَّرْعِ، كَانَتْ الْعَرَبُ تَفْعَلُ ذَلِكَ لِسَمَنِ الْأَوْلَادِ الَّتِي فِي بَطُونِهَا . وَاصْبُوبُهُ لِلنَّاسِ، فَإِنَّكَ
لَا تَدْرِي مَنْ يَنْتَجِعُهَا، وَلَعَلَّكَ تَمُوتُ فَيَبْقَى ذَلِكَ لِلوَارِثِ ! وَمِثْلُهُ قَوْلُ الْآخِرِ :

وَإِنْ دَرَّتْ نِيَّاقُكَ فَاحْتَلِبِهَا
وَهَذَا كَمَا فِي الْحَدِيثِ : يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي مَالِي، وَمَالِكٌ مِنْ مَالِكٍ إِلَّا مَا
أَكَلْتُ فَأَفْنَيْتُ، أَوْ لَبِسْتُ فَأَبْلَيْتُ، أَوْ أُعْطِيتُ فَأَمْضَيْتُ. وَمِنْهُ قَوْلُ النَّمْرِ
ابْنِ تَوَلَّبٍ :

أَعَاذُكَ إِنْ يُصْنِحَ صَدَائِي بِقَفْرَةٍ
تَرَى أَنَّ مَا أَبْقَيْتُ لَمْ أَكُ رَبَّهُ
وَذِي إِبِلٍ يَسْعَى وَيَحْسِبُهَا لَهُ
غَدَتُ وَغَدَا رَبُّ سِوَاهُ يَقُودُهَا
بَعِيدًا نَأْنِي صَاحِبِي وَقَرِيبِي
وَأَنَّ الَّذِي أَنْفَقْتُ كَانَ نَصِيبِي
أَخِي نَصَبٍ فِي رَعِيهَا وَدُؤُوبٍ
وَبُدْكَ أَحْجَارًا وَجَالَ قَلِيبٍ

(36) حَفَّتْ كَلِمَةُ « الْمَرْغُثُ » فَكَتَبْتُ فِي ج : « الْمَرْعَبُ » وَفِي د : « الرِّغْثُ ».

قوله : جال قليب، الجالُ : النَّاحِيَةُ، كما قال مُهَلِّهَل :

كَأَنَّ رَمَاحَهُمْ أَشْطَانُ بَيْرٍ بَعِيدٌ بَيْنَ جَالَيْهَا جَرُورٌ
ومنه قول الآخر أيضا :

قَاتِنُوا عَلَيْنَا لَا أَبَا لِأَبِيكُمْ
وبأفعالنا إِنَّ التَّنَاءَ هُوَ الْخُلْدُ !
وقول حاتم :

أَمَاؤِيَّ إِنْ يُصْبِحَ صَدَايَ بِقَفْرَةٍ
تَرَى أَنَّ مَا أَبْقَيْتُ لَمْ أَكُ رَبَّهُ
وقال ابن فارس اللغوي :

وقالوا : كيف أنت ؟ فقلت خيرٌ :
إذا ازدحمتْ هُمُومُ الصَّدْرِ قُلْنَا :
نديمي هِرَّتِي وَسُرُورُ قَلْبِي
وقال ابو محمد الحريري :

تَعَارَجْتُ لَا رَغْبَةَ فِي الْعَرْجِ
وَأَلْقَى حَبْلِي عَلَى غَارِبِي
فَإِنَّ لَامَنِي الْقَوْمُ قَلْتُ : اَعْذَرُوا
وقال أيضا :

ما الْحَجُّ سَيْرُكَ تَأْوِيْبًا وَإِدْلَاجًا
الْحَجُّ أَنْ تَقْصِدَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ عَلَى
وَتَمْتَطِي كَاهِلَ الْإِنصَافِ مَتَّخِذًا
وَأَنْ تُؤَاسِيَ مَا أُوتِيَتْ مَقْدَرَةٌ
فهذه إِنْ حَوَّثَهَا حَجَّةٌ كَمَلَتْ
حَسْبُ الْمُرَائِينَ غَبْنًا أَنْهُمْ غَرَسُوا
وَأَنْهُمْ حَرَمُوا أَجْرًا وَمَحْمِدَةً
أَخِي فَايْغُرْ بِمَا تُبْدِيهِ مِنْ قُرْبِ

(37) زِيدَتِ الْوَاوُ فِي أَوَّلِ الْبَيْتِ فِي ب وَ د، فَكُتِبَ فِيهِمَا : وَالْحَجُّ..

(38) فِي ب وَ د : ..وَالْحَجُّ مِنْهَاجًا، وَهُوَ تَحْرِيفٌ.

(39) حَرَفَ الشَّطْرَ الْآخِرَ فَكُتِبَ فِي ج : « وَمَا جَنُوا وَأَتُوا كَرِبًا وَإِزْعَاجًا » وَفِي د : « وَمَا جَنُوا وَأَتُوا كَذِبًا وَإِزْعَاجًا ».

(40) حَرَفَتْ كَلِمَةً « أَخِي » الْمَصْغُورَةُ فَكُتِبَتْ فِي د : « أَخَا ».

إِنْ أَخْلَصَ الْعَبْدُ فِي الطَّاعَاتِ أَوْ دَاجَى
فَمَا يُنْهِنُهُ دَاعِي الْمَوْتِ إِنْ فَاجَا
عَنْكَ اللَّيَالِي وَلَوْ أَلْبَسْنَاكَ التَّاجَا⁽⁴¹⁾
وَلَوْ تَرَأَى هَتُونَ السَّكْبِ ثَجَّاجَا !
كَمْ قَدْ أَصَمَّ بِنَعْيٍ بَعْضُ مَنْ نَاجَى !
بِبُلْغَةٍ تُدْرَجُ الْأَيَّامُ إِدْرَاجَا
وَكُلُّ نَازِرٍ إِلَى لَيْنٍ وَإِنْ هَاجَا⁽⁴²⁾

كُلُّ شَيْءٍ وَيَرْجُ
وَصَحَارِيهَا مُرْجُ
نُجُومٌ وَبُرْجُ
هَا وَمَرَاهَا الْبَهِيْجُ
حِينَ تَنْجَابُ الثُّلُوجُ⁽⁴³⁾

لَا تَرَى فِي مُتُونِهَا أُمُوجَا
فِي رَاحَتِي صَارَتْ زُجَاجَا
عَادَ لَا شَكَّ فِيهِ مِلْحًا أَجَاجَا

جَفَّ قَبْلَ الْوُرُودِ مَاءُ الْبَحَارِ
لَذَوَى بَعْدَ نَضْرَةٍ وَاخْضِرَارِ⁽⁴⁴⁾
لَا نَزَوَى ضَوْؤُهَا عَنِ الْأَبْصَارِ
لَبَدَا إِلَيْكَ فِي نُضْيَاءِ النَّهَارِ⁽⁴⁵⁾

فَلَيْسَ تَخْفَى عَلَى الرَّحْمَانِ خَافِيَةٌ
وَبَادِرِ الْمَوْتِ بِالْحُسْنَى تَقْدُمَا :
وَاقْنِ التَّوَاضُعَ خَلْقًا لَا تَزَايِلُهُ
وَلَا تَشْمِ كُلَّ خَالٍ لَاحَ بَارِقُهُ
مَا كُلُّ دَاعٍ بِأَهْلٍ أَنْ يُصَاحَ لَهُ
وَمَا اللَّيْلِبُ سِوَى مَنْ بَاتَ مُقْتَنِعًا
فَكُلُّ كُنْزٍ إِلَى قُلَّةٍ مَغْبَتَّةُ

وَقَالَ أَيْضًا فِي وَصْفِ سَرُوجٍ :

بَلَدَةٌ يُوجَدُ فِيهَا
وَرْدُهَا مِنْ سَلْسَبِيلِ
وَبَنُوهَا وَمَغَانِيهِمْ
حَبْذَا نَفْحَةٍ رِيَّا
وَأَزَاهِيرُ رُبَاهَا

وَقَالَ الْآخَرُ :

لَوْ رَكِبْتُ الْبُحُورَ صَارْتُ فَجَاجَا
وَلَوْ أَتَيْتُ وَضَعْتُ يَا قُوَّةَ حَمَاءِ
وَلَوْ أَتَيْتُ وَرَدْتُ عَذْبًا فَرَاتَا
وَمِثْلُهُ قَوْلُ الْآخَرِ :

لَوْ وَرَدْتُ الْبَحَارَ أَطْلُبُ مَاءَ
أَوْ لَمَسْتُ الْعُودَ النَّصِيرَ بِكَفِّي
أَوْ رَمَى بِاسْمِي النُّجُومَ الدَّرَّارِي
وَلَوْ إِنِّي بَعَثَ الْقَنَادِيلَ يَوْمَا

(41) حُرِفَتْ كَلِمَةُ « عَنْكَ » فَكُتِبَتْ فِي ب وَ د : « عِنْد » .

(42) حُرِفَتْ كَلِمَةُ « نَاز » فِي ب وَ د، فَكُتِبَتْ فِيهِمَا « نَار » . وَسَقَطَ الْبَيْتُ الْآخِرُ مِنْ ج .

(43) حُرِفَتْ كَلِمَةُ « رَبَاهَا » فِي د، فَكُتِبَتْ فِيهَا « رَبَهَا » .

(44) فِي د : « نَظَرَةٌ » وَهُوَ تَصْحِيفٌ .

(45) فِي ب : « لَعْدَى اللَّيْلِ... » وَفِي د : « لَدَدَى اللَّيْلِ...! »

وقول الآخر :

ولم يَصِفْ لي من بحرهِ العذبِ مشربُ
فزوَّجنيها الفقر إذ جيئتِ أخطبُ
عليَّ جنا حينَ لما لاحَ كوكبُ
لأقبلُ ضوءَ الشمسِ من حيثِ يغربُ
لعدتُ الى رحلي وفي الكفِّ عقربُ
بشيءٍ سوى الحصباءِ رأسي يُحصبُ
فإن برأسي ذاكَ الذنبُ يُعصبُ
وإن أر شراً فهو مِنِّي مُقربُ
ومنه ورأئي جحفكُ حينَ أركبُ

وقول الآخر :

ويا موسى ويا كافورُ !
الضيعةُ برُّ موفرٍ وشعيرُ
جلدٌ على البلياءِ صبورُ
وقميصٌ أتتْ عليه الدُّهورُ !

وجِمَاحُ الزَّمانِ بالأكيَّاسِ
ولكنَّني من النَّسناسِ
تخطئُ الانامُ تَطْلُبُ رأسي
بعيني من شدَّةِ الافلاسِ !

فلَم يَعْسُرْ على أحدٍ طِلابي
سماءُ اللَّمِ أو قِطْعُ السَّحابِ
عليَّ مُسلِّماً من غيرِ بابِ
يَكُونُ مِنَ السَّمَاءِ إلى التُّرابِ
أوْملُ أن أشُدَّ به ثيابي

ولمَّا التَمَسْتَ الرِّزْقَ فانجذَ حبلُهِ
خَطَبْتَ الى الاعدامِ إحدى بَنَاتِهِ
فلو تَهت في البِيداءِ والليلِ مسبلُ
ولو خِفْتُ شراً فاستتَرْتُ بظُلْمَةٍ
ولو جاد إنسانٌ عليَّ بدرهمٍ
ولو يُمطرُ النَّاسُ الدَّنَانيرَ لم يكنِ
وإن يقترفُ ذنباً ببِرْقَةٍ مُذنبُ
وإن أر خيراً في المنامِ فَنازحُ
أمامي من الحرمانِ جيشُ عرمرمِ

وقول الآخر :

أحمدُ الله لم أَقلْ قطُّ يا بدر
لا ولا قيلَ قَد أَتاكُ مِنْ
أنا خِلوُ من الممالكِ والأُملاكِ
ليسَ إلَّا كُسيَرةٌ وقُديحُ

وقول الآخر :

سكَّ عن الرِّزْقِ يا أبا العَبَّاسِ
لو مِن النَّاسِ ساعدني الدَّهْرُ
لو هوتْ صخرةٌ من الجوّ جاءتْ
لا وحقُّ الاله ما أَبْصِرَ الشَّمْسُ

وقول الآخر :

بَرَزْتُ من المَنازِلِ والقِيَابِ
فمنزليَ الفضاءِ وسقفُ بيتي
فأنتِ إذا أردتِ دخلتِ بيتي
لأَيِّ لم أجِدَ مِصراعَ بابِ
ولا انشقَّ الثَّرى عَن عُودِ تَخْتِ

ولا خِفْتُ الإِبَاقَ عَلَى عِبِيدِي ولا خِفْتُ الهَلَاكَ عَلَى دَوَابِي
وفي ذَا رَاحَةٍ وَفَرَاغٍ بَالٍ فدَابُّ الدَّهْرِ ذَا أَبَدٍ وَدَابِي
وقول الآخر :

قَدْ أَرَامَ اللَّهُ مِنْ هَمٍّ طَوِيلٍ وَعَذَابٍ
فاسْتَرَحْنَا مِنْ عِيَالٍ وَعَبِيدٍ وَدَوَابٍ !
وَعُدُّوا وَرَوَّاحٍ وَهَجَاءٍ وَعِتَابٍ
وقول الآخر :

كَسَدَتْ شَوَاشِينَا وَقَلَّ مَعَاشُنَا فسُعِدْنَا مَقْرُونَةً بِنُحُوسٍ
فكَأَنَّمَا قُطِعَتْ رُؤُوسُ النَّاسِ أَوْ خُلِقُوا لَشَقَوَاتِنَا بِغَيْرِ رُؤُوسٍ !
وقول الآخر :

أَنَا فِي حَالٍ تَعَالَى اللَّهُ رَبِّي أَيَّ حَالٍ :
لَيْسَ لِي شَيْءٌ إِذَا قِيلَ لِمَنْ ذَا قُلْتُ : ذَالِي
فَأَرْضِي اللَّهَ فُرْشِي وَالسَّمَاءَ أَوَاتٍ ظِلَالِي
وَلَقَدْ أَهْزَلْتُ حَتَّى (45) مَحَتِ الشَّمْسُ خِيَالِي
وَلَقَدْ أَفْلَسْتُ حَتَّى حَلَّ أَكْلِي بَعِيَالِي :
مَنْ رَأَى شَيْئًا مُحَالًا فَأَنَا نَفْسُ الْمُحَالِ !
لَوْ بَقِيَ فِي النَّاسِ حُرٌّ لَمْ أَكُنْ فِي مِثْلِ حَالِي
وقول الآخر :

لَيْسَ إِغْلَاقِي لِبابِي أَنْ لِي فِيهِ مَا أَخْشَى عَلَيْهِ السَّرْقَا
إِنَّمَا أَغْلَقُهُ كَيْ لَا يَرَى سُوءَ حَالِي مَنْ يَمُرُّ الطَّرْقَا
مَنْزَلٌ أَوْطَنَهُ الْفَقْرُ فَلَوْ يَدْخُلُ السَّارِقُ فِيهِ سُرْقَا !

وقيل لبعض أجلاف المشائيم : كيف المعاش ؟ فقال : يوما يُرْزَقُ ويوما لا يُرْزَقُ . وليته
هو مضروبٌ ألف سوط وأنَّ اللَّهَ لم يخلقه ! وقيل له : فلعلَّ اللَّهَ قد ذَخَرَ لك بهذا أجرًا
في الآخرة . فقال : أيُّهما أكرم على اللَّهَ، الدنيا أم الآخرة ؟ ف قيل له : الآخرة . فقال : هو
لم يعطيني الهيئةَ عليه، فيعطيني تلك الكريمة عليه !

(45) في المخطوطات : « ولقد أمرست حتى... » وهو خطأ . والتصويب عن ديوان أبي الشمقف .

وقيل لآخر : أتعرف ربك ؟ فقال . وكيف لا أعرف من أجاعني وأعراني ؟ وقيل لآخر، وقد رُبِّيَ مَغْتَمًا : ما غمك ؟ فقال : سوء الحال، وكثرة العيال . فقيل له : لا تغتم، فإنَّهم عيال الله . فقال : صدقتم، ولكن كنت أحب أن يكون الوكيل عليهم غيري !

وقال بعضهم : كان لآدم عليه السلام غلام يخدمه، فنحن معاشر المحارفين من نسل ذلك الغلام، ولا نسب بيننا وبين آدم : فإنَّ الله يقول : وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ (الآية) . وليس فينا ولا عندنا شيء من هذه الخصال، فلو كنَّا بني آدم لكان لنا حظ من هذه الأشياء !

واستقى قوم يوم خميس فمطروا . فنظر إليهم بعض المشائيم، وهم منصرفون فرحين بالسقيا، فقال : والله ما بي إلاَّ أَنَّهُمْ يظنُّون أنَّ الله استجاب لهم . والله ما مطروا إلاَّ أَنِّي غسلت ثيابي اليوم، والله ما غسلتها قطَّ إلاَّ تغيَّمت السماء ومطرت ! ولا بأس، فليرجعوا الى خميس آخر : فإنَّ مطروا فليَحْلِقُوا لِحِيَّتِي !

وقال أبو العباس أحمد المقرئ الفاسي يخاطب التاج التونسي :

والله ما أنصفتنا يا تاج : فسقامنا لدوائكم محتاج !

فقضية قد ركبت بشروطها أفمكن أن يخلف الانتاج ؟

وقال الآخر :

ولم أرَ شيئاً بعد ليلي الذُّهُ ولا منهلاً أروى به فأعيج

يقال : ما عِجْتُ بالدَّواء، أي لم انتفع به . ويزعم كثير من اللغويين والنحويين أَنَّهُ لا يستعمل إلاَّ في النفي، كما مثلنا، وكما في قول كثير :

فما نفعَت نفسي بما أمرُوا به ولا عِجْتُ من أقوالِهِم بِفَتِيل

والبيت المذكور يرُدُّه، إلا أن يتأوَّل أَنَّهُ لما كان الموصوف منفيًا كانت الصفة وما عطف عليها أيضا في معنى النفي، والله أعلم.

وقال الآخر في الأوصاف :

في ليلة أكلَ المَحاقُ هلالها حتَّى تبدَّى مثك وقفَ العَاجِر

والصُّبحُ يتلو المُشترى فكأنَّه عُرِيانُ يمشي في الدُّجا يسراج

ومثله قول الآخر :

يارُبِّ ليك رقبناه وقد طلعت بقيَّة البدر في أولى بَسَائِرِه

كأنَّما أدهمُ الاظلام حينَ نجا بن أشهب الصُّبحُ خلَّى نعلَ حافره

وقول الآخر :

هَارِبًا وَالصُّبْحُ قَدْ لَاحَا
عَامِدٌ أَوْقَدَ مِصْبَاحًا

فَكَانَ اللَّيْلُ حِينَ لَوَى
كِلَّةٌ سَوْدَاءُ أَحْرَقَهَا

وقول الآخر :

كَطْرِفٍ أْبْلَقَ تَحْتَ الْجِلَالِ
فَرَائِسُفْنُ الْبَابِ الرَّجَالِ

سَرَى وَالصُّبْحُ تَحْتَ اللَّيْلِ بَادٍ
بِكَاسٍ مِنْ زُجَاجٍ فِيهِ أَسَدٌ

وقول الآخر :

وَضَوْءُ الصُّبْحِ مُهْتَمُّ الطَّلُوعِ
عَلَى أَكْتَافِهِمْ صَدَا الدُّرُوعِ

وَفَتِيَانِ سَرَوْا وَاللَّيْلُ دَاجٍ
كَانَ بَزَاتَهُمْ أَمْرَاءُ جَيْشٍ

وقال الآخر :

وَعَجُوزٌ تَسْرُنَا فِي الْمِزَاجِ
ثَأْرَهَا بَيْنَ أَرْجُلِ الْأَعْلَاجِ

لَفَتَاةٌ تَسْرُنَا فِي الْمَثَانِي
أَخَذَتْ مِنْ رُؤُوسِ قَوْمٍ كِرَامِ

ومثله قول أبي بكر بن زُهير :

قَدْ غَالَهُمْ ضَوْءُ الصَّبَاحِ وَغَالَنِي
حَتَّى سَكَرْتُ وَنَالَهُمْ مَا نَالَنِي
إِنِّي أُمِلْتُ إِنْاءَهَا فَأَمَالَنِي

وَمُوسِدِينَ عَلَى الْأَكْفِ خُدُودَهُمْ
مَا زِلْتُ أَسْقِيهِمْ وَأَشْرَبُ فَضْلَهُمْ
وَالْخَمْرُ تُحَسِّنُ كَيْفَ تَأْخُذُ ثَأْرَهَا :

وقال الآخر :

خَمْرُ الصَّبَا مُزِجَتْ بِصَفْوِ خُمُورِهِ
مُتَضَارِعِينَ تَخَشُّعًا لِكَثِيرِهِ
كَالْخَشْفِ خَفَرُهُ التَّمَاهُ خَفِيرِهِ
فَأَمَالَ مِنْ رَأْسِي لَعَبٌ كَبِيرِهِ
فَفَتَحْتُ مِنْ عَيْنِي لِرَجْعِهِ هَدِيرِهِ

وَلرُبَّ حَانٍ قَدْ أَدْرْتُ بِدِيرِهِ
فِي فَتِيَةٍ جَعَلُوا الزُّقَاقَ وَكَاءَهُمْ
يُهْدِي إِلَيْنَا الرَّاحَ كُلُّ مُصَفَّقٍ
وَالِي عَلَيَّ بِطَرْفِهِ وَبِكَفِّهِ
وَتَرْنَمُ النَّاقُوسُ عِنْدَ صَلَاتِهِمْ

والشعر في أوصاف الخمر كثير، وأكثره يتنزّه عن ذكره، وسيأتي كثير منه.

وقال أبو الفرج جعفر اليماني⁽⁴⁶⁾

(46) في ج و د : وقال أبو جعفر اليماني

عارضٌ أَقْبَلَ فِي لَيْكِ الدُّجَى
بَدَّدَتْ رِيحُ الصَّبَا لَوْلُوهُ
وَمِثْلُهُ قَوْلُ ابْنِ الْخَطِيبِ :

أَخْفَى مَسَالِكَهَا الظَّلَامُ فَأَوْقَدَتْ
وَكَأَنَّ صَوْتَ الرَّعْدِ خَلْفَ سَحَابِهَا
وَتَقَدَّمَ اسْتِيفَاءُ هَذَا الْمَعْنَى فِي الْبَابِ الْأَوَّلِ . وَقَالَ الْآخَرُ :

قَالُوا : تَبَدَّى شَعْرُهُ، فَأَجَبْتُهُمْ :
وَالْبَدْرُ أَبْهَرُ مَا يَكُونُ ضِيَاؤُهُ
وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ الْآخَرِ :

وَمُهَفَّفٍ عِلْقَ السَّقَامِ بِطَرْفِهِ
مَرَّقَتْ أَسْتَارَ الظَّلَامِ بَثْغَرِهِ
وَقَالَ ابْنُ صَارَةَ :

وَمُهَفَّفٍ أَبْصَرْتُ فِي أَطْوَاغِهِ
يَقْضِي عَلَى الْمُفْجَاتِ مِنْهُ صَعْدَةٌ
وَقَوْلُ الْآخَرِ :

وَمُعْذَرٍ عَبَثَ الْعِذَارُ بِخَدِّهِ
كُسِفَتْ مَحَاسِنُهُ لِأَرْبَعِ عَشْرَةٍ
وَقَالَ ابْنُ رَشِيقٍ :

هَمَّتْ عِذَارَاهُ بِتَقْبِيرِ يَلِهِ
وَقَامَتِ الْحَرْبُ عَلَى سَاقِهَا
فَذَلِكَ الْمُحْمَرُّ مِنْ خَدِّهِ
وَقَوْلُ الْآخَرِ :

وَأَعْيَدَ مِنْ أَبْنَاءِ لَمْطَةِ شَادِرِهِ
ذُوَابَتْهُ مُهْرَاقَةٌ خَلْفَ ظَهْرِهِ

(47) سقطت كلمة . ليك من ب و د . وكتب في هامش د : « لعله : جنم الدجا » .

وقول الآخر :

ومُهْفَهْفٍ كَالْغُصْنِ إِلَّا أَنَّهُ
أَصْحَى يَنَامُ وَقَدْ تَوَرَّدَ خَدُّهُ

وقول الآخر :

غَزَالُ إِنْسٍ كَمْ اسْتَدْنَيْتَهُ فَنَأَى
طَالَتْ عَلَيَّ لَيَالٍ مِنْ هَوَاهُ كَمَا

وقول الصنوبري :

مَا أَخْطَأْتُ نُونَاتَهُ مِنْ صُدْغِهِ
فَكَأَنَّمَا أَنْقَاسُهُ مِنْ شَعْرِهِ

وهذا المعنى كثير . وقال الآخر :

كَأَنَّ الثُّرَيَّا هَوْدَجٌ فَوْقَ نَاقَةٍ
وَقَدْ لَمَعَتْ حَتَّى كَأَنَّ بَرِيقَهَا

ومثله قول الآخر :

كَأَنَّ الثُّرَيَّا رَاحَةً تَشْبُرُ الدُّجَى
عَجَبْتُ لِلَّيْلِ بَيْنَ شَرْقٍ وَمَغْرَبٍ

وقول الآخر :

كَأَنَّ بَهْرَامَ وَقَدْ عَارَضَتْ
يَا قُوَّةً يَعْضُهَا بَائِعٌ

وقول الآخر :

وَقَدْ لَاحَ فِي الصُّبْحِ الثُّرَيَّا كَمَا تَرَى

وقال الآخر :

وْغَرِيبَةِ الْإِنْشَاءِ صِرْنَا فَوْقَهَا
عَجَبًا تَوْمٌ بِهَا مَعَاهِدُنَا الَّتِي

وَقَدْ اسْتَطَالَ النُّورُ فَوْقَ الْمَاءِ مِنْ
فَكَأَنَّ مَتْنِ الْبَحْرِ ذَائِبُ فَضَّةٍ

سَلَبَ التَّئْنِي النَّوْمُ عَنْ أَثْنَانِهِ
عَرَقًا فَقُلْتُ : الْوَرْدُ رُشٌّ بِمَائِهِ !

عَنِّي وَأَعْرَضَ مُزُورًا بِجَانِبِهِ !
طَالَتْ عَلَيْهِ لَيَالٍ مِنْ ذَوَائِبِهِ

شَيْئًا وَلَا أَلِفَاتُهُ مِنْ قَدِّهِ
وَكَأَنَّمَا قِرْطَاسُهُ مِنْ خَدِّهِ

يَخْبُ بِهَا حَادٍ إِلَى الْغَرْبِ مُزْعَجٌ
قَوَارِيرُ فِيهَا زَنْيِقٌ مُتَدَرِّجٌ

لَتَخْبُرَ طَالِ اللَّيْلِ أَمْ قَدَّعَرَضًا
يُقَاسُ بِشِيرٍ كَيْفَ يُرْجَى لَهُ انْقِضَا

مِنْهُ الثُّرَيَّا نَظَرَ الْمُشْتَرِي
فِي كَفِّهِ وَالْمُشْتَرِي مُشْتَرِي

كَعُنُقُودٍ مَلَا حَيَّةٍ حِينَ نَوْرًا

وَالْبَحْرِ يَسْكُنُ تَارَةً وَيَمُوجُ
كَرُمَتْ فَعَاجِ الْأُنْسُ حَيْثُ نَعُوجُ !

شَمْسُ الْأَصِيلِ فَلَاحَ وَهُوَ يَهِيْجُ
قَدْ سَاكَ فِيهِ مِنَ النُّضَارِ خَلِيْجُ

ومثله قول الآخر :

لو أَبْصَرْتُ عَيْنَاكَ زَوْرَقَ فَتْيَةٍ
وَقَدْ اسْتَدَارُوا تَحْتَ ظِلِّ شُعَاعِهِ
لَحَسْبَتْهُ خَوْفَ الْعَوَاصِفِ طَائِرًا
وقال ابن الخطيب :

إِنَّ الْهَوَى لَشِكَايَةٌ مَعْرُوفَةٌ
وَالنَّفْسُ إِنْ أَلِفَتْ مَرَارَةَ طَعْمِهِ
وقال البستي :

يَا سَائِلًا عَنْ مَذْهَبِي عَامِدًا
مِنْهَاجِي الْعَدْلُ وَقَمْعُ الْهَوَى :
وقال أبو الحسن بن رشيق :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ فِي السَّفِينَةِ وَالرَّدَى
وَالْجَوُّ يَهْطِلُ وَالرِّيَّاحُ عَوَاصِفٌ
وَعَلَى السَّوَاكِحِ الْأَعَادِي غَارَةٌ
وَعَلَتْ لِأَصْحَابِ السَّفِينَةِ ضَجَّةٌ
ومثله، وهو أصله، قول عنتره :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالرُّمَاحُ نَوَاهِلُ
وقول الأَرَجَانِي :

وَإِنِّي لِأَرَاكُمْ عَلَى الْقُرْبِ وَالنَّوَى
وقول الآخر :

أَلَا مِنْ مُبْلَغُ الْمَحْبُوبِ أَنِّي
وَأَنِّي جُلْتُ فِي جَيْشِ الْأَعَادِي
وقول الآخر :

أَرْسَلْتُهَا وَالْعَوَالِي فِي الطَّلَا تَرْدُ
وَمَا نَسَيْتُكَ وَالْأَرَوَاحُ سَائِلَةٌ

يُبْدِي لَهُمْ لِمَحْ السُّرُورِ مِرَاحَهُ
كُلُّ يَمْدُ بِكَاسِ رَاحِ رَاحَهُ
مَدَّ الْحَنَانُ عَلَى بَنِيهِ جَنَاحَهُ

صَبِرُ التَّصَبُّرِ مِنْ أَجْلِ عِلَاجِهَا
يَوْمًا ضَمِنْتَ لَهَا صِلَاحَ خِرَاجِهَا

لِيقْتَدِي فِيهِ بِمِنْهَاجِي
فَهَلْ لِمِنْهَاجِي مِنْ هَاجِرٍ ؟

مُتَوَقِّعٌ بِتَلَاطُمِ الْأَمْوَاجِ
وَاللَّيْلُ مُسَوْدُّ الذَّوَائِبِ دَاجِرُ
يَتَوَقَّفُونَ لِعَارَةِ وَهْيَاجِ
وَأَنَا وَذَكَرَكَ فِي الْأَذَى تَنَاجِرُ

مَنْي وَبِيضُ الْهِنْدِ تَقْطُرُ بِالْدَمِّ

وَأَذْكُرْكُمْ بَيْنَ الْقَنَا وَالْقَنَابِلِ

وَقَفْتُ وَلِلظُّبَا حَوْلِي صَلِيلُ
بِرُمَحٍ وَهُوَ فِي ذِكْرِي يَجُولُ ؟

فِي مَوْقِفٍ فِيهِ يَنْسَى الْوَالِدَ الْوَلَدُ
عَلَى السُّيُوفِ وَنَارُ الْحَرْبِ تَتَّقِدُ

وقوله :

من حولنا والسّمهريةُ شرّهُ
شوقٌ إليك تضيقُ عنه الأضلعُ
حِفْطُ الودادِ فكيفَ عنه أرجعُ ؟

ولقد ذكرتكَ والصّوّامُ لَمَعُ
وعلى مكافحةِ العدوِّ ففي الحشّا
ومن الصّبا وهلمَّ جرّاً شيمتي
وقول الصفيّ الحليّ :

مَطْلُ الغنيّ وسوءُ عيشِ المُعسرِ
منا وبين مُعَفَّرٍ في مِغْفَرٍ⁽⁴⁸⁾
بضياءِ وجهك أو مساءٍ مُقْمِرِ
فُتِقَتْ لنا ريحُ الجِلادِ بعَنبرِ

ولقد ذكرتكَ والعجاجُ كأنّه
والشمسُ بين مُجدَلٍ في جندَلٍ
فَظَنَنْتُ أنِّي في صباحٍ مُسفرِ
وتعطّرتُ أرضُ الكفاحِ كأنّما
وقوله أيضا :

كالسُّحبِ من وبلِ النَّجيعِ وطلّهُ
في موقفٍ يخشى الفتى من ظلّه

ولقد ذكرتكَ والسّيوفُ مَواطِرُ
فَوَجَدْتُ أنسا عندَ ذكركَ كاملا
وقوله أيضا :

تحت السّنايكِ والأكفُ تطيرُ
فكأنّها فوق النّسورِ نُسورُ
وبَدَت عليّ بشاشةٌ وسُرورُ
والرّاحُ تَجلى والكؤوسُ تدورُ

ولقد ذكرتكَ والجماجمُ وقَعُ
والهام في أفقِ العجاجةِ حوَمُ
فاعتادني من طيبِ ذكركَ نشوةُ
فَظَنَنْتُ أنِّي في مجالسٍ لذّي
وقول أثير الدين بن حيّان :

أموأجه والورى منه على سَفَرِ
وغار كوكبها عن أعينِ البَشَرِ
والبرقُ يستلُّ أسيافاً من الشّررِ
عينًا وقد أطبقت شعرا على شُفْرِ
صدري فيالكَ من وردٍ يلا صدر !
وفي فؤادي وفي سَمعي وفي بَصري

لقد ذكرتكَ والبحر الخضمُّ طَغَت
في ليلةٍ أسدلت جِلْبابَ ظِلْمَتِها
والماء تحت وفوق المِزْنِ واكفه
والفلكُ في وسطِ المائين تحسبها
والرّوح من حزنٍ راحت وقد وردت
هذا وشخصك لا ينفكُ في خلدي

(48) في ب « والسوس » بدل « والشمس » . وفي د : « والسوم » ، ولا يظهر معنى لأي منها .

ويقرب من هذا قولى :

عضاها كمصفوفِ الكتائب تُشرفُ ؟
هناك كمعسوكِ المباسمِ تُرشفُ ؟
كانَ بناياه بجادٌ مَفُوفٌ ؟⁽⁴⁹⁾
بأجوازِ أقطارِ الصَّحاري أطوفُ
وجفني بمنثورِ الجُمانِ يُكفِّفُ :
ولا برحتِ عنكِ الحوادثُ تُصرفُ،
تكادُ لها صمُّ الجيبِ تقصفُ !

عن بأسِها اللَّيثُ الهزْبُ الأغلْبُ
ليلاً، وكلُّ سَناسِنانِ كوكبُ
والنَّبلُ يُتْرَبُ والعَجاجُ يُتْرَبُ⁽⁵⁰⁾
ودمُ الفوارسِ مُستهكٌ صيبُ
وأنا بذِكرِكُم أُميكُ وأطربُ

هي فيه بين تخفُّرٍ وتغنُّجٍ
كملت محاسنها ولم تتزوّجِ

ترى المرأةَ في كفِّ الحَسودِ
بأنفاسٍ تَزِيدُ في الصُّعودِ

تمنِعُ منّا إدامةَ النَّظَرِ ؟
كانَّها تشتكي من السَّهَرِ
تُمسِكُ مرأتها من القَمَرِ

ألا ليت شعري هك أرى من ثنيّةٍ
وهك أردنُ من سلسبيلِ مَواردِ
وهك أرينُ مَعْنى الدلائِ عشيّةٍ
ذكرتُكمُ وهنا وإنِّي لمدلجُ
فقلتُ وقلبي ضمن شجورٍ ولوعةٍ
أداراً سَقِيتِ الوبلَ غير مبرحِ
لقد هجتِ للقلبِ العميدِ صباةً
وقول الصفديّ :

ولقد ذكرتُكمُ بحربٍ يئنني
والصَّافناتُ بركضِها قد أنشأتُ
والبيضُ تنثرُ كلَّ ما نَظَمَ القنا
وحشاشةُ الأبطالِ قد تَلِفَتْ ظمًا
والنَّفْسُ قد سالت على حدِّ الظُّبا
وقول الآخر يصف الشمس في الغيم :

وتنقَّبَتْ بخفيفِ غَيْمٍ أبيضِ
كتنفُستِ الحسناءِ في المرأةِ إذ
ومن هذا المعنى قول ابن طباطبَا العلوي :

متى أبصرتَ شمساً تحتَ غيمِ
تُقَابِلُهَا فتَلْبِسُهَا غِشاءُ
وقال الوزير المهلبيّ :

أما ترى الشَّمسَ وهي طالعةُ
حَمراءَ صفراءَ في تلَوْنِهَا
مِثْلَ عَرُوسٍ غداةَ ليلِهَا

(49) صفحت كلمة الدلاء في ج، فكتبت : الادلة.

(50) في ب و د كتب « النيك » بدل « النبل ».

وقوله :

والشَّمْسُ خَيْرًا خَلْفَ غَيْمٍ عَارِضٍ فَكَأَنَّهَا فِي ضَوْءِ لَيْلٍ مُقَمَّرٍ

وقوله :

الشَّمْسُ مِنْ مَشْرِقِهَا قَدْ بَدَتْ
كَأَنَّهَا فَوْهِيَّةٌ أَحْمَرِيَّةٌ
وقول ابن المعتز :

والشَّمْسُ كَالْمِرَاةِ فِي كَفِّ الْأَشَلِّ

وقول أبي حفص بن برد، ومنه أخذ :

كَأَنَّ شُعَاعَ الشَّمْسِ فِي كَفِّ غُدُوَّةٍ
دَنَانِيرُ فِي كَفِّ الْأَشَلِّ يَضُمُّهَا
ونحو هذا قول الآخر في الخمر :

كَانَتْ سِرَاجَ أَنَاسٍ يَهْتَدُونَ بِهَا
تَهْتَرُ فِي الْكَأْسِ مِنْ ضَعْفٍ وَمِنْ هَرَمٍ
وقول ابن الرومي في الشمس :

كَأَنَّ جَنُوحَ الشَّمْسِ عِنْدَ غُرُوبِهَا
مَحَاجِرُ عَيْنٍ مَسَّ أَجْفَانَهَا الْكَرَى
وقال ابن خفاجة :

وَالنَّقْعُ يَكْسِرُ مِنْ سَنَى شَمْسِ الضُّحَى :

وقال إبراهيم بن العباس الصولي :

وَلَرُبَّ نَازِلَةٍ يَضِيقُ بِهَا الْفَتَى
كَمَلَتْ فَلَمَّا اسْتُكْمِلَتْ حَلَقَاتُهَا
وكان يقال : مَا رَدَدَهُمَا مَنْ نَزَلَتْ بِهِ نَازِلَةٌ إِلَّا فَرَجَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال الآخر :

رُويْدَكَ ! فَالْهُمُومُ لَهَا رَتَاجُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ طَوْلَ اللَّيْلِ لَمَّا
تَنَاهَى حَانَ لِلصُّبْحِ انْبِلَاجُ ؟

(51) في ب صحفت « محاجر » فكتبت « مجارس ».

وقال أبو فراس :

ألا، ربّما ضاقَ الفضاءُ بأهله
ومثله قوله أيضا :

خَفَضَ عليكَ ولا تَكُنْ قَلِقَ الحشا
فالدَّهرُ أقصرُ مدَّةٍ ممَّا ترى
وقول الآخر :

تربَّصْ بيومِكَ ما في غدٍ :
لعلَّ غداً من أخيه حمى
وقال ابن الحجاج :

دعها سماويةً تجري على قدرٍ
وقول ابن حمديس :

ما أغفلَ الفيلسوفُ عن طُرقِ
من سلَّم الأمرُ لالهٍ نجاً
وقول الآخر :

لا تَضُقْ في الأمورِ ذرعاً فقد
ربّما تجزَعُ النفوسُ من الأمرِ
وقصّة أبي عمرو بن العلاء في هذا الشعر، حيث ألزمه الحجاج أن يأتي بشاهد على قراءته
غرقة فسمع هذا الشعر مقرونا بنعي الحجاج، معروفة .
وقال الآخر :

إذا دجا خطبٌ وأيقنتَ من
ينعكسُ الأمرُ ويأتي كما
وقول الآخر :

لا تشكُ ! فالأيامُ حُبلى ربّما
فكذا تصاريفُ الزَّمان : مشقة
ما ضامَ يُونسُ بالعراءِ مُجرّداً
جاءتكَ من أعجوبةٍ بجنين
في راحةٍ وخُسونةٍ في لين !
في ظلٍّ نابتةٍ من اليقطين

(52) في ب : زيدت خطأ كلمة « على » في آخر الشطر الأول : كما على

وقول الآخر :

والليالي كما علّمت حبالى مقرباتٌ يلدن كلَّ عجيب

وقول الآخر :

الدَّهر لا ينفكُ عن حدّثانِهِ والمرءُ مُنقادٌ لحُكم زَمَانِهِ
فدعِ الزَّمانَ فإنَّه لم يَعتمد لجلالَةٍ أحدًا ولا لِهَوَانِهِ !
كالمُزن لم يَخْصُصْ بِنافعٍ صَوْبِهِ أفقًا ولم يَخْشِ أذى طُوفَانِهِ
لكن لِبَارِيهِ بواطنُ حِكْمَةٍ في ظاهرِ الأضدادِ من أَكْوَانِهِ

وقول الآخر :

دعِ المُنَى ! ربّما نيلتُ بلا طَلَبٍ وربّما وقَعِ الحِرمانُ في المِهَن !

وقول الآخر :

الدَّهر كالطَّيفِ بؤسَاهُ وأنعمُهُ من غيرِ قَصْدٍ : فلا تمدِّحْ ولا تذرِ
لا تَسألِ الدَّهرَ في غمَّاءَ يَكشِفُها : فلو سألتَ داومَ البؤسِ لم يدُم !
وقوله : ولا تذرِ ، إن كان بكسر الذَّالِ من قولك ذامَهُ يَذِيمُهُ ذِيماً وذاماً - أي
عابَهُ - فهو صحيح ؛ وإن كان بضمّها من قولك ذمَّهُ يَذُمُّهُ ، فهو مذموم فلحن أو
ضرورة بشيعة .

وقول أبي بكر الخوارزمي :

ما أثقَلِ الدَّهرَ على مَنْ ركبَهُ حدّثني عنه لسانُ التَّجربَةِ !
لا تَحمدِ الدَّهرَ لشيءٍ سبَّبه فإنَّه لم يتعمَّد بِالهِبَةِ
وإنّما أخطأَ فيكَ مَذْهَبُهُ كالسَّيْلِ إذ يَسْقِي مكانًا أُخْرِبَهُ !
والسُّمُّ يَسْتَشْفِي به مَنْ شَرِبَهُ

قلت : وشعر هذين الشاعرين ينحو منحى زهيرٍ إذ يقول :

رأيتُ المنايا خَبَطَ عِشواءَ من تُصِيبُ تَمَتُّهُ ومن تُخْطِئُ يُعَمَّرُ فيهِم
لا سيَّما الشاعرَ الأوَّلَ . ولا شكَّ أنَّ ما ذكره زهير خطأ وجهل بالتدبير الربانيّ ، والتصريف
الاختياريّ ، وأنَّ كلَّ ذلك واقع عن علم وسبق مشيئة . وإن كان يمكن أن يتأوَّلَ الكلام لو
صدر من موحدٍ بأنَّ ذلك بحسب الصورة الظاهرة . ومثَّل المنايا صروف الدهر وحوادثه سواء .

ويشبه قول الخوارزمي :

لا تَمْدَحَنَّ ابْنَ عِبَادٍ وَإِنْ هَظَلْتُ كَفَّاهُ بِالْجُودِ حَتَّى أَخْجَلَ الدِّيمَا !
فإِنَّهَا خَطَرَاتٌ مِنْ وَسَاوِسِهِ يُعْطِي وَيَمْنَعُ لَا بُخْلًا وَلَا كَرَمًا
[وكتب البيهقي فوضعهما حيث يجلس الصاحب ثم ارتحل من وقته] (52م) . فلما وقف
الصاحب عليهما قال :

أَقُولُ لِرَكْبٍ مِنْ خُرَاسَانَ أَقْبَلُوا (x) أَمَاتَ خَوَارِزْمِيَّكُمْ ؟ قِيلَ لِي نَعَمْ !
فَقُلْتُ : اكْتُبُوا بِالْجَصِّ مِنْ فَوْقِ قَبْرِهِ : أَلَا لَعَنَ الرَّحْمَانُ مَنْ يَكْفُرُ النَّعَمَ !
ومثل ما تقدّم قول الآخر :

مَنْ يَصْحَبِ الدَّهْرَ لَا يَعْدَمُ تَقْلُبُهُ وَالشَّوْكَ يُنْبِتُ فِيهِ الْوَرْدُ وَالْأَسُ
تَمَرٌ حِينَئِذَا وَتَحْلُو لِي حَوَادِثُهُ فَقَلَمًا جَرَحَتْ إِلَّا انْتَنَتْ تَأْسُو
وقول الآخر :

لَا تَجْزَعَنَّ لِعُسْرَةٍ مِنْ بَعْدِهَا يُسْرَانُ وَعَدٌّ لَيْسَ فِيهِ خِلَافُ !
كَمْ عُسْرَةٍ ضَاقَ الْغَتَى لِنُزُولِهَا لَلَّهِ فِي أَعْطَافِهَا الطَّافُ !
وقول الآخر :

تَصَبَّرْ لِلْعَوَاقِبِ وَاحْتَسِبْهَا فَأَنْتَ مِنَ الْعَوَاقِبِ فِي اثْنَتَيْنِ
تُرِيحُكَ بِالْمُنَى أَوْ بِالْمَنَايَا فَإِنَّ الْمَوْتَ إِحْدَى الرَّاحَتَيْنِ !
وقول الأبيوردي :

تَنَكَّرْ لِي دَهْرِي وَلَمْ يَدْرَ أَنْتَنِي أَعَزُّ وَأَنَّ الْحَادِثَاتِ تَهْوَنُ
فَبَاتَ يُرِينِي الْخَطْبَ كَيْفَ اعْتِدَاؤُهُ وَبَتَّ أَرِيهِ الصَّبْرَ كَيْفَ يَكُونُ
وقولنا من قصيدة :

فَإِذَا عَرَّتْكَ الْحَادِثَاتُ فَثِقْ بِمَلِكِهَا ذِي الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ
وَاصْبِرْ لِرَوْحِ اللَّهِ مُرْتَجِيًا فَلتَحْمَدَنَّ عَوَاقِبَ الصَّبْرِ
إِنَّ اصْطِبَارَ الْمَرْءِ مُفْتَتِحٌ مُتَغَلِّقَ الْبِئْسَاءِ وَالْعُسْرِ
وَمُنْفَسٌ عَنْهُ الْكُرُوبُ إِذَا ضَاقَتْ بِهِنَّ جَوَانِحُ الصَّدْرِ
كَمْ مِنْ حَزِينٍ بَاتَ مُكْتَتِبًا مُتَعَسِّرَ الْأَحْشَاءِ ذَا زَقَرِ

(52م) سقط ما بين معقوفتين من د.

(x) في المخطوطات : «لقبوا» بدل «أقبلوا». وفيه رواية أخرى : «أقول لركب من خراسان قافل».

مَا يَرْتَجِي جِلْبَابَ لَيْلَتِهِ
فَأَتَتْهُ النُّطَافُ مُنْفَسَّةٌ
وَلَكُمْ بُعِيدَ الضِّيقِ مِنْ سَعَةِ
هَذَا بَعْدَ مُعْتَكِرِ الظَّلَامِ سِوَى
أَوْ بَعْدَ ظَمَأَةِ هَجْمَةٍ وَرَدَّتْ
أَوْ بَعْدَ خَانِقَةِ التَّلَامِ سِوَى
وقول الآخر :

أَمَقْتُولَةَ الْأَجْفَانِ مَالِكٍ وَالْهَاءِ
أَقْلَى بُكَاءٍ : لَسْتُ أَوَّلَ حُرَّةٍ
وَفِي أُمِّ مُوسَى عِبْرَةٌ إِذْ رَمَتْ بِهِ
وَلَّاهُ فِينَا عِلْمُ غَيْبٍ وَحَسَبُنَا
والشعر في هذا المعنى أكثر من أن يحصى.
وقال الغزي :

قَالُوا : بَعُدْتَ وَلَمْ تَقْرُبْ فَقُلْتَ لَهُمْ:
لَوْلَا التَّبَاعُدُ بَيْنَ الْحَاجِبِينَ بِهِ
ومثله قول الأرجاني :
أَسْفَتُ عَلَى عُمْرٍ تَصَرَّمْ ضَائِعًا
وَأَنْسَنِي بُعْدِي مِنَ النَّاسِ جَانِبًا
وَلَمَّا غَدَا عَنَّا عَلَى جَفْنِ نَاطِرِي
أَلِفْتُ الْفَضَا مُسْتَوِطْنَا ظَهَرَ نَاقَةٌ
وَمَا سَرْتُ إِلَّا فِي الْهَوَاجِرِ وَحْدَهَا
وقول أبي العلاء المعري :

فَظُنُّنَا بِسَائِرِ الْإِخْوَانِ شَرًّا
فَلَوْ خَبَرْتَهُمُ الْجَوَازُءُ خُبْرِي
وقوله أيضا :

جَرَّبْتُ دَهْرِي وَأَهْلِيهِ فَمَا تَرَكْتُ

أَنْ يَنْزَوِي طَرْفَاهُ بِالسَّقَرِ
لِفُؤَادِهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي
وَلَكُمْ بُعِيدَ الْعُسْرِ مِنْ يُسْرِ !
بَلَجِ الصَّبَاحِ وَطَلَعَةِ الْفَجْرِ
إِلَّا ارْتِواءُ جَانِبِ الْغُدْرِ
فِيهِ الْفِجَاجُ وَفُسْحَةُ الْبُهِرِ ؟

أَلَمْ تَرَكَ الْأَيَّامُ نَجْمًا هَوَى قَلْبِي ؟
طَوْتُ بِالْأَسَى كَشْحًا عَلَى مَضْضِ الثَّكَلِ
إِلَى الْيَمِّ فِي التَّابُوتِ فَاعْتَبِرِي وَاسْلِي
بِهِ عِنْدَ جَوْرِ الدَّهْرِ مِنْ حَكَمٍ عَدَلِ

بُعْدِي عَنِ النَّاسِ فِي هَذَا الزَّمَانِ حِجَا
بَانَ افْتِرَاقُهُمَا لَمْ نَعْرِفِ الْبَلَا

وَجَدْتُ بِدَمْعٍ يَسْتَهْلُ هَتُونَ
وَإِنْ هُمْ عَلَى أَحْدَاقِهِمْ حَمْلُونِي
لِقَاءُ الْوَرَى مِنْ صَاحِبٍ وَخَدِينِ
تَلَفْتُ سَهولًا دَائِمًا بِحَزُونِ
كِرَاهَةً ظَلًّا أَنْ يَكُونَ قَرِينِي

وَلَا تَأْمَنُ عَلَى سِرِّ فُؤَادَا :
لَمَا طَلَعْتُ مَخَافَةَ أَنْ تُكَادَا !

لِي التَّجَارِيبُ فِي وَدٍّ أَمْرِي غَرْضًا

وقول ابن قلافس :

إِعْلَقْ بِأَطْوَاقِ الْوُدَادِ فَإِنَّهُ
وَإِذَا انْتَهَى الْإِخْلَاصُ أَوْجَبَ ضِدَّهُ :

وقول ابن الرومي، وهو المثل المشهور في هذا :

عَدُوُّكَ مِنْ صَدِيقِكَ مُسْتَفَادٌ :
فَإِنَّ الدَّاءَ أَكْثَرَ مَا تَرَاهُ
يَكُونُ مِنَ الطَّعَامِ أَوْ الشَّرَابِ !

وقول الآخر :

جَزَى اللَّهُ خَيْرًا كُلَّ مَنْ لَيْسَ بَيْنَنَا
فَمَا نَالْنِي ضِيمٌ وَلَا مَسْنِي أَذَى
مِنَ النَّاسِ إِلَّا مِنْ فَتَى كُنْتُ أَلْفُ !

وقول الآخر :

احْذَرْ عَدُوَّكَ مَرَّةً
فَلَرُبَّمَا انْقَلَبَ الزَّمَانُ
وَاحْذَرْ صَدِيقَكَ أَلْفَ مَرَّةً :
فَكَانَ أَعْرَفَ بِالْمَضَرَّةِ !

وقول ابن سناء الملك :

أَبَى الدَّهْرُ إِلَّا ضِدِّمَا أَنَا طَالِبٌ :
يُعَدُّ الْفَتَى إِخْوَانَهُ لَزْمَانِهِ
فِيَا لَيْتَ مَنْيَ مَكَّنَ اللَّهُ ضِدَّهُ !
وَأَعْدَى لَهُ مِنْ خَوْفِهِ مِنْ أَعْدَهُ

وقولي من قصيدة :

وَبَنُو دَهْرِكَ الْعُضَالُ مِنَ الدَّاءِ
وَأَضُرُّ الْأَدْوَاءَ مَنْ تَتَوَلَّاهُ
إِنَّمَا الْأَقْرَبَاءُ فِي النَّاسِ جُسَّاسٌ
يَخْبِرُونَ الْعَوْرَاتِ حِفْظًا وَإِعْدَادًا
لِيَوْمِ الْبِأَسَاءِ وَالشَّنَآنِ

وقول الأنصاري الأوك :

أَلَا رَبُّ مَنْ تَحْجُو صَدِيقًا وَلَوْ تَرَى
لِسَانٌ لَهُ كَالشَّهَدِ مَا دُمْتَ حَاضِرًا
وَبِالْغَيْبِ مَطْرُورٌ عَلَى ثَغْرِ النَّحْرِ
مَقَالَتَهُ بِالْغَيْبِ سَاعَكَ مَا يَفْرِي :

وقولي من قصيدة :

فَتَوَخَّ فِي النَّاسِ الْوُفَى إِذَا
وَاسَبْرُهُمْ قَبْلَ الْإِخَاءِ وَلَا
عَاشَرْتَهُمْ وَحَذَارْ ذَا الْغَدْرِ !
تَغْتَرَّ فِي الْإِخْوَانِ بِالسَّبْرِ !

كَمْ مِنْ آخِرٍ مَذَقَ الْوَدَادَ عَلَى
 إِنْ تَلَقَّاهُ فَالشَّهَدُ مَقُولُهُ
 سِمَى بِوَجْهِكَ تَسْتَمِيكُ وَإِنْ
 وَإِذَا الزَّمَانُ دَعَاكَ نَائِبُهُ
 فسيَحْتَبِيكَ بِوَعْدِ غَانِيَةٍ
 وَإِذَا تَعُودُ يَظَلُّ مُكْتَلِحًا
 وَإِذَا تُصَادِفُ ذَا الصَّفَاءِ فَكُنْ
 وَأَسْمُ سَوَائِمَ سَمْعِهِ طَرَقًا
 وَصُنِ السَّرَارَةَ وَالْثَلَبَابَ وَلَا
 فَلَرُبَّمَا يَلْوِي الزَّمَانُ بِهِ
 وقول الآخر :

مَا فِيهِ مِنْ إِحْنٍ وَمِنْ سِيرٍ
 وَإِذَا تَغَيَّبُ يَكُونُ كَالصَّبْرِ
 أَدْبَرَتْ عَنْهُ فَكَيْتُ الظَّهْرِ
 الْعَازِي إِلَيْهِ تَرْجِيَّ الْبِرِّ
 أَوْ وَعْدِ عُرْقُوبٍ جَنَى التَّمْرِ
 مُتَغَيِّظًا يَنْزُو وَيَسْتَشْرَى
 مِنْهُ، وَلَوْ صَافَاكَ، ذَا حِذْرِ
 مَطْرُوقَةٍ مِنْ مَسْرَحِ السَّرِّ⁽⁵³⁾
 تَبْذُلُ لَهُ مِنْهُ سِوَى الْقَشْرِ
 فَيَكُونُ أَبْصَرَ فَيْكَ بِالضَّرِّ

فَأَقَتْ بِيَوْسُفَهَا الدُّنْيَا وَفَاحَ لَهَا
 فَإِنْ يُشَارِكُهُ فِي اسْمِ الْمُلْكِ طَائِفَةٌ
 وَيَتِمَّتْكَ بِالْبَيْتِ الثَّانِي . وَمِثْلُهُ فِي الْمَعْنَى
 وَفِي الْبَسَاتِينِ أَفْنَانٌ مُنَوَّعَةٌ
 وَفِي السَّمَاءِ نَجُومٌ مَا لَهَا عَدَدٌ
 وقول أبي الطَّيِّب :

طَيِّبٌ طَوَى الْمَسْكَ فِي نَشْرِهَا أَرْجٍ
 فَإِنَّ شَمْسَ الضُّحَى مِنْ جُمْلَةِ السُّرُجِ
 وَيَتِمَّتْكَ بِالْبَيْتِ الثَّانِي . وَمِثْلُهُ فِي الْمَعْنَى

فَإِنْ تَفَقَّ الْأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ
 وقول الآخر :

وَلَيْسَ يُقْطَفُ إِلَّا الْوَرْدُ وَالزَّهْرُ
 وَلَيْسَ يَخْسَفُ إِلَّا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
 فَإِنَّ الْمَسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ

وَقَدْ يُسَمَّى سَمَاءٌ كُلُّ مُرْتَفِعٍ
 النَّاسُ كَالنَّاسِ إِلَّا أَنْ تُجَرَّبَهُمْ
 وَالْأَيْكُ مُشْتَبِهَاتٌ فِي مَنَابِتِهَا
 وقول الآخر :

وَأِنَّمَا الْفَضْلُ حَيْثُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
 وَلِلْبَصِيرَةِ حُكْمٌ لَيْسَ لِلْبَصَرِ
 وَأِنَّمَا يَقَعُ التَّفْضِيلُ فِي الثَّمَرِ

وَقَدْ يَتَقَارَبُ الْوَصْفَانِ جِدًّا

وَمَوْصُوفَاهُمَا مُتَبَاعِدَانِ

(53) فِي ب : « طَرَرَا » بِدَل « طَرَقَا » . وَتَرَكَ بَيْتُضَ مَكَانَ الْقَافِ فِي ج .

وقول الآخر :

قَدْ يَبْعُدُ الشَّيْءُ مِنْ شَيْءٍ يُنَاسِبُهُ :

وقول الآخر :

دَعُ مَا تَنَاسَبَ فِي الْأَبْصَارِ ظَاهِرُهُ
فَصْدْمَةُ الْمُتَنَافِي لَا اعْتِدَادَ بِهَا :

وقول الآخر :

قَدْ تُشَبِّهُ الْحَالَةَ الْأُخْرَى وَبَيْنَهُمَا
فَرَبَّمَا صَفَقَ الْمَسْرُورُ مِنْ طَرَبٍ :

وقول الآخر :

لَقَدْ عَرَضَ الْحَمَامُ لَنَا بِسَجْعٍ
شَجَا قَلْبَ الْخَلِيٍّ فَقَالَ غَنِّي :

وقال الشيخ عمر بن الفارض :

لَا كَانَ وَجْدٌ بِهِ الْأَمَاقُ جَامِدَةً

وقال الراعي :

وَمُرْسَلٌ وَرَسُولٌ غَيْرُ مُتَّفَعٍ
طَاوَعْتُهُ بَعْدَمَا طَالَ النَّجِيُّ بَنَا :

مَا زَالِ يَفْتَحُ أَبْوَابًا وَيُغْلِقُهَا
حَتَّى أَضَاءَ سِرَاجٌ دُونَهُ بِقَرٍّ :

يَا نِعْمَهَا لَيْلَةً حَتَّى تَخَوَّنَهَا
لَمَّا دَعَا الدَّعْوَةَ الْأُولَى فَأَسْمَعَنِي :

وقال الآخر :

مَا زِلْتُ أَبْغِي الْحَيَّ أَتْبَعُ ظِلَّهُمْ
قَالَتْ : وَعَيْشُ أَبِي وَحُرْمَةُ إِخْوَتِي :

فَخَرَجْتُ خِيفَةً قَوْلِهَا فَتَبَسَّمتْ

إِنَّ السَّمَاءَ نَظِيرُ الْمَاءِ فِي الزَّرَقِ :

وَلَا تَقُكْ بِقِيَاسٍ غَيْرِ مُطَرَّدٍ !
شَتَّانَ مَا بَيْنَ مُهْتَزٍّ وَمُرْتَعِدٍ !⁽⁵⁴⁾

إِذَا تَأَمَّلْتَ فَرْقَ عَنْ سِوَاكَ خَفِي
وَرَبَّمَا صَفَقَ الْمَحْزُونُ مِنْ أَسْفٍ :

إِذَا أَصْغَى لَهُ رَكْبٌ تَلَا حَيَّ
وَبَرَّحَ بِالشَّجِيِّ فَقَالَ نَاحَا⁽⁵⁵⁾

وَلَا غَرَامٌ بِهِ الْأَشْوَاقُ لَمْ تَهْجِرْ

وَحَاجَةً غَيْرَ مُزْجَاةٍ مِنَ الْحَاجِ
وِظْنَ أَنْتِي عَلَيْهِ غَيْرُ مُنْعَاجٍ⁽⁵⁶⁾

دُونِي وَأَفْتَحُ بَابًا بَعْدَ إِرْتَاكِ
حُمُرِ الْأَنَامِلِ عَيْنُ طَرْفِهَا سَاجِرٍ :

دَاعٍ دَعَا فِي فُرُوعِ الصُّبْحِ سَحَّاجٍ
أَخَذْتُ بُرْدِيَّ وَاسْتَمَرَّتْ أَدْرَاجِي :

حَتَّى دَفَعْتُ إِلَى رَبِيبَةِ هُوْدَجٍ
لَأَنْبِئَنَّ الْحَيَّ إِنْ لَمْ تَخْرُجْ !

فَعَلِمْتُ أَنَّ يَمِينَهَا لَمْ تَخْرُجْ

54) فِي ج : « فَهْزَمَةٌ » بِدَل « فَصْدَمَةٌ » ، وَفِي د : « فَهْزَمَةٌ » .

55) صَفْحُ الشُّطْرِ الثَّانِي فِي د ، فَكُنْتُ فِيهِ : وَبَرَّحَ بِالشَّجَا ...

56) صَفَحْتُ كَلِمَةَ « النَّجِيِّ » فِي ج ، فَكُنْتُ « النَّجَا » .

فَلَمْتُ فَاهَا أَخِذًا بِقُرُونِهَا شَرِبَ النَّزِيرُ بِيَدِ مَاءِ الْحَشْرِجِ
قوله ماء الحَشْرِج أي الماء الجاري على الحجارة.

وقال عمر بن أبي ربيعة :

قَدْ كُنْتُ حَمَلْتَنِي عِيْظًا أَعَالَجُهُ فَإِنْ تُقِدْنِي فَقَدْ عَنَيْتَنِي حِجَا
حَتَّى لَوْ اسْطِيعَ مِمَّا قَدْ فَعَلْتَ بِنَا أَكَلْتُ لَحْمَكَ مِنْ غِيْظٍ وَمَا نَضِجَا !
وقبل هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ :

يَارَبَّةَ الْبَغْلَةِ الشَّهْبَاءِ هَكَ لَكُمْ أَنْ تَرْحَمِي عُمْرًا لَا تُرْهِقِي حَرْجًا ؟
قالت : بدَائِكَ مَتَّ أَوْ عِشْ تَعَالَجُهُ فَمَا نَرَى لَكَ فِيمَا عِنْدَنَا فَرْجًا !
وبعدهما :

فَقُلْتُ : لَا وَالَّذِي حَجَّ الْحَجِيجُ لَهُ مَا مُجَّ قَلْبُكَ مِنْ قَلْبِي وَمَا نَهَجَا
وَلَا رَأَى الْقَلْبُ مِنْ شَيْءٍ يُسْرُ بِهِ مُذْبَانَ مَنْزِلُكُمْ مِنَّا وَمَا ثَلَجَا
كَالشَّمْسِ صَوْرَتُهَا غُرَاءُ وَاضِحَةً تُعْشِي إِذَا بَرَزْتَ مِنْ حُسْنِهَا السُّرْجَا
ضَنَنْتُ بِنَائِلِهَا عَنْهُ فَقَدْ تَرَكْتَ مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ أَبَا الْخَطَّابِ مُخْتَلَجَا
وقال بعض المجَّان :

إِذَا مَرَرْتَ بَوَادِي لَا أَنْيْسَ بِهِ فَاضْرِبْ عُمَيْرَةً لَا عَارَ وَلَا حَرْجَ
ضَرْبُ الْعُمَيْرَةِ هِيَ الْخَضْخَضَةُ ، وَهِيَ الْاسْتِمْنَاءُ بِالْيَدِ وَشِبْهُهُ . وَكَذَبَ هَذَا الْقَائِلُ :
فَإِنْ فِي الْخَضْخَضَةِ لَحْرَجًا وَعَارًا ، وَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عِنْدَ جَمَاهِيرِ النَّاسِ ، وَفِيهَا قَوْلُ بَعْضِ
الْأَعْرَابِ :

إِنْ تَبْخَلِي بِالرَّكَبِ الْمَحْلُوقِ فَإِنَّ عِنْدِي رَاحَتِي وَرِيقِي
وَالرَّكَبُ بِفَتْحَتَيْنِ ، وَتَقْدَمُ تَفْسِيرُهُ .
وقول الآخر :

كَفَيْ وَرَجْلِي لَا عَدَمْتُ كَلِيهِمَا أَصْبَحْتُ أَغْنَى مَنْ يَرَوْحُ وَيَغْتَدِي
أَمْشِي عَلَى هَذِي وَأُنْكِحُ هَذِهِ فَمَطِئَتِي رَجْلِي وَجَارِئَتِي يَدِي !
وقول الآخر :

خَطَبْتُ إِلَى سَاعِدِي رَاحَتِي وَمَا كُنْتُ مِنْ شَرِّ خَطَائِيهَا
وَمَا إِنْ تَكَلَّفْتُ مِنْ مَقْرَهَا سِوَى رِيقَةٍ أَتَجَزَّى بِهَا

فإن شئت أوتى بها ثيباً وبكرًا إذا شئت أوتى بها وقال بعضهم : مررت على برذعة الموسوس، وقد أدخل رأسه في جيبه يتخضض . فضربته برجلي، فأنكشف فإذا هو مُنعص، فقلت : ما هذا ؟ فقال : أما ترى في ذلك الرُّوشَن ؟ وأشار إلى باب في عليّة، فإذا جارية جميلة تتطلّع . فقال : إني دعوتها، فلمّا لم تجبني أجبتها . فقلت : قبّحك الله ! وولّيت عنه . فلم ألبث أن لحق فقال : قضيت الحاجة على رغم أنفك، وأنشد :

أَنكُرتَ ما عايَنتَ من كَفِّ دالِكِ وهَلْ يُنكَرُ التَّدليكَ في قولِ مالِكِ ؟
لَقَدْ أَمِنَ الدَّلَّيْكَ مِنْ أَن تَنالَهُمُ حُدُودُ الزَّنى في واضحاتِ المسالكِ
وَإِنِّي قَدْ سَكَنْتُ غُرْبَةً غَلَمَتِي بحُسنِ العُيونِ والثُّديِّ القَواليكِ
وكذب هذا الأحمق على مالک، رضي الله عنه : فإنّ حرمة الاستمناء هي مذهبه، وكذا مذهب الشافعي وغيره . وإنّما رُويت فيه رخصة عن عمرو بن دينار، إن صحّت الحكاية عنه . وروي عن ابن عباس أنّه قال في الخضضة : هي خير من الزنى .

قلت : وليس في هذا الكلام ما يقتضي حليتها، إذ ليست المحرّمات كلّها في درجة واحدة، بل مقطوع بتفاوت ما بينها : فإن الزنى نفسه - وهو محرّم إجماعًا - على درجات بعضها أشدّ من بعض . ألا ترى أن الزنى بحرّة مطاوعة لا زوج لها ولا أهل يسبون بفعلها، ولا ترجو ولدا أخفّ من الزنى بغيرها وإن كان الكلّ حراما، لأنّ الحقّ إذا انفرد وتمحض لله تعالى أخفّ ممّا إذا انضمّ إليه حقّ المزنّي بها المُكرهة أو حقّ الزوج، أو حقّ الأهل، أو حقّ السيّد في الاضرار بهم، ونحو ذلك من الحقوق . وهو أيضا في الآيسة أخفّ منه في الولود، لمّا في الثانية من مزيد المفسدة باختلاط الانساب، وهو الحكمة الأصلية في التحريم . ومعلوم أنّ الخضضة ليست بمحلّ لهذه المفسدة، لا تحقيقا ولا مظنة ؛ ولكن فيها تضييع البذر، وهو ماء النفس في غير وجهه، فلتكن هي أخفّ . ولهذا المبحث محلّ يليق به، وليس من غرضنا الآن التعرّض له .

وقلت أنا :

إذا لَحَظْتَكَ عَيْنُ المَرءِ يَوماً بَدَا مِنْهُ صِفَاءٌ أو ضِجَاجُ
وَأُنْبَتَ فِيهِ عَن حُبٍّ وَبُغْضٍ كَمَا يُنْبِي عَنِ المَاءِ الرُّجَاجُ
الصِّفَاءُ بالكسر : المُصافاة ؛ والضِّجَاجُ بالكسر : المضاجّة، وهي المُشاورة .

وقلت أيضا :

لَكُلِّ أَخِي دَاءٌ دَوَاءٌ يُعَدُّهُ وَأَعْنَى دَوَاءُ الضَّغْنِ كُلِّ مُعَالِجٍ
إِذَا آنَسَ النُّعْمَى تَضَاعَفَ دَاؤُهُ وَأَضَّ بَغِيزُ اللُّجَوَانِجِ زَامِجٍ
وإن آنَسَ البَأْسَاءُ أَصْبَحَ شَامِتًا بِقَلْبٍ مِنَ الشَّحْنَاءِ وَالْهَزْءِ رَامِجٍ
تقول : زَمَجْتَ الْقَرِيبَةَ إِذَا مَلَأْتَهَا، وَزَمَجُ الْغَيْظِ لِلْجَوَانِحِ مَجَازٌ . وَالرَّامِجُ :
المرتلي الريان، وهو هنا مجاز أيضا.

وقلت أيضا :

أَرَى الْوَرَى وَصُرُوفُ الدَّهْرِ تَخْضِمُهَا مِثْلَ السَّفِينِ تَدَاعَتْ فَوْقَهَا اللُّجَجُ
وَهُمْ رَمَايَا مَنَايَاهَا فَلَا وَرَرَ عَنْهَا وَلَا مَلْجَأَ مِنْهَا وَلَا وَحَجَ
كَأَنَّمَا هِيَ حَوْضٌ وَالْوَرَى وَرْدٌ عَطَشَى أَنَاخُوا عَلَيْهِ دَائِمًا وَحَجُّوا
أَوْ مِثْلُ هَيْمٍ لِخِمْسٍ تَغْتَشِيهِ فَلَمْ يُغْنِ الذِّيَادُ لَهَا عَنْهُ وَلَا الْعَنْجُ
الْخَضْمُ : الْأَكْلُ، وَيَسْتَعْمَلُ فِي مَلَأَ الْفَمَ بِالْمَأْكُولِ، وَهُوَ مَجَازٌ هُنَا عَنِ الْاسْتِنْصَالِ
وَالْوَحَجِ: الْمَلْجَأُ، وَهُوَ عَطَفٌ تَفْسِيرٌ . وَالْوَرْدُ بضمَّتَيْنِ جَمْعٌ وَرُودٌ ؛ وَحَجُّوا : أَقَامُوا .
يَقَالُ : حَجِيَ بِهِ أَيْ أُولِعَ بِهِ وَلَزِمَهُ . وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الْوَحَجِ الْأَوَّلِ جُنَاسٌ تَامٌ بَيْنَ الْأَسْمِ
وَالْفِعْلِ . وَالْهَيْمُ : الْأَبْلُ يُصِيبُهَا الْهَيَامُ . وَالْخِمْسُ بِالْكَسْرِ : زَمَانٌ وَرُودُهَا . وَالذِّيَادُ :
الطَّرْدُ ؛ وَالْعَنْجُ بِالتَّحْرِيكِ : اسْمٌ مِنَ الْعَنْجِ بِالسُّكُونِ، وَهُوَ أَنْ يَشُدَّ الرَّابِطُ خَطَامَ
الْبَعِيرِ فَيُرَدُّهُ عَلَى رَجْلَيْهِ.

بَابُ الْحَاءِ الْمُهْمَلَةِ

أَحَبُّ الْحَدِيثِ أَصْدَقُهُ.

الحُبُّ معروف . تقول : أَحَبَبْتُ الرَّجُلَ ، فهو مَحْبُوبٌ - على غير قياس .. وقد يقال مُحَبٌّ ، وهو قليل . قال عنتره :

ولقد نزلت فلا تظنني غيره مني بمنزلة المحب المكرم
وقد يقال حَبَبْتُهُ ثلاثيا أَحَبَّهُ بالكسر ، فهو محبوب . أنشد الجوهري في الصحاح :
أَحَبُّ أبا مروان من أجل تمره وأعلم أن الرِّفْقَ بالمرء أرفقُ
ووالله لولا تمره ما حَبَبْتُهُ ولو كان أدنى من عبْدٍ ومُشْرِقٍ⁽¹⁾
وليس عندهم مضعف متعدد يتمحّض فيه الكسر غير هذا . والحديث معروف أيضا .
والصدق ضدّ الكذب . وهذا كلام يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم لما جاءت
هوزان تطلب منه أن يردّها إليها ما أخذ منها من السبايا والأموال يوم حُنَيْن . فقال : أَحَبُّ
الحديث إلى الله أَصْدَقُهُ ، أو : خَيْرُ الحديثِ ، إنَّ معي مَنْ تَرَوْنِ ،
فَاخْتَارُوا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ : إمَّا السَّبْيَ وإمَّا الْأَمْوَالَ . فَاخْتَارُوا السَّبْيَ وقالوا : لا
نعدل بالأحساب شيئاً . والقصة مشهورة في المغازي .

وقال كعب بن مالك رضي الله عنه :

أبلغ قريشاً وخير القولِ أَصْدَقُهُ والصدقُ عند ذَوِي الالبابِ مَقْبُولُ

حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ.

الحُبُّ مرٌّ ؛ والعَمَى معروف ، وأَعْمَيْتُهُ : فعلت به ذلك . وكذا الصَّمَمُ وأصمّمته .

(1) فيه إقواء . ويرويه المبرد بدون اقواء هكذا :
وكان عياضاً أدنى منه ومُشْرِقُ

وهذا أيضا يُروى عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَالْعَمَى هُنَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَمَى الْبَصَرِ - وَهُوَ أَظْهَرُ - أَوْ عَمَى الْبَصِيرَةِ - وَهُوَ أَدَقُّ وَأَلْيَقُ - .

وَالْمَعْنَى أَنَّ الْمَرْءَ إِذَا أَحَبَّ شَيْئًا غَلَبَتْ مَحَبَّتُهُ عَلَى قَلْبِهِ، فَلَا يَرَى رُشْدَهُ، وَلَا يَنْظُرُ عَاقِبَتَهُ، وَلَا يَسْمَعُ عَازِلَهُ . وَالصَّمَمُ هُنَا مُجَازٌ أَيْضًا عَنْ عَدَمِ الْإِصْغَاءِ إِلَى الْمَسْمُوعِ، وَعَدَمِ الْإِهْتِبَالِ بِهِ وَالِانْتِفَاعِ بِهِ . فَكَأَنَّهُ أَصَمٌّ لَا يَسْمَعُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ . وَقَالَ الشَّاعِرُ :

صُمٌّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِّرْتُ بِهِ وَإِنْ ذُكِّرْتُ بِشَرٍّ عِنْدَهُمْ أَذِنُوا
وَقَالَ الْآخَرُ :

فَأَصَمَّمْتُ عَمْرًا وَأَعْمَيْتُهُ عَنْ الْجُودِ وَالْفَخْرِ يَوْمَ الْفَخَارِ
وَفِي مَعْنَى الْمَثَلِ قَالَ الْأَمَامُ الْبُوصَيْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ :

مَحْضَتْنِي النَّصْحَ لَكِنْ لَسْتُ أَسْمَعُهُ إِنَّ الْمُحِبَّ عَنْ الْعُذَالِ فِي صَمَمٍ
وَهَذَا الْمَثَلُ يَضْرِبُ فِي الْحَذَرِ مِنْ اتِّبَاعِ الْهَوَى وَمَا يُؤْمَرُ بِهِ مِنْ اجْتِنَابِهِ .

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : جَاهِدُوا أَهْوَاءَكُمْ كَمَا تَجَاهِدُونَ أَعْدَاءَكُمْ !

وَقَالَ الشَّاعِرُ :

إِذَا طَالَبْتُكَ النَّفْسُ يَوْمًا بِشَهْوَةٍ وَكَانَ عَلَيْهَا لِلْخِلَافِ طَرِيقُ
فَخَالَفَ هَوَاهَا مَا اسْتَطَاعَتْ فَإِنَّمَا هَوَاهَا عَدُوٌّ وَالْخِلَافُ صَدِيقُ

وَقَالَ الْآخَرُ :

وَفِي الْحِلْمِ وَالْإِسْلَامِ لِلْمَرْءِ وَازِعٌ وَفِي تَرْكِ طَاعَاتِ الْفُؤَادِ الْمُتَيَّمُ
بِصَائِرٍ رُشْدٍ لِلْفَتَى مُسْتَبِينَةٌ وَأَخْلَافُ صَدَقٍ عِلْمُهَا فِي التَّعَلُّمِ
وَفِي هَذَا الْمَعْنَى مَا لَا يُحْصَى مِنَ الشَّعْرِ وَالنَّثْرِ يَأْتِي فِي الْحُكْمِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

حَبْلُ فُلَانٍ يُفْتَلُ .

الْحَبْلُ، بِالْفَتْحِ فَالْسُكُونِ : الرِّبَاطُ، وَهُوَ مَعْرُوفٌ . وَجَمْعُهُ حِبَالٌ وَأَحْبِلُ . قَالَ الشَّاعِرُ :

أَمِنْ أَجْلِ حَبْلِ لَا أَبَاكَ ضَرْبَتَهُ بِمِنْسَاءٍ ؟ قَدْ جَرَّ حَبْلُكَ أَحْبَلًا⁽²⁾
وَفَتَكَ الْحَبْلَ مَعْرُوفٌ . قَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ :
فَيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نَجُومَهُ بِكَ كُلِّ مُعَارٍ الْفَتْلُ شُدَّتْ بِيذْبُكُ !
أَيُّ بَكَ حَبْلٌ أَحْكَمُ فَتْلُهُ . وَيُقَالُ : حَبْلُهُ يُفْتَلُ إِذَا كَانَ مَقْبَلًا عَلَى الْأَمْرِ .

حَتَفَهَا تَحْمِلُ ضَاَنٌ بِأَظْلَافِهَا .

الْحَتَفُ : الموت . وَالْأَظْلَافُ جمع ظِلْفٍ بالكسر، وتقدَّم تفسيره . وهذا المثل يضرب
في الهلاك يجتلبه القدر على الانسان، أو يجرّه على نفسه . وأصله أنَّ النعمان بن المنذر
عمد الى كبش، فعَلَّقَ في عنقه مُدْيَةً، وأرسله يركب، ونذر أن يقتل من تعرَّض له . فكان
الكبش يخرج ولا يُمسَّ . ثمَّ مرَّ على أرقم بن علباء اليشكري - وقيل على علباء بن أرقم
اليشكري - فقال : كبش يحمل حتفه بأظلافه ! ووثب عليه فذبحه واشتواه . فقال في ذلك
شعرا طويلا، منه :

أَخُوفٌ بِالنُّعْمَانِ حَتَّى كَانَنِي ذَبَحْتُ لَهُ خَالًا كَرِيمًا أَوْ ابْنَ عَمٍّ
وَقَالَ أَبُو عُبَيْدٍ إِنَّ هَذَا الْمَثْلَ تَمَثَّلَ بِهِ حُرَيْثُ بْنُ حَسَّانَ الشَّيْبَانِي بَيْنَ يَدَيِ
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِقَيْلَةَ التَّمِيمِيَّةِ، وَكَانَ قَدِمَ بِهَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَذَلِكَ فِي قِصَّةٍ طَوِيلَةٍ، حَتَّى قَالَتْ قَبِيلَةٌ : فَقَدِمْنَا - تَعْنِي مَعَ حُرَيْثٍ - عَلَى
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَصَلَّيْتُ مَعَهُ الْغَدَاةَ، حَتَّى إِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ دَنُوتَ،
فَقَالَ رَجُلٌ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : وَعَلَيْكَ السَّلَامُ ! وَهُوَ قَاعِدٌ
الْقُرْفُصَاءَ . فَقَالَتْ : فَتَقْدَمُ صَاحِبِي، فَبَايَعَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَكْتُبُ
لِي بِالْدَّهْنَاءِ⁽³⁾ . فَقَالَ : يَا غَلَامُ أَكْتُبُ لَهُ . قَالَتْ : فَشَخْصَ بِي، وَكَانَتْ وَطْنِي وَدَارِي
. فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ، الدَّهْنَاءُ مُقَيَّدُ الْجَمَلِ وَمَرْعَى الْغَنَمِ، وَهَذِهِ نِسَاءُ
بَنِي تَمِيمٍ وَرَاءَ ذَلِكَ . قَالَ : صَدَقْتَ الْمِسْكِينَةَ ! الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ،
يَسْمَعُهُمَا الْمَاءُ وَالشَّجَرُ، وَيَتَعَاوَنَانِ عَلَى الْفِتَنِ . وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى

(2) قَالَ ابْنُ بَرِّي : صَوَابُهُ « قَدْ جَرَّ حَبْلُكَ أَحْبَلٌ » . قَالَ : وَبَعْدَهُ
هَلَمْ إِلَى حُكْمِ ابْنِ صَخْرَةَ، إِنَّهُ سَيَحْكُمُ فِيمَا بَيْنَنَا ثُمَّ يَعْبُدُ

(انظر لسان العرب، مادة حب) (3) يريد أن يقطعها إياها .

اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَيْلَامُ ابْنِ هَذِهِ أَنْ يَفْصَلَ الْخُطَّةَ وَيَنْتَصِرَ مِنْ وِرَاءِ
الْحُجْرَةِ ؟ انتهى.

وهذا المثل هو مثل قولهم : بَحَثَ عَنْ حَتْفِهِ بِظِلْفِهِ ، وتقدّم.

حَتَّامَ تَكَرَّعُ وَلَا تَنْفَعُ ؟

حَتَّى هنا حرف جرّ، دخلت على ما الاستفهاميّة . ويُقال كَرَعَ في الماء وفي الاناء،
بفتح الراء وكسرهما، كَرُوعًا وكَرَعًا إذا تناول به من غير أن يشرب بكفّيه ولا بإناء .
والكَرَع بفتح الحاء : الماء يُكَرَع فيه يجتمع من ماء السماء في غدير أو نحوه . قال عدي
ابن الرّقاع يصف راعي الابل :

يَسْنُهَا آبٌ مَا إِنْ يُجَزُّهَا جَزْءًا شَدِيدًا وَمَا إِنْ تَرْتَوِي كَرَعًا
ويقال : نَقَعَ الرجل بالشراب وبالخبز، بفتح القاف إذا استشفى به من غليله . قال كثير :
فَمَا نَقَعْتَ نَفْسِي بِمَا أَمَرُوا بِهِ وَلَا عُجْتُ مِنْ أَقْوَالِهِمْ بِفَتِيكِ
والمثل ظاهر معنًى ومضربًا.

المُحَاجَزَةُ، قَبْلَ الْمُنَاجَزَةِ.

ويقال أيضا : إِنْ أَرَدْتَ الْمُحَاجَزَةَ فَقَبْلَ الْمُنَاجَزَةِ . يقال حَجَزَهُ عن الأمر إذا
كفّهُ عنه وصرفه، فَاُنْحَازَ هو . وحَجَزَ بين الناس فَصَلَ بينهم . وَتَحَاجَزَ القومُ
كَفَّ بعضهم بعضا . والحَجَزَةُ - بفتح الحاء - الذين يَنْمَنَعُونَ بعض الناس من بعض
 ويفصلون بينهم، جمع حَاجِز . ويقال : نَجَزَ حاجته وأُنْجَزَها : قَضَاها . والمُنَاجَزَةُ
المُقابِلَةُ . وَتَنَاجَزَ القومُ تلاحموا وتقاتلوا . والمعنى أَنَّ الْمُحَاجَزَةَ والمُسَالَمَةَ إِنَّمَا تكون
قبل المناجزة والوقوع . فيُضْرَبُ عند الحزم والفرار ممَّن لا يُطَاقُ، أو عند طلب الصلح بعد
القتال.

حِدَاً حِدَاً وَرَاءَكَ بُنْدُقَةٌ.

الحِدَاةُ، بكسر الحاء وفتح الدال المهملة بعدها همزة : الطائر المعروف، جمعه حِدَاةٌ على مثال عِنَبَةٍ وَعَيْنَبٍ . قال الرازي⁽⁴⁾: كنه تَدَانَى الحِدَاةِ الأُوَيُّ وقال الآخر :

وتُبْلِي الأُلى يستلثمون على الأُلى تَراهنَّ يومَ الرُّوعِ كالحِدَاِ القُبُلِ
وضمير تُبْلِي للمَنُونِ في البيتِ قبله . يقول : إِنَّ المنيَّةَ تُبْلِي الذين
يَسْتَلْثِمُونَ - أي يَلْبِسُونَ اللَّأْمَاتَ للقتال - على الأُلى - أي على النساء - اللَّائِي
تَراهنَّ يومَ الرُّوعِ - أي يومَ الفَرَعِ - كالحِدَاِ القُبُلِ جمع قُبْلَاءَ، وهي الناطرة
بمقدَّم العين . يصفهـ بالاشفاق على أزواجهنَّ، فهنَّ ينظرن إليهم هك سلموا .
والبُنْدُقَةُ - بالضم - هي التي يرمى بها . وحِدَاً في المثل أصله : يا حِدَاةُ بالهاء
[منادى، فرخمه بحذفه الهاء]⁽⁵⁾ وأسقط حرف النداء . والمعنى : يا حِدَاةُ، وراءَكَ
بُنْدُقَةٌ ! أي احذري بندقية الرامي تصبك ! وقيل إِنَّ حِدَاً هي حِدَاٌ بنُ نَمِرَةٍ،
وبُنْدُقَةٌ هي بُنْدُقَةٌ بنُ مِطَّةَ، وهما قبيلتان من سَعْدِ العَشِيرَةِ . وكانت حِدَاٌ
تنزل الكوفة، فأغاروا على بُنْدُقَةٍ، وكانوا ينزلون باليمن، فنالوا منهم . ثم كَرَّتْ بندقية
على حِدَاةٍ فأنحوا عليهم، فصار يضرب لمن يَفْزَعُ بعدُوه أو يُبْلَى بنظيره . ومن
الناس من يرويه : حِدَاً حِدَاً، بفتح الحاء غير مهموز على مثال عَصَا - ويقول هو اسم
القبيلة.

ويُروى : حَدَّثَ حَدِيثَيْنِ المَرَاةَ، فَإِنْ أَبَتْ فَعَشْرَةٌ . والحديثان والأربعة
والعشرة أعداد معروفة . والمرأة فيها أربع لغات . يقال امرأَةٌ ومَرَأَةٌ ومَرَةٌ ومَرَاةٌ .
ويُروى : حَدَّثَ المَرَاةَ حَدِيثَيْنِ، فَإِنْ لَمْ تَفْهَمْ فاربَعٌ . يقال : يَرْبَعُ إذا
وقف وحبس . والمعنى : حَدَّثَ حتَّى إذا كَرَّرْتَ الحديث فلم يفهم عنك، فأمسك ولا
تُتَعَبِ نفسك !

(4) هو العجاج يصف الأثافي.

(5) سقط ما بين معقوفتين من د.

يُضْرَبُ فِي سُوءِ السَّمْعِ وَالْإِجَابَةِ . وَهَذَا الْمَعْنَى ظَاهِرٌ فِي الرِّوَايَةِ الْآخِرَةِ . وَأَمَّا الرِّوَايَتَانِ الْأُولَيَانِ فَأُولَهُمَا رَوَايَةُ أَبِي عُبَيْدٍ . قَالَ الْبَكْرِيُّ : وَتَصَحَّ عَلَى حَذْفٍ، يَرِيدُ حَدِيثَ حَدِيثَيْنِ الْمَرْأَةِ، فَإِنْ لَمْ تَفْهَمْ فَأَرْبَعَةٌ لَا تَفْهَمُهَا . وَعَلَى الرِّوَايَةِ الْآخَرَى : فَعَشْرَةٌ لَا تَفْهَمُهَا . انْتَهَى . قُلْتُ : وَهَذَا الْمَثَلُ مِنَ الْأَمْثَالِ الْمَوْضُوعَةِ عَلَى أَلْسِنَةِ الْعَجَمَاوَاتِ . زَعَمُوا أَنَّ الْأَرْنبَ التَّقَطَّتْ ثَمَرَةً، فَاخْتَلَسَهَا الثَّعْلَبُ فَأَكَلَهَا، فَاَنْطَلَقَا إِلَى الضَّبِّ يَخْتَصِمَانِ . فَقَالَتِ الْأَرْنبُ : يَا أَبَا الْحِسْلِ ! فَقَالَ : سَمِيعًا دَعَوْتُ . قَالَتْ : أَتَيْنَاكَ لِنَخْتَصِمَ إِلَيْكَ، فَاخْرُجْ إِلَيْنَا . قَالَ : فِي بَيْتِهِ يُؤْتَى الْحَكَمَ . قَالَتْ : إِنِّي وَجَدْتُ ثَمَرَةً . قَالَ : حُلُوتُهُ فَكُلِيهَا . فَقَالَتْ : فَاخْتَلَسَهَا مِنِّي الثَّعْلَبُ . قَالَ : لِنَفْسِهِ سَعَى . قَالَتْ : فَلَطَمْتُهُ . قَالَ : حَقَّكَ أَخَذْتُ . قَالَتْ فَلَطَمَنِي . قَالَ : حَرُّ انْتَصَرَ . قَالَتْ : فَاغْضِرْ بَيْنَنَا ! قَالَ : حَدَّثَ امْرَأَةً حَدِيثَيْنِ، فَإِنْ لَمْ تَفْهَمْ فَأَرْبَعَةٌ ! وَهَذِهِ الْمَقَالَةُ⁽⁶⁾ الْمُنْسُوبَةُ إِلَى الضَّبِّ كُلِّهَا أَمْثَالٌ سَائِرَةٌ.

حَدِيثُ خُرَافَةِ يَا أُمَّ عَمْرُو !

الْحَدِيثُ مَعْرُوفٌ . وَخُرَافَةٌ - عَلَى مِثَالِ أَسَامَةِ - رَجُلٌ مِنْ عَذْرَاءِ اسْتَوَهَتْهُ الْجَنُّ ثُمَّ نَجَا . فَكَانَ يَخْبِرُ بِأُمُورٍ غَرِيبَةٍ، فَكَذَّبُوهُ وَقَالُوا : حَدِيثُ خُرَافَةٍ، ثُمَّ ضَرَبُوا بِهِ الْمَثَلَ وَجَعَلُوهُ لِكُلِّ حَدِيثٍ مُسْتَمْلَحٍ، أَوْ لِكُلِّ حَدِيثٍ لَا حَقِيقَةَ لَهُ . وَهُوَ مِثْلُ سَائِرِ قَدِيمَاتٍ وَحَدِيثَاتٍ . وَقِيلَ إِنَّ خُرَافَةَ كَانَ لَهُ تَابِعٌ مِنَ الْجَنِّ فَكَانَ يَخْبِرُهُ بِأَشْيَاءٍ عَجِيبَةٍ، فَيَتَحَدَّثُ بِهَا، فَتَكُونُ كَمَا ذَكَرَ، فَنَسَبُوا إِلَيْهِ الْأَحَادِيثَ الصَّادِقَةَ الْمَعْجِبَةَ الصَّادِقَةَ . قَالَ الْجَوْهَرِيُّ : وَيُرْوَى عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : وَخُرَافَةُ حَقٌّ . انْتَهَى.

وَذَكَرَ بَعْضُ الْأَدَابَاءِ أَنَّهُ رُوِيَ بِسَنَدٍ مُتَّصِلٍ إِلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : حَدَّثْنِي بِحَدِيثِ خُرَافَةٍ ! فَقَالَ : رَحِمَ اللَّهُ خُرَافَةَ ! كَانَ رَجُلًا صَالِحًا، فَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ خَرَجَ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَلَقِيَ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ مِنَ الْجِنِّ، فَأَسْرَوْهُ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ : نَعْفُو عَنْهُ . وَقَالَ آخَرُ : نَقْتُلُهُ . وَقَالَ آخَرُ : نَسْتَعْبِدُهُ . فَبَيْنَمَا هُمْ يَتَشَاوَرُونَ فِي أَمْرِهِ، وَرَدَ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ! فَقَالُوا : وَعَلَيْكُمْ السَّلَامُ ! قَالَ : وَمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِمْ ؟ قَالُوا : نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ أَسْرَنَا هَذَا، فَنَحْنُ نَتَأَمَّرُ فِي

(6) فِي ب و د : الْمَقَالَةُ.

أَمْرِهِ . قَالَ : إِنْ حَدَّثْتُكُمْ حَدِيثًا عَجَبًا أَتَشْرَكُونِي فِيهِ ؟ قَالُوا : نَعَمْ !
 قَالَ : إِنِّي كُنْتُ ذَا نِعْمَةٍ فَرَأَلْتُ، وَرَكِبَنِي دَيْنٌ، فَخَرَجْتُ هَارِبًا .
 فَأَصَابَنِي عَطَشٌ شَدِيدٌ، فَصِرْتُ إِلَى بَيْتٍ، فَسَبَرْتُ لِأَشْرَبَ، فَصَاحَ بِي
 صَائِحٌ مِنْهَا وَلَمْ أَشْرَبْ . فَعَلَبَنِي الْعَطَشُ، فَعُدْتُ، فَصَاحَ بِي، ثُمَّ
 عُدْتُ الثَّلَاثَةَ فَصَاحَ بِي، فَشَرِبْتُ وَلَمْ أَلْتَفِتْهُ . فَقَالَ : اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ
 رَجُلًا فَحَوَّلْهُ امْرَأَةً، وَإِنْ كَانَ امْرَأَةً فَحَوَّلْهُ رَجُلًا . فَإِذَا أَنَا امْرَأَةٌ، فَأَتَيْتُ
 مَدِينَةَ فَتَزَوَّجَنِي رَجُلٌ، فَوَلَدْتُ مِنْهُ وَلَدَيْنِ . ثُمَّ تَقَتُّ إِلَى بَلَدِي،
 فَمَرَرْتُ بِالْبَيْتِ الَّتِي شَرِبْتُ مِنْهَا، فَصَاحَ بِي كَمَا صَاحَ أَوَّلًا . فَشَرِبْتُ
 وَلَمْ أَلْتَفِتْ . فَدَعَا كَالأَوَّلِ، فَعُدْتُ رَجُلًا كَمَا كُنْتُ . فَأَتَيْتُ بَلَدِي،
 فَتَزَوَّجْتُ امْرَأَةً، فَوَلَدَ لِي مِنْهَا وَلَدَانِ : فَلِي اثْنَانِ مِنْ ظَهْرِي وَاثْنَانِ
 مِنْ بَطْنِي . فَقَالُوا : إِنَّ هَذَا لَعَجَبٌ ! أَنْتَ شَرِيكُنَا فِيهِ .
 فَبَيْنَمَا هُمْ يَتَشَاوَرُونَ، وَرَدَ عَلَيْهِمْ ثَوْرٌ يَطِيرُ . فَلَمَّا جَاوَزَهُمْ إِذَا
 بِرَجُلٍ بِيَدِهِ خَشَبَةٌ يُحْضِرُ فِي أَثَرِهِ . فَوَقَفَ عَلَيْهِمْ، فَسَأَلَهُمْ،
 فَرَدُّوا عَلَيْهِ مِثْلَ مَرَدِّهِمْ عَلَى صَاحِبِهِمْ، فَقَالَ : إِنْ حَدَّثْتُكُمْ
 بِحَدِيثٍ أَعْجَبَ مِنْ هَذَا، أَتَشْرَكُونِي فِيهِ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ! قَالَ : كَانَ لِي
 عَمٌّ، وَكَانَ لِعَمِّي عَجَلٌ يُرَبِّيهِ، فَأَفْلَتَ، فَقَالَ : أَيُّكُمْ رَدَّهْ فَأَبْنَيْتُ
 لَهُ . فَأَخَذْتُ خَشَبَتِي هَذِهِ وَائْتَرَرْتُ، ثُمَّ أَحْضَرْتُ فِي أَثَرِهِ وَأَنَا غُلَامٌ .
 وَقَدْ شَبْتُ، فَلَا أَنَا الْحَقُّهُ وَلَا هُوَ يَنْكُلُ . فَقَالُوا : إِنَّ هَذَا لَعَجَبٌ !
 أَنْتَ شَرِيكُنَا فِيهِ . فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ، وَرَدَ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ عَلَى فَرَسٍ
 لَهُ أَنْثَى، وَغُلَامٌ لَهُ عَلَى فَرَسٍ . فَسَلَّمَ كَمَا سَلَّمَ صَاحِبَاهُ فَرَدُّوا
 عَلَيْهِ كَرَدِّهِمْ عَلَى صَاحِبِيهِ . فَسَأَلَهُمْ فَأَخْبَرُوهُ فَقَالَ : إِنْ حَدَّثْتُكُمْ
 بِحَدِيثٍ أَعْجَبَ مِنْ هَذَا أَتَشْرَكُونِي فِيهِ ؟ قَالُوا : نَعَمْ ! قَالَ : كَانَتْ لِي
 أُمٌّ خَبِيثَةٌ . ثُمَّ قَالَ - لِلْفَرَسِ الْأُنْثَى الَّتِي تَحْتَهُ : أَكْذَالِكَ ؟ فَقَالَتْ :
 نَعَمْ ! وَكُنَّا نَتَّهِمُهَا بِهَذَا الْعَبْدِ، وَأَشَارَ إِلَى الْفَرَسِ تَحْتَ غُلَامِهِ :
 أَهَكَذَا ؟ فَقَالَ بِرَأْسِهِ نَعَمْ ! فَوَجَّهْتُ غُلَامِي هَذَا الرَّكَّابَ عَلَى هَذَا
 الْفَرَسِ فِي بَعْضِ حَاجَاتِي، فَحَبَسَهُ عِنْدَهَا، فَأَغْفَى . فَرَأَى فِي مَنَامِهِ

كَأَنَّهَا صَاحَتُ صَائِحَةٍ، فَإِذَا هُوَ⁽⁷⁾ يَجْرُذُ قَدْ خَرَجَ، فَقَالَتْ : اسْجُدْ !
فَسَجَدَ . ثُمَّ قَالَتْ : اكْرُبْ ! فَكْرَبَ . ثُمَّ قَالَتْ : ازرَعْ ! فزرَعَ . ثُمَّ
قَالَتْ : ادرُسْ ! فدرَسَ . ثُمَّ دَعَتْ بِيْرَحَى فَطَحَنَتْ قَدَحَ سَوِيْقٍ فَأَتَتْ
بِهِ الْعُلَامَ وَقَالَتْ لَهُ : ائْتِ بِهِ مَوْلَاكَ ! فَأَتَانِي بِهِ . فَاحْتَلَّتْ عَلَيْهَا
حَتَّى سَقَيْتُهَا الْقَدَحَ فَإِذَا هِيَ فَرْسٌ أَنْثَى، وَإِذَا هُوَ فَرْسٌ ذَكَرٌ .
أَكْذَلِكْ ؟ فَقَالَتْ الْفَرْسُ الْأُنْثَى بِرَأْسِهَا : نَعَمْ ! وَقَالَ الْفَرْسُ بِرَأْسِهِ :
نَعَمْ ! فَقَالُوا : إِنَّ هَذَا أَعْجَبُ شَيْءٍ سَمِعْنَاهُ، أَنْتَ شَرِيكُنَا ! فَاجْتَمَعَ
رَأْيُهُمْ، فَأَعْتَقُوا خُرَافَةَ . فَأَتَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرَهُ بِهَذَا
الْحَدِيثِ . فَمَا جَاءَ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْمُحَالِيَّةِ نُسِبَ إِلَى خُرَافَةِ صَاحِبِ الْحَدِيثِ .
انتهى.

وقال في الصحاح : الرءاء في خرافة خفيفة، ولا يدخله الألف واللام لأنه معرفة علم ؛ إلا أن
تريد به الخرافات الموضوعة من حديث التليل . انتهى.

وقد استعمل اليوم في عرفنا اسما للحديث المستعمل . يقول الرجل لصاحبه : اذكر لي
خرافة، أي حديثا من ذلك النوع، ويحلى بالألف واللام لذلك.

الْحَدِيثُ شُجُونٌ.

ويقال أيضا ذو شُجُونٍ . والشُّجُونُ، بضم الشين، جمع شَجْنٍ، بفتح فسكون،
وهو الطريق في الوادي . والشَّوْاجِنُ والشُّجُونُ أيضا : الأودية الكثيرة الشجر . قال :
لَمَّا رَأَيْتُ عَدِيَّ الْقَوْمِ يَسْلُبُهُمْ طَلْحُ الشَّوْاجِنِ وَالطَّرْفَاءُ وَالسَّلْمُ
أو جمع شِجْنَةٍ، بكسر الشين، وهي الصدم في الجبل . والشَّجَنُ - بفتحتين - غُصْنُ
الشجرة المشتبك، والشَّعْبَةُ من كل شيء، والحاجة حيثما كانت . يقال لي بموضع كذا
شَجَنٌ . قال الراجز :

إِنِّي سَأُبْدِي لَكَ فِيمَا أَبْدِي لِي شَجَنَانِ : شَجَنٌ بِنَجْدٍ
وَشَجَنٌ لِي فِي بِلَادِ السُّنْدِ

(7) في ب : فإذا هي يجْرُذُ .

والجمع أيضا شُجُون . والشَّجْنَةُ أيضا، مثلثة الشين، العُرُوق المشتبكة . يُقال :
بيني وبين فلان شَجْنَةٌ رَحِمٍ، أي قرابة مشتبكة.

وفي الحديث : الرَّحِمُ شَجْنَةٌ مِنَ اللَّهِ، أي مشتبكة اشتباك العُرُوق.
ومعنى المثل أنَّ الحديث ذو فنون وأغراض وطرق يدخل بعضها في بعض، ويتشعب
بعضها من بعض، كالطرق المشتبكة المتقاطعة، أو الأغصان والعروق . يُضرب في الحديث
يستذكر به حديث غيره . ومن ثمَّ يَضربه القصاص والأئمة عند استطراد المسائل
والخروج من غرض الى آخر . وقال الفرزدق :

وإن كنتَ قد ساءلتَ دوني فلا تُقيم بأرضٍ بها بنتُ الهَوَانِ تكونُ
فلا تأمنَنَّ الحربَ إنَّ استِيعارها كضبةٌ إذ قال : الحديثُ شُجونُ !
والاستِيعارُ - بالسين والعين المهملتين - من استِيعار النار . ورُوي استِيعارُ - بالسين
والعين المعجمتين - أي هيَجَانُها وثَوْرَانُها وانتشارها، من قولك : شجر برجله .
يقول : إنَّ الحربَ سَبَّها الكلام، كما قال الآخر :

فإنَّ النَّارَ بِالرَّندَيْنِ ثَوْرَى وإنَّ الحَرْبَ أَوْلَهَا كَلَامُ
ويُقال : الحرب أَوْلَهَا نَجْوَى، وأوسطها شَكْوَى، وآخرها بَلْوَى.
وقلت، مضمنا لهذا المثل في غرض :

تمنَّى بأوباشٍ فتوحَ مدائِنٍ وذاكَ لعمري ضِلَّةٌ وجُنُونُ
فأضحى كَعَمْرٍ إذ ترجى مُرادُهُ بجيشٍ مُرادٍ والحديثُ شجونُ
وتقدَّم خبر عمرو بن أمانة مع مراد في الباب الأوَّل.

حَدَّثَ عَنِ الْبَحْرِ وَلَا حَرْجَ !

الْبَحْرُ معروف، والحَرْجُ - بفتحَتَيْنِ - الضِّيق والاثم . وهذا يُروى في الحديث عن
النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم، وأنَّه قال : حَدَّثُوا عَنِ الْبَحْرِ وَلَا حَرْجَ ! أي حيث
لا حَرْجَ عليكم في التحديث عنه، فتكون الجملة حالية . وقد جعل هذا مثلا في الشيء
الكثير الذي لا ينحصر أو لا يكاد، بمعنى أنَّ المحدث عنه لا يضيق عليه المجال، ولا
يُعوزُه مقال.

وورد من هذا النحو أيضا حَدَّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ ! وفي ذلك تأويلات ذكرها المحدثون، ولا حاجة الى التعرُّض لها . والمقصود من التمثيل واضح .

وقال ابن التُّلُبَانَةِ :

وَأَلْغَوْا حَدِيثَ الْبَحْرِ عِنْدَ حَدِيثِهِ فَكَمْ بَيْنَ ذِي مَدٍّ وَكَمْ بَيْنَ ذِي جَزَرٍ !

حَدَّثَ عَنْ مَعْنٍ وَلَا حَرَجَ !

هو معن بن زائدة الشيباني، الجوادُ المعروف .

الْحَدِيدُ بِالْحَدِيدِ يُفْلُ .

الحديد معروف، وكذا الفلّ . وهذا المثل يُضرب في الرجل القويّ يلقي قرينه في البسالة والنجدة . وكان الوليد بن طريف الشيبانيّ، لمّا خرج على الرشيد، اشتدّت شوكته، فبعث إليه الرشيد يزيد بن مزيّد الشيبانيّ، فقتله . فقال بكر بن النطّاح : وائِكَ بَعْضُهَا يُقْتَلُ بَعْضًا لَا يَفْلُ الْحَدِيدُ إِلَّا الْحَدِيدُ ! لَوْ تَلَقَّى الْوَلِيدَ غَيْرُ يَزِيدَ لَعَدَا ظَاهِرًا عَلَيْهِ الْوَلِيدُ ولمّا قُتِلَ الْوَلِيدَ رَثَتْهُ أخته الْفَارَعَةُ بنتُ طريف بشعرها المعروف، منه : أيا شَجَرَ الْخَابُورِ مَالِكَ مَوْرِقًا كَأَنَّكَ لَمْ تَجْزَعْ عَلَى ابْنِ طَرِيفٍ ؟ فَتَى لَا يُعِدُّ الرَّادَّ إِلَّا مِنَ الثَّقَى وَلَا الْمَالَ إِلَّا مِنْ قَنَى وَسُيُوفٍ وهي قصيدة معروفة .

الْحَذَرُ قَبْلَ إِرْسَالِ السَّهْمِ .

الْحَذَرُ - بفتح حَ - والحِذْر - بكسر فسكون - الاحتراز . يُقال حَذَرٌ، بالكسر،

يَحْذَرُ، فهو حَذِرٌ ؛ والارسالُ : الاطلاق، والمراد هنا الرَّمْيُ ؛ والسَّهْمُ معروف . وهذا من الأمثال العجماءيّة أيضا .

زعموا أنّ غراباً رأى رجلاً فوقَ سهمٍ ليضرب به . فأراد ابنه أن يطير، فقال له : يا بني ! اثبت حتّى تعلم ما يريد الرجل . فقال له ابنه : يا أبتِ، الْحَذَرُ قَبْلَ إِرْسَالِ السَّهْمِ !

فذهبت مثلا . وهو يحسن أن يُضرب عند الأمر بالاحتراز والاستعداد للمحذور قبل وقوعه وقبل فوات محل الحذر . وذلك ظاهر.

أَحْذَرُ مِنْ ضَبٍّ حَرَشْتُهُ.

الحَذَرُ مَرٌّ ؛ والضَّبُّ الحيوان المعروف ؛ والحَرَشُ صِيَادَتُهُ . يُقال : حَرَشَ الضَّبُّ ، يَحْرَشُهُ ، حَرَشًا ، فهو حَارِشٌ ، وذلك أن يحرك يده في فم جحره ليظنَّه حيَّةً ، فيخرج ذنبه ليضرب بها ، فيقبض على ذنبه ويمتلكه من الجحر⁽⁸⁾ قال الشاعر :

وَأَخَذَ مِنْ ضَبٍّ إِذَا جَاءَ حَارِشٌ أَعْدَى لَهُ عِنْدَ الذُّنَابِ عَقِبًا
ومن هذا المثلُّ الآتي : هَذَا أَجَلٌ مِنَ الْحَرَشِ .

أَحْذَرُ مِنْ غُرَابٍ .

الحَذَرُ تَقَدَّمَ ؛ والغُرَابُ معروف وتقدَّم أيضا ، ويُضرب به المثل في شدة الحَذَرِ ، وذلك معروف مشهور .

وقد قال بعض الحكماء : أخذت من كلِّ شيء أحسنه ، حتَّى انتهى بي الأمر الى الكلب والهرَّة والخنزير والغراب . ففيل له : ما أخذت من الكلب ؟ قال : إلفه لأهله وذبُّه عن صاحبه . ففيل له : ما أخذت [من] الهرَّة ؟ قال : حسنُ تأنِّيها وتملقُها عند المسألة . ففيل : ما أخذت من الخنزير ؟ قال : بكوره في حوائجه . ففيل : ما أخذت من الغراب ؟ قال : شدة حذره .

حَذَوُ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ .

تقول : حَذَوْتُ النَّعْلَ أَخَذَوُهَا حَذَوًا إِذَا قَطَعْتُهَا وَقَدَّرْتُهَا ؛ وحَذَوْتُ النَّعْلَ بِالنَّعْلِ إِذَا قَدَّرْتُهَا بِهَا وَقَطَعْتُهَا عَلَيْهَا . والنعل معروفة . والمثل يُضرب في التساوي والتشابه . تقول في الشيئين يستويان : هما حذو النعل ، وذلك لأنَّ كلا من النعلين تَقْدَرُ بالأخرى وتُقاس بقالبها . ومن ذلك قول الهذلي :

(8) يمتلكه : يقطعه ويجتذبه . وفي لسان العرب : أخبثُ من ضَبٍّ حَرَشْتُهُ .

وتَأْمَلَ السَّبْتَ الَّذِي أَحْذَوْهُ فَانْظُرْ بِمِثْلِ حِذَائِهِ أَحْذُولِي
ويُقال أيضا : احتذَيْتَ حَذْوَ فلان، أي فعلت فعله.

الْحَرْبُ خُدْعَةٌ.

الحربُ معروف، مؤنَّث وقد يُذكر . ويُقال : رجل حَرْبٌ ومُحَرَّبٌ، أي شديد الحرب
شجاع ؛ ورجل حَرْبٌ، أي عدوٌّ، للواحد والجميع، ولأنثى أيضا . قال نصيب :
وقولا لها : يا أُمَّ عَثْمَانَ خُلَّتِي أَسْلِمٌ لنا في حُبِّنا أنتِ أم حرب ؟
والخَدْعُ الخَتْلُ . يُقال : خَدَعَهُ، يَخْدَعُهُ، أي خَتَلَهُ وأراد به المكروه من حيث لا
يعلم . ولفظ خِدْعَةٌ هاهنا رُوي مُثَلَّثًا، والذي في الصحاح الفتح والضمّ مع سكون
الدال . قال : والفتح أفصح . ورُوي أيضا خُدْعَةٌ - على مثال هُمَزَةٍ - . والمعنى أَنَّها
تنقضي بخدعة . والذي يقتضيه الاشتقاق لغة في هذا الضبط أَنَّ الخُدْعَةَ - بضمّ الخاء -
وصف . فإن كان بفتح الدال - كهُمَزَةٍ - فهو وصف للرجل يكون كثير الخدع للنَّاس . وإن
كان بسكونها فهو وصف للذي يخدع . والخَدْعَةُ - بفتح فسكون - مصدر وهو المرَّة من
الخدع، وبالكسر للهيئة من ذلك . وهذا الكلام يروى حديثًا.

الْحَرْبُ سِجَالٌ.

الْحَرْبُ مرٌّ ؛ والسِّجَالُ يكون جمع سَجَلٍ - بفتح السين وسكون المعجمة - وهو الدلو
فيها الماء . ولا يُقال لها سَجَلٌ إلَّا وفيها الماء ؛ والمُسَاجِلَةُ : المُفَاخَرَةُ والمباراة في
السقي بالسجال . قال الفضل بن عَبَّاس بن عتبة بن أبي لهب، وقد وقف على زمزم :
مَنْ يُسَاجِلُنِي يُسَاجِلُ مَاجِدًا يَمْلَأُ الدَّلَوَ إِلَى عَقْدِ الْكَرْبِ
ثمَّ استعملت المساجلة في المعارضة والمباراة في كلِّ شيء، من سبق، أو رمي، أو غير
ذلك. وتَسَاجَلًا : تَبَارِيًا.

ومعنى المثل أَنَّ الحروب دُوكٌ بين الناس : سَجَلٌ منها على هؤلاء، وسَجَلٌ على هؤلاء،
كما قال أبو سفيان لهرقل لمَّا قال له : كيف الحرب بينكم وبينه ؟ - يعني النبي صلَّى
الله عليه وسلَّم - فقال أبو سفيان : الحرب بيننا وبينه سِجَالٌ : يدال علينا مرَّةً وندال
عليهم أخرى . وقال زهير :

تَهَامُونَ نَجْدِيُونَ كَيْدًا وَنُجْعَةً لِكُلِّ أُنَاسٍ مِنْ وَقَائِعِهِمْ سَجَلٌ
وقد يُضْرَبُ فِي غَيْرِ الْحُرُوبِ مِنْ كُلِّ مَا يَشَبِّهُهَا مِنْ نَزَاعٍ وَجْدَالٍ مَثَلًا . وَلَفْظُ السَّجَالِ فِي
الْمَثَلِ جَمْعٌ، كَمَا فَسَّرْنَا أَوَّلًا . وَلَا يَصَحُّ أَنْ يَكُونَ مُصَدِّرًا، أَيِ الْحَرْبِ هُوَ مُسَاجِلَةٌ . وَحَاصِلُ
الْأَمْرِ وَاحِدٌ .

حَرْبٌ عَوَانٌ .

اعْلَمْ أَنَّ الْعَرَبَ ضَرَبُوا لِلْحَرْبِ الْمَثَلَ بِأَوْصَافِ شَتَّى : فَمِنْ السَّائِرِ مِنْ ذَلِكَ الْعَوَانُ ،
وَالْإِتْقَامُ ، وَالزَّبَاعِيَّةُ . يَقُولُونَ : حَرْبٌ عَوَانٌ ، وَحَرْبٌ لَأَقِيمَ ، وَحَرْبٌ زَبَاعِيَّةٌ .
أَمَّا الْعَوَانُ فَأَصْلُهَا فِي النِّسَاءِ ، وَهِيَ النَّصْفُ فِي سَنِّهَا ، وَكَذَا فِي سَائِرِ الْحَيَوَانَاتِ . قَالَ
تَعَالَى : لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ . وَيُقَالُ الْعَوَانُ الَّتِي لَهَا زَوْجٌ . قَالَ
الزَّابِغَةُ :

وَمَنْ يَتَرَبَّصَ الْحَدَثَانِ تَنْزِلَ بِيَمَوْلَاهُ عَوَانٌ غَيْرُ بَكْرٍ
وَهَذَا أَيْضًا مُحْتَمَلٌ . وَالْجَمْعُ عَوْنٌ بِالضَّمِّ . وَاشْتِقَاقُ الْعَوَانِ مِنَ الْعَوْنِ وَهُوَ الْقُوَّةُ ، لِأَنَّهَا
عُرْضَةٌ لِلْعَانَةِ إِنْ اسْتَعِينَتْ . وَأَمَّا الْعَوَانُ مِنَ الْحُرُوبِ فَهِيَ الَّتِي كَانَتْ قُوَّتُهَا فِيهَا ، مَاخُوذٌ
مِنْ عَوَانِ النِّسَاءِ ، كَأَنَّهُمْ جَعَلُوهَا فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى بَكْرًا ثُمَّ تَصِيرُ ثِيْبًا . قَالَ أَبُو جَهْلٍ
يَرْتَجِزُ يَوْمَ بَدْرٍ :

مَا تَنْقِمُ الْحَرْبُ الْعَوَانُ مِنِّي بَازِلُ عَامِينَ حَدِيثُ سِنٍ⁽⁹⁾
لِمَثَلِ هَذَا وَلَدَتْنِي أُمِّي

وقال زهير :

إِذَا لَقِيتَ حَرْبَ عَوَانٍ مُضَرَّةً ضَرُوسٌ تَهْرُ النَّاسَ أَنْيَابُهَا عُصْلُ
وقال الحماسي موسى بن جابر :

وإن رَفَعُوا الْحَرْبَ الْعَوَانُ الَّتِي تَرَى فَعُرْضَةُ نَارِ الْحَرْبِ مِثْلُكَ أَوْ مِثْلِي
وَمَعْلُومٌ أَنَّهُمْ مَا وَصَفُوهَا بِالْعَوَانِ إِلَّا لِلْمُبَالَغَةِ وَإِرَادَةِ أَنَّهَا شَدِيدَةٌ ، لَا مَجْرَدُ أَنَّهَا قُوَّتُهَا
فِيهَا مَرَّةٌ . وَكَانَ ذَلِكَ لِأَجْلِ أَنَّ الْمُبْتَكِرَةَ يَخْفَ أَمْرُهَا لِعَدَمِ اسْتِحْكَامِ الضَّغَائِنِ فِيهَا بَعْدَ ،
بِخِلَافِ الَّتِي تَقْدِمُهَا قِتَالُ غَرَسٍ فِي الْقُلُوبِ الضَّغَائِنِ وَأَحْفَظُهَا وَأَكْثَرُ الْأَوْتَارِ . فَذَلِكَ مِظَنَّةٌ

(9) فِي لِسَانِ الْعَرَبِ : بَازِلُ عَامِينَ حَدِيثُ سِنِي

الاشتداد مع عظم العود إلى الحروب على النفس، ونفور النفوس منه، وكراهيتها له، كما قال الآخر :

الحَرْبُ أَوْكُ مَا تَكُونُ فَتِيَّةٌ تَسْعَى بِزِينَتِهَا لِكُلِّ جَهْلُولٍ
حَتَّى إِذَا اشْتَعَلَتْ وَشَبَّ ضِرَامُهَا عَادَتْ عَجُوزًا غَيْرَ ذَاتِ حَلِيلٍ
شَمْطَاءَ يَنْكُرُ لَوْنُهَا وَتَغَيَّرَتْ مَكْرُوهَةً لِلشَّمِّ وَالتَّقْيِيلِ
وَأَمَّا تشبيه الأولى بالبكر والثانية بالعوان فذلك يكون لثلاثة أوجه :

الوجه الأول أن البكر من النساء هي التي لم تتقدَّم بماسستها ومخالطتها، بخلاف العوان .
وهذا بيّن، وإليه أشار حبيب في التعبير عنها بالثيب حيث قال :
وَلَا اجْتَلَبَتْ بَكْرٌ مِنَ الْحَرْبِ نَاهِدٌ وَلَا ثِيْبٌ إِلَّا وَمِنْهُمْ لَهَا خِطْبٌ
الثاني أن البكر، لصغر سنّها وجسمها، في الجملة تشبه المرأة الأولى لخفتها ؛ والعوان،
لعظم جسمها في الجملة وسنّها، تشبه الثانية لقوّتها واشتدادها . وهذا من التوهّم
الخياليّ .

الثالث أن البكر أسهل لغرّتها وقناعتها بما تجد، ولا كذلك العوان : فإنّها، لاحتكاكها
وتجربتها وطموح عينها، أصعب محاورةً وأشدّ معايشةً وأدهى نكرا وأعظم مكرا، وهذا
واضح . وقد يوصف بالعوان الأرض التي أصيبت بالمطر مرّة بعد أخرى، تشبيها كالذي مرّ .
قال حميد بن ثور الهلاليّ :

وَلَقَدْ نَظَرْتُ إِلَى أَعْرَ مُشَهَّرٍ بِكِرٍ تَوْسَنَ بِالْخَمِيلَةِ عُونًا
مُتَسَنَّمٍ سَنِمَاتِهَا مُتَفَجَّسٍ بِالْهَذَرِ يَمْلَأُ أَنْفُسًا وَعُيُونًا⁽¹⁰⁾
لَقِمَ الْعِجَافُ لَهُ لَخَامِسٍ خَمْسَةَ وَشَرِبْنَ بَعْدَ تَحْلِيٍّ فَرَوِينَا
أَرَادَ بِالْأَعْرَ سَحَابًا أَبْيَضَ وَبِكَوْنِهِ بِكَرًا أَنَّهُ لَمْ يَمُطِرْ قَبْلَ ذَلِكَ ؛ وَأَرَادَ بِالْخَمِيلَةِ الرَّمْلَ ذَاتَ
الشَّجَرِ ؛ وَالْعُونُ جَمْعُ عَوَانٍ، وَهِيَ الْأَرْضُ الَّتِي أَصَابَهَا الْمَطَرُ مَرَّةً . وَمَعْنَى تَوْسَنَ سَنَهَا
طَرَقَهَا هَذَا السَّحَابُ لَيْلًا عِنْدَ الْوَسْنِ، أَيْ النُّوْمِ، تَقُولُ : تَوْسَنَتِ الرَّجُلَ إِذَا أَتَيْتَهُ وَهُوَ
وَسْنَانٌ . وَالسَّنِمَاتُ الْعِظَامُ الْأَسْنِمَةُ مِنَ الْإِبِلِ، وَأَطْلَقَهَا هُنَا عَلَى التَّلَالِ وَالْأَكْمِ . وَقَوْلُهُ
مُتَسَنَّمٌ يَرِيدُ يَتَسَنَّمُهَا، أَيْ يَعْطُوهَا كَالْفَحْلِ الَّذِي يَتَسَنَّمُ الْإِيْنُقَ . وَقَوْلُهُ :

(10) فِي لِسَانِ الْعَرَبِ :

مُتَسَنَّمًا سَنِمَاتِهَا مُتَفَجَّسًا بِالْهَذَرِ يَمْلَأُ أَنْفُسًا وَعُيُونًا

مُتَفَجِّسٌ أي متكبر بالهدر، أي رعه، تشبيها بهدر البعير ؛ والعجاف أراد بها الأرضين المجدبة مجازاً ؛ ومعنى لقت حملت، أي أنبتت عشبها . وقوله بعد تحلى أي شربت بعد امتناع من الماء زمانا، من قولك : حَلَّأْتُهُ، أي دفعته وطرده . وأماً اللّاقح فأصلها في الحيوان أيضا . يقال : لَقِحَتِ الناقة - بالكسر - إذا حملت، وألْقَحَهَا الفحل، فهي لَاقِحٌ وَلِقْوَحٌ وَلِقْحَةٌ - بالكسر ويُفتح -. وجمع اللّاقح لَوَاقِحُ، وجمع اللّقوح لِقُحٌ، وجمع اللّقحة لِقَاحٌ، كقِرْبَةٍ وقِرْبٌ، وَلِقَاحٌ . ثمَّ ضربوها مثلا للحرب إذا عظمت واشتدّت، تشبيها لها بالناقة إذا حملت فعظم بطنها . قالت الفارعة بنتُ طريف : وَلَمْ تَسْعَ يَوْمَ الْحَرْبِ وَالْحَرْبُ لَاقِحٌ وَسُمِرُ الْقَنَا يَنْكُرُنَهَا بِأَنْوِفٍ ومنه قول زهير السابق : إِذَا لَقِحَتْ حَرْبٌ عَوَانٌ مَضْرَّةٌ .

ومن أبلغ ما ورد في هذا المعنى قوله أيضا في ميميّته، حيث وصف الحرب فقال :
وما الحربُ إلّا ما علمتُم وذقتمُ وما هو عنها بالحديثِ المُرْجَمُ
مَتَى تَبَعْتُوها تَبَعْتُوها ذَمِيمَةٌ وتَضَرَّ إذا ضَرَيْتُمُوهَا فَتَضَرَّمْ
فَتَعَرَّكُمْ عَرَكُ الرَّحَا بِثَفَالِهَا وَتَلَقَّحْ كِشَافًا ثُمَّ تَحْمَلْ فَتَنْتَمِ
فَتَنْتِجْ لَكُمْ غِلْمَانُ أَشْأَمَ كُلُّهُمْ كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تُرْضِعْ فَتَقْطِمِ
فَتَعْلِبْ لَكُمْ مَالًا تَعْلِبُ لِأَهْلِهَا قَرَى بِالْعِرَاقِ مِنْ قَفِيزٍ وَدِرْهَمِ
قوله تَبَعْتُوها ذَمِيمَةٌ أي مَذْمُومَةٌ، وكان الأَفْصَحُ أن يقول ذَمِيمًا، بغير هاء .
ويروى بالذال المهملة، أي حَقِيرَةٌ، إشارة الى معنى ما تقدّم في قول الآخر : الْحَرْبُ
أَوَّلَ مَا تَكُونُ فَتِيَّةٌ . وقوله عَرَكُ الرَّحَا بِثَفَالِهَا، أي وهي على ثفالها . والثَفَالُ
- بالناء المثلثة مكسورة - ما يُجعل تحت الرحا حال الطحن، يريد : تعرّككم عرك الرحا إذا
كانت طاحنة . وقوله تَلَقَّحْ كِشَافًا : الكِشَافُ أن يحمل الفحل على الناقة سنتين ولاء
أو كلّ سنة، أو أن تلّقم حين تَنْتِجُ، أو أن يضربها وهي حامل . وهي ناقة كَشُوفٌ، وقد
كشفت، تكشف، كشافا . وأراد أن هذه الحرب كلّما خمدت هاجت . وقوله فَتَنْتَمِ، أي
تأتي من حملها بتوعمين، وهذا تهويل وتعظيم لأمر الحرب، وإيهام أن شرّها متكرّر وهولها
متضاعف . وشبّها بالناقة لِمَا تقدّم، ولأنّها أيضا يطول أمرها فتكون بمنزلة الناقة التي
تضرب، ثمَّ تحمَل، ثمَّ تنتج، ثمَّ تقطم . وقيّل لأنّها يتحلّب [منها] من الدماء مثل ما
يتحلّب من الناقة من اللبن . وقوله فَتَنْتِجْ لَكُمْ غِلْمَانُ أَشْأَمَ، فوضع أشأم

موضع المصدر، أو غِلْمَانَ شَوْمٍ أَشْأَمَ على المبالغة، نحو شغل شَاغِل، وليك أَلِيكَ ؛
أو غِلْمَانَ امرئٍ أَشْأَمَ . وقوله كُلُّهُمْ كَأَحْمَرِ عاد يعني عَاقِرِ النَّاقَةِ، وهو يُضْرَبُ
به المثل في الشَّوْمِ، وأراد أَحْمَرُ ثَمُودَ، فأضافه إلى عاد غلطًا، كما قال الآخر :

مِثْلَ النَّصَارَى قَتَلُوا الْمَسِيحًا

وقيل ليس بغلط، لأنَّ ثمود يقال لها عادٌ الآخرة، وهو دهم عاد الأولى . قال تعالى :
وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى . وأمَّا الرباعية - بياء مخففة - فهي أيضا في الابل، وهي في
السنّ التي بين الذاب والثنية . ويقال للذي ألقى رباعيته رَبَاعٍ، وجمعه رُبْعٌ، كقذال
وقذل . ويقال للغنم في السنة الرابعة أَرْبَعَتٌ، وللبقر وذات الحافر في الخامسة، ولذات
الخفّ في السابعة . وتقدّم ذكر أسنان الابل أنَّ الرباعي منها والرَّباعية بين الثاني
والسدس . ويقال : جَمَلَ وفرس رَبَاعٍ ورَبَاعٌ، ونظيره ثمانٍ وثمانٌ، ونشاحٌ
ونشاحٌ، وجوارٌ وجوارٌ ؛ والأنثى رَبَاعِيَّةٌ، وتوصف الحرب بالرباعية لشِدَّتِها وقوَّتِها .
قال الشاعر:

إِنَّهَا حَرْبٌ رَبَاعِيَّةٌ مِثْلُهَا آتَى الْفَتَى عِبرَهُ
وقيل لامرأة من العرب

[بياض بالأصل]

الْحُرُّ إِذَا خُودِعَ تَخَادَعٌ، وَإِذَا عُظِمَ تَوَاضَعٌ.

هذا مثك مصنوع، فيما أظنّ، وهو ظاهر المعنى . ومثله قول الشاعر :
إِذَا مُدِحَ الْكَرِيمُ يَزِيدُ خَيْرًا وَإِنْ مُدِحَ اللَّئِيمُ فَلَا يَزِيدُ
حِرَّةً تَحْتَ قِرَّةٍ .

يقال : حَرَّ الرجل يَحَرُّ، كَظَلَّ يَظَلُّ، حَرَارًا وَحَرَّةً، فهو حَرَّانٌ وهي حَرَّى، إذا
عطش . والحيرة في المثل مكسورة للازدواج . والقِرَّة - بضم القاف - البَرْدُ، أو بَرْدُ
الشتاء خاصة ؛ والقِرَّة - بالكسر - ما أصابك منه . وهذا المثل يُضْرَبُ للأمر يظهر وبعده أمر
خفي . وأصل الحيرة تَحْتَ القِرَّةِ أَنَّهَا العطش مع البرد، وهو إذ ذاك ينحاز الى الجوف
فيكون سعيًا، ومع ذلك لا يظهر من حال صاحبه - لِمَا هو فيه من البرد - أَنَّهُ عطشان .

ويقال : أَشَدُّ الْعَطَشِ حِرَّةٌ تَحْتَبُ قِرَّةً ، [ويُقال : أَجْدُ حِرَّةٌ تَحْتُ قِرَّةً]⁽¹¹⁾
ورمَاهُ اللَّهُ بِالْحِرَّةِ تَحْتِ الْقِرَّةِ .

وفي أمثال العامة قولهم : الشِّتَاءُ عَلَى قَرْنِي ، والعَطَشُ قَتَلَنِي . وهذا
يُضْرَبُ لِأَمْرٍ آخَرِ .

أَحَرُّ مِنْ دَمْعِ الْمِقْلَاتِ .

الْحَرَارَةُ ضِدُّ الْبَرْدِ ، كَالْحَرُّ وَالْحَرُورُ . يقال : حَرَّ الْيَوْمُ يَحَرُّ - كَمَلَّ يَمَلُّ -
وَحَرَّ يَحِرُّ - كَفَرَ يَفِرُّ - حَرَارَةٌ فَهُوَ حَارٌّ ؛ والدَمْعُ معروف ؛ والمِقْلَاتُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي
لَا يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ ، وَمِنَ النِّوَقِ الَّتِي تَضَعُ وَلَدًا تَمْ لَا تَحْمِلُ ، مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْقَلَتِ - بَفَتْحَتَيْنِ
- وَهُوَ الْهَلَاكُ . يُقَالُ قَلَتِ يَقْلَتُ - كَفَرَحَ يَفْرَحُ - قَلَتَا ، إِذَا هَلَكَ . وَفِي الْخَبَرِ :
الْمُسَافِرُ وَمَتَاعُهُ عَلَى قَلَتٍ ، إِلَّا مَا وَقَى اللَّهُ تَعَالَى . وَالْمَقْلَتَةُ :
الْمَهْلُكَةُ ؛ وَالْمِقْلَاتُ عَلَى وَزْنِ مِفْعَالٍ ، وَالْجَمْعُ مَقَالِيَتٍ - كَمِقْيَاسٍ وَمَقْيَاسٍ ،
وَمِصْبَاحٍ وَمِصَابِيحٍ - قَالَ طَرَفَةُ :

لَا تَلْمِزْنِي إِنَّهَا مِنْ نِسْوَةٍ رَقْدِ الصَّيْفِ مَقَالِيَتٍ نَزُرُ
الرَّقْدُ جَمْعُ رَقُودٍ ، يَعْنِي أَنَّهِنَّ مَكْفِيَاتٌ ، فَهِنَّ يَرْقُدْنَ وَلَا يَخْدُمْنَ وَلَا يَسْعَيْنَ ؛ وَهِنَّ
مَقَالِيَتٌ لَا تَعِيشُ أَوْلَادُهُنَّ ، فَيَتَحَمَّلْنَ مَوْتَهُنَّ ؛ وَهِنَّ نَزُرُ ، أَيُّ قَلَائِلِ الْأَوْلَادِ بِالْأَصَالَةِ ،
جَمْعُ نَزُورٍ : فَهِنَّ بِذَلِكَ نِعَمَاتِ الْأَجْسَامِ ، نِظَائِفِ الْأَذْيَالِ ، فَائِقَاتِ الْكَمَالِ . وَقَالَ جَرِيرٌ فِي
الْمَفْرَدِ :

خِشَاشُ الطَّيْرِ أَكْثَرُهَا فِرَاحًا وَأُمُّ الصَّقْرِ مِقْلَاتٌ نَزُورُ
ووصف دمع المقلات بالحرارة لأنها تبكي حزناً على أولادها، وهم يصفون دمعة الحزن
بالحرارة، ومن ثم يقولون، في الدعاء على الرجل، : أَسْخَنَ اللَّهُ عَيْنَهُ ! ويصفون دمعة
الفرح بالبرد، ومن ثم يقولون : قَرَّتْ عَيْنُ فُلَانٍ !، في السرور والفرح، وأَقَرَّ اللَّهُ
عَيْنَهُ !

(11) سقط ما بين معقوفتين من ب.

أَحْرُ مِنْ الْقَرَعِ .

الْحَرَارَةُ تَقَدَّمَتْ . وَالْقَرَعُ - بَفَتْحَتَيْنِ - بَثْرٌ أبيض يخرج في أعناق الفصلاں وقوائمها، ودوائه الملح وحباب ألبان الابل . فإذا لم يجدوا ملحا نتفوا أوبارها ونضحوا جلودها بالماء، ومنه المثل . قال في الصحاح : وَرَبَّمَا قَالُوا أَحَرُّ مِنْ الْقَرَعِ - بالتسكين - يعنون به قرع الميسم، وهو المكواة . قال :

كَأَنَّ عَلَى كَبِدِي قَرْعَةً حِذَارًا مِنَ الْبَيْنِ مَا تَبْرُدُ !
قال : والعمامة تريد به هذا القرع الذي يؤكل . انتهى .

قلت : وإنما توهموا المأكول لأنه تشتد حرارته إذا طبخ وتطول ولا يبرد إلا بعد زمان، حتَّى قالوا في زعماتهم وأمثالهم : قال الذئب . لَا أَمْنُكَ يَا قَرَعُ وَلَوْ كُنْتُ فِي الْمَاءِ !.

حُرٌّ انْتَصَرَ .

الْحُرُّ - بالضم - خلاف الْعَبْدِ ؛ وَحُرٌّ كُلُّ شَيْءٍ خِيَارُهُ ؛ وَالْحُرُّ الْجَيِّدُ . يقال : مَا هَذَا مِنْ فَلَانٍ بِحُرٍّ - أي جَيِّدٍ - . قال طرفة بن العبد :
لَا يَكُنْ حُبُّكَ حُبًّا قَاتِلًا : لَيْسَ هَذَا مِنْكَ، مَاوِيَّ، بِحُرٍّ !
وقال امرؤ القيس :

لَعَمْرُكَ مَا قَلْبِي إِلَى أَهْلِهِ بِحُرٍّ وَلَا مُقْصِرٍ يَوْمًا فَيَأْتِيَنِي بِقُرٍّ
وَالنَّصْرَ الْإِعَانَةَ، نَصْرَهُ عَلَى عَدُوِّهِ، يَنْصُرُهُ نَصْرًا : أَعَانَهُ ؛ وَاسْتَنْصَرَ :
طَلَبَ النَّصْرَ ؛ وَانْتَصَرَ مِنْهُ : انْتَقَمَ . وتقدَّم هذا المثل، وأنه من الأمثال التي
نسبت إلى الضبِّ في تحاكم الثعلب والأرنب إليه . يُضْرَبُ لِلرَّجُلِ يُظْلَمُ فَيَنْتَقِمُ .

أَحْرَسُ مِنَ الْكُرْكِيِّ .

يقال : حَرَسَ الشَّيْءَ - بِالْفَتْحِ - يَحْرُسُهُ حِرَاسَةً حَفِظَهُ ؛ وَالْكُرْكِيُّ - على
مثال جُنْدِيٍّ - طائر معروف، جمعه كُرَاكِيٌّ، يوصف بالحَذَرِ والحراسة.
ويزعمون أَنَّ الْكُرَاكِيَّ تَحْرُسُ مَدَاوِلَهُ، فَيَبْقَى الَّذِي يَحْرُسُ مِنْهَا لَا يَنَامُ . ويهتف بصوت

خفيّ ينذر أنّه حارس، حتّى إذا قضى نوبته قام الذي كان نائماً . ويقال إنّه لا يطأ الأرض أبداً إلاّ بإحدى رجليه ويعلق الأخرى ولا يضعها [على الأرض]⁽¹²⁾ وإن وضعها وضعها وضعاً خفيفاً مخافة أن تخسف به.

مُحْتَرَسٌ مِنْ مِثْلِهِ وَهُوَ حَارِسٌ.

الحَرْسُ والحِرَاسَةُ تقدّم . ونقول : احْتَرَسْتُ منه وتَحَرَّسْتُ إذا تَحَفَّظْتُ . وهذا المثل يضرب لمن يعيب الخبيث وهو أخبث منه . وأصله شعر لعبد الله بن همام يقوله لرجل كان على شرط الكوفة للحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزوميّ يقال [له الحمارس]، وهو :

أَقْلِيَّ عَلَيَّ التَّلُومَ يَا بَنَةَ مَالِكٍ وَذَمِّي زَمَانًا سَادَ فِيهِ الْحَمَارِسُ !
فساعٍ من السُّلْطَانِ يَسْعَى عَلَيْهِمُ وَمُحْتَرَسٌ مِنْ مِثْلِهِ وَهُوَ حَارِسُ
وَكَمْ قَائِلٍ : مَا بَالُ مِثْلِكَ رَاجِلًا ؟ فَقُلْتُ لَهُ : مِنْ أَجْلِ أَنَّكَ فَارِسُ
إِذَا لَمْ يَكُنْ صَدْرَ الْمَجَالِسِ سَيِّدٌ فَلَا خَيْرَ فِيمَنْ صَدَرَتْهُ الْمَجَالِسُ !
وَيُرَوَّى : وَذَمِّي زَمَانًا سَادَ فِيهِ الْفَلَاقِسُ، وهو جمع فَلَنْقَسَ . وَالْفَلَنْقَسُ مَنْ أُمّه عَرَبِيَّةٌ وَأَبُوهُ مَوْلى . وَقِيلَ مَنْ أَبَوَاهُ عَرَبِيَّانِ وَجَدَّتَاهُ أَمْتَانِ . وَقِيلَ مَنْ أَبَوَاهُ مَوْلىَانِ مَعًا.

أَحْرَصُ مِنْ نَمَلَةٍ .

الحِرْصُ : الجشع، يقال حَرَصَ يَحْرِصُ - كضَرَبَ يَضْرِبُ -، وَحَرِصَ يَحْرِصُ - كسَمِعَ يَسْمَعُ - حِرْصًا . والنَّمَلَةُ واحدة النَّمَلِ، وهو معروف، وَحِرْصُهُ على جمعه القوت معروف . يقال إنّه ليس في الحيوانات من يحتكر إلاّ الإنسان والعَقَّعَقُ والنمل والفأر . والنمل عظيم الاحتياك في الاحتكار . يقال إنّه إذا احتكر ما يخاف عليه أن ينبت قسمه نصفين ؛ وإذا خلف العفن على الحبّ أخرجه الى ظاهر الأرض . فنشره . وأكثر ما يفعل ذلك ليلا بضوء القمر.

(12) ناقص من د.

حَرْقَ عَلَيْهِ الْأَرَمَ .

الْحَرْقُ : البَرْد . يقال : حَرْقَ الشيءَ يَحْرِقُهُ - كَقَتْلِهِ يَقْتُلُهُ - إذا برده وحكَّ بعضه ببعض، وحَرْقَ نابَه يَحْرِقُهُ : حَكَّهُ بِأَسْنَانِهِ حَتَّى سَمِعَ لَهُ صَرِيْفٌ ؛ وَالْأَرَمُ - بضمّ الهمزة وفتح الراء المشدّدة، على مثال رُكْع - الأسنان أو أطراف الأصابع .
وَالْأَرَمَ أيضًا الحِصَا، فيقال : فلان يَحْرِقُ عَلَيْكَ الْأَرَمَ ، أي تَغِيْظُ واشتدَّ غِيْظُهُ . قال
الراجز :

نُبِئْتُ أَحْمَاءَ سُلَيْمَى إِنَّمَا بَاتُوا غِضَابًا يَحْرِقُونَ الْأَرَمًا⁽¹³⁾
وقال زهير في معناه :

أَبَى الضَّيْمَ وَالنُّعْمَانَ يَحْرِقُ نَابَهُ عَلَيْهِ فَأَفْضَى وَالسُّيُوفُ مَعَاقِلُهُ
وقال الآخر :

يَلُوكُ مِنْ حَرْدٍ عَلَيْكَ الْأَرَمَا
أي يعلك أسنانه أو أصابعه . وقد قيل : الْأَرَمُ هنا الشُّفَاهُ، ويحتمل الحِصَا، وكلّ ذلك صحيح، لأنّه يكون من شأن المتغيّظ ؛ كما كان عدّ الحِصَا شأن المهموم في قول امرئ القيس :

ظَلَيْتُ رِدَائِي فَوْقَ رَأْسِي قَاعِدًا أَعْدَدْتُ الْحِصَا مَا تَنْقَضِي عِبْرَاتِي
وَسَمَّيْتُ الْأَسْنَانَ أَرَمًا مِنَ الْأَرَمِ وَهُوَ الْأَكْلُ، إذ بها يكون . يقال : أَرَمَ ما على المائدة إذا أكله فلم يُبقَ منه شيئاً . وهذا المثل هو مثل المثل الآتي : فلانٌ يَكْسِرُ عَلَيْكَ
الْفُوقَ وَالْأَرْعَاطَ .

حَرَكَ خِشَاشَهُ .

التَّحْرِيكُ معروف ؛ وَالْخِشَاشُ - بكسر الخاء المعجمة - ما يدخل في عظم أنف البعير من خشب، وهو إذا حُرِّكَ تضرَّرَ البعير بذلك، فيقال : حَرَكْتُ خِشَاشَ فلانٍ، أي

(13) يروى هذا البيت أيضا هكذا :
"نُبِئْتُ أَحْمَاءَ سُلَيْمَى إِنَّمَا أَضْحُوا غِضَابًا يَحْرِقُونَ الْأَرَمَا"
وبعده : ان قلت أسقي الحرتين الدِّيَمَا .

فَعَلَّتْ به فعلا يؤذيه ويُغضبه . ويُطلق الخِشَاشُ أيضا على الغضب نفسه، وعلى معانٍ أخرى لا تناسب المحلّ.

وَأَمَّا الخِشَاشُ، بمعنى الحشرات، فمُثَلَّتْ الأوّل.

حَرَكَ لَهَا حُورَاهَا تَحِينَ.

الحُوراء - بضمّ الحاء، على وزن أَوَّار - ولد الناقة قبل أن يُفصل، وتقدّم ؛ والحنينُ الشَّوْقُ . يقال : حَنَّ إلىه يَحِنُّ - بالكسر - فهو حَنَّانٌ وَحَنَّانٌ، إذا تآقت إليه نفسه. وهذا المثل قاله عمرو بن العاصي لمعاوية، رحمهما الله، حين أراد أن يستنصر بأهل الشام . وهو مثل المثل السَّابِق : الإيناسُ قَبْلَ الابْسَاسِ . وفي كلام أبي الوليد بن زيدون يخاطب ابن جهور : فَمَا أَبْسَسْتُ بِكَ إِلَّا لِتَدْرَ، وَحَرَكَتُ لَكَ الحُورَاءَ إِلَّا لِتَحِينَ.

حَزَتْ حَازَةً مِنْ كُوعِهَا .

يُضْرَبُ في اشتغال القوم بأمهم عن غيره . ولم أقف له على أصل.

أَحْزَمُ مِنَ الْحَرْبَاءِ .

الْحَزْمُ ضَبْطُ الأَمْرِ والأخذ فيه بالثقة . حَزَمَ الرجل - بالضم - يَحْزِمُ حَزَامَةً، فهو حَازِمٌ وهم حَزَمَةٌ وحَزَمَاءُ ؛ والحَرْبَاءُ - على مثال عِلْبَاءَ - والأنثى حَرْبَاءَةٌ، والألف لللاحق بالقرطاس : دُويْبَةٌ بَرِيَّةٌ لها سنام يشبه سنام البعير، وهي تستقبل الشمس أبداً بعينها وتدور معها كيف ما دارت قال كعب بن زهير، رضي الله عنه :
يَوْمًا يَظَلُّ به الحَرْبَاءُ مُصْطَخِداً كَأَنَّ ضَاحِيَهُ بالشَّمْسِ مَمْلُوكُ
وقال ابن الرومي :

ما ذَاكَ إِلَّا أَنَّهَا شَمْسُ الضُّحَى أَبَدًا يَكُونُ رَقِيبَهَا الحَرْبَاءُ
قيك : ويبتلون بألوان من صفرة وحمرة وخضرة، كما قال الشاعر :
وقَد جَعَلَ الحَرْبَاءُ يَصْفَرُّ لَوْنُهُ وَيَخْضَرُّ مِنْ لَفْمِ الهَجِيرِ غِبَاغِبِهِ

ويوصف بالحزم والتحفّظ، وذلك أنّه لا يزال مستمسكا بأصل الشجرة، فلا يرسله حتّى يستمسك بآخر.

قال الشاعر :

أَنْتَى أَتِيحُ لَهُ حَرْبَاءُ تَنْضُبَةُ لَا يُرْسِلُ السَّاقَ إِلَّا مُمَسَّكًا سَاقًا
أَي لَا يرسل ساقا من الشجرة إلا في حالة إمساكه ساقا آخر . والتَنْضُبَةُ شجر يتعلّق به
الحرباء . فهو مضاف اليه، كما تقول ذئبٌ غَضًا.

ويُروى أنّ رجلا خاصم ابن عمّه الى معاوية، رضي الله عنه، فلمّا سمع حججه قال له :
أنت كما قال الشاعر، وأنشد البيت المذكور، وضربه مثلا لِمَا هو فيه من اللدد والاحتجاج،
بحيث لا يرسل حجة إلا مستمسكا بأخرى .

أَحْزَمُ مِنْ عُقَابٍ .

الْحَزَمُ مَرٌّ ؛ والعُقَابُ تقدّم في حرب الباء أيضا، وهو يوصف بالحزم . قالوا : من
حزمه أنّه يخرج من بيضته على جبل عال، ولا يتحرّك من مكانه ذلك حتّى ينبت ريشه
جميعا ويتكامل ولو تحرّك قبل ذلك سقط.

أذكر في هذا المعنى ما أخبر صاحب التثوّف في ترجمة الشيخ أبي مهدي الدغوي،
رحمهما الله ونفعنا بهما، قال : حدّثني داوود بن عبد الخالق حدّثني وبين الخير قال :
كنت بمسجد أبي مهدي أدّرس القرآن . فكان يقعد عندي ويدلّني على طريق الآخرة .
فجاءه ليلة بعض إخوانه . فلمّا صلّينا العتمة تأخّرا في المسجد الى أن انصرف النّاس .
فخرجنا من أحد أبواب المسجد، فشدّا على أنفسهما أثوابهما وتلّثما . فرايتهما وثبا من
الأرض كهيئة الغرائيق الثقيلة تطير على وجه الأرض . ومازالا يعلوان في الهواء الى أن غابا
عنّي . فانكسرت انكسارا عظيما ونالتني حسرة القصور عن أحوال الرجال، وتكاسلت عن
القرآن، وبقيت مفكّرا طول ليلتي . فلمّا كان وقت صلاة الصبح صلّى معنا أبو مهدي مع
صاحبه صلاة الصبح . ثمّ جاء وقعد عندي على عادته، فرآني منكسرا متكاسلا عن
القرآن، فقال : مالك لا تقرّ ؟ فسكت . فقال لي : لعلك رأيتنا البارحة ؟ فهملت عيناى
بالدموع، فقلت له : رأيتهما وأريد أن أصحبكما إذا ذهبتما . فقال لي : يا بنيّ، إنّ الفرخ
إذا نبت زغبه لم يطر مع الطير حتّى يكمل نبات ريشه ! قال . فلمّا كان ذات ليلة قال لي :

أذهب الى فلان في بلد تانوريت - وهو بلد بني سمالك - وقل له يأتيني لأصلي معه الصبح الآن، وبينهما مسيرة يومين، وقد قرب طلوع الفجر ! قال . فقلت في نفسي : كيف يمكن هذا ؟ ثم تذكرت أحواله، فمشيت وتبعني ووادعني ورجع . فمشيت قليلا وأدركني شبه السنة، فما شعرت إلا وأنا أعالين مسجد تانوريت . فخرج إليّ منه رجل فقال : بعثك إليّ الشيخ أبو مهدي ؟ فقلت له : نعم ! وأمرني أن أعلمك أن تصليّ معه بمسجده الآن صلاة الصبح . فقال لي : تقدّم ! ودار حول المسجد، وغاب غنيّ، وانقلبت راجعا . فأصابني أيضا شبه السنة، فإذا أنا على قرب من مسجد أبي مهدي . فدخلت المسجد، فوجدت أبا مهدي وصاحبه يتحدّثان وقد صليا صلاة الصبح . فصلّيت وظننت أنّي قد لحقت بالشيخ فأتيته . فقال لي : يا بنيّ ! رأيت بعض ما يرى الرجال ؟ فقلت له : يا سيدي، عسى أن أصحبك في مسيرك إذا سرت الى مكان ! فقال يا بنيّ، إذا طار الطائر الصغير قبل استكمال نبات ريشه مع الطائر الوافر الريش، فإنّما يسير ميلين ويسقط في القفر، فيلتقطه الرعيان . وإن كان الرجل ليصلون الى موضع لو طار الطائر الى أن يسقط ريشه وينبت آخر فطار حتّى يسقط فينبت آخر، فطار حتّى يسقط فينبت آخر، ما وصل موصل عباد الله الصالحين في طرفة عين.

أَحْزَمُ مِنْ قِرْلَى.

ويقال أيضا : أَحْذَرُ مِنْ قِرْلَى ؛ ويقال أيضا : أَحْزَمُ أو أَحْذَرُ مِنْ قِرْلَى، إن رأى خَيْرًا تَدَلَّى، وإن رأى شَرًّا تَوَلَّى - أو تَعَلَّى - (14)
الْحَزْمُ تقدّم، وكذا الْحَذَرُ . والقِرْلَى - بكسر القاف والراء، وبعد اللام ألف مقصورة -، ويحكى أيضا في القاف التثليث، طائر شديد الحذر، لا يرى إلا على وجه الماء على جانب يهوي بإحدى عينيه الى الماء طمعا، ويرفع الأخرى حذرا . فإن رأى في الماء ما يُصَاد من السمك، انقضّ عليه انقضاض السهم ؛ وإن رأى جارحا ذهب . ومن ثمّ يقال : إن رأى خَيْرًا تَدَلَّى - أي الى الماء -، وإن رأى شَرًّا - أي ما يخافه - تَوَلَّى فرارا منه .
وقيل : إن قِرْلَى في هذا المثل رجل من العرب كان لا يفوته طعام أحد، فحيثما كان الطعام

(14) ذكر في لسان العرب : « وروي في أسجاع ابنة الخُسّ : كُنْ حَذِرًا كالقِرْلَى، إن رأى خَيْرًا... الخ ».

في ناحية توجّه إليه؛ غير أنّه إن صادف في طريقه خصومة مثلاً ترك ذلك الطريق ولم يمرّ به . ومن ثمّ قالوا : أطمع من قرئى، والمراد به هذا الرجل . قيل : ويمكن أن يكون هذا الرجل شبّه بهذا الطائر، وسُمّي باسمه .

حَسْبُكَ مِنْ شَرٍّ سَمَاعُهُ.

يقال : أَحَسْبَنِي الشَّيْءُ يُحَسِّبُنِي إِحْسَابًا، فهو مُحَسِّبٌ، أي كفاني . قال الشاعر :

إذا ما رأى في النَّاسِ حُسْنًا يفوقها وفيهنَّ حُسْنٌ لو تأملت مُحَسِّبُ
وقال الآخر :

وتقفني وليدَ الحَيِّ إن كان جائعًا وتحسبه إن كان ليس بجائعٍ⁽¹⁵⁾
وقالت الخنساء :

يَكْبُتُونَ الْعِشَارَ لِمَنْ أَتَاهُمْ إذا لم تحسبِ المائَةَ الوليدا⁽¹⁶⁾
وهذا الشيء حِسَابٌ، أي كافٍ . قال تعالى : « عَطَاءٌ حِسَابًا . » وحسبُكَ
درهمٌ، أي يكفيك . قال تعالى : حَسْبُكَ اللَّهُ . وقال الشاعر :

إذا كانتِ الهِجَاءُ واشتقتِ العصا⁽¹⁷⁾ فحسبُكَ والضحّاك سيفٌ مُهَنَّدٌ !
أي يكفيك ويكفي الضحّاك.
وقال امرؤ القيس :

فتملاً بيتنا أقطاً وسمناً وحسبُكَ من غنى شِبعٍ وريّ
وهذا الشعر ينسبه الناس لامرئ القيس، وهو في ديوانه . وقبله :

ألا تكن إبلٌ فمِعْزَى كأنَّ قُرُونٌ جلبتِها العِصِيّ
وجادَ لها الرّبيعُ يواقِصَاتٍ فأرّامَ وجادَ لها الوليّ
إذا مُشَّتْ حوالبُها أرنتَ كأنَّ القومَ صبحَهم نعيّ
فتوسّعْ أهلُها أقطاً وسمناً وحسبُكَ من غنى شِبعٍ وريّ

(15) ورد هذا البيت في لسان العرب بالنون بذل التاء في كل من « ونقفني » و « نحسبه » ونسبه لامرأة من بني قشير، وشرح الشطر الأول منه بقوله : « أي نعطيه حتى يقول حسبي » .

(16) يروى الشطر الثاني من هذا البيت أيضاً هكذا : « إذا لم تحسبِ المائَةَ الوليدا » .

(17) المشهور : وانشتقت العصا .

وسبب قوله ذلك أن بني نَبهان، لما لم يقدروا أن يفتكُّوا له إبله التي أخذتها جَذيلة وأخذت منهم رواحله التي ركبوها في ردّ الابل، استحيوا من ذلك فوهبوا له المعزى التي وصفها. وكان الأصمعيّ ينكر نسبة هذا الشعر لامرئ القيس ويقول : امرؤ القيس لا يقول مثل هذا، وأحسبه للحطيئة . وسبب إنكاره قوله : وحَسْبُكَ من غِنَى شِيعٍ " وَرِيّ، فإنّ هذا منافٍ لحال امرئ القيس ولما كان يقول في شعره من أن مطلوبه الملك، لا ما دونه، كقوله :

ولو أنما أسعى لأدنى معيشة كَفَانِي، ولم أطلب، قليلٌ من المال
ولكنما أسعى لمجدٍ مُؤثِّلٍ وقد يدركُ المجدُ المؤثِّلَ أمثالي
قلت : وأنت خير بأنّه، مع حالته هذه، لا بعد في أن يقوله لوجهين :

أحدهما أن يقوله استهزاء ببني نَبهان، حيث أغير عليه في جوارهم، ثمّ ركبا رواحله في ردّ إبله، فانتزعت منهم زيادة على ما ذهب من الابل، فوقعوا في هوان عظيم وذلة وصغار . ثمّ لم ينتصروا وجعلوا يعطونه معزى عن الابل العكر والرواحل النجب، فعظّم أمر المعزى ضحكاً منهم، ولذلك هجاهم حيث يقول :

فَدَعَمَ عَنْكَ نَهْبًا صِيحَ فِي حُجْرَاتِهِ وَلَكِنْ حَدِيثًا مَا حَدِيثَ الرَّوَاحِلِ !
كَأَنَّ دِثَارًا حَلَّقَتْ بِلَبُونِهِ عُقَابٌ تَنُوفَى لَا عُقَابُ الْقَوَاعِلِ
وَأَعْجَبَنِي مَشْيُ الْحُرْقَةِ خَالِدٍ كَمَشْيِ أَتَانٍ حُلَّتْ فِي الْمَنَاهِلِ
خالد هذا هو الذي مشى في ردّها فانتزعت منه الرواحل.

الثاني أن يريد ظاهره، وهو أنّها كافية، قائمة مقام الابل الذاهبة شبعًا وريًا . ولا يعني أن ذلك منيته وبغيته من الدنيا، وأنّ ذلك كافٍ من يطلب العيش، ولا يعني نفسه.
وقال نَصِيبٌ :

وقال رجالٌ : حَسْبُهُ من طَلَابِهَا فَقُلْتُ: كَذَبْتُمْ لَيْسَ لِي دُونَهَا حَسْبُ!
وقبل هذا البيت قوله :

بِرِزْنَبٍ أَلَمِمَ قَبْلَ أَنْ يَرِحَلَ الرِّكْبُ وَقُلْ : إِنْ تَمَلَّيْنَا فَمَا مَلَكِ الْقَلْبُ
وقُلْ : إِنْ نَحَلْ بِالْوَدِّ مِنْكَ مُحِبَّةً فَلَا مِثْلَ مَا لَا قِيَتُ فِي حَبِّكُمْ حَبُّ
وقل في تجنيها : لك الذئب إنّما عتابُك من عاتبت فيما له عتبُ
فمن شاء رامَ الصَّرمَ أو قال ظالمًا لذي ودّه ذنبٌ وليس له ذنبُ

خَلِيلِيَّ مِنْ كَعْبِ الْمِثْمَا هُدَيْتُمَا بَزِينَبَ لَا تَفْقِدُكُمَا أَبَدًا كَعْبُ
 مِنَ الْيَوْمِ زُورَاهَا فَإِنَّ رِكَابَنَا غَدَاةَ غَدٍ عَنْهَا وَعَنْ أَهْلِهَا نُكَبُ
 وَقُولَا لَهَا : يَا أُمَّ عَثْمَانَ خَلَّتِي أَسْلِمُ لَنَا فِي حُبِّنَا أَنْتَ أُمُّ حَرْبُ ؟
 وَقَالَ رَجُلٌ : حَسْبُهُ مِنْ طَلَابِهَا (البيت)
 وكان جرير يقول : «وددت أنِّي سبقت ابن السوداء الى هذه الأبيات !» يعني نُصَيْبًا.
 وقال الأعرابي :

وَحَسْبُكَ مِنْ خَمَرٍ يَفُوتُكَ رَيْقُهَا وَوَاللَّهِ مَا مِنْ رَيْقِهَا حَسْبُكَ الْخَمَرُ !
 ولهذا الشعر حكاية ظريفة⁽¹⁸⁾ عن بعض أصحاب الأصمعيّ قال : ما رأيْتُ كأعرابيٍّ وقف
 علينا وسلّم وقال : أَيُكُمُ الْأَصْمَعِيُّ ؟ فقال له : ها أنا ذا ! قال : أَنْتَ الَّذِي يَزْعُمُ هَؤُلَاءِ
 أَنَّكَ أَعْرَفُهُمْ بِالشَّعْرِ ؟ قال : فَمَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنِّي ؟ قال : أَنشدوني من شعر أهل الحضر
 حتّى أرى من شعرنا، فأنشدناه شعراً قيل في مسلمة بن عبد الملك :

أَمْسَلَمَ أَنْتَ الْبَحْرُ إِنْ جَاءَ وَارِدٌ وَلَيْتَ إِذَا مَا الْحَرْبُ طَارَ عِقَابُهَا
 وَأَنْتَ كَسِيفُ الْهِنْدُؤَانِيٍّ إِنْ غَدَتْ حَوَادِثُ مِنْ حَرْبٍ يُعْبُ عِبَابُهَا
 وَلَا خَلَقْتَ أَكْرَمَةً فِي أَمْرٍ لَهُ وَلَا غَايَةَ إِلَّا إِلَيْكَ مَأْبُهَا
 كَأَنَّكَ دَيَّانٌ عَلَيْهَا مُوَكَّلٌ بِهَا وَعَلَى كَفَيْكَ يَجْرِي حِسَابُهَا
 إِلَيْكَ رَحَلْنَا الْعَيْسَ إِذْ لَمْ نَجِدْ لَهَا أَخَانَقَةً يُرْجَى لَدَيْهِ ثَوَابُهَا
 فتبسّم الأعرابيّ وهزّ رأسه، فظننا أنّه استحسّن الشعر، ثمّ قال : هذا شعر مهلهل
 النّسج، خطؤه أكثر من صوابه : تشبّهون الملك بالأسد، والأسد أبخر قبيح المنظر،
 وبالبحر، والبحر مر صعب، وبالسيف، وربّما خان ونبا . هلاّ أنشد تمونني كما قال صبيّ
 منّا؟ فقال له الأصمعيّ : ما قال ؟ فأنشد :

إِذَا سَأَلْتَ الْوَرَى عَنْ كُلِّ مَكْرَمَةٍ لَمْ يُعْزَ أَكْرَمُهَا إِلَّا إِلَى الْهَوْلِ
 فَتَى جَوَادٍ أَذَابَ الْمَالَ نَائِلُهُ فَالْنَّيْلُ يَشْكُو لَدَيْهِ كَثْرَةُ النَّيْلِ⁽¹⁹⁾
 وَالْمَوْتُ يَكْرَهُ أَنْ يَلْقَى مَنِئَتَهُ فِي كَرٍّ عِنْدَ لَفٍّ الْخَيْلِ بِالْخَيْلِ
 لَوْ زَا حَمَ الشَّمْسُ أَبْقَى الشَّمْسُ كَاسِفَةً أَوْ زَا حَمَ الصُّمِّ أَلْجَاها إِلَى الْمَيْلِ

(18) اختصر اليوسي هذه الحكاية الادبية من زهر الاداب . انظرها تامة هناك، الجزء الأول، ص. 402-400 .
 (19) في زهر الاداب : فالنَّيْلُ يَشْكُرُ مِنْهُ ...

أَمْضَى مِنَ النَّجْمِ إِنْ نَابَتْهُ نَائِبَةٌ وَعِنْدَ أَعْدَائِهِ أَجْرَى مِنَ السَّيْلِ
لَا يَسْتَرِيحُ إِلَى الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَلَا تَرَاهُ إِلَيْهَا سَاحِبَ الذَّيْلِ
يُقَصِّرُ الْمَجْدُ عَنْهُ فِي مَكَارِمِهِ كَمَا يُقَصِّرُ عَنْ أَعْمَالِهِ قَوْلِي
قَالَ الرَّائِي : فَبُهِتْنَا وَاللَّهِ بِمَا رَأَيْنَا . فَتَأَنَّى قَلِيلًا ثُمَّ قَالَ : أَلَا تَنْشُدُنِي يَا أَصْمَعِي شِعْرًا
تَرْتَاكِ إِلَى الْهِمَامِ ؟ فَأَنْشُدْتُهُ قَوْلَ عَدِيَّ بْنِ الرَّقَّاعِ :

وَنَاعِمَةٍ تَجْلُو بَعُودَ أَرَاكِ مُؤَشَّرَةٍ يَسْبِي الْمُعَانِقَ طَيْبُهَا
كَأَنَّ بِهَا خَمْرًا بِمَاءِ غَمَامَةٍ إِذَا ارْتُشِفَتْ بَعْدَ الْمَنَامِ غُرُوبُهَا
أَرَاكِ إِلَى نَجْدٍ تَحِنُّ وَإِنَّمَا هَوَى كُلِّ نَفْسٍ حَيْثُ كَانَ حَبِيبُهَا⁽²⁰⁾
فَتَبَسَّمَ الْأَعْرَابِيُّ وَقَالَ : هَذَا قَرِيبٌ مِنَ الْأَوَّلِ . أَلَا أَنْشُدْتَنِي كَمَا قُلْتَ :

تَعَلَّقْتُهَا بِكَرٍّ وَعَلَّقْتُ حُبَّهَا وَقَلْبِي مِنْ كُلِّ الْوَرَى فَارَغٌ بِكَرٍّ
إِذَا احْتَجَبَتْ لَمْ يَكْفِكَ الْبَدْرُ فَقَدَهَا وَتَكْفِيكَ فَقَدْ الْبَدْرُ إِنْ حُجِبَ الْبَدْرُ⁽²¹⁾
وَمَا الصَّبْرُ عَنْهَا إِنْ صَبَرْتَ وَجَدْتَهُ وَجَمِيلًا وَلَا فِي مِثْلِهَا يَحْسُنُ الصَّبْرُ
وَحَسْبُكَ مِنْ خَمَرٍ يَفُوتُكَ رَيْقُهَا وَوَاللَّهِ مَا مِنْ رَيْقِهَا حَسْبُكَ الْخَمْرُ
وَلَوْ أَنَّ جِلْدَ الذَّرِّ لَامَسَ جِلْدَهَا لَكَانَ لِلْمَسِ الذَّرُّ فِي جِلْدِهَا أَثَرُ
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لِلْبَدْرِ ضِدٌّ جَمَالُهَا وَتَفَضُّلُهُ فِي حُسْنِهَا لَصَفَا الْبَدْرُ
قَالَ الرَّائِي : فَقَالَ لَنَا الْأَصْمَعِي : أَكْتُبُوا مَا سَمِعْتُمْ ، وَلَوْ بِأَطْرَافِ الْمُدَا فِي رِقَاقِ الْأَكْبَادِ !
انتهى .

وَيُقَالُ أَيْضًا : حَسْبُكَ بِكَذَا . قَالَ أَبُو تَمَّامٍ :
نَامَتْ هُمُومِي عَنِّي حِينَ قُلْتَ لَهَا : حَسْبِي أَبُو دُلْفٍ حَسْبِي بِهِ وَكَفَى !
وَقَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ الْأَحْنَفِ :

إِنْ كَانَ يُرْضِيكُمْ عَذَابِي وَأَنْ أَمُوتَ بِالْهَجْرَانِ وَالْكَرْبِ
فَالسَّمْعُ وَالطَّاعَةُ مَنِّي لَكُمْ حَسْبِي بِمَا تَرْضَوْنَ لِي حَسْبِي
وَالشَّرُّ ضِدُّ الْخَيْرِ ؛ وَالسَّمْعُ مُصَدَّرٌ ، يُقَالُ : سَمِعَ كَذَا سَمْعًا وَسَمَاعًا .
وَمَعْنَى الْمَثَلِ أَنَّ الشَّرَّ يَكْفِيكَ مِنْهُ سَمَاعُهُ ، وَإِنْ لَمْ تُعَايِنْهُ ، إِمَّا عَلَى مَعْنَى أَنَّ الشَّرَّ مِنْ

(20) فِي زَهْرِ الْأَدَابِ أَرَاكِ إِلَى نَجْدٍ ...

(21) فِي زَهْرِ الْأَدَابِ : « ضَوْءٌ » بَدَلُ « فَقَدْ » فِي الشُّطْرَيْنِ مَعًا .

شناعته وقبحه يتبين بسماعه [وإن لم تعانيه ؛ أو أنه يحصل لك اتهام ما به من مجرد سماعه،] (22) وإن لم تقدم عليه ولا انتسبت إليه ؛ أو يكفي - فيما انتسب إليك من الشر - سماع الناس له، وإن لم يعاينوه . وهذا ما ذكر أبو عبيد أن هذا المثل يضرب فيما يحذر من العار والعيب والمقالة السوء وإن كانت باطلا، كقول الآخر :

قد قيل ما قيل إن صدقا وإن كذبا فما اعتذارك من قول إذا قила ؟ وإما على معنى الأمر، أي : اكتف من الشر بسماعه ولا تعاینه، والله أعلم .

والمثل لأمّ الربيع بن زياد العبسي، وكان ابنها الربيع أخذ من قيس بن زهير درعا، فعرض قيس لأمّ الربيع، وهي على راحلتها في طريق، فأراد أن يقبضها في الدرع فقالت : أين عزب عنك عقلك يا قيس ؟ أترى بني زياد مصالحيك، وقد ذهبت بأهمهم يمينا وشمالا، وقال الناس ما قالوا ؟ إن حسبك من شر سماعه . فذهبت كلمتها مثلا . وقالت عاتكة بنت عبد المطلب، من شعراء الحماسة :

سائل بنا في قومنا وليكف من شر سماعه
قيسا وما جمعوا لنا في مجمع باق شناعه
وبعده :

فيه السنور والقنا والكبش ملتمع قناعه
بعكاظ يعشي الناظر ين إذا هم لمحو شناعه
فيه قتالنا مالكا قسرا وأسلمه رعاعه
ومجدلا غادرته بالقاع تنهشه ضباعه
تصف بهذا الكلام حرب الفجار بين قريش وقيس بعكاظ . وأرادت بقولها : وليكف من شر سماعه : أننا أوقعنا بهم من الشر ما هو ظاهر غني عن السؤال عنه والاخبار به .

تَحْسِبُهَا جَمَقَاءَ وَهِيَ بَاخِيسٌ .

تقول : حسبت زيدا عالما - بالكسر - أحسبه وأحسبه محسبة ومحسبه وحسانا - بالكسر - إذا ظننته ؛ والحمقاء مؤنث الأحمق ؛ والباخيس من البخس، وهو النقص والظلم . يقال : بخسه حقّه يبخسه بخسا فهو باخيس

(22) ما بين معقوتين ساقط من ب.

وهي باخيسة وباخيس أيضا . وورد به المثل وهو جائز، كما قالوا : ناقة بآزل، ومُغَذٌّ في السير، وحائِل . ومن شاء أن يُؤنث في المثل أنث وهو الأصل .
وأصل هذا المثل أن رجلا خلط بماله مال امرأة يظنّها حمقاء، فطمع فيها . فلمّا تقاسما أخذت جميع حقّها، ثمّ لم ترض بذلك فشكته حتّى افتدى منها من المال بما أحبّت .
ثمّ إنّ النّاس ظنّوا أنّه يغبنها فلاموه وقالوا له : كيف تخدم امرأة ؟ فقال عند ذلك :
تَحْسِبُهَا حَمَقَاءَ وَهِيَ بَاخِيسٌ، أي ظالمة، فذهبت مثلا يُضرب في الرجل يَتَبَالَهُ أو يطيل الصمت حتّى يُظنّ به التغفيل وهو ذو دهاء ومكر . ونحوه قولهم :
مُخَرَّنَبِقٌ لِيَنْبَاعَ، كما ياتي :

أُحْسُ وَذُقْ !

الْحَسُّ الشُّرْبُ . تقول : حَسَا الرجل المرق يَحْسُوهُ إذا شربه شيئاً بعد شيء .
وكذا تَحَسَّاهُ . وحَسَا الطائر الماء يَحْسُوهُ . قيل : ولا يقال شربه ؛ والذُّوقُ معروف .
والمثل يقال لمن تعرّض للمكروه فوقع فيه، ومعناه ظاهر.

الْحُسْنُ أَحْمَرُ.

الْحُسْنُ : الْجَمَالُ، وهو معروف ؛ والْحُمْرَةُ معروفة . ويريد بهذا المثل أن من أراد
الْحُسْنَ صبر على أشياء يكرهاها.

مُحْسِنَةٌ فَهَيْلِي !

الْإِحْسَانُ في الفعل ونحوه ضدّ الإساءة ؛ وَالْهَيْلُ التَّفْرِغُ وَالصَّبُّ . يقال :
هَالَ عَلَيْهِ التراب يَهِيلُهُ هَيْلًا، وَأَهَالَهُ إِهَالَةً إذا صَبَّهُ . وكلُّ شيء صَبَّهُ من غير
كيل فقد هَالَهُ.

قيل : وأصل المثل أن الهائلة بنت منقذ - من بني عمرو بن سعد بن زيد مناة أمّ جساس
بن مرة، وهي أخت البسوس بنت منقذ التي كانت الحرب عليها بين وائل أربعين سنة - ورد
عليها ضيف ومعه جراب فيه دقيق . فقامت الهائلة وأخذت وعاء عندها كان فيه دقيق لتأخذ

من وعاء الضيف [دقيقا . فجاء الضيف]⁽²³⁾ فلمّا بصرت به جعلت تأخذ من وعائها فتهيل في وعاء الضيف . فقال : ما تصنعين ؟ فقالت : أهيك من هذا في هذا . فقال : مُحْسِنَةٌ فَهَيْلِي ! فسُمِّيت الهائلة بذلك، وذهب قوله مثلا يُضرب في استقامة الأمر، قاله أبو عبيد . وقال غيره : يُضرب للرجل يسيء في فعل فعله فيؤمّر بذلك على سبيل العزّة به، وهذا أظهر وأنسب بالأصل المذكور . نعم ! يمكن أن يُنقل الى الجدّ، حتّى يقال للرجل يُحسن حقيقةً على وجه الاستزادة من فعله .

أَحْسَنُ مِنْ طَاوُوسٍ .

الحُسْنُ مرّ ؛ والطَاوُوسُ - على وزن قابُوس - طائر معروف بديع الشكل رائع الحسن، وفي طبعه، مع ذلك، الزهو والخيلاء والاعجاب بريشه . وكان يقال : إنّ الطاووس في الطير كالفرس في الدوابّ عزّاً وحسناً . وقال بعض الدجّاز في وصفه :

سُحَّانُ مِنْ مِّنْ خَلَقِهِ الطَّاوُوسُ طَيْرٌ عَلَى أَشْكَالِهِ رَيْسُ !
كَانَهُ فِي نَفْسِهِ عَـرُوسُ فِي الرِّيشِ مِنْهُ رُكِبَتْ فُلُوسُ
تَشْرِقُ فِي دَارَاتِهَا شُمُوسُ فِي الرَّأْسِ مِنْهُ شَجَرٌ مَّغْرُوسُ
كَانَهُ بِنَفْسِهِ يَمِيسُ أَوْ هُوَ زَهْرٌ خَرَمَ يَنُوسُ

أَحْشُكُ وَتَرُوْثُنِي !

الحَشِيشُ ما ييبس من الكلأ ؛ وحَشَشْتُهُ أنا : قطعته ؛ وحَشَشْتُ الفرسَ : ألقيتُ إليه الحشيش ؛ والرَّوْثُ معروف . يقال : رَأَيْتِ الدَّابَّةَ تَرُوْثُ رَوْثًا . وهذا المثل يُضرب لمن أحسنت إليه فأساء إليك . فإنّه قد صار بمنزلة الفرس إذا ألقيت إليه الحشيش فلطّخك برَوْثِهِ . وهذا ظاهر .

أَحْشَفًا وَسُوءَ كَيْلَةٍ ؟

الحَشَفُ - بفتح الحاء - أرْدَأُ التَّمْرِ . قال امرؤ القيس :

كَانَ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَى وَكْرِهَا الْعُنْتَابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي

(23) ناقص من د .

والكِيلَةُ - بكسر الكاف - الهيئة من الكَيْل . يقال : كَالَ لَهُ الطعام، وَكَالَهُ إِيَّاهُ كَيْلًا؛ وَكَالَ كَيْلَةً واحدةً - بالفتح - وَكِيلَةً حسنةً أو قبيحةً - بالكسر - ومعنى المثل : أَتَجَمَّعَ عَلَى أَنْ تَعْطِينِي حَشَفًا وَتَكِيلَ لِي كَيْلَةً سَيِّئَةً ؟ يُضْرَبُ لِلأمرِ يُكره من جَهْتَيْنِ . وكان أصله أَنَّ رجلاً اشترى تمرًا من عند آخر فَأَتَاهُ بتمر رديء، ثمَّ أساء له فِي الكيل مع ذلك، فقال له ذلك.

أَحْطُطُ عَنْ رَاحِلَتِكَ فَقَدْ بَلَغْتَ ! (بياض)
الحَفَائِظُ تحلُ الأَحْقَادُ .

الحَفَائِظُ جمع حَفِيزَةٍ، وهو الغَضَبُ والحمِيَّةُ ؛ والأَحْقَادُ جمع حَقُودٍ⁽²⁴⁾ والمعنى أَنَّكَ إِذَا رَأَيْتَ حَمِيَّكَ وَقَرِيبَكَ يُظْلَم، وفي قلبك عليه ضِغْنٌ، دَعَتْكَ الحَمِيَّةُ إِلَى نصره وزال عن قلبك ما فيه من بغضه، كما قال الشاعر⁽²⁵⁾ :
أَخُوكَ الَّذِي لَا تَمْلِكُ الْحِسَّ نَفْسُهُ وَتَرْفُضُهُ عِنْدَ الْمُحَفَظَاتِ الْكَتَائِفُ
وسياأتي زيادة في هذا المعنى .

الحَقُّ أَبْلَجُ، والبَاطِلُ لَجَلَجُ .

الحَقُّ خلاف الباطل ؛ والأَبْلَجُ الواضِحُ، يقال : بَلَجَ الصَّبْحُ - بالفتح - يَبْلُجُ - بالضم - بُلُوجًا، وَبَلَجْتَ الشَّيْءَ فَتَحْتَهُ وَأَوْضَحْتَهُ ؛ وَصُبُّهُ أَبْلَجُ : مُشْرِقٌ ومُضِيءٌ . قال الرازي :

حَتَّى بَدَتْ أَعْنَاقُ صُبْحٍ أَبْلَجَا

وكذا الحقُّ أَبْلَجُ أي واضح ظاهر لا التباس به ؛ وَالتَّلْجَجَةُ والتَّلْجِيجُ : التردد في الكلام . ويقال : تَلَجَجَتِ الثَّقَمَةُ فِي حلقه، أي ترددت ولم تَنْسُغَ . قال زهير :

تَلْجَلِجُ مُضْغَةً فِيهَا أَنْيَضٌ أَصَلَّتْ فَهِيَ تَحْتَ الْكَشْمِ دَاءُ

(24) يظهر أن هنا بترًا . فالأحقاد كالحقود جمع لحقد، وهو الضغْنُ .
(25) هو القطامي .

والمعنى أنَّ الباطل يردد من غير أن ينفذ، وهو ظاهر.

تَحْقِرُهُ وَيَنْتَأُ !

الحَقَرُ : الاذلال، تقول : حَقَرْتُ الرجل حَقْرًا - كضَرْبَتِهِ ضَرْبًا - وَحَقَّرْتَهُ تَحْقِيرًا، وَاحْتَقَرْتَهُ، وَاسْتَحَقَرْتَهُ ؛ وتقول : حَقَرَ الرجل - كَجَلَسَ - وَحَقَّرَ يَحَقِّرُ - كَكَرُمَ يَكْرُمُ - إِذَا ذَلَّ . وَالنُّتُوُ : الارتفاعُ، تقول : نَتَأُ الشَّيْءُ يَنْتَأُ نَتَأً وَنُتُوًا، إِذَا انْتَفَخَ وَارْتَفَعَ، وَقَدْ تَقُولُ : نَتَأُ يَنْتَوُ، بِغَيْرِ هَمْزٍ .
ومعنى المثل أَنَّكَ تحقره وتزدريه لسكونه، وهو يرتفع ويخادعك . وهذا مِثْلُ المثلِ السَّابِقِ : تَحْسِبُهَا حَمَقَاءَ وَهِيَ بَاخِسٌ .

حَقَّكَ أَخَذَتْ .

تَقْدَمُ فِي كَلَامِ الضَّبِّ مَعَ الْأَرْنَبِ وَالثَّعْلِبِ، وَهُوَ ظَاهِرُ الْمَعْنَى .

تَحَكَّكَتِ الْعَقْرَبُ بِالْأَفْعَى .

الْحَكُّ مَعْرُوفٌ، حَكَّكَتُ الشَّيْءَ، وَحَكَّكَتُ الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ، وَتَحَاكَ الشَّيْئَانِ : حَكَّ كُلُّ مَنْهُمَا صَاحِبَهُ، وَاحْتَكَّكَتُ بِهَذَا الشَّيْءِ : حَكَّكَتُ نَفْسِي عَلَيْهِ، وَفُلَانٌ حَكٌّ شَرٌّ وَحِكَاكٌ شَرٌّ - بِكَسْرِ الْحَاءِ فِيهِمَا - : يُحَاكُّهُ كَثِيرًا ؛ وَفُلَانٌ يَتَحَكَّكُ بِي : يَتَعَرَّضُ لَشَرِّي ؛ وَالْعَقْرَبُ مَعْرُوفٌ، يُذَكَّرُ وَيُؤُنَّثُ، وَالْأَنْثَى مِنْهُ عَقْرِبَاءٌ - بِالْمَدِّ غَيْرِ مَصْرُوفٍ - وَعَقْرِبَةٌ، وَالذَّكَرُ عَقْرِبَانٌ . قَالَ الشَّاعِرُ :

كَأَنَّ مَرَعَى أَمَكُم إِذْ غَدَتِ عَقْرِبَةٌ يَكُومُهَا عَقْرِبَانٌ
وَمَرَعَى اسْمُ الْأَمِّ، وَيَكُومُهَا يَنْزُو عَلَيْهَا . وَالْأَفْعَى حَيَّةٌ خَبِيثَةٌ . قَالَ الرَّاجِزُ :

كَأَنَّ صَوْتَ شَخِيهَا الْمَرْفُضِ كَشَيْشُ أَفْعَى أَجْمَعَتْ لِعَضِّ⁽²⁶⁾
وَالذِّكْرُ أَفْعُوانٌ - بضمّ الهمزة والعين - قَالَ الرَّاجِزُ :

قَدْ سَالَمَ الْحَيَّاتُ مِنْهُ الْقَدَمَا الْأَفْعُوانَ وَالشُّجَاعَ الشَّجْعَمَا

(26) بعده : ففني تحكُّ بعضها ببعض .

ومعنى تحككت العقربُ بالأفعى لصقَّتْ بها وحلقت حواليتها، أو تعرّضت لشرّها .
يُضرب لمن يصارع أو ينازع أو يخاصم مَنْ هو أقوى منه أو يتشبّه بغيره ويَحكي فعله
ولا يقوى قوّته.

إِحْتَكِمَ حُكْمَ الصَّبِيِّ عَلَى أَهْلِهِ !

الحُكْمُ : القضاءُ، يقال : حَكَمْتُ عليه بكذا حُكْمًا . وتقول : حَكَمْتُهُ
تَحْكِيمًا إذا أَذِنْتَ له أن يَحْكُمَ، فَتَحَكَّمَ هو واحْتَكَمَ . ولمّا كان الصبيّ مقبولا
ما حَكَمَ به على أهله، ومسموعًا ما طلبه منهم، ومغتفرا ما تحامل به عليهم، ضرب النَّاسَ
بحكمه المثل في كل مَنْ تَسْمَعُ مقالته، وَيُتَحَمَّلُ انبساطه عليك، وتغتفر دالَّتُهُ.
كان أبو سفيان إذا نزل به جار قال له : يا هذا، إِنَّكَ قد اخترتني جارا، واخترت داري
دارا، فجنانية يدك على دونك، فإن جنت عليك يدٌ فَاحْتَكِمِ عَلَيَّ حُكْمَ الصَّبِيِّ
على أَهْلِهِ ! وقال الشاعر :

ولا تَحْكُمَا حُكْمَ الصَّبِيِّ فَإِنَّهُ كَثِيرٌ على ظَهْرِ الطَّرِيقِ مجاهِلُهُ
ومن كلام أبي بكر بن القَبْطُرُونَةِ⁽²⁷⁾ يحقّ لي أن أذهب شططا، وأتكلّم منبسطا، وأبيّن
غرضي كلّهُ ومذهبي، وأتَحَكَّمَ على مكارمك تحكّم الصبي، وأبلغ بك كلّ أمل وأرب،
وأملأ دلوِي في رجائك الى عقد الكَرَب . وأشار بهذا الأخير الى قول القائل :
من يُسَاجِلُنِي يُسَاجِلُ ما جدّا يملأ الدلوَ إلى عَقْدِ الكَرَبِ

أَحْكَى مِنْ قِرْدٍ .

يقال : حَكَيْتُ الحديثَ وحكّوْتُهُ - بالياء والواو - ذكرته، وحَكَيْتُهُ عن فلان :
نَقَلْتُهُ عنه، وحَاكَيْتُ فلانًا : شَابَهْتُهُ وفعلت مثل فعله ؛ والقِرْد - بكسر القاف
وسكون الراء - معروف، جمعه أقراد وقُرود وقِرْدَة وقِرْد . وهذا الحيوان - مع قبحه - في
الغاية من الالهام والحذف بمحاكاة غيره وبالحرف وغيرها : فهو يعلم الخياطة والصياغة

(27) حرف هذا الاسم في المخطوطات بإسقاط النون منه فكتب « ابن القبطرة » . ويكتب أيضا القَبْطُرُونَةُ، وهو أديب
أندلسي أحد ثلاثة إخوة يعرفون ببني القبطونة . ترجم له الدكتور احسان عباس وأورد مراجع ترجمته في هامش رقم 2،
ص 155-156 من الجزء الأول من نغم الطيب .

وغيرك ذلك ؛ ويعلم حفظ الأمتعة وحراسة الحوانيت ونحوها ؛ ويحاكي الانسان في جميع أفعاله، ما خلا النطق، كما قال أبو الطيّب :
يُرِيدُونَ شَأَوْيَ فِي الْكَلَامِ وَإِنَّمَا يُحَاكِي الْفَتَى فِي مَا خَلَا الْمَنْطِقَ الْقِرْدُ

حَلَاتٌ حَالِيَةٌ عَنْ كُوعِهَا .

يقال : حَلَاَ الْجِلْدُ . بالفتح - يَحْلُوهُ إِذَا قَشَرَهُ وَبَشَرَهُ، أَوْ إِذَا نَزَعَ تَحْلِيئَهُ، وَالتَّحْلِيءُ مَا أَفْسَدَهُ السَّكِينُ مِنَ الْجِلْدِ، أَوْ مَا يَبْقَى مِنَ الصَّفَاقِ عَلَى بَاطِنِهِ عِنْدَ السَّلْخِ؛ وَالْكُوعُ : رَأْسُ الزَّنْدِ الَّذِي يَلِي الْإِبْهَامَ ؛ وَالْكُرْسُوعُ : رَأْسُ الزَّنْدِ الَّذِي يَلِي الْخِنْصِرَ.

ومعنى المثل أن المرأة إذا حَلَّتِ الأديم، فإن رفقت سلمت وإن خرقت قطعت بالشفرة كوعها. فيُضْرَبُ فِي حَذَرِ الْإِنْسَانِ عَلَى نَفْسِهِ.

أَحْلَبَتْ أَمْ أَجْلَبَتْ ؟

يقال : أَحْلَبَ الرَّجُلُ - بِالْحَاءِ الْمُهْمَلَةِ - إِذَا وَلَدَتْ إِبْلَهُ إِنَاثًا لِأَنَّهَا تُحْلَبُ، وَأَجْلَبَ - بِالْجِيمِ - إِذَا وَلَدَتْ إِبْلَهُ ذَكَورًا لِأَنَّ أَوْلَادَهَا تُجْلَبُ إِلَى السُّوقِ فَتُبَاعَ.

حَلِبَتْ صُرَامُ .

الحَلْبُ - بِالتَّسْكِينِ - اسْتِخْرَاجُ مَا فِي الضَّرْعِ مِنَ اللَّبَنِ، حَلَبَ الشَّاةُ - بِالْفَتْحِ - يَحْلُبُهَا حَلْبًا ؛ وَصُرَامُ - عَلَى مِثَالِ غُرَابٍ - آخِرُ اللَّبَنِ بَعْدَ التَّغْرِيزِ، يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الرَّجُلُ فِيحْلِبُهُ ضَرُورَةً . فَضُرِبَ ذَلِكَ مَثَلًا لاسْتِخْرَاجِ آخِرِ مَا فِي النَّفْسِ، فَإِذَا قِيلَ : حَلِبَتْ صُرَامُ، فَكَانَتْهُ قِيلَ : بَلَغَ الْعُذْرُ آخِرَهُ . قَالَ الشَّاعِرُ :
أَلَا أَبْلِغُ بَنِي سَعْدِ رُسُلًا وَمَوْلَاهُمْ فَقَدْ حَلِبَتْ صُرَامُ
وَالصُّرَامُ أَيْضًا اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الْحَرْبِ، وَالدَّاهِيَةِ.

لَتَحْلُبَنَّهَا مَصْرًا !

الحَلْبُ تَقْدَمُ ؛ والمَصْرُ - بالفتح والسكون - حَلْبُ جميع ما في الضرع حتَّى لا يبقى شيء . والتَّمَصَّرُ حلب بقايا اللَّبن . وشاة أو ناقة مَصُورٌ بِطَيِّئَةٍ خروج اللَّبن . وهذا المثل يُضرب في توعّد العدوِّ ، وكأنَّكَ تقول له : إنَّكَ لا تنال منِّي شيئاً ، وإنَّما أنت بمنزلة من يحلب الشاة الممصورة، فوضعت المصدر موضع المفعول، أي : لَتَحْلُبَنَّهَا مَمْصُورَةً لا لَبَنَ فيها، كما يقال : ضَرَبُ الأمير (28) .

حَلَفَ لَهُ بِالْمُحْرَجَاتِ .

الحلف معروف، يقال : حَلَفَ - بالفتح - يَحْلِفُ حَلِيفًا - بالكسر كَكَذِبَ - ؛ والمُحْرَجَاتُ : الأيْمَانُ المَوْقِعَةُ في الحَرَجِ وهو الاثم والضيغ . ويقال : المحرجات الثلاث وهي الطلاق، والعتاق، والمشي إلى مكَّة . وقيل : هي الطلاق ثلاثاً .

حَلِمَ الْأَدِيمُ

الأديمُ الجِلْدُ . ويقال : حَلِمَ الْأَدِيمُ - بالكسر - يَحْلِمُ إذا فسد ووقع فيه دود . ثمَّ يُضرب مثلاً للأمر يتناهى فسادُه . قال الوليد بن عقبة يخاطب معاوية رحمه الله تعالى :

فإِنَّكَ وَالكِتَابَ إِلَى عَلِيٍّ كَدَابِغَةٍ وَقَدْ حَلِمَ الْأَدِيمُ
وسياتي تنمة هذا الشعر .

وأوَّل من قال هذا المثل خالد بن معاوية بن سنان السَّعْدِي، وذلك أَنَّهُ اسْتَبَّ، هو وبنو تميم، عند النعمان بن المنذر، فقال خالد يرتجز فيهم :

دوموا بَنِي غَنَمٍ وَلَنْ تَدُومُوا لَنَا وَلَا سَيِّدُكُمْ مَرْحُومٌ
إِنَّا سَرَاهُ وَسُطْنَا قُرُومٌ قَدْ حَمَلَتْ أَحْسَابَنَا تَدُومٌ
في الحَرْبِ حَتَّى حَلِمَ الْأَدِيمُ

فذهب قوله حَلِمَ الْأَدِيمُ مثلاً . وقال لهم أيضا :

(28) أي هو درهمٌ ضَرَبُ الأمير أي مضروبه، بمعنى أَنَّهُ أمر بضربه سكة . جعل فيه المصدر مكان اسم المفعول .

إِنَّ لَنَا يَا أَهْلَ غَنَمٍ عِلْمًا: أَفْوَاهُ أَفْرَاسٍ أَكَلْنَ هَشْمًا
استاه أم يَغْتَدِينَ لَحْمًا تَرَكْتُمْ خَيْرَ قُوَيْسٍ سَهْمًا
فذهب هذا أيضا مثلا، وسيأتي.

ثمَّ إِنَّ شاعر غنم رجز بخالد أيضا، ومع خالد أخ له . فاستعدوا عليه النعمان، فقال خالد:
أَبَيْتَ اللَّعْنَ ! إِذَا أَرَكِبَ أَنَا وَأَخِي نَاقَةً ثُمَّ نَتَعَرَّضُ لَهُمْ، فَإِنْ اسْتَطَاعُوا فَلْيَعْقِرُوا بَنَّا !
فأعجب النعمان ذلك وقال : قد أعطوكم بحقكم . قالوا : قد رضينا . فقال النعمان : أما
وَاللَّهِ لَتَجِدُنَّهُ أَلْوَى بَعِيدَ الْمُسْتَمَرِّ ! . فأرسلها مثلا، وسيأتي.

ثمَّ إِنَّ خالداً وأخاه اكتفلا ناقتهما بكفل، وتأخَّر أحدهما الى العجز وجعل وجهه ممَّا يلي
الذنب ؛ وتقدَّم الآخر الى الكتف، وجعل كل واحد منهما يذبُّ بسيفه، فلم يخلصوا الى
أن يعقروا بهما.

أَحْلَمُ مِنْ فَرَخِ الطَّائِرِ .

الحِلْمُ - بالكسر - الاناة والعقل . يقال : حَلِمَ - بالضم - يَحْلُمُ حِلْمًا، فهو
حَلِيمٌ، وهم حُلَمَاءُ وأَحْلَامٌ ؛ وجمع الحِلْمِ حُلُومٌ وأَحْلَامٌ ؛ والفَرخُ معروف جمعه
أَفْرَاحٌ وفِرَاحٌ... ونُسب الحِلْمُ الى فرخ الطائر لأنَّه يخرج من البيضة على قنَّة الجبل،
ثمَّ لَا يَتَحَرَّكُ حَتَّى يَتِمَّ نَبَات ريشه ؛ ولو تحرَّك سقط . وتقدَّم في قولهم : أَحْزَمُ مِنْ
عُقَابٍ، وَمِنْ فَرَخِ الْعُقَابِ، وهو المقصود هنا.

الْحَمْدُ مَغْنَمٌ، وَالْمَذَمَّةُ مَغْرَمٌ .

هذا المثل ظاهر المعنى، أفراداً وتركيباً، يُضرب عند اكتساب المحامد واجتناب
المذامِّ . ومثله قول مالك بن جرير :
وإنَّ قَلِيلَ الذَّمِّ غَيْرُ قَلِيلٍ
وقبله :
أَجُودُ عَلَى الْعَافِي وَأَحْذَرُ ذِمَّةً إِذَا ضَنَّ بِالْمَعْرُوفِ كُلُّ بَخِيلٍ
ومثله قول عبيد :

الْخَيْرُ يَبْقَى وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ بِهِ وَالشَّرُّ أَخْبَثُ مَا أَوْعَيْتَ فِي زَادِ

وقول الحماسي :

أيا ابنةَ عبدِ اللهِ وابنةَ مالكِ
إذا ما صَنَعْتَ الرِّادَ فالتَّمسِي له
أخًا طارقًا أو جَارَ بيتٍ فَإِنَّنِي
وكيف يُسِيغُ المرءُ زادًا وجارُهُ
وللموتِ خيرٌ من زيارةِ باخلٍ
وَإِنِّي لعَبْدُ الضَّيِّفِ ما دام ثاويًا
وقول حاتم :

أَكْفُ يَدِي عن أن يَنالَ التَّماسُها
أَبَيْتُ هُضِيمَ الكَشَمِ مُضْطَمِرَ الحَشَا
وَإِنِّي لَأَسْتَحْيِي رَفِيقِي أنْ يَرَى
وَإِنَّكَ إِنْ أَعْطَيْتَ بَطْنَكَ سُؤْلَهُ
وقول عمرو بن الأهتم :

وَكُلُّ كَرِيمٍ يَتَّقِي الذَّمَّ بِالْقَرَى
لَعَمْرُكَ ما ضاقت بلادٌ بأهلِها
وقول الآخر :

إِلَّا يَكُنْ عَظْمِي طَوِيلًا فَإِنَّنِي
ولا خَيْرَ في حُسْنِ الجُسُومِ وطولِها
إذا كُنْتَ في القومِ الطُّوَالِ فَضَلَّتْهُمْ
وكم قَدْ رأينا من فُرُوعِ طَوِيلَةٍ
ولم أَرِ كالمَعْرُوفِ أَمَّا مَذَاقُهُ
والشعر في هذا المعنى لا يُحصر .

أَحْمَقُ مَا يَتَوَجَّهُ .

الحُمَقُ قِلَّةُ العقل . حَمَقَ الرجلُ - بالضم - حُمَقًا - بالضم - وَحَمَاقَةً ،
وإنحَمَقَ واستَحَمَقَ ، فهو أَحْمَقُ وهم حُمَاقٌ وَحُمَقٌ - بضمَّتَيْنِ - وَحَمَقَى

وَحُمَاقَى ؛ وَتَوَجَّهَ : أَقْبَلَ وَوَلَّى وَكَبُرَ . وَيَقَال : أَحْمَقُ مَا يَتَوَجَّهُ، أَي مَا
يَحْسُنُ أَنْ يَأْتِيَ الْغَائِطَ لِحُمَقِهِ.

أَحْمَقُ مِنْ جَهْبَر .

الْحُمَقُ مَرٌّ ؛ وَالْجَهْبَرُ أَنْثَى الدَّبِّ، وَهُوَ دَوِيبَةٌ مَعْرُوفَةٌ يُصْطَادُ بِهَا، يَزْعُمُونَ أَنَّهَا
تَتْرَكَ وَلَدَهَا وَتَرْضِعُ وَلَدَ الضَّبْعِ، فَوُصِفَتْ بِالْحُمَقِ.

وَاعْلَمْ أَنَّهُمْ بَنَوْا صَيْغَةَ التَّفْضِيلِ مِنْ حَمَقَ، وَهُوَ مِنَ الْخَارِجِ عَنِ الْقِيَاسِ : فَإِنَّ نَحْوَ
هَذِهِ الْمَادَّةِ لَا يُبْنَى مِنْهَا قِيَاسًا كَمَا قُرِّرَ فِي مَحَلِّهِ.

أَحْمَقُ مِنْ جَهِيْزَة .

جَهِيْزَة - بِالْجِيمِ أَوَّلُهُ وَالزَّايِ آخِرُهُ، عَلَى وَزْنِ صَحِيْفَة - هِيَ أُمُّ شَيْبِ بْنِ زَيْدٍ
الشَّيْبَانِي الْخَارِجِي . كَانَ أَبُوهُ يَزِيدٌ اشْتَرَاهَا مِنَ السَّبْيِ، فَقَالَ لَهَا : أَسْلَمِي ! فَأَبَتْ، فَضَرَبَهَا
فَلَمْ تَسْلَمْ، فَوَاقَعَهَا فَحَمَلَتْ . فَلَمَّا أَحْسَسَتْ بِالْوَلَدِ تَحَرَّكَ فِي بَطْنِهَا قَالَتْ : إِنَّ فِي بَطْنِي
شَيْئًا يَنْفِرُ . فَقَالَ النَّاسُ حِينَئِذٍ : أَحْمَقُ مِنْ جَهِيْزَة، وَضُرِبَ بِهَا الْمَثَلُ فِي الْحَمَقِ .
وَقِيلَ إِنَّ جَهِيْزَة هِيَ عَرْسُ الذَّنْبِ، تَدْعُو وَلَدَهَا وَتَرْضِعُهُ وَلَدَ الضَّبْعِ . وَفِيهَا أَوْ فِي مِثْلِهَا وَرَدَ
قَوْلُ الشَّاعِرِ :

كَمْ رَضِيعَة أَوْلَادٍ أُخْرَى وَضِيعَتِ بَنِي بَطْنِهَا هَذَا الضَّلَالِ عَلَى قَصْدٍ !
وَجَهِيْزَة أَيْضًا امْرَأَةٌ حَمَقَاءُ ، وَاجْتَمَعَ قَوْمٌ يَخْطُبُونَ فِي الصُّلْحِ بَيْنَ حَيَّيْنِ فِي دَمٍ لَكِي
يَرْضَوْنَ بِالْأُتَى . فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ قَالَتْ جَهِيْزَة : ظَفِرٌ بِالْقَاتِلِ وَلِيٌّ الْمُقْتُولِ فَقَتَلَهُ، فَقَالُوا :
قَطَعَتْ جَهِيْزَة قَوْلَ كُلِّ خَطِيْبٍ !

أَحْمَقُ مِنْ أَبِي غَبْشَانَ .

أَبُو غَبْشَانَ - بَفَتْحِ الْغَيْنِ الْمَعْجَمَةِ، وَتَضَمُّمٍ أَيْضًا، وَبِسُكُونِ الْبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ - رَجُلٌ
مِنْ خَزَاعَةَ كَانَ يَلِي سِدَانَةَ الْكَعْبَةِ قَبْلَ قَرِيْشٍ . فَاجْتَمَعَ هُوَ وَقَصِيٌّ فِي شَرْبِ الطَّائِفِ،
فَأَسْكِرَهُ قَصِيٌّ ثُمَّ اشْتَرَى مِنْهُ الْمِفَاتِيْحَ بِزَقٍّ خَمْرٍ، وَأَشْهَدَ عَلَيْهِ . وَدَفَعَهَا قَصِيٌّ لِابْنِهِ عَبْدِ

الدار، وأرسله في الحين الى مكة . ثم أفاق أبو غبشان من سكره وهو أندم من الكُسْعِيّ،
فَضُرِبَ به المثل في الحمق وفي الندم وخسارة الصفقة، كما يأتي.
أَحْمَقُ مِنْ حُبَارَى .

الحُبَارَى - بضمّ الحاء وبألف مقصورة للتّأنيث - طائر معروف يقع على الذكر والأنثى،
ويوصف بالحمق.

وفي كلام عثمان رضي الله عنه : كلُّ شيءٍ يحفظُ ولدَه حتّى الحُبَارَى ! وإنّما
خصّها بالذكر لأنّها مشهورة بالحمق، ومع ذلك تحبّ ولدها وتطعمه وتعلّمه الطيران،
كسائر الحيوان.

أَحْمَقُ مِنْ دُعَاةٍ .

الحُمَقُ مرّ ؛ ودُعَاةٍ - بـدالٍ مهملة وغين معجمة مخفّفة، على مثال ثُبّة وكُرّة -
والأصل دَعْيَى أو دَعْوَى . وهي امرأة من بني عجل، وهي مارية بنت مغنج، ومغنج هو
ربيعة بن عجل . ودُعَاةٌ حمقاء مشتهرة بذلك، ولذلك ضُربَ بها المثل.
وكان من حمقها أنّها تزوّجت في بني العنبر بن عمرو بن تميم . فلمّا أخذها الطلق ظنّت
أنّها تريد الخلاء، فانطلقت الى بعض الغيطان تتبرّز، فولدت واستهل الولد ورجعت الى
بيتها تقدّر أنّها أحدثت . فقالت لضرّتها : « يا هَنَتَاهُ، هَكَ يَفْتَحُ الجَعْرُفَاهُ ؟
قالت : نعم، ويدعو أباه ! فمضت ضرّتها وأخذت الولد . فبنو العنبر يدعون بذلك
بني الجعراء، وصار ذلك لقباً لهم.

ونظرت يوماً الى زوجها يقبّل بنته ويقول : بأبي دَرَادِرُك ! والدَرَادِرُ مغارز الأسنان .
فذهبت هي ودقّت أسنانها بفِهمٍ حتّى بدت دَرَادِرُها، فجاءت زوجها وقالت له : « كيف
ترى دُرْدُرِي ؟ » فقال لها أعْيَيْتَنِي بِأَشْرٍ، فكيف بدردُر ؟، وهو مثك سيأتي.
وقال أبو نواس :

وَمَا لِبَكْرِ بْنِ وَائِلٍ عَصَمٌ إِلَّا بِحِمَقَائِهَا وَكَأَذِيهَا
وقد خطأ أبو العباس المبرّد أبا نواس في هذا وقال إنّهُ أراد بالحمقاء هَبَنَقَةَ
القيسي، ولا يقال للرجل حمقاء . ورُدَّ عليه بأنّه أراد دُعَاةَ العجليّة، وعجل في بكر بن
وائِل.

قال شمس الدين بن خَلَّكان رحمه الله تعالى : وقد رأيت المبرِّد في المنام وأنا بالاسكندريَّة، في سنة ستّ وثلاثين وستمئة، وعندي إذ ذاك الكامل للمبرِّد وكتاب العقد لابن عبد ربّه . فرأيت في العقد في ترجمة ما غلط فيه على الشعراء، وذكر أبياتا نسبوا أصحابها الى الغلط ولم يغلطوا وإنّما وقع الغلط ممن غلّطهم، منها ما ذكر المبرِّد في الروضة من تغليط أبي نواس في البيت السّابق - والغلط إنّما هو من المبرِّد، كما قرّرنا - . قال : فلمّا كان بعد ليال قلائك من وقوفي على هذه الفائدة، رأيت كأنّي بمدينة حلب في مدرسة القاضي بهاء الدين، وكأنّنا صلّينا الظهر جماعة . فلمّا فرغنا أردت الخروج، فرأيت في آخريات الموضع رجلا واقفا يصلّي، فقال لي بعض الحاضرين : هذا أبو العبّاس المبرِّد . فجئت إليه وقعدت الى جانبه أنتظر فراغه . فلمّا فرغ سلّمت عليه فقلت له : أنا في هذا الزمان أطالع كتابك الكامل . فقال لي : رأيت كتابي الروضة ؟ فقلت : لا . وما كنت رأيته قبل ذلك . فقال لي : قم حتّى أريك إيّاه ! فقمتم معه وصعد بي الى بيته . فدخلنا ورأيت فيه كتبا كثيرة . فقعد يفتش عليه وقعدت أنا ناحية . فأخرج مجلّدا ودفعه لي، ففتحته وتركته في حجرى، فقلت له : قد أخذوا عليك . فقال : أي شيء أخذوا؟ فقلت له : إنّك نسبت أبا نواس الى الغلط في بيت كذا، وأنشدته إيّاه . فقال : نعم، غلط في هذا . فقلت : إنّّه لم يغلط بل هو على صواب، ونسبوك أنت الى الغلط في تغليطه . فقال : وكيف هذا ؟ فعرفّته ما قاله صاحب العقد . فعضّ على رأس سبّابته وبقي ساعة ينظر إليّ، وهو في صورة خجلان، حتّى استيقظت من منامي وهو على تلك الحال . انتهى ملخصا .

أَحْمَقُ مِنْ رَجُلَةٍ .

الرَّجُلَةُ - بكسر الراء وسكون الجيم - : ضَرْبٌ من النباتات معروف ينبت في حميل السيل، فيقتلعه، فيوصف لذلك بالحمق . ويقال له بَقْلَةُ الحمقاء، والبَقْلَةُ اللَّيْنَةُ، والبَقْلَةُ المباركة . وقيل إنّ البَقْلَةَ المباركة هي الهندباء . وقولهم بقلة الحمقاء أضيف فيه الموصوف الى الصفة في الظاهر، كقولهم : مسجد الجامع، وصلاة الأولى .

أَحْمَقُ مِنْ رَخْمَةٍ .

الرَّخْمَةُ - بفتح الراء والخاء المعجمة - طائر معروف، جمعه رَخَمٌ، ويقال له الأنوق، كما مرَّ . ومن تمَّ يقال لها ذات الاسمين . وهي تتمتع في قلق الجبال، كما تقدَّم، وتتحرَّر، ومع ذلك تحمق . قال الكُمَيْت :

وَذَاتِ اسْمَيْنِ وَالْأَلْوَانُ شَتَى تَحْمَقُ وَهِيَ كَيْسَةُ الْحَوِيلِ
وَذَكَرَ الرِّوَاظُ عِنْدَ الشَّعْبِيِّ فَقَالَ : لَوْ كَانُوا مِنَ الدَّوَابِّ لَكَانُوا حَمْرًا، وَمِنَ الطَّيْرِ لَكَانُوا
رَخْمًا. وَالرَّخْمَةُ مِنْ لُثَامِ الطَّيْرِ، وَلُثَامُ الطَّيْرِ - فِيمَا يَزْعُمُونَ - ثَلَاثَةٌ : الرَّخْمَةُ وَالْغَرَابُ
وَالْبُؤْمَةُ.

أَحْمَقُ مِنْ صَاحِبِ ضَأْنٍ ثَمَانِينَ .

الضَّأْنُ - بسكون الهمزة وفتحها - جمع ضَائِنٍ، مثك رَكْبٌ لِرَاكِبٍ، وَحَرَسٌ لِحَارِسٍ. وَالضَّائِنُ خِلَافُ الْمَاعِزِ مِنَ الْغَنَمِ ؛ وَالْأُنْثَى ضَائِنَةٌ . وَيُقَالُ : أَضَأْنُ الرَّجُلِ كَثُرَتْ عِنْدَهُ الضَّأْنُ ؛ وَثَمَانُونَ عَقْدٌ مَعْلُومٌ مِنَ الْعِدَدِ ؛ وَصَاحِبُ ضَأْنٍ ثَمَانِينَ قَالُوا هُوَ رَجُلٌ بَشَرٌ كَيْسَرِي فَقَالَ لَهُ كَيْسَرِي : « سَلْ مِنِّْي مَا شِئْتَ ! » فَقَالَ « أَسْأَلُكَ ضَأْنًا ثَمَانِينَ »، فَقَالَ : « أَحْمَقُ مِنْ صَاحِبِ ضَأْنٍ ثَمَانِينَ . » وَقِيلَ إِنَّهُ رَجُلٌ حَكَمَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ : أَيُّمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ : ثَمَانُونَ مِنَ الضَّأْنِ، أَوْ أَدْعُو اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْمَعَكَ مَعِيَ فِي الْجَنَّةِ ؟ فَقَالَ : بَلْ ثَمَانُونَ مِنَ الضَّأْنِ . فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَعْطُوهُ إِيَّاهَا ! ثُمَّ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ صَاحِبَةَ مُوسَى كَانَتْ أَعْقَلَ مِنْكَ . وَذَلِكَ أَنَّ عَجُوزًا دَلَّتْهُ عَلَى عِظَامِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ لَهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَيُّمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ : أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ تَكُونِي مَعِيَ فِي الْجَنَّةِ، أَوْ مِائَةٌ مِنَ الْغَنَمِ ؟ قَالَتْ : الْجَنَّةُ .

وَيُرَوَّى أَيْضًا أَنَّ رَجُلًا وَقَفَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ يَقْسِمُ غَنَائِمَ حُنَيْنٍ، فَقَالَ : إِنَّ لِي عِنْدَكَ مَوْعِدًا، يَا رَسُولَ اللَّهِ ! قَالَ : صَدَقْتَ، فَاحْتَكِمْ مَا شِئْتَ ! قَالَ : إِنِّي أُحْتَكِمُ ثَمَانِينَ ضَائِنَةً وَرَاعِيَهَا .

فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هِيَ لَكَ ، وَقَدْ احْتَكَمْتَ يَسِيرًا .
وَلصَّاحِبَةُ مُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، الَّتِي دَلَّتْهُ عَلَى عِظَامِ يُوسُفَ
عَلَيْهِ السَّلَامُ ، كَانَتْ أَحْزَمَ مِنْكَ حِينَ حَكَمَهَا مُوسَى فَقَالَتْ :
حُكْمِي أَنْ تَرُدَّنِي شَابَةً وَأَدْخَلَ مَعَكَ الْجَنَّةَ .
وفي هذا الرجل يقال : أَقْنَعُ مِنْ صَاحِبِ الثَّمَانِينَ وَرَاعِيهَا ، كما سيأتي .

أَحْمَقُ مِنْ ضَبْعٍ .

الضَّبْعُ - على مثال سَبْعٍ - معروف ، يقع على الذكر والأنثى ، وهو مؤنَّث اللَّفْظ .
والذَّكَرُ بخصوصه ضِبْعَانٌ - بالكسر - والأنثى ضِبْعَانَةٌ ، ولا يقال ضِبْعَةٌ . وقيل
يقال . ويقال للذَّكَرِ منه أيضًا ذِيخٌ - بكسر الذَّاء المعجمة - .
والضَّبْعُ توصف بالحَقِّ . ومن حَقَّقَهَا - فيما يزعمون - أَنَّ الصَّائِدَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَصِيدَهَا رَمَى
بِحَجَرٍ فِي وَجَارِهَا فَتَحْسِبُهُ شَيْئًا فَتَخْرُجُ إِلَيْهِ . وَأَنَّهَا [أيضا] يَقَالُ لَهَا ، وَهِيَ فِي الْوَجَارِ :
خَامِرِي ، أُمَّ عَامَرٍ ! أَيِ اسْتَرَى ! كما سيأتي . فَتَبْقَى حَتَّى يَدْخُلَ إِلَيْهَا وَيَقِيدَ بِرَجْلِهَا
وَيُخْرِجَهَا . وَيَقَالُ لَهَا أَيْضًا ، وَهِيَ فِي الْوَجَارِ : اطْرَحِي ، أُمَّ طَرِيفٍ ! خَامِرِي ، أُمَّ عَامَرٍ !
أَبْشَرِي : بَجَرَادٍ عَظْلَى وَشَاةٍ هَزَلَى ! فَتَبْقَى حَتَّى تَقْبِضَ . وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَرَى أَنَّ هَذِهِ مِنْ
خَرَافَاتِ الْعَرَبِ فَقَطْ . وَأَهْلُ زَمَانِنَا أَيْضًا يَزْعُمُونَ أَنَّ الصَّيَّادِينَ إِذَا اجْتَمَعُوا حَوْلَ وَجَارِهَا جَعَلَ
بَعْضُهُمْ يَقُولُ : مَا هِيَ هُنَا ، وَمَا هُنَا شَيْءٌ ! فَتَتَلَبَّثُ هِيَ حَتَّى تَقْبِضَ ؛ وَأَنَّهُمْ أَيْضًا قَدْ
يَرُونَهَا فَيُعْظَمُونَهَا وَيَهْوُلُونَ أَمْرَهَا وَيَقُولُونَ : مَا هَذَا السَّبْعُ ؟ وَمَا هَذِهِ الدَّاهِيَةُ ؟ وَنَحْوُ
ذَلِكَ . فَتَبْقَى تَتَنَفَّخُ وَتَتَعَظَّمُ فِي نَفْسِهَا وَلَا تَفِرُّ حَتَّى يَقْبِضُوهَا .
وَمِنْ شَهْرَةٍ حَقَّقَهَا عَلَى سَائِرِ الدَّوَابِّ يَقُولُ الْعَرَبُ فِي الْمَثَلِ الْآخِرِ فِي الشَّيْءِ يَدْعَى وَضُوحَهُ
جَدًّا : مَا يَخْفَى هَذَا الْأَمْرُ عَلَى الضَّبْعِ .

أَحْمَقُ مِنْ نَاطِحِ الصَّخْرَةِ .

النَّطْحُ دَفْعُ الشَّيْءِ بِالْقُرُونِ ؛ وَالصَّخْرَةُ وَاحِدَةُ الصُّخُورِ الْمَعْرُوفَةِ ؛ وَنَاطِحٌ
الصَّخْرَةُ هُوَ الْوَعْلُ ، وَالْوَعْلُ هُوَ التَّيْسُ الْجَبَلِيُّ ، كَمَا مَرَّ ، جَمْعُهُ أَوْعَالٌ وَوُعُولٌ . قَالَ

امرؤ القيس :

تلاعب أولاد الوُعُولِ رباعها دُوَيْنَ السَّمَاءِ فِي رُؤُوسِ الْمَجَادِلِ
وقال أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ :

كَلُّ حَيٍّ وَإِنْ تَطَاوَلَ دَهْرًا أَثَلُ أَمْرُهُ إِلَى أَنْ يَزُولًا
لِيَتَنِي كُنْتُ قَبْلَ مَا قَدْ بَدَأَ لِي فِي رُؤُوسِ الْجِبَالِ أَرعى الوُعُولَ !
يُحْكِي أَنَّ أُمَيَّةَ هَذَا لَمَّا احْتَضَرَ غُشِيَ عَلَيْهِ ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ : لَبَيْكُمَا ! لَبَيْكُمَا ! أَنَا إِذَا
لَدَيْكُمَا : لَا عَشِيرَتِي تَحْمِينِي، وَلَا مَالِي يَفْدِينِي ! ثُمَّ غُشِيَ عَلَيْهِ . فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ :
كَلُّ حَيٍّ ... (الْبَيْتَيْنِ)، ففَاطَمَتْ نَفْسَهُ . وَهُمَا مِنْ شَعْرِهِ الْحَكِيمِ .

وَيُرَوَّى أَنَّ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِي تَمَثَّلَ بِهِمَا . وَكَانَ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ لَهُ ابْنُهُ : يَا أَبَتَاهُ !
إِنَّكَ كُنْتَ تَقُولُ : يَا لِيَتَنِي أَلْقَى رَجُلًا عَاقِلًا لِيَبِيَا عِنْدَ نَزُولِ الْمَوْتِ بِهِ، حَتَّى يَصِفَ لِي مَا
يَجِدُ، وَأَنْتَ ذَلِكَ الرَّجُلُ : فَصِفْ لِي الْمَوْتَ ! فَقَالَ : يَا بَنِيَّ ! كَأَنَّ السَّمَاءَ قَدْ انْطَبَقَتْ عَلَى
الْأَرْضِ، وَكَأَنَّيْ بَيْنَهُمَا أَتَنَفَّسَ مِنْ سَمِّ إِبْرَةٍ، وَكَأَنَّ غَصْنَ شَوْكٍ يَجْذِبُ مِنْ قَدَمِي إِلَى
هَامَتِي . ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ لِيَتَنِي كُنْتُ قَبْلَ مَا قَدْ بَدَأَ إِلَيَّ (الْبَيْتِ) . وَمِثْلُ هَذَا
عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ لَمَّا احْتَضَرَ، وَكَانَ فِي قَصْرِهِ مُشْرِفًا عَلَى النَّاسِ . فَنَظَرَ فَرَأَى بَعْضَ
الْغَسَّالِينَ يَغْسِلُ الثِّيَابَ، فَقَالَ : لِيَتَنِي كُنْتُ مِثْلَ هَذَا الْغَسَّالِ، [أَكْتَسَبَ] قُوَّتِي يَوْمًا بِيَوْمٍ،
وَلَمْ أَكُنْ وَلَّيْتُ الْخَلْفَةَ ! ثُمَّ تَمَثَّلَ بِالْبَيْتَيْنِ السَّابِقَيْنِ فَمَاتَ .

وَيُحْكِي أَنَّهُ لَمَّا بَلَغَتْ قِصَّتُهُ هَذِهِ بَعْضُ أَهْلِ زَمَانِهِ قَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَهُمْ عِنْدَ
الْمَوْتِ [يَعْنِي الرُّؤُسَاءَ] ⁽¹⁴⁾ يَتَمَنُّونَ مَا نَحْنُ فِيهِ، وَلَمْ يَجْعَلْنَا نَتَمَنَّى مَا هُمْ فِيهِ !

وَقَالُوا فِي الْوَعْدِ نَاطِحِ الصَّخْرَةِ، لِقَوْلِ الْأَعَشَى :

كَنَاطِحِ صَخْرَةٍ يَوْمًا لِيَقْلَعَها فَلَمْ يَضِرْها وَأَوْهَى قَرْنَهُ الْوَعْلُ
وقول الآخر :

فَرَشَنِي بِخَيْرٍ لَا أَكُونَنَّ وَمَدَحَتِي كَنَاطِحِ يَوْمًا صَخْرَةٍ بَعْسِيلِ

أَحْمَقُ مِنْ نَعَامَةٍ .

النَّعَامُ معروف وتقدَّم ما فيه . والنَّعَامَةُ توصف بالحمق، وذلك أَنَّهَا تَخْرُجُ طَلَبًا

للطعم وتدع بيضا . فمتى وجدت بيض نعامة أخرى حضنتها ونسيت بيضا . وفي ذلك يقول ابن هرمة :

وَإِنِّي وَتَرَكِي نَدَى الْأَكْرَمِينَ وَقَدَحِي بِكَفِّي زَنْدًا شَحَا حَا
كَتَارِكَةً بَيَضَهَا بِالْعَرَاءِ وَمُلْحِفَةً بَيْضَ أُخْرَى جَنَاحَا
وَمِنْ حَقِّهَا أَنَّ الصَّائِدَ إِذَا أَدْرَكَهَا أَدَخَلَتْ رَأْسَهَا فِي كَثِيبٍ رَمَلٍ تَقْدَرُ أَنَّهَا اخْتَفَتْ عَنْهُ بِذَلِكَ
وَهِيَ بَادِيَةٌ لَهُ . وَمَعَ ذَلِكَ فَكَانَ لَهَا فِي بَيْضِهَا أَمْرٌ عَجِيبٌ ، وَذَلِكَ أَنَّهَا تَبْيِضُهَا زَوْحًا
وَتَضَعُهَا فَتَقْسِمُهَا قِسْمَيْنِ : فَقِسْمًا تَحْضِنُهُ وَقِسْمًا تَتْرَكُهُ يَكُونُ غِذَاءً لِمَا يَكُونُ مِنَ
الْأَفْرَاحِ ، عَلَى تَرْتِيبٍ فِي ذَلِكَ وَوَضَعَ عَجِيبٌ . فَسَبْحَانَ الْقَادِرِ عَلَى مَا يَشَاءُ وَالْمُلْهَمِ كُلَّ
حَيٍّ مَنَافِعَهُ .

وَأَمَّا قَوْلُ عُلُقَمَةَ :

حَتَّى تَلَا فِي وَقَرْنِ الشَّمْسِ مُرْتَفَعٌ أَدْحِي عِرْسَيْنِ فِيهِ الْبَيْضُ مَرْكُومُ
فَقَدْ قِيلَ إِنَّهُ غُلَطٌ ، لِأَنَّ بَيْضَ النَّعَامِ لَا يَكُونُ مَرْكُومًا ، أَيْ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ، كَمَا قُلْنَا .

أَحْمَقُ مِنْ هَبْنَقَةٍ .

وَيُقَالُ أَيْضًا أَحْمَقُ مِنْ ذِي الْوَدَعَاتِ ؛ وَهَبْنَقَةٌ بِالْفَتْحَاتِ مَعَ تَشْدِيدِ النُّونِ .
هُوَ يَزِيدُ بْنُ شَرْوَانَ الْقَيْسِيُّ . وَيُقَالُ لَهُ ذُو الْوَدَعَاتِ وَلُقِّبَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ يَتَقَلَّدُ
الْوَدْعَ ، وَالْوَدْعُ - بَفَتْحَتَيْنِ - خَرَزٌ أَبْيَضٌ يُسْتَخْرَجُ مِنَ الْبَحْرِ ، الْوَاحِدُ وَدْعَةٌ وَالْجَمْعُ
وَدَعٌ - وَتَسْكُنُ الدَّالُ أَيْضًا - وَوَدَعَاتٌ .

وَقَالَ الشَّاعِرُ فِي الْمَفْرَدِ :

أَسْنُ مِنْ جَلْفَزِيْزٍ عَوْزَمٍ خَلَقِ وَالْحِلْمُ حِلْمٌ صَبِيٌّ يَمْرُسُ الْوَدْعَةَ
وَالْجَلْفَزِيْزِيُّ الْعَجُوزُ وَالنَّاقَةُ الْهَرْمَةُ ؛ وَالْعَوْزَمُ الْعَجُوزُ وَالنَّاقَةُ الْمُسْنَّةُ فِيهَا بَقِيَّةٌ .
وَمَعْنَى يَمْرُسُ الْوَدْعَةَ : يَمصُّهَا . يَقُولُ : إِنَّهُ كَبِيرٌ فِي الْجِسْمِ ، صَغِيرٌ فِي الْعَقْلِ .

وَقَالَ الْآخَرُ فِي الْجَمْعِ ، مَسْكَنًا وَمَحْرَكًا :

إِنَّ الرُّوَاةَ بَلَا فَهْمٍ لَمَّا حَفَظُوا مِثْلَ الْجَمَالِ عَلَيْهَا يُحْمَلُ الْوَدْعُ :
لَا الْوَدْعُ يَنْفَعُهُ حَمْلُ الْجِمَالِ لَهُ وَلَا الْجِمَالُ بِحَمْلِ الْوَدْعِ تَنْتَفَعُ !

فيل : والودع اشتق له من الودع وهو الترك، لما قالوا من أن البحر يتركه، وذلك أنه يقذفه حيواناً فيموت ويصلب صلابة الحجر، ويعلق للعين . فكان هَبْنَقَةُ اتَّخَذَ قِلَادَةً من ودع وعظام وخزف يجعلها في عنقه، وكان طويل اللحية . ففيل له : لِمَ تعلق هذا ؟ فقال : لثَلَا أَصْلَ . ثمَّ إِنَّ أَخَا له سرقها ذات ليلة وتقلدها . فلما أصبح هَبْنَقَةُ ورأها في عنق أخيه فقال له : يا أخي، أنت أنا، فمن أنا ؟ فضرب به المثل في الحمق . وقد حُكيت عنه أخبار كثيرة في الحمق : منها أنه اشترى له أخوه بقرة بأربع أعنز . فلما ركبها وأعجبه عدَّوها، التفت الى أخيه فقال له : زدْهم عنزاً ! فضرب مثلاً للمعطي بعد وجوب البيع . ثمَّ إِنَّه سار بالبقرة حتَّى مرَّ بأرنب تحت شجرة، ففزع منها، وركض البقرة حتَّى تجاوزها فقال :

اللَّهُ نَجَّانِي وَنَجَّى الْبَقَرَةَ مِنْ جَاوِظِ الْعَيْنَيْنِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ
ومنها أنه كان إذا رعى الابل ردَّ السَّمان منها الى المرعى، ونحَّى المهازيك وقال : لا أصلح ما أفسد الله !

ومنها أنه اختصم إليه بنو راسب والطفافة في غلام تنازعه الفريقان، فقال : اذهبوا فاطرحوه في النَّهر : فَإِنْ طَفَأَ فَوْقَ الْمَاءِ فَهُوَ لِلطَّفَاوَةِ، وَإِنْ رَسَبَ فِيهِ فَهُوَ لِبَنِي رَاسِبٍ . وهذه أيضاً تُحكى عن غير هَبْنَقَةٍ، كما سيأتي، والله أعلم.

ومنها أنه ضلَّ له بعير فقال : من جاء به فله بعيران . ففيل له : أتجعل في بعير بعيرين؟ فقال إنَّكم لا تعرفون حلاوة الوجدان !

وقال اليزيدي :

عِشْ بَجْدٌ وَلَا يَضُرُّكَ نَوَكٌ : إِنَّمَا عِيشُ مَنْ تَرَى بِالْجُدُودِ
رُبَّ ذِي إِرْبَةٍ مُقَلٌّ مِنْ الْمَالِ وَذِي عُنْجُهِِيَّةٍ مَجْدُودِ
عِشْ بَجْدٌ وَكُنْ هَبْنَقَةَ الْقَيْسِيِّ أَوْ مِثْلَ شَيْبَةَ بْنِ الْوَلِيدِ !
وسبب قول اليزيدي هذا الشعر أنه تناظر، هو والكسائي، في مجلس المهدي، وكان شيبه ابن الوليد حاضراً فتعصَّب للكسائي وتحامل على اليزيدي فهجاه.

يَحْمَلُ شَنْ وَيُفْدَى لِكَيْزٍ .

الحمل معروف . تقول : حَمَلْتُ الشَّيْءَ أَحْمِلُهُ حَمَلًا - كَضَرَبْتُهُ أَضْرِبُهُ

ضَرْبًا ؛ وَشَنُّ اسْمِ رَجُلٍ، وَهُوَ شَنْ بَنِ أَفْصَى بَنِ عَبْدِ الْقَيْسِ بَنِ جَدِيلَةَ ؛ وَتَقُولُ :
 فَدَيْتَ الرَّجُلَ تَفْدِيهِ إِذَا قُلْتَ لَهُ : جُعِلْتُ فِدَاكَ . قَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ :
 فَيَارُبُّ مَكْرُوبٍ كَرَّرْتُ وَرَاءَهُ وَعَانِ فَكُتُّ الْغَلِّ عَنْهُ فَفَدَانِي
 وَالْعَرَبُ تَقُولُ فِي التَّفْدِيَةِ : فَدَتَكَ نَفْسِي، وَأَبِي، وَأُمِّي، وَطَارْفِي، وَتَالِدِي . وَتَقُولُ : فَدَيْتَ
 الرَّجُلَ ثَلَاثِيًّا، وَفَادَيْتَهُ إِذَا فَكُتَّهُ ؛ وَلُكَيْزُ - بِالزَّايِ، عَلَى مِثْلِ زُبَيْرٍ - هُوَ ابْنُ أَفْصَى،
 أَخُو شَنْ الْمَذْكُورِ . وَكَانَ شَنْ وَأَخُوهُ لُكَيْزٌ مَعَ أُمِّهِمَا لَيْلَى بِنْتُ قِرَانَ فِي سَفَرٍ، فَزَلَا
 بِمَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ ذُو طُوًى . فَلَمَّا أَرَادَتْ الرَّحِيلَ فَدَتَ لُكَيْزًا، ثُمَّ دَعَتْ شَنًّا لِيَحْمِلَهَا .
 فَحَمَلَهَا وَهُوَ غَضَبَانٌ حَتَّى إِذَا كَانَا بِالثَّنِيَّةِ رَمَى بِهَا عَنْ بَعِيرِهَا وَقَالَ : يَحْمِلُ شَنُّ
 وَيُفْدِي لُكَيْزٌ ! فَذَهَبَتْ مِثْلًا يُضْرَبُ فِي وَضْعِ الشَّيْءِ غَيْرِ مَوْضِعِهِ . ثُمَّ قَالَ : عَلَيْكَ
 بِجَعْرَاتِ أُمِّكَ يَا لُكَيْزُ !

وَمِثْلُ هَذَا الْمِثْلُ الْمَثَلُ الْآتِي : هَيْكَ خَيْرَ حَالِبِيكَ تَنْطَحِينَ، وَقَوْلُ الشَّاعِرِ :
 وَإِذَا تَكُونُ كَرِيهَةً أَدْعَى لَهَا وَإِذَا يُحَاسُ الْحَيْسُ يُدْعَى جُنْدُبُ !
 كَمَا مَرَّ . وَكُلَّ ذَلِكَ يُضْرَبُ فِي الْخَطِّ فِي مَكَافَأَةِ الْمُحْسَنِ بِالْإِسَاءَةِ، وَالْمُسِيءِ بِالْإِحْسَانِ .

الْحُمَّى أَضْرَعَتْنِي إِلَيْكَ !

الْحُمَّى مَرَضٌ مَعْرُوفٌ . يُقَالُ : حُمَّ الرَّجُلُ - بِضَمِّ الْأَوَّلِ - وَأَحْمَهُ اللَّهُ، فَهُوَ
 مَحْمُومٌ ؛ وَالْأَضْرَاعُ : الْأَذْلَالُ . يُقَالُ : ضَرَعَمَ إِلَيْهِ - بِالْفَتْحِ - يَضْرَعُمُ ضَرَاعَةً :
 ذَكَ وَخَضَعَمَ، وَأَضْرَعَهُ الْغَيْرُ . وَهَذَا الْمِثْلُ يُضْرَبُ عِنْدَ الذَّلِّ لِلْحَاجَةِ .
 قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْقَالِي : إِنَّمَا قِيلَ هَذَا لِأَنَّ صَاحِبَ الْحَاجَةِ تَأْخُذُهُ رَعِشَةٌ، مِنَ الْحَرَصِ عَلَى
 حَاجَتِهِ . يَقُولُ : فَهَذَا الَّذِي فِيهِ مِنَ الْقِلِّ هُوَ الَّذِي أَضْرَعَنِي ؛ وَالْقِلُّ الرَّعْدَةُ . انْتَهَى .
 وَقَوْلُهُ : الْقِلُّ الرَّعْدَةُ، يَعْنِي بِكسْرِ الْقَافِ . وَحَاصِلُ مَا ذَكَرَهُ أَنَّ مَا بِالطَّالِبِ مِنَ الْحَرَصِ
 الْمَزْعَجُ لَهُ إِزْعَاجُ الْحُمَّى هُوَ الَّذِي أَضْرَعَهُ وَأَذْلَلَهُ، كَمَا قَالَ الْآخَرُ :
 أَذْلَكَ الْحَرِصُ أَعْنََاقَ الرِّجَالِ
 وَهُوَ ظَاهِرٌ .

الْحُمَّى أَضْرَعَتْنِي لِلنَّوْمِ .

هذا المثل كالذي قبله في المعنى، وهو هو بعينه . وأوّل من قاله قرين بن مصاد الكلبي . وكان لصًا مُبِيرًا حتّى إنّه كان يقال له الذئب لشدة لصوصيته . وكان له أخوان : مرارة ومرة ؛ وإنّ مرارة خرج يتصيّد الأروى في جبل يقال له أبلق، فاخطفته الجنّ . فانطلق مرة أخوه بأثره حتّى إذا كان بذلك المكان اختطف أيضا . وكان قرين غائبًا. فلمّا قدم وعلم بأمر أخويه أقسم لا يشرب خمرا ولا يمسّ رأسه غسل حتّى يطلب أخويه . فتنكّب قوسه وانطلق الى ذلك المكان . فمكث فيه سبعة أيّام لا ينام ولا يرى شيئا حتّى كان اليوم الثامن، فإذا هو بظليم فرماه وأصابه، واستقبل الظليم حتّى صار في أسفل الجبل. فلمّا وجبت الشمس بصُرُ بشخص قائم على صخرة ينادي :

يَأْيُهَا الرَّامِي الظَّلِيمَ الْأَسْوَدَ ثَبَّتْ مَرَامِيكَ وَلَمَّا تَرَشَدَ !

فأجابه قرين :

يَأْيُهَا الْهَاتِفُ فَوْقَ الصَّخْرَةِ كَمْ عَبْرَةٍ هَيَّجَتْهَا وَعَبْرَةٌ
بِقِتْلِكُمْ مَرَارَةً وَمُورَةً فَرَّقْتَ جَمْعًا وَتَرَكْتَ صَخْرَةً !

فذهب الجنّيّ وتوارى عنه هونًا من اللَّيْلِ . فأصابته قرينًا حمّى فعلبته عينه فنام . فأتاه الجنّيّ فاحتمله وقال : ما أناك، وقد كنت حذرا ؟ فقال قرين : الحمّى أضرعتني للنوم . ثمّ انطلق به حتّى أتى حاضر الجنّ . فلمّا كان في وجه الصبح، خلّى سبيله، فقال قرين عند ذلك :

أَلَا مَنْ مُبْلَغٌ فِتْيَانِ قَوْمِي غَزَوْتُ الْجِنَّ أَطْلُبُهُمُ بئَارِي
فِيْعَرَضُ لِي ظَلِيمٌ بَعْدَ سَبْعٍ وَكُنْتُ إِذَا الْقُرُومُ تَعَاوَرَتْنِي
بَنَى لِي مَعْشَرِي وَجُدودُ صِدْقٍ وَعَزًّا سَامِعًا ثَبَّتَ الرُّوَاسِي

بما لَأَقِيْتُ بَعْدَهُمْ جَمِيعًا ؟
لَأَسْقِيَهُمْ بِهِ سُمًّا نَقِيعًا
فَأَرْمِيهِ فَأَتْرَكُهُ صَرِيعًا
جَرِيءَ الصَّدْرِ مُعْتَزًّا مَنِيعًا
بَذْرُوءَ شَاخِمْ بَيْتًا مَنِيعًا
تَرَى سُمَّ الْجِبَالِ لَهُ خُضُوعًا

حَمِيّ الوَطَيْسُ .

تقدّم في باب الهمة من كلام النبيّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسيأتي في الأمثال الحديثيّة .

أَحْمَى مِنْ مُجِيرِ الْجَرَادِ .

الحِمَايَةُ : المنعُ . تقول : حَمَيْتُ الشَّيْءَ أَحْمِيهِ حِمَايَةً إذا حَفِظْتَهُ ومنَعْتَهُ .

قال جرير :

حَمَيْتُ حِمَى تِهَامَةٍ بَعْدَ نَجْدٍ وما شَيْءٌ حَمَيْتُ بِمُسْتَبَاحٍ
وتقول : أَجَرْتُ الرَّجُلَ أَجِيرُهُ إذا مَنَعْتَهُ من أن يُظْلَمَ، فهو جَارٌ . قال الشاعر :
وَكُنْتُ إِذَا جَارِي دَعَا لِمَضُوفَةٍ أَشْمَرُ حَتَّى يَنْصَفَ السَّاقَ مِثْرَ زُرِّي
وجارَ الرَّجُلُ واستجارَ : طلب أن يُجَارَ ؛ والجَرَادُ معروف، واحده جَرَادَةٌ، للذكر والأنثى،
ومُجِيرُ الجَرَادِ هو مُدْلِج بن سُؤَيْد الطَّائِيّ . ذكرُوا [أَنَّهُ] بينما هو ذات يوم في
ظِلِّ خِيْمَةٍ إذ رأى قوما من طِيٍّ قد أَقْبَلُوا ومَعَهُم الأَوْعِيَّةُ، فقال : ما شأنكم ؟ فقالوا :
جراد بات بفنائك، فجئنا نأخذه . فلما سمع ذلك، قام إلى فرسه فركبه وتسلّح وقال
لهم : أَيْكون الجراد بفنائِي وتريدون أخذه ؟ واللّٰهُ لا يعرض له أحد منكم إلا قتلته ! فلم
يزل يحرسه حتى طلعت عليه الشمس وطار، فقال : شأنكم الآن به، فقد تحوّل الآن عن
جوارِي ! فضرب به المثل .

حَنَّ حَنِينَ الثُّكْلَى

تقدم معنى الحنين ؛ والثكلى : التي فقدت ولدها، وتقدم أيضا . وحَنِينُ الثُّكْلَى
شديد، كما تقدّم في قولهم : أَحَرُّ مِنْ دَمْعِ المِقْلَاتِ . وقالت أسماء المريّة :
فَإِنَّ بَأْكَنَافَ الرِّغَامِ غَرِيبَةً مُوَلَّهَةٌ ثَكْلَى طَوِيلًا نَعْيُهَا
وقالت الخنساء في الثكلى من الابن وحنيئها :
فما عجولٌ على بَوْءٍ تحنُّ لَهُ لها حنينان : إعلانٌ وإسرارٌ

ترتعمُ ما غفلت حتّى إذا اذكّرت
يوماً بأوجعٍ منّي يوم فارقتني
ونحوه قول عبد الله بن الزبير الأسدي :
رمى الحدّان نيسوة آل زيد
فردّ شعورهنّ السّودَ بيضاً
فإنّك لو سمعتَ دُعَاءَ هندٍ
سمعتَ دُعَاءَ باكيةٍ حزينٍ
فإنّما هي إقبالٌ وإدبارٌ
صخرٌ وللدّهر إحلاءٌ وإمرارٌ
بمقدارٍ سمَدَنَ له سُموداً
وردّ وجوههنّ البيضَ سوداً
ورملةٌ إذ تصكّان الخدوداً
أبان الدّهرُ واحدَها الفقيداً
حنّ قدحٌ ليسَ منها .

هذا المثل يضرب للرجل يُدخل نفسه في القوم وليس منهم، أو يتمدّح بالشيء ليس من أهله . يروى أن عقبة بن أبي معيط،⁽¹⁴⁾ لمّا أمرَ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بقتله، قال : أأقتل من بين قريش ؟ فقال عمر بن الخطّاب رضي الله عنه : حن قدح ليس منها ! فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : وهل أنْتَ إلاّ يهوديٌّ من صقُوريّة ؟ وذلك أنّهم ذكروا أنّ أميّة بن عبد شمس خرج الى الشّام وأقام بها عشر سنين . فوقع على أمة يهوديّة للحمّ من صقُوريّة يقال لها ترني، فولدت له ذكراً، فاستلحقه أميّة وكنّاه أبا عمرو، وهو أبو أبي معيط .

حَنَّتْ وَلَا تَهَنَّتْ .

هذا المثل لمازن بن مالك بن عمرو بن تميم، وذلك أنّ الهيجانة بنت العنبر بن عمرو بن تميم بن مرّ كان عبد شمس بن سعد بن زيد مناة بن تميم كان يزورها . فنهاه قومها عن ذلك فأبى، حتّى وقعت الحرب بين قومه وقومها . فأغار عليهم عبد شمس في جيشه، فعلمت به الهيجانة فأخبرت أباه . وكانوا يعرفون إعجاب الهيجانة به كإعجابه بها . فلمّا قالت هذه المقالة لأبيها قال لمازن بن مالك : حَنَّتْ وَلَا تَهَنَّتْ ! وأنّى لها مقروعٌ؟⁽¹⁵⁾ ومقروع عبد شمس كان يُلقّب به، لأنّ القرّيع والمقروع في كلام العرب هو المختار

14م) في النهاية لابن الأثير (مادة حَنَّ) : الوليد بن عقبة بن أبي معيط . وشرح القيدُح بأنه « أحد سهام الميسر، فإذا كان من غير جوهر أخوانته ثم حرّكها المفيض بها خرج له صوت يُخالف أصواتها فعُرف به . »
15) في لسان العرب : وأنّى لك صقُروع .

. فقال لها أبوها عند ذلك : أي بُنْيَّة، أصدقيني ! أذلك هو ؟ فإنه لا رأي لمكذوب .
 فقالت : ثكلتك إن لم أكن صدقتك، فانجُ لا أخالك ناجيا ! فذهبت كلمة مازن وكلمته
 وكلمتها أمثالا . فقول مازن : حَنَّتْ وَلَا تَهَنَّتْ، أراد أنهما كان غرضها أن تذكر عبد
 شمس ليجري اسمه على لسانها حنيئا إليه وشوقا لا شفقة على قومها، ولا نصحا لأبيها ولا
 تحذيرا . وقوله : وَلَا تَهَنَّتْ دعاء عليها، أي : لَا هَنَّاها اللَّهُ بِذَلِكَ ! وأراد : لَا
 تَهَنَّتْ - بالهمز - من الهناء، ثم خَفَّفَ الهمزة وقلبها ألفا، ثم حذف (16) الألف لملاقة التاء
 الساكنة، كما في نَظَائِرِهِ .

قيل : ويحتمل أن يريد : وَلَا تَهَنَّا، أي ليس هذا الوقت، أو : ان ذلك ولا حينه، كما قال
 الأعشى :

لَا تَهَنَّا ذَكَرِي جُبَيْرَةَ أَمْ مَن جَاءَ مِنْهَا بِطَائِفِ الْأَهْوَالِ !
 أي ليس هذا حين ذكرها، يأسا منها . وكما قال الراعي :

أَفِي أَثَرِ الْأَظْعَانِ عَيْنُكَ تَطْمَحُ ؟ نَعَمْ ! لَا تَهَنَّا إِنْ قَلْبُكَ مَتِيحٌ (17)
 وكما قال جَحَلُ بْنُ نَضْلَةَ الْبَاهِلِيِّ :

حَنَّتْ نَوَارُ وَلَا تَهَنَّا حَنَّتْ وَبَدَا الَّذِي كَانَتْ نَوَارُ أَجَنَّتْ
 لَمَّا رَأَتْ مَاءَ السَّلَى شَرِبًا لَهَا (17م) وَالْفَرْتُ يُعْصَرُ فِي الْإِنَاءِ أُرْنَتْ
 وَفِي إِعْرَابِهِ كَلَامٌ مُبِينٌ فِي عِلْمِ النَّحْوِ . والتاء في لَا تَ لتأنيث الكلمة، كما قيل في رُبٍّ
 وَثَمٍّ رُبَّتْ وَثَمَّتْ . وقيل إنها بدل من الألف، لأنَّ التاء تبدل من الألف عند الوقف
 وعند السجع، كما قيل :

مِنْ بَعْدَمَا وَبَعْدَمَا وَبَعْدِمَتْ صَارَتْ نَفُوسُ الْقَوْمِ عِنْدَ الْغَلَصَمَتِ

حُورٌ فِي مَحَارَةٍ .

الحُورُ - بضم الحاء وفتحها - وهو مضموما : الهلاك والنقصان، ومفتوحا النقصان
 أيضا والرجوع . يقال : حار إليه يحور حورا : رجع . قال مهلهل بن ربيعة التغلبي :

(16) في د : حذفت

(17) نسبه في لسان العرب إلى الراعي وأورده هكذا :
 أَفِي أَثَرِ الْأَظْعَانِ عَيْنُكَ تَلْمَحُ

نَعَمْ لَا تَهَنَّا إِنْ قَلْبُكَ مَتِيحٌ

أَلَيْتَنَا بِذِي حُسْمٍ أَنْيِرِي إِذَا أَنْتِ انْقَضَيْتِ فَلَا تَحُورِي !
أي : لا تَرْجِعِي ! والمَحَارَة النقصان أيضا .

ومعنى المثل : نقصان في نقصان . يقال للرجل يكون أمره في إدبار ، أو للرجل ينقص بعد الزيادة ، ويكون صالحا فيفسد ، ولمن لا يصلح . ومن ورود الحور بمعنى النقصان قول الشاعر :
واستعجلوا عن خفيف المضغ فازدردوا والذمُّ يبقى وزادُ القومِ في حور

حِيلَ بَيْنَ الْعَيْرِ وَالنَزْوَانِ .

تقول : حَالُ الشَّيْءِ بَيْنِي وَبَيْنَ كَذَا يَحُولُ حَيْلُوتٌ : مَنَعَنِي مِنْهُ ؛ وَحِيلَ
بين زيد وبين كذا . قال تعالى وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ؛ وَالْعَيْرُ
- بالفتح - الحِمَارُ ، وَسَيِّدُ الْقَوْمِ أيضا ؛ وَالنَزْوَانُ مصدر قولك : نَزَا الفحلُ على
الأنثى ، يَنْزُو عليها نَزْوًا ونَزَوَاتًا .

والمثل يُضْرَبُ لِلرَّجُلِ يَعُوقُهُ عَنْ مَطْلَبِهِ عَائِقٌ . وهو من قول صخر بن عمرو بن الشريد :
أَهْمٌ بِفَعْلِكَ الْحَزْمُ لَوْ أَسْتَطِيعُهُ وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الْعَيْرِ وَالنَزْوَانِ
وسنذكره وما يتعلّق به في الأمثال الشعرية ، إن شاء الله تعالى .

حَالُ الْجَرِيضِ ، دُونَ الْقَرِيضِ .

الجرض الرقيق يُغَصَّبُ به . يقال : جَرَضَ الرجلُ بريقه يَجْرَضُ - كَفَرَحَ يَفْرَحُ -
إذا ابتلعه بجهد على همٍّ وحزن ؛ والجَرِيضُ الاختِنَاقُ بالريق على الموت . قال امرؤ
القيس :

كَأَنَّ الْفَتَى لَمْ يَغْنُ فِي النَّاسِ سَاعَةً إِذَا اخْتَلَفَ اللَّحْيَانِ عِنْدَ الْجَرِيضِ
ويقال : هو يَجْرَضُ على نفسه ، أي يكاد يَقْضِي ، ومن ذلك قول امرئ القيس أيضا :
وَأَفْلَتَهُنَّ عِلْبَاءُ جَرِيضًا وَلَوْ أَدْرَكْنَهُ صَفِيرُ الْوُطَابِ
والقَرِيضُ : الشَّعْرُ .

ومعنى المثل أن الاختناق بالريق منع من قول الشعر ، فيضرب في كلِّ أمر يعوق عنه
عائق .

وأوَّل من قاله جوشن الكلابي . وكان أبوه منعه من قول الشعر، فمرض حزناً، فرقَّ له أبوه
وقد أشرف، فقال له يا بنيَّ، انطق بما أحببت ! فقال : هيهات ! حالَ الجَرِيضِ دُونَ
القَرِيضِ . قيل : وأنشد :

عَذِيرُكَ مِنْ أَبِيكَ بِضِيقِ صَدْرِي فَمَا تُغْنِي بُيُوتَ الشَّعْرِ عَنِّي !
وقيل أوَّل من قاله عبيد بن الأبرص، حين وفد على النعمان في يوم بؤسه وأيقن
بالموت، وقال له النعمان : أنشدني ! فقد كان يعجبني شعرك، فقال عبيد : حالَ
الجَرِيضِ دُونَ القَرِيضِ ! وقد تقدَّمت قصَّته في حرف الهمزة مستوفاة.

وقال أبو محمد الحريري رحمه الله تعالى :
مَابَاتَ جَارٌ لَهُمْ سَاغِبًا وَلَا لِرَوْعٍ قَال : حالَ الجَرِيضِ

حَوَكَ حَابِلَهُ عَلَى نَابِلِهِ .

الحَابِلُ هنا السَّدَى ؛ والنَّابِلُ الثُّلَمَةُ، وقد تقدَّما . ومعنى حَوَكَ حَابِلَهُ
عَلَى نَابِلِهِ جعل أعلاه أسفله، وهو ظاهر .

حَوَالَيْنَا لَا عَلَيْنَا .

يتمثَّل به كثيرًا، وهو من كلام النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حين استصحى فقال :
اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا ! أي أنزل المَطَرِ حَوَالَيْنَا، وَلَا تُنْزِلْهُ عَلَيْنَا!
والحديث مشهور .

وقال، مُشِيرًا إلى ذلك على طريق الاقتباس، الصَّاحِبُ بن عبَّاد :
أَقُولُ وَقَدْ رَأَيْتُ لَهَا سَحَابًا مِنَ الْعِجْرَانِ مُقْبِلَةً إِلَيْنَا
وَقَدْ سَحَّتْ غَزَالِيهَا بِهَطْلٍ : حَوَالَيْنَا الصُّدُودُ وَلَا عَلَيْنَا !
وتقول : جلست حول الرَّجُلِ وحولِيهِ وحَوَالِيهِ وأَحْوَالَهُ - مفتوحات الأوَّل - وكلَّها بمعنى
واحد .

حَيْثُ لَا يَضَعُ الرَّاقِي أَنْفَهُ .

حَيْثُ من ظروف المكان ؛ والوضْعُ : الطَّرْحُ والجَعْلُ . تقول : وضَعْتُ الشيءَ أَضَعُهُ - بفتح الضاد فيهما ؛ والرُقِيَّةُ - بضمّ الراء - العُوْدَةُ ، رَقَاهُ يَرْقِيهِ رَقِيًّا ، فهو راقٍ له نفث في عودته . قال عروة بن حزام :

فَمَا تَرَكَا مِنْ رُقِيَّةٍ يَعْلَمَانِيهَا وَلَا شُرْبَةٍ إِلَّا بِهَا سَقْيَانِي
وهذا المثل يُضْرَبُ فِي الْأَمْرِ لَا يُدْنَى وَلَا يُقْرَبُ مِنْهُ .

قال أبو علي الفاللي : وكأنهم يرون أنَّ أصل ذلك أنَّ ملسوعًا لُسِعَ فِي اسْتِهِ فَلَمْ يَقْدِرِ الرَّاقِي أَنْ يَقْرَبَ أَنْفَهُ مِمَّا هُنَاكَ . انتهى .

قلت : وأورده أبو عبيد في أمثاله بلفظ جَرَحَهُ حَيْثُ لَا يَضَعُ الرَّاقِي أَنْفَهُ ، وقال إِنَّهُ يُضْرَبُ فِي الْجَنَائِيَةِ لَا دَوَاءَ لَهَا . فقال البكري عن ابن الكلبي : أول من نطق بهذا المثل امرأة من العرب ، وأظنها زوجة حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم - أو بنته - وكان حنظلة شيخًا كبيرًا . فأصابتهم ليلة ريح ومطر وبرق . فخرجت تصلح طنب بيتها ، وعليها صِدَارٌ . فَأَكْبَتْ عَلَى الطنْبِ ، وبرقت السَّمَاءُ برقًا ، فأبصرها مالك بن عمرو بن تميم وهي مُجَبِّيَّةٌ ، فشدَّ عليها حتَّى خالطها ، فقالت :

يَا حَنْظَلُ بْنُ مَالِكٍ لَحَرَّهَا يُشْفَى بِهَا مِنْ لَيْلَةٍ وَقَرَّهَا !
فأقبل بنوها وزوجها ، فقالوا لها : مالك ؟ فقالت : لدغت . قالوا : أينه ؟ فقالت : حَيْثُ لَا يَضَعُ الرَّاقِي أَنْفَهُ . فذهبت مثلاً . ومات حنظلة بن مالك ، فتزوَّجها مالك بن تميم ، صاحب اللدعة ، فولدت له نفرا .

أَحِيرٌ مِنْ بُرْعُوثٍ .

تقول : حَارَ الرَّجُلُ يَحَارُ حَيْرَةً وَحَيْرَةً وَتَحِيرًا ، وَاسْتَحَارَ : إِذَا نَظَرَ فَلَمْ يَهْتَدِ ؛ وَالْبُرْعُوثُ - بضمّ الباء - معروف . قال الأعرابي :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبَيْتَنَ لَيْلَةً وَلَيْسَ لِبُرْعُوثٍ عَلَيَّ سَبِيلٌ ؟
وهو يطير الى وراء ، وذلك من لطف الله تعالى به ليرى من يكيدته .

أَحْيَرُ مِنْ ضَبٍّ .

الْحَيَرَةُ تَقْدَرَتْ، والضَّبُّ معروفٌ يوصف بالحيرة، وذلك أَنَّهُم يزعمون أَنَّ في طبعه النسيان وعدم الهداية، ولذلك يحفر جحره عند صخرة، أو في أكمة لئلا يضلَّ عنه إذا خرج لطلب الطعام، ولذلك توجد برائثينه كَلِيلَة من حفره الكُدَى والأماكن الصلبة، كما قال خالد بن علقمة :

تَرَى الشَّرَّ قَدْ أَفْنَى دَوَائِرَ وَجْهِهِ كَضَبُ الكُدَى أَفْنَى بَرَاثِينِهِ الْحَفَرُ
وتقدَّم شيء من هذا في الباء.

الْحَيَّةُ مِنَ الْحَيَّةِ .

الْحَيَّةُ معروف، يقع على الذكر والأنثى، والتاء فيه للوحدة من الجنس، كالبَطَّة والدجاجة وحكى بعض الأقدمين : رَأَيْتَ حَيًّا عَلَى حَيَّةٍ، أي ذَكَرًا عَلَى أَنْثَى. ومعنى المثل أَنَّ الأمر العظيم ينشأ عن الأمر الصغير، وهو كقولهم : الْعَصَا مِنَ الْعُصْيَةِ، وسيأتي . وقريب من قولهم : إِنَّ السَّقَطَ يُحْرِقُ الْحَرَجَةَ، وقد تقدَّم . وقد جعل بعضهم نظير هذا المعنى من كتاب اللّٰه قوله تعالى : وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا .

أَحْيَى مِنْ ضَبٍّ .

يقال : حَيَّيَ الشَّيْءَ - بالكسر - يَحْيِي، حياةً، فهو حَيٌّ ؛ والضَّبُّ معروف، ووُصِفَ بكثرة الحياة لطول عمره . فقد ذُكِرَ أَنَّهُ يعيش سبعمائة سنة أو أكثر، ولا تسقط له سنٌّ، ويبول في كل أربعين يوما مرَّةً واحدة . قال الشاعر :

إِنَّكَ لَوْ عُمِّرْتَ عُمُرَ الْحِسْلِ أَوْ عُمُرَ نُوحٍ زَمَنَ الْفِطْحِ
وَالصَّخْرِ مَبْتَكٌ كَطِينِ الْوَحْلِ⁽¹⁸⁾

والْحِسْلُ - بالكسر - ولد الضَّبِّ، [ومن ثمَّ] يقال للضَّبِّ أَبُو حِسْلٍ ؛ وَالْفِطْحُ - على مثال هِزْبَرٍ فيما يزعمون : زمان كانت الصخر فيه رطبة .

(18) في الصحاح (مادة فطح، هامش 2) في نسخة : ... والصخرُ مَبْتَكٌ كَطِينِ الْوَحْلِ كنت رهين هرمٍ أو قتلت .

وممّا يلتحق بهذا الباب قولهم :

حُبًّا وَكَرَامَةً .

يقول الرَّجُلُ لآخر إذا طلبه شيئاً : نَعَمْ وَحُبًّا وَكَرَامَةً . ويقال أيضاً : حُبَّةً وَكَرَامَةً . والحُبَّةُ - بضمّ الحاء - بمعنى الحُبِّ ؛ والكَرَامَةُ من الاكرام، ويقال أيضاً : حُبًّا وَكُرْمةً، وَحُبًّا وَكُرْمانًا - بضمّهما - وقيل المراد بالحُبِّ هنا الحُبُّ الذي هو الجَرَّةُ العظيمة - وهي الخابية - والكرامة غطاء الجرّة .
وقد يقال : افعل كذا حُبًّا وَكَرَامَةً لك - بالفتح - وَكُرْماً وَكُرْمةً وَكُرْمى وَكُرْمة عين - بضمّ الك - وليس له فعل ظاهر - وقولهم :

حُطْنِي الْقَصَا .

أَي تَبَاعَد عَنِّي، وَالْقَصَا البُعْدُ، يَقَالُ قَصَا الشَّيْءُ يَقْصُو قُصُوءًا، وَقَصِيَّ الرَّجُلِ عَنْ جَوَارِي - بالكسر - يَقْصِي قَصًى، أَي تَبَاعَد . وَالْقَصَا أَيْضًا فَنَاء الدَّارِ، وَيُمَدُّ، وَالنَّاحِيَةُ . يَقَالُ - ذَهَبَتْ قَصَا فلان، أَي نَاحِيَتُهُ . وَقَالَ الشَّاعِرُ :
فَحَاطُونَا الْقَصَا وَلَقَدْ رَأَوْنَا قَرِيبًا حَيْثُ يُسْتَمَعُ السَّرَارُ
قَالَ فِي الصَّحاحِ، عَنِ الْأَصْمَعِيِّ : مَعْنَى حَاطُونَا الْقَصَى أَي تَبَاعَدُوا عَنَّا وَهُمْ حَوْلُنَا، وَمَا كُنَّا بِالْبَعْدِ مِنْهُمْ لَوْ أَرَادُوا أَنْ يَدْنُوا مِنَّا . انْتَهَى . وَقَوْلُهُمْ :

تَحَلَّلْتُ عُقْدُ فُلَانٍ .

أَي سَكَنَ غَضَبُهُ . وَمِنَ الْأَمْثَالِ الْمَشْتَهَرَةِ فِي هَذَا الْبَابِ عَلَى أَلْسِنَةِ النَّاسِ قَوْلُهُمْ :

أَحْسَنُ مِنْ نَارِ الْقِرَى .

كَانَتْ خَوْلَةُ بِنْتُ مَنْظُورِ بْنِ زِيَانَ أَجْمَلَ نِسَاءِ قَوْمِهَا، فَقَدِمَتِ الْمَدِينَةَ لِزِيَارَةِ أُخْتِهَا زَوْجَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّبِيرِ، فَسَمِعَ النَّاسُ بِهَا فَخَطَبُوهَا، وَفِيهِمُ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . فَجَعَلَتْ

أمرها بيدي أختها، فوكّلت ابن الزبير فزوَّجها من الحسن . فلمّا بلغ الخبر أباه جاء المدينة، فركز رايته عند المسجد ونادى : يا آل قيس ! فلم يبق قيسيٌّ إلّا دخل تحت رايته . فبلغ ذلك الحسن فجاء إليه فقال له : شأنك بابنتك ! فجاءها فحملها معه . فلمّا خرجا قالت له : أو يرضى أحد بمثك فعلك ؟ الحسن بن علي وفاطمة، وسبط رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وسيدّ شباب أهل الجنّة، أين تجد مثله ؟ فقال : صدقت، ولكن تعالّني نزل بقُبّا . فإن كان له غرض فيك، فسيلحقنا ! فبينما هم هنالك، أقبل الحسن والحسين وابن جعفر وابن عبّاس، فردّها إليهم . فولدت للحسن الحسن المثنّى، أكبر ولده . ولم ترك عنده حتّى مات . فكثّر خطّابها، فقالت : والله لا كان لي حمءٌ بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ! فكشفت القناع وبرزت للرجال في هيئة المتجالات، فيئسوا منها عند ذلك . وكانت معروفة بفعل الخير والتفصل، يقصدها النَّاس في حوائجهم فتقضيها . وعاشت كثيرا .

فحكى عن معبد المغنّي قال : جئتها ألتمس معروفها، وهي عجوز، وغنّيتها شعرا قاله فيها بعض من أراد تزويجها وهي شابة فلم تنكحه، [ومنه] :
 قِفَا فِي دَارِ خَوْلَةٍ فَاسْأَلَاهَا تَقَادِمَ عَهْدُهَا وَهَجَرْتُمَاهَا
 بِمَحَلِّ كَأَنَّ الْمِسْكَ فِيهِ إِذَا فَاحَتْ بِأَبْطَحِهِ صَبَاهَا
 فطربت واهترت وقالت : يا عبد بني قطن، أنا والله يومئذ أحسن من نار القرى في عين التائب الصدي ! وقولهم :

أَحْقَرُ مِنْ ذُبَابٍ وَأَحْقَرُ مِنْ قَلَامَةٍ .

وهو ما يُزال من الظفر . وهذا باب مطرّد . وقولهم :

أَحْيَرُ مِنْ طَيْرٍ فِي شَبَكَةٍ .

يريدون الطير المقنوص في الشبّكة، الشديد الاضطراب والموجان ؛ وقولهم :

أَحْيَرُ مِنْ بَقَّةٍ فِي حَقَّةٍ .

ونحو هذا .

ومن الأمثال العامية قولهم :

حُلَّ عِبْسَتِكَ مَا أَرَدْتُ خُبْرَتَكَ !

يضربون للرجل يعجز أن يجامل الناس بحسن خلقه، فضلا عن أن يسمح بنداه .
وقولهم :

الْحِمَارُ حِمَارِي وَأَنَا أَرْكَبُ [مِنْ] وَرَاءَ !

وقد آن أن نذكر في هذا الباب ما تيسر من الشعر . قال الشاعر :

أَخَاكَ أَخَاكَ، إِنَّ مَنْ لَا أَخَالَهُ كَسَاعٍ إِلَى الْفَيْجَا بَغِيرِ سِلَاحٍ
وَإِنَّ ابْنَ عَمِّ الْمَرْءِ فَاعْلَمْ جَنَاحُهُ وَهَكَ يَنْهَضُ الْبَازِي بِغَيْرِ جَنَاحٍ ؟
وقال الآخر :

وَإِنِّي وَتَرْكِي نَدَى الْأَكْرَمِينَ وَقَدَحِي بِكَفِّي زَنْدًا شَحَاحًا
كَتَارِكَةٍ بَيْضَهَا بِالْعَرَاءِ وَمُلْحِفَةٍ بَيْضَ أُخْرَى جَنَاحًا
يريد النعامة، وتقدير ذلك فيها .

وقال عروة بن الورد :

وَقَلْتُ لِقَوْمٍ فِي الْكَنِيفِ تَرَوُّوْهُوَ عَشِيَّةً بَيْتَنَا عِنْدَمَا وَانَ رُزْخٍ
تَنَالُوا الْغِنَى أَوْ تَبْلُغُوا بِنُفُوسِكُمْ إِلَى مُسْتَرَاخٍ مِنْ حِمَامٍ مُبَرَّخٍ
وَمَنْ يَكُنْ مِثْلِي ذَا عِيَالٍ وَمُقْتِرًا يُغَرَّرُ وَيَطْرَحُ نَفْسَهُ كُلَّ مَطْرَحٍ
لِيَبْلُغَ عُدْرًا أَوْ يُصِيبَ رَغِيبةً وَمُبْلَغُ نَفْسٍ عُدْرَهَا مِثْلُ مُنْجِحٍ
وَالْكَنِيفُ حَظِيرَةٌ تَعْمَلُ لِلْمَاشِيَةِ تَحْفَظُ فِيهَا ؛ وَالرُّزْخُ جَمْعُ رَازِخٍ، وَهُوَ السَّاقُطُ
الْمُعْيِي هَازِلًا، وَهُوَ نَعْتٌ لِلْقَوْمِ ؛ وَالْحِمَامُ - بِكسر الحاء - الموت، وجعله مُبَرَّخًا، أي
شاقًا لطوله، لِأَنَّهُمْ يَبْقَوْنَ حَتَّى يَمُوتُوا جُوعًا.

وذلك أَنَّ عروة مرَّ بقوم من أهله قد جهدوا وحظروا على أنفسهم حظيرة، فقال لهم : ما
هذا؟ قالوا : إِنَّا جَهْدْنَا وَخَفْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا السَّبَاعَ، فَعَمَلْنَا هَذَا نَبْقَى فَيَدُ حَتَّى نَمُوتَ .
فلامهم على ذلك واستنهضهم لطلب الرزق . فسار بهم حتَّى نزلوا ماء يقال له مَاوَأَن لبني
فزارة . فمرَّ بهم راكب معه ظعينة على بعير ومائة ناقة . فقام إليه عروة فقاتله حتَّى قتله .

فأخذ ذلك وقسمه على أصحابه .

وقوله : ومُبْلَغُ نَفْسٍ عَذْرَاهَا مَثَلُ مُنْجِمٍ : مثلك سائر عند القوم، ويريد به أن من جدَّ في الطَّلَب، وعانى المشقَّة والتَّعَب، فهو إن ظفر فذلك ما يَسْعَى إليه، وإن لم يظفر فلا ملامة عليه، كما قال امرؤ القيس :
نُحَاوِلُ مُلُكًا أَوْ نَمُوتُ فَنُعْذِرَا
وسياتي ما يناسب هذا المعنى، إن شاء الله .

وقال ابن هرمة :

يُحِبُّ الْمَدِيحَ أَبُو ثَابِتٍ وَيَفْرَقُ مِنْ صِلَةِ الْمَادِحِ
كَبِيرُ تَشَهَّى لَذِيذِ النَّكَاحِ وَتَجْزَعُ مِنْ صَوْلَةِ النَّاكِحِ
وقال الحماسي عمرو بن الإطنابة الأنصاري :

أَبَتْ لِي عِفَّتِي وَأَبَى بِلَائِي وَأَخَذِي الْحَمْدَ بِالثَّمَنِ الرَّبِيحِ
وإِجْشَامِي عَلَى الْمَكْرُوهِ نَفْسِي وَضَرْبِي هَامَةً الْبَطْلِ الْمُشِيحِ
وقولي كُلَّمَا جَشَأْتُ وَجَاشَتْ : مَكَانَكَ تَحْمَدِي أَوْ تَسْتَرْحِي
لَأُدْفَعُ عَنْ مَآثِرِ صَالِحَاتٍ وَأَحْمِي بَعْدُ عَنْ عِرْضِ صَاحِبِ
الْإِجْشَامِ : الْإِكْرَاهُ عَلَى تَحْمِلِ الْمَشَقَّةِ ؛ وَالْمُشِيحُ وَالشَّائِحُ : الْجَادُّ فِي الْأَمْرِ ؛
وَجَشَأْتُ نَفْسَ الرَّجُلِ : تَحَرَّكَتْ وَاضْطَرَبَتْ مِنْ جَزَعٍ أَوْ حَزَنٍ ؛ وَجَاشَتْ : مَا جَتَّ
وَاضْطَرَبَتْ، وَمِنْهُ الْجَيْشُ، لِمُوجَانِهِ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ ؛ وَالْمَآثِرُ مَا يُذَكَّرُ عَنِ الْإِنْسَانِ
وَيُؤَثَّرُ عَنْهُ ؛ وَالْعِرْضُ الصَّحِيحُ : الَّذِي لَمْ يَعْطَلْ بِهِ عَيْبٌ فَيَمْرُضُهُ .

وقال جميل بن معمر :

أُرِيدُ صَلَاحَهَا وَتُرِيدُ قَتْلِي فَشَتَّى بَيْنَ قَتْلِي وَالصَّلَاحِ !
وقبله :

تَنَادَى آلُ بُثْنَةَ بِالرَّوَّاحِ وَقَدْ تَرَكَوْا فُؤَادَكَ غَيْرَ صَاحٍ
فِيَا لَكَ مَنْظَرًا وَمَسِيرَ رَكْبٍ شَجَانِي حِينَ أَمْعَنَ فِي الْفِيَا حِي
وَيَا لَكَ خَلَّةً ظَفِرَتْ بِعَقْلِي كَمَا ظَفِرَ الْمُقَامِرُ بِالْقِدَاحِ !
وبعده أُرِيدُ صَلَاحَهَا (البيت)
لَعَنَ أَبِيكَ لَا تَجِدِينَ عَهْدِي كَعَهْدِكَ فِي الْمَوَدَّةِ وَالسَّمَا حِ

وَلَوْ أُرْسِلَتْ تَسْتَهْدِينُ نَفْسِي أَتَاكَ بِهَا رَسُولُكَ فِي سَرَاخٍ
وَقَالَ أَبُو الطَّيِّبِ :

وَمَا كَانَ تَرَكَ الشُّعْرَ إِلَّا لِأَنَّهُ تَقْصَرُ عَنْ وَصْفِ الْأَمِيرِ الْمَدَائِحُ
قُلْتُ : وَمَا أَحَقُّ أَنْ يُتِمَّتْكَ بِهَذَا عِنْدَ تَرَكَ الْأَشْتَغَالِ بِمَدِيحِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ ! فَإِنَّ أَكْثَرَ الْفُحُولِ [تَرَكَهُ] وَاشْتَغَلُوا بِمَدِيحِ غَيْرِهِ . وَمَا ذَلِكَ إِلَّا عِزًّا : فَإِنَّ نَبَاهَةَ
مَكَانِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَجَلَالَةَ جَانِبِهِ تَبْهَرُ الْعَقْلَ وَتَحِيرُ الْفِكْرَ ، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ
يَجُولَ فِيهِ ، وَلَوْ جَالَ لَقَصَرَ . وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ الْخَطِيبِ رَحِمَهُ اللَّهُ هَذَا الْمَعْنَى فِي صَدْرِ
كِتَابِ السَّحْرِ وَالشُّعْرِ لَهُ ، بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ مَقْطَعَاتٍ لِبَعْضِ الْأَدْبَاءِ فِي مَدْحِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : وَكَمَا أَنَّ الشُّعْرَ لَمْ يَتَعَلَّمْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ
لِئَلَّا يَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ، وَذَلِكَ فِي حَقِّهِ كَمَالٍ ، بِخِلَافِ غَيْرِهِ ، كَذَلِكَ يَبْعُدُ أَوْ يَمْتَنِعُ أَنْ يَوْجِدَ
قِسْمَ السَّحْرِ فِي مَدْحِهِ ، إِذْ أَصْلُهُ الْإِغْيَاءُ وَالْمَحَاكَاةُ وَالْخِيَالُ وَالتَّمْجِينُ ، حَتَّى قَالَ : وَوَقَارَ
جَانِبَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَبْهَرُ النَّفْسَ وَيَمْنَعُ مِنْ اسْتِرْسَالِهَا فِي ذَلِكَ . فَالْمُجِيدُ فِيهِ
مِنْ عَوَلٍ عَلَى نِصَاعَةِ اللَّفْظِ ، وَقَصْدِ الْحَقِّ ، وَقُرْبِ الْمَعْنَى ، وَإِثَارِ الْجَدِّ . انْتَهَى .

قُلْتُ : وَمِنْ أَسْبَابِ ذَلِكَ أَيْضًا أَنَّ الْمَدِيحَ إِنَّمَا يَحْسَنُ وَيَسْتَغْرِبُ لَاشْتِمَالَهُ عَلَى مُحَاسِنِ
وَأَوْصَافِ كَمَالٍ لِّلْمَدْحِ ، يَتَفَتَّحْنَ لَهَا الشَّاعِرُ دُونَ غَيْرِهِ ، وَيَبَالِغُ فِيهَا أَكْثَرَ مِمَّا يَتَسَحَّقُ
الْمَدْحُ وَيُظَنُّ بِهِ .

وَقَدْ عَلِمَ فِي حَقِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ كُلَّ مَا يَتَخَيَّلُهُ الشَّاعِرُ مِنَ الْمُحَاسِنِ
وَالْكَمَالَاتِ ، فَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَائِدٌ عَلَى ذَلِكَ وَأَرْفَعُ مِنْهُ ، إِذْ لَا يَبْقَى فَوْقَ
كَمَالِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا كَمَالُ الْأُلُوْهِيَّةِ ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَثْبِتَهُ لَهُ ، فَلَمْ يَبْقَ لِلشَّاعِرِ
إِلَّا أَنْ يَبَيِّنَ مَا هُوَ عَلَيْهِ أَوْ أَنْقُصَ ، وَكِلَاهُمَا لَا طَائِلَ فِيهِ ، مَعَ أَنَّ تَبْيَانَ قَدْرِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ مُتَعَذِّرٌ عَادَةً ، إِذْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ الْعُقُولُ ، فَلَيْسَ إِلَّا الْقُصُورُ . وَلِلَّهِ دَرُّ الْقَائِلِ :

مَا قَصَرَ الشُّعْرَاءُ فَيْكَ تَعَمُّدًا بَلْ دَقَّ عَنْ أَفْكَارِهِمْ مَعْنَاكَ
نَعَمْ ! يُمْكِنُ الْإِتْيَانُ بِشَيْءٍ مِنْ حِلَالِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَوْصَافِهِ عَلَى نَوْعٍ مِنَ الْغَرَابَةِ
وَضَرْبٍ مِنَ الْمُبَالَغَةِ ، بِحَسَبِ مَا يَرَى النَّاسُ مِنْ حَالِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وقال أيضا :

أَيكونُ الصُّرَّاحُ غيرَ صُرَّاحٍ ؟
نَسَبَتَنِي لَهُم رُؤُوسُ الرِّمَّاحِ

أَيكونُ الهِجَانُ غيرَ هِجَانٍ ؟
جَهْلُونِي وَإِنْ عَمَرْتُ قَلِيلًا

وقال أيضًا :

نَظَرُ العَدُوِّ بِمَا أُسْرَ يَبُوحُ

تَخَفَى العَدَاوَةُ وَهِيَ غَيْرُ خَفِيَّةٍ

وقال أيضًا :

وَإِنْ حَرَصَ النُّفُوسُ عَلَى الفَلاحِ

فَقُلْتُ لَكَ حَيٌّ يَوْمٌ سَوْءٍ (20)

وقال أبو العلاء المعري :

بَأَنَّ وِراءَهَا سَقَمًا صَحِيحًا

وَأَمْرَاضُ المَوَاعِدِ أَعْلَمَتَنِي

وقال :

وَنَحْنُ عَبِيدُ مَنْ خَلَقَ المَسِيحًا

أَعْبَادَ المَسِيحِ يَخَافُ صَحْبِي

وقال :

وَلَكِنْ حَظُّنَا فِي أَنْ يَفُوحًا

وَمَا لِلْمِسْكِ فِي أَنْ فَاحَ حَظٌّ

وقال :

فَمَا نِلْتُ النِّسِيبَ وَلَا المَدِيحَا

وَذَلِكَ أَنَّ شِعْرَكَ طَالَ شِعْرِي :

لِيَنْزَلَ بَعْضُهَا نَزَلَ السُّفُوحَا

وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَعْلَامَ رَضْوَى

وهذا في معنى ما مرَّ لأبي الطيّب :

وقال الشاعر :

فَفِي إِبْطَائِهِ أَثَرُ النِّجَاحِ !

إِذَا أَبْطَأَ رَسُولُكَ فَارْجُ يُسْرًا :

وهذا يشبه قول أبي الطيّب :

أَسْرَعُ السُّحْبِ فِي المَسِيرِ الجَهَامُ

وَمِنْ الخَيْرِ بُطْءُ سَيْبِكَ عَنِّي

وقال الآخر :

لَهَا أَحَدًا مِنْ سَائِرِ النَّاسِ يَصْلُحُ

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَصْلُحْ لِنَفْسِكَ لَمْ تَجِدْ

وقال الآخر :

صَبَاحٌ فِي صَبَاحٍ فِي صَبَاحٍ

جَبِينُكَ وَالْعِمَامَةُ وَالتَّنَائِيَا

وقال الآخر :

دعِ النَّاسَ طَرَفًا وَاهْجُرِ النَّاسَ كُلَّهُمْ

وقال الآخر :

صَدِيقٌ بِلَاعِيبٍ قَلِيلٌ وَجُودُهُ

وقال الآخر :

طَلَبْتُ بِكَ التَّكْثِيرَ فَازْدَدْتُ قَلَّةً

وقال الآخر :

كَأَنَّنِي الْجَزَارُ فِي فِعْلِهِ :

وقال الآخر :

كُنْ فِي أَمَانِ اللَّهِ مِنْ خَاطِرٍ :

وقال الآخر :

لَيْسَ عَارًا بِأَنْ يُقَالَ مُقِلٌّ :

ومثله قول الآخر :

أَلَمْ تَعْلَمْ يَا عَمْرُكَ اللَّهُ أَنَّنِي

وَأَنَّنِي لَا أَخْزَى إِذَا قِيلَ مُمْلِقٌ

وقول الآخر، من شعراء الحماسة :

أَجَلَّكَ قَوْمٌ حِينَ صَبَرْتَ إِلَى الْغِنَى

وَلَيْسَ الْغِنَى إِلَّا غِنَى زَيْنِ الْفَتَى

وقال حسَّان بن حنظلة :

تِلْكَ ابْنَةُ الْعَدُوِّ قَالَتْ بَاطِلًا

إِنَّا لَعَمْرُ أَبِيكَ يَحْمَدُ ضَيْفُنَا

وقول الآخر :

لَنَا حَمْدُ أَرْبَابِ الْمِثْنِ وَلَا يُرَى

وقول الآخر :

بَكَرَ الْعَوَازِلُ بِالسَّوَادِ يَلْمُنُنِي

أَفَنَيْتَ مَالِكَ فِي السَّفَاهِ، وَإِنَّمَا

إِذَا كُنْتَ فِي أَخْلَاقِهِمْ لَا تُسَامِحْ !

وَذِكْرُ عُيُوبِ الْأَصْدِقَاءِ قَبِيحٌ

وَقَدْ يَخْسَرُ الْإِنْسَانُ فِي طَلَبِ الرَّبْحِ

مَا قَالَ بِسْمِ اللَّهِ إِلَّا ذَبَحَ

مِثْلُكَ لَا يُهْجَى وَلَا يُمْدَحُ

إِنَّمَا الْعَارُ أَنْ يُقَالَ شَحِيمٌ

كَرِيمٌ عَلَى حِينِ الْكَرَامِ قَلِيلٌ

كَرِيمٌ وَأَخْزَى أَنْ يُقَالَ بَخِيلٌ

وَكُلُّ غَنِيٍّ فِي الْعُيُونِ جَلِيلٌ

عَشِيَّةً يَقْرِي أَوْ غَدَاةً يُنِيكَ

أَزْرَى بِقَوْمِكَ قَلَّةُ الْأَمْوَالِ

وَيَسُودُ مُقْتَرِنَا عَلَى الْإِقْلَالِ

إِلَى بَيْتِنَا مَالٌ مَعَ اللَّيْلِ رَائِحٌ

جَهْلًا يَقُلْنَ : أَلَا تَرَى مَا تَصْنَعُ ؟

أَمْرُ السَّفَاهَةِ مَا أَمْرُنَا أَجْمَعُ

وَقَتُّودٍ نَاجِيَةٍ وَضَعْتُ بِقَفْرَةٍ
بِمُهَنْدٍ ذِي حَلِيَةٍ جَرَدْتُهُ
لَتَنُوبٍ نَائِبَةٍ فَيُعْلَمُ أَتْنِي
إِنِّي مُقَسِّمٌ مَا مَلَكَتُ فِجَاعِلُ
وقول أبي زياد الأعرابي :

لَهُ نَارٌ تَشْبُ عَلَى يَفَاعٍ
وَلَمْ يَكُ أَكْثَرُ الْفَتِيَانِ مَالًا
وقول الآخر :

وَلَيْسَ بِأَرْسَعِهِمْ فِي الْغِنَى
وقال الآخر :

وَتَبًّا لِمَنْ بَخِلَتْ نَفْسُهُ
أي : المرحاض. وقال الآخر :

وَشَيْئَانِ مَعْدُومَانِ فِي الْأَرْضِ : دَرَهْمٌ
وقال الآخر :

وَيُؤْلَمُنِي جَمِيلٌ لَا أَكْفَا
وقال الآخر :

هَجَوْتُ زُهَيْرًا ثُمَّ إِنِّي مَدَحْتُهُ
وقال الآخر :

لَا يَصْحَبُ الْإِنْسَانَ فِي قَبْرِهِ
وقال الآخر :

وَمَا الْعَيْشُ إِلَّا فِي الْخُمُولِ مَعَ الْغِنَى
وقال الآخر :

وَمَا كُلُّ حِينَ يَصْدُقُ الْمَرْءُ ظَنُّهُ
وقال معن بن أوس :

رَأَيْتُ رَجُلًا يَكْرَهُونَ بَنَاتِهِمْ
وفيهنَّ وَالْأَيَّامُ يَعْتَرْنَ بِالْفَتَى

وَالطَّيْرُ عَاشِيَةُ الْعَوَافِي وَقَعُ
يَبْرِي الْأَصْمَ مِنْ الْكُعُوبِ وَيَقْطَعُ
مَمَّنْ يُغَرُّ عَلَى الثَّنَاءِ فَيُخْذَعُ
أَجْرًا لِأَخِرَةٍ وَدُنْيَا تَنْفَعُ

إِذَا النِّيرَانُ أَلْبَسَتِ الْقِنَاعَا
وَلَكِنْ كَانَ أَرْحَبَهُمْ ذِرَاعَا

وَلَكِنْ مَعْرُوفُهُ أَوْسَعُ

بشَيءٍ يؤولُ إِلَى الْمُسْتَرَاخِ

حَلَالٌ، وَخِلٌ فِي الْحَقِيقَةِ نَاصِحٌ

عَلَيْهِ كَأَنَّهُ عِنْدِي قَبِيحٌ

وَمَا زَالَتِ الْأَشْرَافُ تَهْجَى وَتُمْدَحُ

غَيْرُ الثَّقَى وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ

وعَافِيَةٍ تَغْدُو بِهَا وَتَرْوَحُ

وَلَا كُلُّ أَصْحَابِ التَّجَارَةِ يَرْبَحُ

وفيهنَّ لَا تَكْذِبُ نِسَاءً صَوَالِحُ

عَوَائِدُ لَا يَمْلِكُنَّهْ وَنَوَائِحُ

وقال الآخر :

وَلَا تُفْشِ سِرِّي إِلَّا إِلَيْكَ فَإِنَّ لِكُلِّ نَصِيحٍ نَصِيحًا !
فَإِنِّي رَأَيْتُ غَوَاةَ الرَّجَالِ لَا يَتْرُكُونَ أَدِيمًا صَحِيحًا
قيل : وكان أمير المؤمنين عليّ - كرم الله وجهه - يتمثل بهذهَيْن البيتين كثيرًا، وقيل
إنهما له . والادريم : الجلد، استعير هنا للعرض، وجعل كلام الوشاة سهامًا يرمى بها
الأعراض حتّى تهتكها. ومثله قول ابن الخياط :

فَلَا تَعْدُ إِلَى الْوَاشِينَ سَمْعًا فَإِنَّ كَلَامَ أَكْثَرِهِمْ كِلَامُ
وإنَّ الْوُدَّ عِنْدَهُمْ نِفَاقُ إِذَا طَاوَعْتَهُمُ وَالْحَمْدُ ذَامُ
وأقوال إِذَا سَمِعْتَ سِهَامُ تَقْصُرُ عَنْ مَوَاقِعِهَا السَّهَامُ
فَمَا نَصَحُوا لِمَجْدِكَ بَكَ مُرَادًا لَمَّا قَدْ سَاعَنِي قَعَدُوا وَقَامُوا
فَلَيْتَكَ تَسْمَعُ الْقَوْلِينَ حَتَّى تَبَيَّنَ فِي مَنْ الْحَقُّ الْخِصَامُ !
وقالت فاطمة بنت الأحجم الخزاعيّة ترثي أخاها - وقيل ليلى بنت يزيد بن الصعق ترثي
ابنها قيس بن زياد - :

قَدْ كُنْتَ لِي جَبَلًا الْوَدُ بَظْلُهُ فَتَرَكْتَنِي أَضْحَى بِأَجْرَدِ ضَاخِ
قَدْ كُنْتَ ذَاتَ حَمِيَّةٍ مَا عِشْتَ لِي أَمْشِي الْبَرَازَ وَكُنْتَ أَنْتَ جَنَاحِي
فَالْيَوْمَ أَخْضَعُ لِلذَّلِيلِ وَأَتَّقِي مِنْهُ وَأَدْفَعُ ظَالِمِي بِالرَّاحِ
وَأَغْضُ مِنْ بَصْرِي وَأَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ خَيْرُ فَوَارِسٍ وَرِمَاحٍ⁽²¹⁾
وَإِذَا دَعَتْ قُمْرِيَّةٌ شَجْنَا لَهَا يَوْمًا عَلَى فَنَنْ دَعَوْتُ صَبَاحِي
وَتَمَثَّلَتْ بِهَا فَاطِمَةُ أُمِّ السَّبْطِينَ - رضي الله عنها - يوم وفاة أبيها صلّى الله عليه
وسلّم. ومعنى : دَعَوْتُ صَبَاحِي أَي قَلْتُ : وَاسُوءَ صَبَاحَاهُ ! لعدم ناصري فيه .
وفي معنى الأوّل قول أبي الوفاء يَرثِي غَازِي :

أَيَا تَارِكِي أَلْقَى الْعَدُوَّ مُسْلِمًا مَتَى سَاعَنِي بِالْجِدِّ قُمْتُ أَلَا عِيَهُ
وقال سعد بن قيس :

كَشَفْتُ لَهُمْ عَنْ سَاقِهَا وَبَدَأَ مِنَ الشَّرِّ الصُّرَاحُ
فَالْهَمُ بَيُضَاتُ الْخُدُورِ هُنَاكَ لَا النَّعَمُ الْمُرَاحُ

والضمير في كَشَفَتْ للحرب في قوله :

يا بُؤْسَ لِلْحَرْبِ التَّتِي وَضَعْتَ أَرَاهِطَ فَاسْتَرَأَوْا

وكشف السَّاق كناية عن اشتدادها، أخذ من كَشَفِ الرَّجُلِ عن سَاقِهِ وتَشْمِيرِهِ إذا جَدَّ في الأمر، كما قيل :

وَكُنْتُ إِذَا جَارِيَ دَعَا لِمَضُوفَةٍ أَشْمَرَ حَتَّى يَنْصِفَ السَّاقَ مِثْرِي
وَالصُّرَّاحُ : الْخَالِصُ، أَصْلُهُ اللَّيْنُ الَّذِي ذَهَبَتْ رَغْوَتُهُ، كَمَا مَرَّ ؛ فَالْهَمْ بِبَيْضَاتِ
الْخُدُورِ، إلخ... فِيهِ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ يَقُولُ : إِنَّا حِينَنُ لَا نَبَالِي بِأَمْوَالِنَا أَنْ تَذْهَبَ،
وَإِنَّمَا هَمَّنَا الدَّفْعُ عَنْ حَرِيمِنَا ؛ وَالْآخَرُ أَنْ يَرِيدَ : إِنَّا ظَهَرْنَا عَلَى الْعَدُوِّ وَلَمْ نَلْتَفِتْ إِلَى
أَمْوَالِهِمْ وَأَخَذَهَا، وَإِنَّمَا هَمَّنَا مِنْهُمْ الْقَتْلُ وَالسَّبَاءُ وَهُوَ أَفْخَرُ .

وَقَالَ أَحَدُ بَنِي يَشْكُرَ :

أَلَا أَبْلِغُ بَنِي ذُحُلٍ رُسُلًا وَخُصَّ إِلَى سَرَاةِ بَنِي الْبِطَاحِ
بِأَنَّا قَدْ قَتَلْنَا بِالْمُعَلَّى عَتِيْبَةَ مِنْكُمْ وَأَبَا الْجَلَامِ
فَإِنْ تَرْضَوْا فَإِنَّا قَدْ رَضِينَا وَإِنْ تَأْبَوْا فَاطْرَافُ الرَّمَاكِ
مُقَوِّمَةٌ وَبَيْضٌ مُرْهَفَاتٌ تَبِينُ جَمَاعِمًا وَبَنَانَ رَاكِ
وَقَالَ الْحَيْصُ بَيْصُ :

مَلَكْنَا فَكَانَ الْعَفْوُ مِنَّا سَجِيَّةً فَلَمَّا مَلَكْتُمْ سَالَ بِالْدَمِّ أَبْطَحُ
وَحَلَلْتُمْ قَتَلَ الْأَسَارَى وَطَالَمَا غَدَوْنَا عَلَى الْأَسْرَى فَتَعَفَّوْا وَنَصَفْهُ
وَيُحْكِي عَنْ بَعْضِهِمْ قَالَ : رَأَيْتُ الْإِمَامَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ فِي الْمَنَامِ،
فَقُلْتُ لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، تَفْتَحُونَ مَكَّةَ وَتَقُولُونَ : مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سَفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، ثُمَّ
يُؤْتَمُّ عَلَى وَلَدِكَ الْحُسَيْنِ مَاثِمٌ ؟ فَقَالَ لِي : أَسَمِعْتَ أَبْيَاتَ ابْنِ الصِّفِيِّ فِي هَذَا، وَهُوَ
الْحَيْصُ بَيْصُ ؟ فَقُلْتُ : لَا . قَالَ : اسْمِعْهَا مِنْهُ ! قَالَ : فَانْتَبَهْتُ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ بَادَرْتُ
إِلَى دَارِ الْحَيْصِ بَيْصُ فَأَخْبَرْتَهُ بِالْقِصَّةِ فَبَكَى وَحَلَفَ بِاللَّهِ مَا خَرَجْتُ مِنْ فِيهِ إِلَى أَحَدٍ،
وَمَا نَظَّمَهَا إِلَّا فِي لَيْلَتِهِ، فَأَنْشَدَنِي : مَلَكْنَا فَكَانَ الْعَفْوُ مِنَّا (الْبَيْتَيْنِ).

وَقَالَ الْحَمَاسِيُّ أَحَدُ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ :

لَنَا حَمْدُ أَرْبَابِ الْمِئِينَ وَلَا يَرَى إِلَى بَيْتِنَا مَالٌ مَعَ اللَّيْلِ رَائِحُ

وقال مالك بن أسماء، من شعراء الحماسة أيضا :

وَحَسْبُكَ تَهْمَةٌ بِيْرِيءٍ قَوْمٍ يَضُمُّ عَلَى أَخِي سَقَمَ جَنَاحًا
وقبله :

هَجَوْتُ الْأَدْعِيَاءَ فَنَا صَبَتْنِي مَعَاشِرُ خِلَتُهَا عَرَبًا صِحَاحًا
فَقُلْتُ لَهُمْ وَقَدْ نَبَحُوا طَوِيلًا إِلَيَّ وَمَا أَجَبْتُ لَهُمْ نُبَاحًا :
أَمِنْهُمْ أَنْتُمْ فَأَكُفَّ عَنْكُمْ وَأَدْفَعْ عَنْكُمْ الشَّتْمَ الصُّرَاحَا ؟
وَحَسْبُكَ (البيت)

وَالْمُنَاصِبَةُ : الْمُعَادَاةُ . يقول : إن عادَ يَتَمُونِي بِسَبَبِهِمْ وَذَبَبْتُمْ عَنْهُمْ ، فَأَنْتُمْ مِنْهُمْ
وَلَا أَهْجُوكُمْ لِلْمُؤْمِكُمْ ، وَكَفَى بِكُمْ رَيْبَةً أَنْ تَضُمُّوا الْجَنَاحَ عَلَى الْمَرْيَبِينَ .
وقال الآخر :

وَأَنِّي لَا غُلِي لِحِمَاهَا وَهِيَ حِيَّةٌ وَيَرْخُصُّ عِنْدِي لِحِمَاهَا حِينَ تَذْبَحُ
بِذَا فَأَنْدِبِيْنِي وَأَمْدَحِيْنِي فَإِنِّي فَتَى تَعْتَرِيْنِي هِرَّةٌ حِينَ أَمْدَحُ
وتقدّم هذا الشعر وما كان بمعناه .
وقال الآخر :

وَنَصْرُ الْفَتَى فِي الْحَرْبِ أَعْدَاءُ قَوْمِهِ عَلَى قَوْمِهِ لِلْمَرْءِ ذِي الطَّعْمِ فَاضِحُ
وقبله :

دَعَانِي أَبُو نَصْرٍ وَأَهْدَى نَصِيحَةً إِلَيَّ وَمِمَّا أَنْ تَعَزَّى النَّصَائِحُ
لَأَجْزَرَ لِحِمِي كَلْبَ نَبْهَانَ كَالَّذِي دَعَا الْقَاسِطِي حَتْفَهُ وَهُوَ نَازِحُ
أَوْ الْبُرْجُمِيِّ حِينَ أَهْدَاهُ حَيْثُهِ لِنَارٍ عَلَيْهَا مَوْقِدَانِ وَ ذَائِحُ
وَرَأَى أَبِي سَعْدٍ وَإِنْ كَانَ حَازِمًا بِصِيرًا وَإِنْ ضَاقَتْ عَلَيْهِ الْمَسَارِحُ
أَعَانَ بِهِ مَلْعُونُ نَبْهَانَ سَيْفَهُ عَلَى قَوْمِهِ وَالْقَوْلُ عَاقٌ وَجَارِحُ
وَنَصْرُ الْفَتَى فِي الْحَرْبِ (البيت)

وقوله : لَا جَزْرَ لِحِمِي أَي : أَصِيرُ نَفْسِي جَزْرَةً ، وَالْجَزْرَةُ الْبِدْنَةُ تَنْحَرُ . قَالَ عَنَتَرَةُ :

إِنْ يَعْقِرَا مُهْرِي فَإِنَّ أَبَاهُمَا جَزْرٌ لَخَامِعَةٍ وَنَسْرٌ قَشْعَمٌ (22)

(22) أورد في لسان العرب هذا البيت (في مادة جزر) لألفاظ تكاد تكون كلها مغايرة :
إِنْ يَفْعَلَا ، فَلَقَدْ تَرَكْتُ أَبَاهُمَا جَزْرَ السَّبَاعِمْ وَكَلَّ نَسْرٌ قَشْعَمِمْ

والقاسِطِيّ الذي ذكره هو أحدُ القارطين الهالكين، وسيأتي فيهما المثل ؛ والبرجمي هو وافد البراجم المتقدم ؛ وقوله : للمرء ذي الطّعم، أي ذي العَقْل والمعرفة . وقال الحماسي أشجع السلمي :

مَضَى ابن سَعِيدٍ حين لم يبقَ مشرقٌ ولا مغربٌ إلاّ له فيه مادمُ
وما كُنْتُ أدري ما فواضِلُ كَفِّهِ على النَّاسِ حتّى غيَّبته الصَّفائِمُ
فأصْبَحَ في لَحْدٍ من الأرضِ ميّتًا وكان به حيّا تضيقُ الصّحاصِمُ
فما أنا من رُزءٍ وإنْ جلّ، جازعٌ ولا بسُرورٍ بعد موتِكَ فارحُ
كانَ لم يُمتَ حيٌّ سواكَ ولمْ تُقمِ على أحدٍ إلاّ عليكِ النّوائِمُ !
وقال ابن المعتزّ :

كَمَا يُخْلَقُ الثّوبُ الجَدِيدُ ابتذالُهُ كَذَا يُخْلَقُ المَرءُ العَيُونُ الطّوامِحُ
ومن هذا قولهم : طُولُ المُجَالَسَةِ يُخْلِقُ . وقد قال أزدشير لابنه : لا تمكّن
النّاسَ من نفسِكَ : فإنّ أجراً النَّاسِ على الأسود أكثرُهُم لها معاينة !
وقال أبو بكر بن النطّاح في المدح :

يَتَلَقَّى النّدى بوجهِ حَيٍّ وصُدورَ القنَى بوجهِ وقّاحِ
هكذا هكذا تكونُ المعالي : طرُقُ الجَدِّ غيرُ طرُقِ المُزاحِ !
والبيت الثاني ذهب مثلاً سائراً . وقال مجد الدين الاربلي :

طَرَفِي وقلبي : ذا يَسيلُ دِماً، وذا بين الوريّ أنتَ العَليمُ بقرحِهِ
وهما بحُبِّكَ شَهِدَانِ وإنّما تعديكُ كلٌّ منهما في جرحِهِ
ونحو هذا من التوجيه قول الآخر :

رُزْتُ الامامَ الشّافعيّ ولمْ أَكُنْ يوماً زيارةَ قَبْرِه بالتّارِكِ
فوجدتُ مَولايَ الحبيبَ يزورهُ فظفرتُ عندَ الشّافعيّ بِمالِكِ
وقول الآخر :

وعاطيتُهُ عِلْمَ البَدِيعِ وخَدَّهُ يُعَلِّمُنِي تَلْوِينُهُ عِلْمَ جَابِرِ
وصفحتُ من شوقي مُدَوّنةَ الرّضَى لثَغْرِ فافتاني بنصِّ الجواهرِ
وقول الآخر :

لا غرورَ أن يَصَلَى الفؤادُ ببُعدِكُم ناراً تُؤجّجُها يَدُ التّذكّارِ :

فيه وكلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ !

وَلَكِنْ لَعَيْنِي بِالصَّبَابَةِ تَبْرِيحُ
فِيَقْبِلُ فِي آثَارِهِ وَهُوَ مَطْرُوحُ
يُصَدِّقُ فِي أَقْوَالِهِ وَهُوَ مَجْرُوحُ

تَحْكِيمَ نَارِ هَوَاهُ بَيْنَ جَوَانِحِي
كَيْفَ الْخِلَاصُ لَطَائِرٍ مِنْ جَارِحِ ؟

عَلَى الدَّهْرِ لَا أَبْغِي عَلَيْهِ بَدِيلًا
فَمَنْ شَاءَ يُبْصِرْ مَالِكًا وَعَقِيلًا
وَتَقْدِّمَ لَنَا هَذَا الْمَعْنَى فِي حَرْفِ النَّاءِ، مُسْتَوْفَى، وَسَنُعِيدُ مِنْهُ كَثِيرًا .

تَحْكِي وَقَدْ مَاسَتْ أَمَامَ الرِّيَّاحِ
شَقَائِقُ النُّعْمَانِ فِيهَا جِرَاحُ

وَشَيْءُ الرَّبِيعِ، وَقَتْلَاهَا مِنَ الثَّمَرِ
تَدْرَعُ النَّهْرَ وَاهْتَزَّتْ قَنَا الشَّجَرِ

وَنَحْنُ هَذَا مِنْ حَسَنِ التَّعْلِيلِ فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلِي :

لِرَحْمًا قَدِيمَةً وَإِخَاءَ
فِي الثَّرَى ذَا وَذَاكَ حَلَّ السَّمَاءِ
أَذْنَتْ فِيهِ بِالْحَبِيبِ اللَّقَاءَ
عِنْدَ لُقْيَاهُ فَاسْتَهَلَّتْ بُكَاءَ
يُحْيِي الْوُفُودَ وَالْأَصْدِقَاءَ
نَ لَبُوسًا مِنْ كُلِّ لَوْنٍ رَدَاءَ
وَهُوَ عَلَى بُسْطٍ سُنْدُسٍ خَضْرَاءَ

قَلْبِي إِذَا غِبْتُمْ يُصَوِّرُ شَخْصَكُمْ
وَقَالَ الْآخِرُ فِي هَذَا الْمَعْنَى :

أَلَا إِنَّ حَالِي فِي هَوَاكَ خَفِيَّةٌ
عَجِبْتُ لِدَمْعٍ لَا يَزَالُ مُرَوِّيًا
وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا أَنَّ خَدِّي شَاهِدٌ
وَقَالَ أَيْضًا :

وَمُحْكَمِ اللَّحَطَاتِ فِي مُهْجِ الْوَرَى
جَرَحَ الْفُؤَادَ فَطَارَ مِنْ وَلَعٍ بِهِ
وَمِثْلُهُ أَيْضًا قَوْلُهُ :

أَحَادِثُهُ بِالْفِكْرِ فَهُوَ مُنَادِمِي
تَمْلِكُ قَلْبِي فَهُوَ رَهْنٌ اعْتَقَالِهِ
وَتَقْدِّمَ لَنَا هَذَا الْمَعْنَى فِي حَرْفِ النَّاءِ، مُسْتَوْفَى، وَسَنُعِيدُ مِنْهُ كَثِيرًا .

وَقَالَ الْقَاضِي أَبُو الْفَضْلِ عِيَاضُ رَحِمَهُ اللَّهُ :

أَنْظُرْ إِلَى الزَّرْعِ وَخَامَاتِهِ
كَتِيبَةٍ خَضْرَاءَ مَهْزُومَةٍ
وَمِثْلُهُ قَوْلُ الْآخِرِ :

فَتَحْمُ الشَّقَائِقِ جَرَحَاهَا، وَمَغْنَمُهَا
لَأَجْلِ هَذَا إِذَا هَبَّتْ طَلَائِعُهُ

إِنَّ بَيْنَ الْغَمَامِ وَالزَّهْرِ الْغَضُّ
بَانَ الْإِفُّ عَنِ الْإِفِّهِ فَتَوَارَى
فَإِذَا مَا الْغَمَامُ زَارَتْ جَنَابًا
ذَكَرَتْ عَهْدَهُ الْقَدِيمَ فَحَنَّتْ
فَقَرَى الزَّهْرُ بَارِزًا مِنْ خَبَايَاهُ
بَادِيَ الْبِشْرِ وَالْبَشَاشَةِ جَدَلًا
ثَمَلًا مِنْ شَمُوسٍ شَمْسٍ الضُّحَى

راقصًا والصَّبَا تَهَنِّيهِ وَالْوُ رَقُ غَوَانِي الْقِيَانِ تَشْدُو غِنَاءُ
وما رأيت أحدا ولا أظنه سبقني إلى هذا المعنى، لا تصريحًا ولا تلويحًا.
وقال الحسن بن هانئ :

مازلتُ أَشْرَبُ رَوْحَ الرِّقِّ فِي لَطْفِ وَأَسْتَمِيعُ دَمًا مِنْ غَيْرِ مَجْرُوحِ
حَتَّى اغْتَدَيْتُ وَلِي رَوْحًا فِي جَسَدِي وَالرِّقُّ مُطَرِّحُ جَسْمٍ يَلَا رَوْحِ
وقال أيضًا من هذا المعنى :

أَذْكَى السَّرَاجِ وَسَاقِي الْقَوْمِ يَمْزِجُهَا فَلَاحَ فِي الْبَيْتِ كَالْمِصْبَاحِ مِصْبَاحُ
كِدْنَا عَلَى عَلِمْنَا لِلشَّكِّ نَسْأَلُهُ : أَرَأَيْتَ نَارُنَا أَمْ نَارُنَا الرِّاحُ ؟
وسألتني هذا المعنى مستوفى بعد . وقال ابن الخياط في صفة سحاب :

أَخْفَى مَسَالِكَهَا الظَّلَامُ فَأَوْقَدْتُ مِنْ بَرَقِهَا كَيْ تَهْتَدِي مِصْبَاحًا
وَكُنَّ صَوْتُ الرِّعْدِ خَلْفَ سَحَابِهَا إِذَا وَتَرَ الرِّكَائِبُ صَاحًا
وتقدّم هذا المعنى في حرف الهمزة . وقال عبد الله بن المعتز :

كَأَنَّ سَمَاءَنَا لَمَّا تَجَلَّتْ خِلَالَ نُجُومِهَا عِنْدَ الصَّبَاحِ
رِيَاضُ بَنَفْسٍ خَصِلٌ ثَرَاهُ تَفْتَحُ بَيْنَهُ نَوْرُ الْأَقَامِ
وقال ابن الرِّقَّاق :

فَبَتُّ وَقَدْ زَارَتْ بِأَنْعَمِ لَيْلَةٍ تُعَانِقُنِي حَتَّى الصَّبَاحِ صَبَاحُ
عَلَى عَاتِقِي مِنْ سَاعِدِيهَا حَمَائِلُ وَفِي خَصْرِهَا مِنْ سَاعِدِيَّ شَاهُ
وقال إدريس بن اليماني :

ثَقُلْتُ زُجَاجَاتٍ أَتَتْنَا فَرَعًا حَتَّى إِذَا مَلَأَتْ بِصِرْفِ الرِّاحِ
خَفَّتْ فَكَادَتْ أَنْ تَطِيرَ بِمَا حَوَتْ وَكَذَا الْجُسُومُ تَخِفُ بِالْأَرْوَاحِ
وقال الآخر في وصف الروض :

ورِیَاضٍ مِنْ الشَّقَائِقِ أَضْحَتْ تَتَهَادَى بِهَا نَسِيمُ الرِّیَاحِ
زُرْتُهَا وَالْغَمَامُ يَجِلِدُ مِنْهَا زَهْرَاتٍ تَفُوقُ لَوْنَ الرِّاحِ
قُلْتُ : مَا ذَنْبُهَا ؟ فَقَالَ مُجِيبًا : سَرَقَتْ حُمْرَةَ الْخُدُودِ الْمَلَحَ !

وقال الآخر في زورق :
لَوْ أَبْصَرْتَ عَيْنَاكَ زورَقَ فِتْيَةٍ يُبْذِي لَهُمْ لَمَحَ السُّرُورِ مِرَاحَهُ

وَقَدْ اسْتَدَارُوا تَحْتَ ظِلِّ شِرَاعِهِ
لَحَسْبَتْهُ خَوْفَ الْعَوَاصِفِ طَائِرًا
وقال ابن الرومي :

قالت : عَلا النَّاسَ إِلَّا أَنْتَ قُلْتُ لَهَا:
وقال أبو إسحاق بن الحاج :

يا مالكي بِصَبِيحٍ وَجْهِ حُسْنُهُ
ما شكَّ قَلْبِي فَيْكَ أَنْتَكَ مَالِكُ
وقال سيف الدولة :

لَا أُؤَاخِذُكَ بِالْجَفَاءِ فَإِنِّي
فَجَمِيلُ الْعَدُوِّ غَيْرُ جَمِيلِ
وقال مهيار :

أَذْكُرُونَا مِثْلَ ذِكْرَانَا لَكُمْ
وَارْحَمُوا صَبًّا إِذَا غَنَّى بِكُمْ
وَعَرَفْتُ الْهَمَّ مُذْفَارَقَتُكُمْ

وقال شرف الدين الحموي، شيخ الشيوخ :

حَدِيثِي فِي الْمَحَبَّةِ لَيْسَ يَبْرَحُ :
فَمَا لَكَ مَطْمَعٌ بِبِرَاحِ قَلْبِي
فَكَمْ مِنْ لَائِمٍ أَلْحَى إِلَى أَنْ
فِيَا لِلَّهِ مَا أَشْهَى وَأَبْهَى
لَهُ طَرْفٌ يَقُولُ : الْحَرْبُ أَحْرَى
سَأَلْتُ سِوَارَهُ الْهَثْرِي فَنَادَى
وَمَاسَ مِنَ الْقَوَامِ بِغُصْنِ بَانَ
وَحَيَّانِي بِالْحَظِ مِرَاضٍ
أَعَاتَبُهُ فَلَا يُصْغِي لِعَتْبِي
وقال عبد المحسن الصوري :

وَأَخِرُ مَسَّهُ نُزُولِي بِقَرْحِ

كُلُّ يَمْدُ بِكَاسِ رَاحٍ رَاحَهُ
مَدَّ الْحَنَانُ عَلَى بَنِيهِ جَنَاحَهُ

كَذَاكَ يَسْفُكُ فِي الْمِيزَانِ مَارْجَحًا

أَرْبَى عَلَى فَلَقِ الصَّبَاحِ الْأَوْضَحِ
لَمَّا عُرِفْتُ وَسَامَةً بِالْأَصْبَحِ

وَإِثْقٌ مِنْكَ بِالْوَفَاءِ الصَّرِيحِ
وَقَبِيحٌ الصَّدِيقِ غَيْرُ قَبِيحِ !

رُبَّ ذَكَرِي قَرَّبَتْ مَنْ نَزَحًا
شَرَبَ الدَّمْعَ وَعَافَ الْقَدَحًا
فَكَأَنِّي مَا عَرَفْتُ الْفَرَحًا !

فَدَعْنِي مِنْ حَدِيثِ اللَّوْمِ وَاسْرَحُ
عَنِ الْحُبِّ الَّذِي أَعْيَا وَبَرَّحُ
تَأَمَّكَ مَنْ هَوَيْتُ فَمَا تَفَحَّحُ
وَيَا لِلَّهِ مَا أَحْلَى وَأَمْلَحُ !
وَلِي قَلْبٌ يَقُولُ : الصِّلَحُ أَصْلَحُ
فَقِيرُ وَشَاحِي : اللَّهُ يَفْتَحُ !
إِذَا أَنْشَدْتُ أَعْزَالِي تَرَنَّمُ
صَحِيحَاتِ فَأَمْرَضَنِي وَصَحَّحُ
يَا أَسْلُو فَأَتْرَكُهُ وَأَرْبَحُ

مِثْلَ مَا مَسَّنِي مِنَ الْجُوعِ قَرْحُ

بِتُّ ضَيْفًا لَهُ كَمَا حَكَمَ الدَّ
فَابْتَدَانِي يَقُولُ وَهُوَ مِنَ السَّكْرِ
لِمَ تَعْرِبْتُ ؟ قُلْتُ : قَالَ رَسُولُ
سَافِرُوا تَغْنَمُوا . فَقَالَ : وَقَدْ قَالَ
وَقَالَ ابْنُ الْوَرْدِيِّ :

قَدْ عَجِبْنَا لِأَمِيرٍ ظَلَمَ النَّاسَ وَسَبَّحَ
فَهُوَ كَالْجَزَارِ فِيهِمْ يَذْكُرُ اللَّهَ وَيَذْبَحُ

وقال شهاب الدين الخفاجي، وهو من باب التورية اللطيفة :

وصَفْتُ خَصْرَهُ الَّذِي أَخْفَاهُ رَدْفُ رَاجِحٍ
قَالُوا : وَصِفْ جَبِينَهُ فَقُلْتُ : ذَاكَ وَاضِحٌ !

وقال أيضا، وفيه نحو ما في الذي قبله من التورية :

لِلَّهِ أَيَّامُ الصَّبَا وَالْهَوَى
ذَاكَ زَمَانٌ مَرَّ حُلُوُّ الْجَنَى
وَقَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْحَرِيرِيُّ :

لَزِمْتُ السَّفَارَ وَجُبْتُ الْفَقَارَ
وَحُضْتُ السُّيُوكَ وَرُضْتُ الْخِيُولَ
وَمِطْتُ الْوَقَارَ وَبِعْتُ الْعَقَارَ
وَلَوْلَا الطَّمَامُ إِلَى شَرْبِ رَاحٍ
وَلَا كَانَ سَاقُ دِهَائِي الرِّقَاقَ
فَلَا تَغْضِبُنْ وَلَا تَصْخَبُنْ
وَلَا تَعْجَبُنْ لِشَيْخِ أَبْنٍ
فَإِنَّ الْمُدَامَ تَقْوَى الْعِظَامِ
وَأَصْفَى السُّرُورِ إِذَا مَا الْوَقُورُ
وَأَحْلَى الْغَرَامِ إِذَا الْمُسْتَهَامُ
فَبِحْ بِهَوَاكَ وَبَرْدُ حَشَاكَ
وَدَاوِي الْكُلُومِ وَسَلُّ الْهُمُومِ
وَعِفْتُ النِّفَارَ لِأَجْنِي الْفَرَحِ
لَجَرُّ ذِيُولِ الصَّبَا وَالْمَرَحِ
لِحَسَوِ الْعُقَارِ وَرَشْفِ الْقَدَحِ
لَمَا كَانَ بَاحٍ فَمِي بِالْمَلَحِ
لَأَرْضِ الْعِرَاقِ بِحَمَلِي السُّبْحِ
وَلَا تَعْتَبِينَ فَعُذْرِي وَضَحِ
بِمَغْنَى أَعْنُ وَدَنَ طَفَحِ :
وَتَشْفِي السَّقَامَ وَتَنْفِي التَّرَحِ
أَمَاطَ سَتُورِ الْحَيَا وَطَرَحِ
أَزَالَ اكْتِتَامَ الْهَوَى وَافْتَضَحِ
فَزَنَدُ أَسَاكَ بِهِ قَدْ قَدَحِ
بِيْنَتِ الْكُرُومِ الَّتِي تَقْتَرَحِ

وَحُصَّ الْعَبُوقُ بِسَاقٍ يَسُوقُ
وَشَادَ يُشِيدُ بِصَوْتٍ تَمِيدُ
وَعَاصِرِ النَّصِيمِ الذِّي لَا يُبِيحُ
وَجُّكَ فِي الْمِحَالِ وَلَوْ بِالْمِحَالِ
وَفَارَقَ أَبَاكَ إِذَا مَا أَبَاكَ
وَصَافِرِ الْخَلِيلِ وَنَافِرِ الْبَخِيلِ
وَلِئْذٍ بِالْمَتَابِ أَمَامَ الذَّهَابِ

وقال أيضا :

فكيف أجمعُ بين الرَّاحِ والرَّاحِ ؟
وقد أنارَ مَشِيبُ الرَّأْسِ إصْبَاحِي
روحي بجِسمي وألفاظي بإفْصَاحِي
ولا أَجَلْتُ قِدَاحِي بين أَقْدَاحِ
هَمِّي، ولا رُحْتُ مُرْتَاحًا إِلَى رَاحِ
شَمْلِي، ولا اخْتَرْتُ نَدْمَانًا سِوَى الصَّاحِ
رَأْسِي : فَأَبْغَضْتُ بِهِ مَنْ كَاتَبَ مَاحِ !
مَلَعْنِي : فَسُحِقَا لِي مِنْ لَائِمِ لَاحِ !
بَيْنَ الْمَصَابِيحِ مِنْ غَسَّانِ مِصْبَاحِي
وَالشَّيْبِ ضَيْفٌ لَهُ التَّوْقِيرُ يَاصَاحِ !

وأوردَ الْآمِلَ وَرَدَ السَّمَاحُ
وَأَعْمَلَ الْكُومَ وَسُمِرَ الرَّمَّاحُ
عِمَادُهُ لَا لِادِّرَاعِ الْمِرَاحِ
ولا مَرَادُ الْحَمْدِ رُؤْدُ رَدَاحِ
وَهَمُّهُ مَا سَرَّ أَهْلَ الصَّلَاحِ

وَحُصَّ الْعَبُوقُ بِسَاقٍ يَسُوقُ
وَشَادَ يُشِيدُ بِصَوْتٍ تَمِيدُ
وَعَاصِرِ النَّصِيمِ الذِّي لَا يُبِيحُ
وَجُّكَ فِي الْمِحَالِ وَلَوْ بِالْمِحَالِ
وَفَارَقَ أَبَاكَ إِذَا مَا أَبَاكَ
وَصَافِرِ الْخَلِيلِ وَنَافِرِ الْبَخِيلِ
وَلِئْذٍ بِالْمَتَابِ أَمَامَ الذَّهَابِ

نهاني الشيب عمًا فيه أفرَاحِي
وهل يجوزُ اصطباحٌ من مُعْتَقَةٍ (23)
اليتُ لا خَامِرْتَنِي الْخَمْرُ مَا عَلِقَتْ
ولا أَكْتَسَتْ لِي بِكَاسَاتِ السُّلَافِ يَدُ
ولا صَرَفْتُ إِلَى صَرْفِ مُشْعَشَعَةٍ
ولا نَظَمْتُ عَلَى مَشْمُولَةٍ أَبَدًا
مَاحِ الْمَشِيبِ مِرَاحِي حِينَ خَطَّ عَلَى
وَلَاحِ يَلْحَى عَلَى جَرِّي الْعِنَانِ إِلَى
وَلَوْ لَهَوْتُ وَفَوْدِي شَائِبٌ لَخَفَى (24)
قَوْمٌ سَجَايَاهُمْ تَوْقِيرُ ضَيْفِهِمْ
وقال أيضا :

أَعْدَدَ لِحُسَادِكَ حَدَّ السَّلَاحِ
وَصَارِمِ التَّلْهِوِ وَوَصَلَ الْمَهَى
وَاسْعَ لِلْإِدْرَاكِ مَحَلَّ سَمَا
وَاللَّهِ مَا السُّؤْدُدُ حَسُوُ الطَّلَا
وَاهَا لِحُرِّ صَدْرِهِ وَاسِعٌ (25)

(23) في المقامات (المقامة 24 القطيعة) : وهل يجوز اصطباحي.

(24) في المقامات : لخبأ، أي لخدم وطفى.

(25) في المقامات (المقامة 46 الحلبية) : واهًا لحر واسع صدره.

مَورِدُهُ حُلُوٌّ لِسُؤَالِهِ
 مَا أَسْمَعُ لِلْأَمَلِ رَدًّا وَلَا
 وَلَا أَطَاعَ اللَّهْوُ لِمَا دَعَا
 سَوْدَهُ إِصْلَاحَهُ سِرَّهُ
 وَحَصْلَ الْمَدْحِ لَهُ عِلْمُهُ
 وقال عوف بن محلم :

أَلَا يَا حَمَامَ الْأَيْكَرِ الْفُكَّ حَاضِرٌ
 أَفِقٌ لَا تَنُحُ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ فَإِنَّنِي
 وَلَوْعًا فَشَطَّتْ غُرْبَةً دَارُ زَيْنَبِ
 وزعموا أَنَّهُ خرج مع عبد الله بن طاهر في بعض غزواته، فسمع عبد الله يوما وهما يتسايران صوت حمامة، فأنتشد أبيات عوف المذكورة ثم التفت إلى عوف وقال له : هل حضرك شيء في هذا المعنى وهذه القافية ؟ فقال عوف :

أَفِي كُلِّ عَامٍ غُرْبَةً وَنُزُوحٌ ؟
 لَقَدْ ظَلَمَ الْبَيْنَ الْقَذُوفُ رَكَائِبِي :
 وَأَرَقْنِي بِالرَّيِّ نَوْحٌ حَمَامَةٌ
 عَلَى أَنَّهَا نَاحَتْ وَلَمْ تُدْرِ عِبْرَةٌ
 وَنَاحَتْ وَفَرَخَاهَا بِحَيْثُ تَرَاهُمَا
 عَسَى جُودُ عَبْدِ اللَّهِ أَنْ يَعْكِسَ النَّوَى
 فَإِنَّ الْغِنَى يُدْنِي الْفَتَى مِنْ صَدِيقِهِ
 فرقَّ له عبد الله وصرفه إلى أهله بعتاء جزيك وقال : يصلك عطاؤك كل سنة لموضعك .

وللشعراء، قديما وحديثا، الاكثار من ذكر الحمام، والفواخت، والورشان في أشعارهم واستحسان أصواتها . فمن مستحسن ما للأولين في ذلك قول الشاعر :

سَيَعْنِيكَ عَنْ مِزْمَارِ آلِ مُخَارِقِ
 بِأَيْكَةِ نَظَارِ تَجَاوِبْنِ بِالضُّحَى
 وَبِرَبَطِهِمْ تَغْرِيدُ تِلْكَ الْحَمَائِمِ
 عَلَى شَاهِقَاتِ أَفَلَاتِ نَوَاعِمِ

(26) فيها أيضا : ما مَهر العُورُ مَهور الصَّحاحِ .

وقول الآخر :

لتَغْرِيدِ الْفَوَاحِشِ وَالْحَمَامِ
مِنَ الْفِتْيَانِ مَخْلُوعِ الزَّمَامِ
أَجْبَنَاهَا بِأَعْمَالِ الْمُدَامِ⁽²⁷⁾

وقول أبي صخر :

فَسَجَعُ دُمُوعِي يَسْتَهْلُ وَيَسْتَشْرِي
وَيَبِيعُ لَوَاعِتِ الصَّبَابَةِ فِي صَدْرِي
فِرَاقُ حَبِيبٍ ضَاقَ عَنْ فَقْدِهِ صَبْرِي

وقول الآخر :

لِ غَرِيبًا مِنْ أَهْلِهِ حَيْرَانَا
فَوْقَ أَفْئَانِ تَخْلِكِ الْوَرَشَانَا ؟
رُبَّ صَوْتٍ يُهَيِّجُ الْأَحْزَانَا

دَعَتْ سَاقَ حُرٍّ تَرَحَّةً وَتَرْنُمًا
وَلَا ضَرْبَ صَوَاغٍ بِكَفِّهِ دَرْهَمًا
لِنَائِحَةٍ فِي نَوْحِهَا مُتَلَوِّمًا
تَغْنَتُ عَلَيْهِ مَائِلًا وَمُقَوِّمًا
فَصِيحًا وَلَمْ تَفْغَرْ بِمَنْطِقِهَا فَمَا
وَلَا عَرِيبًا شَاقَهُ صَوْتُ أَعْجَمًا !

حَمَائِمُ بَيْنَهَا فَنَن رَطِيبُ

أَعْلَكَ مِنْ بَرْدِ الْكَرَى بِالتَّنَسُّمِ
تُرْدَدُ مَبْكَاهَا بِحُسْنِ التَّرْنُّمِ

أَحْنُ إِلَى حَوَائِطِ ذَاتِ عِرْقٍ
أَلَمَ بِهَا بِكُلِّ فَتَى كَرِيمٍ
[إِذَا غَنَّتْ عَلَى الْأَغْصَانِ وَرُقْ]

وَلَمَّا دَعَتْ غُورِيَّةَ الْأَيْكِ سَجَّعَتْ
يُذَكِّرُنِي سَجْوِي دُعَاءُ حَمَامَةٍ
بَكَتْ حَزَنًا رُزْءَ الْهَدِيدِ وَشَفَّنِي

أَيُّهَا الْبُلْبُلُ الْمُغَرَّدُ فِي النَخِ
أَفِرَاقًا تَشْكُوهُ أَمْ ظِلْتُ تَدْعُو
هَاجَ لِي شَجْوِكَ الْمُغَرَّدُ شَجْوًا
وقول حميد بن ثور :

وَمَا هَاجَ هَذَا الصَّوْتُ إِلَّا حَمَامَةً
مُحَلَاةً طَوْقٍ لَمْ يَكُنْ بِتَمِيمَةٍ
تَغْنَتُ عَلَى غُصْنِ عِشَاءٍ فَلَمْ تَدْعُ
إِذَا حَرَّكَتَهُ الرِّيحُ أَوْ مَالَ مِيلَةً
عَجِبْتُ لَهَا أَنْتَى يَكُونُ غِنَاؤُهَا
فَلَمْ أَرِ مِثْلِي شَاقَهُ صَوْتُ مِثْلِهَا
وقول الآخر :

وَمِنْ بُسْتَانِ إِبْرَاهِيمَ حَنَّتْ
وقول عدي بن الرقاع :

وَمِمَّا - شَجَانِي أَنْتَنِي كُنْتَ نَائِمًا
إِلَى أَنْ دَعَتْ وَرَقَاءُ فِي غُصْنِ أَيْكَةٍ

(27) هذا البيت ساقط من ب.

فَلَوْ قَبْلَ مَبْكَاهَا بِكَيْتِ صَبَابَةٍ بَسْعُدَيَّ شَفِيتُ النَّفْسَ قَبْلَ التَّنْدُومِ
ولكن بَكَتْ قَبْلِي فَهَيَّجَ لِي الْبُكَاءُ بُكَاهَا فَقُلْتُ : الْفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ !
وقال المجنون :

وَأَدْنَيْتَنِي حَتَّى إِذَا مَا سَبَيْتَنِي بِقَوْلِ يُحِلُّ الْعَصَمَ سَهْلُ الْإِبَاطِحِ
تَجَافَيْتَ عَنِّي حِينَ لَا لِيَّ حِيلَةٌ وَخَلَفْتَ مَا خَلَفْتَ بَيْنَ الْجَوَانِحِ
وزعموا أَنَّ رجلاً دخل بني عامر يسأل عن المجنون، فقليل له إِنَّهُ فِي هَذِهِ الصَّحْرَاءِ قَدْ
اسْتَوْحَشَ، وَإِنَّهُ إِذَا رَأَى نَفَرًا مِنْكَ ؛ وَلَكِنْ إِذَا رَأَيْتَهُ فَاجْلِسْ كَأَنَّكَ لَا تَقْصِدُهُ، فَإِنَّهُ يَجْلِسُ
إِلَيْكَ . فَإِذَا جَلَسَ إِلَيْكَ، فَإِنْ كَانَ عِنْدَكَ شَيْءٌ مِنْ شَعْرٍ بَنِ ذَرِيحٍ، فَادْكُرْهُ فَإِنَّهُ يَصْغِي
إِلَيْكَ . قَالَ : فَفَعَلْتُ ذَلِكَ . فَلَمَّا جَلَسَ إِلَيَّ قُلْتُ : مَا أَشْعَرُ قَيْسَ بْنِ ذَرِيحٍ حَيْثُ يَقُولُ :
وَإِنِّي لَمُفْنٍ دَمْعٌ عَيْنِي بِالْبُكَاءِ حِذَارًا لِمَا قَدْ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنٌ
وَقَالُوا : غَدًا أَوْ بَعْدَ ذَاكَ بَلِيلَةٌ فِرَاقُ حَبِيبٍ بَانَ أَوْ هُوَ بَائِنٌ
وما كُنْتُ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ مَنِيتِي بِكَفَيَّ إِلَّا أَنَّ مَا حَانَ حَائِنٌ
قَالَ : فَبَكَى طَوِيلًا ثُمَّ قَالَ : أَنَا وَاللَّهِ أَشْعَرُ مِنْهُ حَيْثُ أَقُولُ :

أَبَى الْقَلْبُ إِلَّا حُبَّهَا عَامِرِيَّةً لَهَا كُنْيَةٌ عَمْرُوً وَلَيْسَ لَهَا عَمْرُ
تَكَادُ يَدِي تَنْدَى إِذَا مَا لَمَسْتُهَا وَيَنْبُتُ فِي أَطْرَافِهَا الْوَرَقُ الْخَضِرُ
عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا فَلَمَّا انْقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ الدَّهْرُ
ثُمَّ أَوْغَلَ فِي الصَّحْرَاءِ وَتَرَكَنِي، فَانْصَرَفْتُ . فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ رَجَعْتُ فَقُلْتُ : مَا أَشْعَرُ قَيْسًا
حَيْثُ يَقُولُ :

يَبِيتُ وَيُضْحِي كُلَّ يَوْمٍ وَلِيلَةٍ عَلَى مِنْهَجٍ تَبْكِي عَلَيْهِ الْقَبَائِلُ
قَتِيلٌ لِلْبُنَى صَدَّمَ الْحُبُّ قَلْبَهُ وَفِي الْحُبِّ شُغْلٌ لِلْمُحِبِّينَ شَاغِلُ
فَبَكَى أَيْضًا طَوِيلًا ثُمَّ قَالَ : أَنَا وَاللَّهِ أَشْعَرُ مِنْهُ حَيْثُ أَقُولُ :

سَلَبْتُ عِظَامِي لِحُمِّهَا فَتَرَكْتُهَا مُعَرِّقَةً تَضْحَى لَدَيْكَ وَتَخْصِرُ
وَأَخْلَيْتَهَا مِنْ مَخِّهَا فَكَأَنَّهَا قَوَارِيرُ فِي أَجْوَافِهَا الرِّيحُ تَصْفِرُ
إِذَا سَمِعْتَ ذَكَرَ الْفِرَاقِ تَقَطَّعَتْ عَلَائِقُهَا مِمَّا تَخَافُ وَتَحْذَرُ
ثُمَّ قَامَ هَارِبًا وَتَرَكَنِي . فَانْصَرَفْتُ ثُمَّ عَدْتُ مِنَ الْغَدِ فَقُلْتُ : مَا أَشْعَرُ قَيْسًا حَيْثُ يَقُولُ :
هَبُونِي أَمْرًا إِنْ تَحْسَنُوا فَهُوَ شَاكِرٌ لِذَاكَ وَإِنْ لَمْ تَحْسَنُوا فَهُوَ صَافِحٌ

فَإِنْ يَكُ قَوْمٌ قَدْ أَسَاؤُوا بِهِجْرَنَا فَإِنَّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ صَالِحٌ
فَبِكَيْ أَيْضًا طَوِيلًا ثُمَّ قَالَ : أَنَا وَاللَّهِ أَشْعَرُ مِنْهُ حَيْثُ أَقُولُ : وَأَدْنَيْتَنِي حَتَّى إِذَا مَا
سَبَيْتَنِي (الْبَيْتَيْنِ) . ثُمَّ فَرَّ عَنِّي وَانصَرَفْتُ . وَعَدْتُ مِنَ الْغَدِ فَلَمْ أَجِدْهُ ، فَأَخْبِرْتُ قَوْمَهُ
فَانْطَلَقُوا يَطْلُبُونَهُ فَوَجَدُوهُ بَعْدَ يَوْمَيْنِ مَيِّتًا فِي شَعْرَاءَ ، بَيْنَ حَجْرَيْنِ .

قُلْتُ : وَفِي الْبَيْتَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ قَالَ جَرِيرٌ ، لَمَّا أَنْشَدَهُ إِيَّاهُمَا بَعْضُ أَصْحَابِهِ وَهُمَا مُتَوَجِّهَانِ
إِلَى الشَّامِ : لَوْ كَانَ النِّخِيرُ يَصْلُحُ لَنَخَرْتُ حَتَّى يَسْمَعَنِي هِشَامٌ عَلَى سَرِيرِهِ مِنْ هَاهُنَا !
وَقَالَ ابْنُ الدَّمِينَةِ :

أَلَا يَا حِمَى وَادِي الْمِيَاهِ قَتَلْتَنِي أَبَا حَكَّ لِي قَبْلَ الْمَمَاتِ مُبِيحِي
وَلِي كِبْدٌ مَقْرُوحَةٌ مِنْ يَبِيعُنِي بِهَا كِبْدًا لَيْسَتْ بِذَاتِ قُرُوحٍ
أَبَى النَّاسَ رَيْبَ النَّاسِ لَا يَشْتَرُونَهَا وَمَنْ ذَا الَّذِي يَشْرِي دَوَى بِصَحِيحٍ ؟
وَالدَّوَى : الْمَرِيضُ الشَّدِيدُ الْمَرَضِ ، وَالْمَرَضُ الشَّدِيدُ أَيْضًا ، وَالْأَحْمَقُ .
وَيُنْشَدُ هَذَا الشَّعْرُ أَيْضًا ، عَلَى إِسْقَاطِ الْبَيْتِ الْأَوَّلِ وَزِيَادَةِ آخِرِ وَهُوَ :

أَتْنُ مِنَ الشَّوْقِ الَّذِي فِي جَوَانِحِي أَنِينٌ غَصِيصٌ بِالشَّرَابِ جَرِيحٌ
وَيُحْكِي عَنْ إِبْرَاهِيمَ الْمُوصِلِيِّ ، الْمَغْنِيِّ الْمَشْهُورِ ، أَنَّهُ قَالَ : سَأَلْتُ الرَّشِيدَ أَنْ يَهَبَ لِي يَوْمًا
أَخْلُو فِيهِ بِنَفْسِي - وَكَانَ أَمْرُهُ أَنْ لَا يَتَغَيَّبَ عَنْهُ يَوْمًا أَصْلًا - قَالَ : فَقَالَ لِي إِنِّي أَسْتَقِلُّ
يَوْمَ السَّبْتِ ، فَأَلَّهُ فِيهِ بِمَا شِئْتُ ! قَالَ : فَأَعَدَدْتُ يَوْمًا شَرَابًا وَأَطْعَمَةً مَنُتَخَبَةً ، وَأَصْبَحْتُ
عَازِمًا عَلَى أَنْ لَا أَدْنَ لِأَحَدٍ . فَأَمَرْتُ الْبُؤَابَّ بِإِغْلَافِ الْأَبْوَابِ وَجَلَسْتُ وَحَوْلِي جَوَارِيٌّ وَالْخُدَمُ
يَتَرَدَّدُونَ بَيْنَ يَدَيَّ ، فَإِذَا أَنَا بِشَيْخٍ ذِي هَيْئَةٍ وَجَمَالٍ حَسَنِ الثِّيَابِ بِيَدِهِ عَكَازَةٌ مَقْمَعُهُ
بِفَضَّةٍ ، وَقَدْ سَطَعَ مِنْهُ رِيحُ الْمَسْكِ حَتَّى مَلَأَ الْبَيْتَ . قَالَ : فَامْتَلَأْتُ غِيظًا عَلَى الْبُؤَابَّ
وَعَزَمْتُ عَلَى عَقُوبَتِهِ . فَسَلَّمَ عَلَيَّ الشَّيْخُ بِأَحْسَنِ السَّلَامِ ، فَرَدَدْتُ عَلَيْهِ وَأَمَرْتُهُ بِالْجُلُوسِ .
فَجَلَسَ فَأَخَذَ فِي أَحَادِيثِ الْعَرَبِ وَذَكَرَ أَيْامَهَا وَأَشْعَارَهَا حَتَّى أَذْهَبَ مَا بَقَلْبِي . وَقُلْتُ : لَعَلَّ
الْبُؤَابَّ عَرَفَ أَدْبَهُ فَأَرَادَ مَسَرَّتِي بِهِ ، فَقُلْتُ لَهُ : هَلْ لَكَ فِي الطَّعَامِ ؟ فَأَبَى . فَقُلْتُ : هَلْ لَكَ
فِي الشَّرَابِ ؟ فَقَالَ : مَا أَكْرَهُهُ . فَشَرِبْتُ وَسَقَيْتُهُ ، فَقَالَ : يَا أَبَا اسْحَاقَ ، وَهَلْ لَكَ أَنْ تَغْنِيَّ لَنَا
مِنْ صَنَعَتِكَ ؟ فَقَدْ نَبَغْتَ فِيهَا عِنْدَ الْخَاصِّ وَالْعَامِّ ، وَأَحْسَنَ فِيهَا مَا اسْتَطَعْتَ حَتَّى
نَكَافُوكَ بِمِثْلِهَا ! فَأَخَذْتُ الْعُودَ وَغَنَيْتُهُ أَصْوَاتًا حَسَنًا ، فِي كُلِّهَا يَقُولُ : أَحْسَنْتَ يَا
سَيِّدِي ! وَيَطْرِبُ وَيَسْتَرِيدُنِي . ثُمَّ وَضَعْتُ الْعُودَ فَقَالَ : أَتَأْذُنَ لِعَبْدِكَ فِي الْغَنَاءِ ؟

فاستصعبت، لكنني أذنت له . فلما أخذ العود وجسّه خلته، واللّه، ينطق بلسان عربيّ .
ثمّ اندفع يغني :

ولي كَبِدٌ مَّقْرُوحَةٌ من يَبِيعُنِي

إلى آخر الأبيات الثلاثة المتقدّمة . فواللّه لقد ظننت أنّ الحيطان والأبواب وكل ما في
البيت يغنيّ معه، حتّى خلت عظامي وثيابي تجاوبه، وبقيت مبهوتا لا أستطيع الكلام
لِمَا خالط قلبي . ثمّ غنّى :

ألا يا حمامات اللّوى عُدْنَ عودُهُ فإِنِّي إلى أصواتكُنَّ حَزِينُ
فعُدْنَ فلما عُدْنَ كِدْنَ يُمَتَّنِنِي وكِدْتُ بأسراري لهُنَّ أَبِينُ
دَعَوْنَ بترديدِ الهديرِ كأنّما شَرِبْنَ الحُمِيَّ أو بهنَّ جُنُونُ
فلم ترَ عَيْنِي مثلهُنَّ حمائمًا بَكَيْنَ ولم تَدْمَعْ لهُنَّ عُيُونُ
فكاد، واللّه، عقلي يذهب طربا وارتياحا لِمَا سمعت . ثمّ غنّى :

ألا يا صبا نجدٍ متى هِجَت من نجد ؟ فقد زادني مَسْرَاك وجدًا على وجد
لقد زعموا أنّ المُحِبَّ إذا دَنَا يَمَلُّ وأنّ النَّائِي يَشْفِي من الوجد
بكلِّ تداوينا فلم يَشْفَ ما بنا على أنّ قُرب الدّار خيرٌ من البُعد
على أنّ قُرب الدّار ليس بِنافعٍ إذا كان من تهوّه ليس بذِي وَدٍ
ثمّ قال : يا إبراهيم، هذا الشعر الماخوري، فأنحُ نحوه في غنائك، وعلمّه جواريك !
فقلت : أعِدّه عليّ ! فقال : لست تحتاج إلى إعادته . فغاب عن بصري، فارتعت وقمت
إلى السَّيف فجرّدته وعدوت نحو الباب، فوجدته مغلقا . فسألت البوّاب عن الشيخ فقال :
واللّه ما دخل عليّ اليوم أحد ! فرجعت متحيّرا، فإذا هو هتف بي من بعض جوانب
البيت: لا بأس عليك، أبا إسحاق ! فقال هو إبليس اخترت منادمتك اليوم، فلا ترع ! قال
إبراهيم : فركبت من فوري إلى الرشيد وقلت : لا أظرفه بطريقة أحسن من هذه ! فلما دخلت
حدّثته الحديث، فقال : ويحك، غنّ لي ما غنّاك ! فأخذت العود وغنّيتها إيّاها، كأنّها
من محفوظاتي . فطرب الرشيد وجلس للشرب، ولم يكن عزم عليه، وأمر لي بصلة وقال :
الشيخ كان أعلم، حيث قال إنّك أخذتها . فليته متّعنا بنفسه يوما كما أمتعك ! انتهى .
قوله الماخوري : هو نسبة إلى الماخور، وهو بيت الريبة معرّب . وقيل إنّّه عربيّ، من مخرت
السفينة الماء، لتردّد النَّاسِ إليه . وقال [ابن] عبد المنان :

صَبَحَتْهُ عِنْدَ الْمَسَاءِ فَقَالَ لِي : ماذا الصَّبَاحُ وظنَّ ذاك مُزَاحًا
فأجَبَتْهُ : إِشْرَاقُ وَجْهِكَ غَرَّنِي حَتَّى تَوَهَّمْتَ الْمَسَاءَ صَبَاحًا
وسبب قوله هذا [الشعر] أَنَّهُ دَخَلَ، وهو ثَمَلٌ، على السلطان أحمد المريني عَشِيَّةً،
فصَبَحَحه. فنظر السلطان إليه نظر منكر، وقال له : أَيَّ وَقْتِ هَذَا ؟ وَأَيَّ مَعْنَى لِلصَّبَاحِ فِيهِ ؟
فَأَفَافَ مِنْ سَكَرِهِ وَأَنشَدَ مَا مَرَّ ارْتَجَالًا، وهذه بديهة لا بأس بها.

ومثله ما يُحْكِي أَنَّهُ وَقَعَ لِيَحْيَى بْنِ أَكْثَمٍ، وكان الأمين بن الرشيد شرب يوماً مع عبد
اللَّهِ بِظَاهِرٍ، ومعهما يَحْيَى . فتغامزا عليه، وأمر السَّاقِي فَأَكْثَرَ لَهُ حَتَّى أَسْكَرَهُ . وكان بين
أَيْدِيهِمْ رَدَمٌ مِنْ رِيَّاحِينَ . فَأَمَرَ يَحْيَى فَدَفَنَ فِيهِ، وأمر قَيْنَةً أَنْ تَغْنِيَ عِنْدَ رَأْسِهِ بَيْتَيْنِ
عَمَلُهُمَا . فَغَنَّتْ :

نَادَيْتُهُ وَهُوَ مَيِّتٌ لَا حَرَكَاتَ بِهِ مُكَفَّنٌ فِي ثِيَابٍ مِنْ رِيَّاحِينَ
فَقُلْتُ : قُمْ ! قَالَ : رَجُلِي لَا تَطَاوَعُنِي وَقُلْتُ : خُذْ ! قَالَ : كَفَّيَّ لَا تَوَاتِينِي
فانتبه يحيى لصوت العود وصوت الجارية، فأخذ العود منها وغنَّى :

يَا سَيِّدِي وَأَمِيرَ النَّاسِ كُلِّهِمْ قَدْ جَارَ فِي حُكْمِهِ مَنْ كَانَ يَسْقِينِي
إِنِّي غَفَلْتُ عَنِ السَّاقِي فَصَيَّرَنِي كَمَا رَأَيْتَ سَلِيبَ الْعَقْلِ وَالْدِّينِ
لَا أَسْتَطِيعُ نُهُوضًا قَدْ وَهَى بَدَنِي وَلَا أَجِيبُ لِدَاعٍ حِينَ يَدْعُونِي !
وقال أبو الفتح البستي :

أَفِدْ طَبْعَكَ الْمَكْدُودَ بِالْجَدِّ رَاحَةً يُجَمُّ وَعَلَّاهُ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَزْحِ
وَلَكِنْ إِذَا أُعْطِيَتْهُ الْمَزْحُ فَلْيَكُنْ بِقَدْرِ الَّذِي يُعْطَى الطَّعَامُ مِنَ الْمَلْحِ
وقال آخر في معناه :

مُضَازِحَةُ الصَّدِيقِ تَزِيدُ وَدَّاءَ إِذَا كَانَتْ تُضَافُ إِلَى الْمَلَاحَةِ
فَمَازِحٌ مِنْ تَحَبٍُّّ وَتَمَنُّطٍ فِيهِ فَمَزْحُكَ مَعَ صَدِيقِكَ فِيهِ رَاحَةٌ
وقال الآخر في المدح :

إِذَا نَزَلَ الضَّيْفُ لَيْلًا بِهِمْ رَأَى أَوْجُهًا لَامَ مِنْهَا الصَّبَاحُ
كَرَامُ الْوُجُوهِ لِمَنْ أَمَّهُمْ وَعِنْدَ وَجُوهِ الْكِرَامِ السَّمَاحُ
وهذا من العكس، وهو عند أهل البديع قسمان : تعاكس الكلم وتعاكس الحروف .

فمن الأوَّل في النثر قولهم : عَادَاتُ السَّادَاتُ سَادَاتُ الْعَادَاتِ ؛ وقولهم : عقولُ الملوك

ملوكُ العقول ؛ وكلام الملوك ملوك الكلام ؛ وقول بعضهم ، وقد قيل له لا خير في السرف ، لا سرفَ في الخير ، ونحو هذا . وفي الشعر ما مرَّ وقول صاحب الحليَّة :

خَيْرُ اللَّيَالِي لِيَالِي الْخَيْرِ فِي إِضْمٍ والقومُ قد بلغُوا أَقْصَى مُرَادِهِمْ
وقول أبي الطيب :

فَلَا مَجْدٌ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ وَلَا مَالٌ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ
وقول ابن جابر :

عَطَفْتُ قَدَّهَا النَّصِيرَ فَقَالَتْ : هَلْ رَأَيْتُمْ لِحُسْنِ هَذَا نَظِيرًا ؟
بَذَلْتُ لِلْمُحِبِّ يَوْمَ وَصَالٍ فَرَأَيْنَا وَصَالَ يَوْمٍ كَثِيرًا
ونحوه وهو كثير .

ومن الثاني في النثر كقوله تعالى : كُلُّ فِي فَلَكٍ ؛ وقوله تعالى : وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ؛
وقول العماد الاصبهاني للقاضي الفاضل : سرِّ ، فلا كِبَايِكَ الْفَرَسُ ! وقول بعضهم :
سُورُ حَمَاةٍ بَرَبِّهَا مَحْرُوسٌ ؛ وقولك : أرض خضراء ورمحٌ أحمر ، ونحو ذلك وهو كثير .
ومن الشعر قول الشاعر :

مَوَدَّتُهُ تَدُومُ لِكُلِّ هَوٍ وَهَلْ كُلُّ مَوَدَّتِهِ تَدُومُ ؟
ومن النوع الأوَّل قولِي في أبيات :

نَتَائِجُ أَبْنَاءِ كِرَامٍ غَطَّارٍ كِرَامُ بَنِينَ مَاجِدِينَ كِبَارٍ
وقول الآخر :

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يُمْدَحْ بِحُسْنِ فَعَالِهِ فَمَا دَحَهُ يَهْذِي وَإِنْ كَانَ يُفْصَحُ
وقول الآخر في معناه :

وَمَا شَرَفٌ أَنْ يُمْدَحَ الْمَرْءُ نَفْسَهُ وَلَكِنْ أَعْمَالًا تُدَمُّ وَتُمْدَحُ
وقول الآخر ، ويروى لابن الفارض ، رضي الله عنه :

خَلِيلِيَّ إِنْ زُرْتُمَا مَنَزَلِي وَلَمْ تَرِيَاهُ فَسِيحًا فَسِيحًا
وَإِنْ رُمْتُمَا مَنَاطِقِي مِنْ فَمِي وَلَمْ تَرِيَاهُ فَصِيحًا فَصِيحًا
وقول أبي بكر بن عمَّار في الاستعطاف :

سَجَايَاكَ إِنْ عَافَيْتَ أَنْدَى وَأَسْمَحَ وَعُذْرَكَ إِنْ عَاقَبْتَ أَجْلَى وَأَوْضَحَ
وَإِنْ كَانَ بَيْنَ الْخُطَّتَيْنِ مَزِيَّةٌ فَأَنْتَ إِلَى الْأَدْنَى مِنَ اللَّهِ أَجْنَحَ

وقال أبو عيسى بن لبون في النسب :
سقى أرضاً نووها كلُّ مَزنٍ
فما ألوى بهم ملكٌ ولكنْ
سأبكي بعدهم حزنًا عليهم
وقال أيضا :

يا ربَّ ليك شربنا فيه صافيةً
ترى الفراشَ على الأكواسِ ساقطةً
وقال أبو محمد بن عبدون :

سقاها الحيا من مغانٍ فِساحٍ
وحلّى أكاليك تلكَ الرُّبى
فما أنسَ لا أنسَ عهدي بها
ونومي على حبرات الرياضِ
ولم أعطِ أمرَ النُّهى طاعةً
وليك كرجعة طرف المريبِ
وقلت أنا :

أم والمُهيمينِ إنني من بعدكم
أوديتُم بمحبكم من بعدكم
قد كان فيهم أعصرًا بوصالهم
فكأنني صبرًا سقيتُ فكيف لي
وقلت أيضا :

نقل النّسيمُ عن الأراكِ مُحدثًا
وحديثه المرويُّ أنَّ رضابهُ
صدقا أحاديثُ الصّحيح قد اعتلت

وقال بعض السّادات الصوفية، رضي الله عنهم :

قد كنت أحسبُ أنَّ واصلك يشتري
حتّى رأيتك تجتبي وتخصُّ من

وسايرهم سرورٌ وارتياحُ
صروفُ الدهرِ والقدرُ المتاحُ
بدنعمٍ في أعنته جِماحُ

حمراء في لونها تنفي التّباريحاً
كأنما أبصرتُ منها مصابيحاً

فكم لي بها من معانٍ فصاحٍ ؟
ووشى معاطيف تلك البيطاحِ
وجريّ فيها ذيُولُ المراحِ
يجاذبُ بُردِيَّ مرُّ الرّياحِ
ولم أصغر سمعاً إلى لحي لاهٍ
لم أدركه شفقاً من صباحِ

لكطائرٍ قد قدَّ منه جناحُ
أو ليس فيه على المضرّ جناحُ ؟
قد طبن رَوْحٌ للنّفوس وراحُ
صبرٌ وقد زمّوا المطيّ وراحوا ؟

عن ثغر سلمى الأشنب الوضاحِ
عسلٌ ومسكٌ شوباً بالراحِ
عن ربيّةٍ تُعزّي لها من لاهٍ

بنفائس الأمـوال والأرواحِ
تختاره بنفائس الأرباحِ

فَعَلِمْتُ أَنَّكَ لَا تُنَالُ بِحِيلَةٍ . وَلَوِيتُ رَأْسِي تَحْتَ طَيِّ جَنَاحٍ
وَجَعَلْتُ فِي عَشَى الْغَرَامِ إِقَامَتِي وَفِيهِ تَحَوُّلِي وَرَوَاحِي
وَقَالَ آخِرُ :

أَبَدًا تَحْنُ إِلَيْكُمْ الْأَرْوَاحُ وَوَصَالُكُمْ رِيحَانُهَا وَالرَّاحُ
وَقُلُوبُ أَهْلِ وَدَادِكُمْ تَشْتَاقُكُمْ وَإِلَى كَمَالِ جَمَالِكُمْ تَرْتَاحُ
وَارْحَمَةَ الْعَاشِقِينَ تَحْمَلُوا وَالْعَوَى فَضَّاحُ
بِالسَّرِّ إِنْ بَاحُوا تَبَاحَ دِمَاؤُهُمْ وَكَذَا دِمَاءُ الْبَائِحِينَ تَبَاحُ !
وَقَالَ الْآخِرُ :

رَاحُوا فَبَانَتْ رَاحَتِي مِنْ رَاحَتِي صَفْرًا وَأَضْحَى حُبُّهُمْ لِي رَاحًا
فَتَحُوا عَلَى الْقَلْبِ الْهُمُومَ وَابَابِ السُّرُورِ وَضَيَّعُوا الْمَفْتَاحَا
وَقَالَ بِشَارُ :

خَلِيلِيَّ مَا يَالِ الدُّجَى لَا تَزْحَرْحُ وَمَا لِعَمُودِ الصُّبْحِ لَا يَتَوَضَّحُ ؟
أَضَلَّ النَّهَارُ الْمُسْتَنْيرُ طَرِيقَهُ ؟ أَمْ الدَّهْرُ لَيْلٌ كُلُّهُ لَيْسَ يَبْرَحُ ؟
وَطَالَ عَلَيَّ اللَّيْلُ حَتَّى كَانَتْهُ بَلِيلِينَ مَوْصُولٌ فَمَا يَتَزَحَرْحُ !
وَاعْلَمْ أَنَّ لِلشَّعْرَاءِ فِي اللَّيْلِ ، قَدِيمًا وَحَدِيثًا ، مَقْصِدَيْنِ مُخْتَلَفَيْنِ لِبَاعِثَيْنِ مُتَبَايِنَيْنِ :
فِتَارَةٌ يَسْتَطِيلُونَهُ وَيَسْتَبْطِئُونَ الْإِصْبَاحَ ، وَذَلِكَ لِأَجْلِ الْإِخْتِنَاقِ ، بِتَبَارِيحِ الْأَشْوَاقِ ، عِنْدَ
اِحْتِسَاءِ كَأْسِ الْفِرَاقِ ، الْمَرَّةَ الْمَذَاقِ ؛ وَتَارَةٌ يَسْتَقْصِرُونَهُ وَيُودُّونَ أَنْ لَوْ دَامَ ، وَذَلِكَ عِنْدَ
اجْتِنَاءِ ثَمَرَاتِ الْوَصَالِ ، وَالِاشْتِعَالِ بِلِذَاتِ الْإِقْبَالِ . فَمَنْ الْأَوَّلُ قَوْلُ مَهْلِكِ :

أَلَيْتَنَا يَذِي حُسْمٍ أَنْيِرِي إِذَا أَنْتَ انْقَضَيْتَ فَلَا تَحُورِي !
وَلَمْ يَحْضُرْنِي لَمَنْ قَبْلَهُ شَيْءٌ فِي هَذَا الْبَابِ . وَقَوْلُ امْرِئِ الْقَيْسِ :

وَلِيكَ كَمُوجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُولُهُ عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لِيَبْتَلِي
فَقُلْتُ لَهُ لِمَا تَمْطِي بِجَوْزِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءَ بِكُلِّكَ :
أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا أَنْجَلِي بِصُبْحِهِ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْتِكَ
فِيَالِكَ مَنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نَجُومَهُ بِكُلِّ مُغَارِ الْفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُكَ
كَأَنَّ الْبُثْرِيَا عَلَّقَتْ فِي مَصَامِيهَا بِأَمْرَاسِ كَتَانٍ إِلَى صَمٍّ جَنْدَلٍ

وقوله أيضا :

أَعِنِّي عَلَى التَّهَمَامِ وَالذِّكْرَاتِ يَبْتَثْنُ عَلَى ذِي الْهَمِّ مُعْتَكِرَاتِ
بَلَايَ التَّمَامِ أَوْ وَصِلْنَ بِمَثَلِهِ مُقَايَسَةَ أَيَّامُهَا نَكَرَاتِ
وهو أولُ من أبدع في هذا الباب فيما علمنا . وقول النابغة :

فَبْتُ كَأَنِّي سَاوِرَتْنِي ضَيْلَةٌ مِنْ الرُّقْشِ فِي أَنْيَابِهَا السُّمُّ نَاقِعُ
يُسَهِّدُ مِنْ لَيْلِ التَّمَامِ سَلِيمُهَا لَحْيِ النَّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَاقِعُ
تَنَازَرَهَا الرَّاقُونَ مِنْ سُوءِ سُمِّهَا تَطْلُقُهُ طَوْرًا وَطَوْرًا تَرَاوِعُ
وقوله أيضا :

كَلِينِي لَهُمْ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبِ وَلَيْلِ أَقَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ
تَطَاوَلَ حَتَّى قُلْتُ لَيْسَ بِمُنْقَضِ وَلَيْسَ الَّذِي يَرعى النُّجُومَ بِأَتِيبِ
وَصَدْرُ أَرَاخِ اللَّيْلِ عَازِبَ هَمِّهِ تَضَاعَفَ فِيهِ الْحَزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
وقوله أيضا :

كَتَمْتُكَ لَيْلًا بِالْجُمُومَيْنِ سَاهِرًا وَهَمَّيْنِ هَمًّا مُسْتَكْنًا وَظَاهِرًا
أَحَادِيثُ نَفْسٍ تَشْتَكِي مَا يَرِيبُهَا وَوَرْدُ هُمُومٍ لَنْ يَجِدَنَّ مَصَادِرًا
وقوله أيضا :

أَتَانِي أَبَيْتَ اللَّعْنِ أَنَّكَ لُمْتَنِي وَتِلْكَ اللَّتِي أَهْتَمُّ مِنْهَا وَأُنْصَبُ
فَبْتُ كَأَنَّ الْعَائِدَاتِ فَرَشَنَنِي هَرَّاسًا بِهِ يُعْلَى فِرَاشِي وَيُقْشَبُ
وقول جندح :

فِي لَيْلِ صَوْلٍ تَنَاهَى الْعَرَضُ وَالطُّوْلُ كَأَنَّمَا لَيْلُهُ بِاللَّيْلِ مُوَصُولُ
لَا فَارِقَ الصُّبْحِ كَفِّي إِنْ ظَفِرْتُ بِهِ وَإِنْ بَدَتْ غُرَّةٌ مِنْهُ وَتَحْجِيلُ
لِسَاهِرٍ طَالِ فِي صَوْلٍ تَمَلُّلُهُ كَأَنَّهُ حَيَّةٌ بِالسَّوْطِ مَفْتُولُ
حَتَّى أَرَى الصُّبْحَ قَدْ لَاحَتْ مَخَائِلُهُ وَاللَّيْلُ قَدْ مُزِّقَتْ عَنْهُ السَّرَاوِيلُ
لَيْلٌ تَحِيرُ مَا يَنْحَطُّ فِي جَهَةِ كَأَنَّهُ فَوْقَ مَتْنِ الْأَرْضِ مَشْكُولُ
نَجُومُهُ رُكْدٌ لَيْسَتْ بِزَائِلَةٍ كَأَنَّمَا هُنَّ فِي الْجَوِّ الْقَنَادِيلُ
مَا أَقْدَرُ اللَّهَ أَنْ يُدْنِي عَلَى شَحْطٍ مَنْ دَارَهُ الْحَزْنُ مِمَّنْ دَارَهُ صَوْلُ
اللَّهُ يَطْوِي بِسَاطَ الْأَرْضِ بَيْنَهُمَا حَتَّى يَرَى الرَّبْعُ مِنْهُ وَهُوَ مَأْهُولُ

وقول الحُصْرِيَّ :

يا ليل الصَّبُّ متى غَدُهُ
أقيامُ السَّاعةِ مَوَعيدُهُ ؟
وقول الآخر :

ألا هَلْ على اللَّيْلِ الطَّوِيلِ مُعِينُ
أَكابدُ هذا اللَّيْلَ حتَّى كأنَّما
وتالَّلهِ ما فارقتُكم قاليًا لكم
وقول الآخر :

ما لِنُجُومِ اللَّيْلِ لا تَغْرُبُ
رواكِدٌ ما غَارَ في غَرْبِهَا
وقول العَبَّاسِ بنِ الأَحْنَفِ :

أيُّها الرَّاقدون حولي أعينوني
حدِّثوني عَن النَّهارِ حديثًا
وقال سُويْدُ بنُ أَبِي كاهِلٍ :

وَإِذَا ما قُلْتُ لَيْلٌ قَدْ مَضَى
يَسْحَبُ اللَّيْلُ نُجُومًا ظَلَعًا
ويزجِّيها على إِبْطائِها
وقول ابنِ الرومي :

رَبِّ لَيْلٍ كَأَنَّهُ الدَّهْرُ طَوْلًا
ذِي نُجُومٍ كَأَنَّهُنَّ نُجُومُ الشَّيْبِ
وقول سعيد بن حميد :

يَا لَيْلُ بَلْ يَا أَبَدُ
يَا لَيْلُ لَوْ تَلَقَّي الَّذِي
قَصِرَ مِنْ طَوْلِكَ أَوْ
أَشْكُو إِلَى ظَالِمَةٍ
وَقَفَ عَنْهَا نَاطِرِي
أُنَائِمٌ عَنْكَ غَدُ ؟
الْقَى بِهَا أَوْ تَجِدُ
ضَعْفَ مِنْكَ الْجَلْدُ
تَشْكُو الَّذِي لا تَجِدُ
وَقَفَ عَنْهَا السُّهُدُ

وقول الآخر :

يُخِيلُ لِي أَنَّ سُمْرَ الشَّهْبِ فِي الدُّجَى وَشُدَّتْ بِأَهْدَابِ إِلَيْهِنَّ أَجْفَانُ
وقول الآخر :

رُبَّ لَيْلٍ أَمَدٌ مِنْ نَفْسِ الْعَاشِقِ طَوْلًا قَطَعَتْهُ بِأَنْتِحَابِ
وحديثُ أَلَدٍّ مِمَّنْ نَظَرَ الْوَامِقِ بَدَلَتْهُ بِسُوءِ الْعِتَابِ
وقول ابن شُهَيْدٍ :

وَبِتُّنَا نُرَاعِي اللَّيْلَ لَمْ يَطْوِ بُرْدُهُ وَلَمْ يَجْنِ شَيْبُ الصُّبْحِ فِي فِرْعِهِ وَخَطَا
تَرَاهُ كَمَلِكِ الزَّنَجِ مِنْ فَرَطِ كِبَرِهِ إِذَا رَامَ مَشِيًّا فِي تَبَخُّرِهِ أَبْطَا
مُطَلًّا عَلَى الْآفَاقِ وَالْبَدْرِ تَاجُهُ وَقَدْ عَلَّقَ الْجَوَازَ مِنْ أَذْنِهِ قُرْطَا
وقال بعضهم : كَانَ عَلِيُّ بْنُ الْجَهْمِ يَسْتَنْشِدُنِي شِعْرَ خَالِدِ الْكَاتِبِ ، فَأَنْشُدُهُ فَيَقُولُ : مَا
صَنَعَ شَيْئًا حَتَّى أَنْشُدْتَهُ يَوْمًا لَهُ :

رَقَدَتْ وَلَمْ تَرُثِ لِلْسَّاهِرِ وَلَيْكَ الْمُحِبُّ يَلَا آخِرَ
وَلَمْ تَدْرِ بَعْدَ ذَهَابِ الرُّقَادِ مَا صَنَعَ الدَّمْعُ مِنْ نَاطِرِي
فَقَالَ : قَاتَلَهُ اللَّهُ ، لَقَدْ أَدْمَنَ الرَّمِي حَتَّى أَصَابَ الْغُرَّةَ !
ومن الاعتبار الثاني قول الأعرابي :

وَلَيْكَ لَمْ يُقْصِرْهُ رُقَادُ وَقَصَّرَ طَوْلُهُ وَصَلُّ الْحَبِيبِ
وقول ابن المستوفي :

حَسَدَ الصَّبَاحُ اللَّيْلَ لَمَّا ضَمَّنَا غِيْظًا فَفَرَّقَ بَيْنَنَا دَاعِيَهُ
وقول الآخر :

رَأَيْتُكَ فِي الْمَنَامِ أَقْلَ بُخْلًا وَأَطْوَمَ مِنْكَ فِي غَيْرِ الْمَنَامِ
فَلَيْتَ الصُّبْحَ زَالَ فَلَا نَرَاهُ وَلَيْتَ اللَّيْلَ يَبْقَى أَلْفَ عَامٍ !
وَلَوْ أَنَّ النُّعَاسَ يُبَاعُ حِينًا لِأَغْلَيْتُ النُّعَاسَ عَلَى النَّيَامِ
وقول القاضي الفاضل ، وهو السحر حقًا :

بِتُّنَا جَمِيعًا كَيْفَ شَاءَ الْهَوَى وَرَبَّمَا لَا يُمَكِّنُ الشَّرْمُ
بَوَابُنَا اللَّيْلُ وَقَلْنَا لَهُ : إِنْ غَبَتْ عَنَّا دَخَلَ الصُّبْحُ

وقول عبد الصمد بن المعدل :

أقول وجنح الدجى ملبد
ونحن ضجيعان في مسجد
فيا ليلة الوصل لا تبُعدي
ويا غدُ إن كنت لي راحمًا
وقول الآخر :

شبابُ المرءِ ثوبٌ مُستعارُ
ولأجل الاعتبارين كان قول الأعرابي :

تطاولُ بالفُسْطاطِ ليلي ولم يكن
وقول أبي الوليد بن زيدون :

أجل إن ليلى فوق شاطيء بيطة
وقول عمر بن أبي ربيعة :

فيالك من ليلٍ تقاصرَ طولهُ
ومن الثاني أيضا قول الآخر :

للّه أيامُ الشّبابِ وعَصْرُهُ
ما كان أقصرَ ليله ونهاره
وقول أبي بكر بن دريد :

يا ربّ يومٍ جمعت قُطْرِيَه [لي]
وقد شرح الاعتبارين الوليد بن يزيد في قوله :

لا أسألُ اللهَ تغيّيرًا لِمَا فَعَلْتُ
فالتّليكَ أطولُ شيءٍ حينَ أفقدها
والآخر في قوله :

أخو الهوى يستطيع التّليكَ من أرق
ليكُ الهوى سنّةٌ في الحجّر مدّة
والآخر في قوله :

ليلى وليلى سواءٌ في اختلافهما

يجود بالطُّول لَيْلِي كَلَّمَا بَخِلْتَ
وقول جميع :

وقالوا : لا يَضْرُكُ نَائِيُ شَهْرُ
يطول اليومُ إِنْ شَحَطْتَ نَوَاهَا
وقول بَشَّار :

لا أَظْلِمَ اللَّيْلَ وَلَا أَدْعِي
ليلي كما شَاءَتْ فَإِنْ لَمْ تَجِدْ
تَصَرَّفَ اللَّيْلُ عَلَى حُكْمِهَا
وقول الآخر :

تعالوا أَعِينُونِي عَلَى اللَّيْلِ إِنَّهُ
وقول الآخر :

لَمْ يَطُكْ لَيْلِي وَلَكِنْ لَمْ أَنْمُ
وقول الفرزدق :

يقولون طَالِ اللَّيْلُ وَاللَّيْلُ لَمْ يَطُكْ
وهذا المعنى أكثر من أن يستقصى . وترقى عن الاعتبارين قول بعض العارفين المحبِّين :
لَسْتُ أَدْرِي أَطَالَ لَيْلِي أَمْ لَا
لو تَفَرَّغْتُ لَأَسْتَطَالَ لَيْلِي
إِنَّ لِلْعَاشِقِينَ عَنْ قِصْرِ اللَّيْلِ
وقال ابن حَمْدَيْس الصَّقْلِي فِي مَجُونِهِ :

قَمِ هَاتِيهَا مِنْ كَفِّ ذَاتِ الْوَشَّاحِ
بَاكِرُ إِلَى اللَّذَّاتِ وَارْكَبْ لَهَا
مَنْ قَبْلَ أَنْ تَرشُفَ شَمْسُ الضُّحَى
وقال أيضا :

بَتُّ مِنْهَا مُسْتَعِيرًا قُبْلًا
وَأُرْوِي غُلَّ الشَّقْوِ بِمَا

بِالطُّول لَيْلَى وَإِنْ جَادَتْ بِهِ بَخِلَا

فَقُلْتُ لِصَاحِبَيَّ : فَمَنْ يَصِيرُ ؟
وَحَوْلُ نَلْتَقِي فِيهِ قَصِيرُ

أَنَّ نَجُومَ اللَّيْلِ لَيْسَتْ تَغُورُ
طَالِ وَإِنْ جَادَتْ فَلَيْلِي قَصِيرُ
فَهُوَ عَلَى مَا صَرَفْتَهُ يَدُورُ

عَلَى كُلِّ عَيْنٍ لَا تَنَامُ طَوِيلُ !

وَنَفَى عَنِّي الْكَرَى طَيْفُ أَلَمُ

وَلَكِنْ مَنْ يَبْكِي مِنَ الشَّقْوِ يَسْهَرُ
وهذا المعنى أكثر من أن يستقصى . وترقى عن الاعتبارين قول بعض العارفين المحبِّين :
كَيْفَ يَدْرِي بِذَاكَ مَنْ [] (28)
وَلِرَعْيِ النَّجُومِ كُنْتُ مُخْلَا
وَعَنْ طَوْلِهِ مِنَ الْهَمِّ شُغْلَا

فَقَدْ نَعَى اللَّيْلَ بِشِيرِ الصَّبَاحِ
سَوَابِقَ اللَّهْوِ ذَوَاتِ الْمِرَاحِ
رَيْقَ الْغَوَادِي مِنْ ثُغُورِ الْإِقَامِ !

كُنَّ لِي مِنْهَا عَلَى الدَّهْرِ اقْتِرَاحُ
لَمْ يَكُنْ فِي قُدْرَةِ الْمَاءِ الْقَرَّاحُ

(28) بياض في الأصل.

وقال الآخر :

سَلِ الْمُفْتِيَّ الْمَكِّيَّ هَلْ فِي تَزَاوُرٍ وَضَمَّةٌ مُشْتَاكِ الْفُوَادِ جُنَاحُ
فَقَالَ : مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يُذْهَبَ التَّقَى تَلَاصُقُ أَكْبَادُ بَهْنٍ جِرَاحُ
والمعنى هنا بالمفتي هو عطاء بن أبي رباح، الامام الفقيه المشهور، أحد الكبراء من
التابعين . وكان بمكة مفتيا.

قال شمس الدين بن خلكان في تاريخه : لمَّا بلغه هذان البيتان قال : والله ما قلت شيئاً
من هذا !

وقال فخر الدين التكريتي :

وما ذاتُ طوقٍ في فروجِ أراكَةٍ لها رَنَّةٌ تحت الدُّجَى وصدوحُ
ترامت بها أيدي النُّوى وتمكَّنت لها فِرْقَةٌ من أهلِها ونُزوحُ
فحلتْ بزوراءِ العِراقِ وزُغْبُها بعُسفانٍ ثارٍ منهمُ وطليحُ
تحنُّ إليهم كَلِّمَا ذرٌّ شارقٌ وتسجعُ في جَنَمِ الدُّجَا وتنوحُ
إذا ذكرتهمُ هيَّجتُ ذا بلبِ وكادتُ بمكتومِ الغرامِ تبوحُ
بأبرمٍ من وجدي يذكركمُ متى تألَّقَ برقٌ أو تنسَمَ ريحُ
وقال ابن الزيات :

سَمَاعًا يَا عِبَادَ اللَّهِ مِنِّي وكُفُّوا عَن مَّلاحِظَةِ المِلاحِ
فإنَّ الحُبَّ آخِرُهُ المَنَايَا وآخِرُهُ يَهَيِّجُ بِالْمُزَاحِ (28م)
وقالوا : دَعِ مُرَاقِبَةَ الثَّرِيَا وَنَمِ فَالَلَيْكُ مُسَوِّدُ الجَنَاحِ
فقلتُ : وَهَلْ أَفَاقَ القَلْبَ حَتَّى أَفَرَّقَ بَيْنَ لَيْلِي وَالصَّبَاحِ ؟
وقال مؤيد الدين الموصلي :

يا قالة الشَّعرِ قد نصحتُ لكمُ ولستُ أدهى إلَّا مِن النُّصْحِ
قد ذهب الدَّهرُ بالكرامِ وفي ذاكَ أمورٌ طويِلَةُ الشَّرْحِ
وأنتمُ تمدحونَ بالحُسْنِ والظَّرْفِ وجوهًا في غَايَةِ القُبْحِ
وتطلبونَ السَّمَامَ من رَجُلٍ قَدْ طُبِعَتْ نَفْسُهُ عَلَى الشُّمِّ

(28م) لعن الأصل : «وأوله يهيج بالمزاح».

مِنْ هَاهُنَا تَحْرَمُونَ كَذَكُمْ
صَوْنُوا الْقَوَافِي فَمَا أَرَى أَحَدًا
لَأَتَّكُمْ تَكْذِبُونَ فِي الْمَدْحِ
يَعْتَرُ فِيهِ الرَّجَاءُ بِالنَّجْمِ
فَإِنْ شَكَّكُمْ فِيمَا أَقُولُ لَكُمْ
وَنَحُو هَذَا الْبَيْتَ فِي الْمَعْنَى مَا حُكِيَ أَنَّ بَعْضَ ظُرَفَاءِ السُّوَالِ مَرَّ بِقَوْمٍ يَأْكُلُونَ، فَقَالَ لَهُمْ :
يَا بَخْلَاءُ ! فَأَنْكَرُوا عَلَيْهِ . فَلَمَّا سَمِعَ إِنْكَارَهُمْ قَالَ لَهُمْ : كَذَّبُونِي بِلَقْمَةٍ !
وقال ابن ميادة :

فَنَظَرْنَا مِنْ خِلَالِ الْحِجَالِ بِأَعْيُنٍ
وَأَرْشَنَ حِينَ أَرَدْنَا أَنْ يَرْمِيَنِي
مَرَضَى يُخَالِطُهَا السَّقَامُ صَحَّاحٍ
نَبْلًا بَلَا رِيْشٍ وَلَا بِقَدَاحٍ
وقال آخر يخاطب الناس :

تَبِعْتُمْ السَّابِحَ فِي لُجَّةِ
هَذَا وَأَنْتُمْ غَرَضٌ لِلرَّدَى
وَرُعْتُمْ فِي الْجَوْ ذَاتَ الْجَنَاحِ
فَكَيْفَ لَوْ خَلَدْتُمْ يَا قِبَاحَ ؟
وقال ابن السَّاعَتِي :

وَكَمْ لِي فِيكَ مِنْ عَذَرَاءَ زُفَّتْ
مِنَ الْغَيْدِ الْحَسَنِ بِلَا شَبِيهِ
لَفَهْمَكَ فِي غُدُوٍّ أَوْ رَوَاحٍ
فَكَيْفَ يَفُوتُهَا حَظُّ الْقَبَاحِ ؟
وقال الآخر :

وَإِذَا الْفَتَى مِنْ دَهْرِهِ كَمَلَتْ لَهُ
طَلَعَتْ عَلَيْهِ الْمُخْزِيَاتُ وَقُلْنَا قَدْ
خَمْسُونَ وَهُوَ إِلَى التَّقَى لَمْ يَجْنَحْ
أَرْضَيْتَنَا فَكَذَاكَ كُنْ لَا تَبْرَحْ !
وَإِذَا رَأَى إِبْلِيسُ صَوْرَتَهُ بَدَتْ
وَمِثْلُهُ قَوْلُ التَّهَامِي :

إِذَا بَلَغَ الْفَتَى عَشْرِينَ عَامًا
إِذَا مَا أَوَّلُ الْخَطِيئِ اعْطَى
وَأَعْجَزُهُ الْفَخَارُ فَلَا اعْتِذَارُ
فَمَا يُرْجَى لِأَخْرِهِ انْتِظَارُ
وقول الآخر :

وَصَهْبَاءَ جُرْجَانِيَّةٍ لَمْ يَطْفُ بِهَا
أَتَانِي بِهَا يَحْيَى وَقَدْ نِمْتُ نَوْمَةً
حَنِيفٌ وَلَمْ تَنْغَرْ بِهَا سَاعَةً قِيدَرُ
وَقَدْ غَابَتْ الشَّعْرَى وَقَدْ طَلَعَ النَّسْرُ
فَقُلْتُ اغْتَبَقَهَا أَوْ لَغَيْرِي فَاسْقِهَا
إِذَا الْمَرْءُ وَافَى الْأَرْبَعِينَ وَلَمْ يَكُنْ
فَمَا أَنَا بَعْدَ الشَّيْبِ وَيَنْحَكُ وَالْخَمْرُ
لَهُ دُونَ مَا يَأْتِي حَيَاءٌ وَلَا سِتْرُ

فدعنه ولا تنفَسْ عليه الَّذي ارتأى
وقال الآخر :

وقالوا : في الهِجاء عليكِ إثمٌ ،
لأنِّي إن مدحتُ مدحتُ كِذْبًا
وقال الآخر :

قالوا : تعشَقْتُها عمياءَ قلتُ لهم :
بل زاد وجدي فيها أنّها أبدًا
إنْ يجرح السيفُ مسلولا فلا عجبُ
كأنّما هي بستانٌ خلوتُ به
تفتحُ الوردُ فيه من كمائمه
ومثله قول ابن سناء الملوك :

فتنتني مكفوفةٌ ناظرها
فهني لم تسلك الجفون حُسامًا
وهني بكرُ العينين مُحصنةُ الأجفان
قصرت عشقها عليّ فلم تعد
عميتُ من هواي وارتحل الانسا
علمتُ غيرتي عليها فخافتُ .
وقال ابن قاضي ميلة :

وكيف لا تذكرُك نشوةٌ
لو لم تكن ريقتهُ خمرةٌ
وقال ابن نباتة السعدي :

وغايةُ هذه الدُنْيَا فسادُ
هي الخرقاءُ تنقضُ بعدَ نسجِ
وسياتي هذا المعنى مستوفى في الحكم ، إن شاء الله تعالى .

وقال الآخر - وكان أبو بكر بن دريد يتمك به كثيرا - أو هو قائله :
فواحرنا إن الحياةَ لذيزةٌ

ولو جرَّ أسبابَ الحياةِ له الدهرُ !

وليس الاثمُ إلا في المَديمِ
وأهجو حين أهجو بالصَّحيحِ

ما شأنها ذاك في عيني ولا قدحا
لا تعرف السَّيب في فؤدي إذا وضحا
وإنما العُجبُ سيفٌ مُعمدٌ جرحا
ونام حارسُه سكرانٌ قد طفا
والنرجيسُ الغضُّ فيه بعدُ ما انفتحا

كتبالي من الجراحِ أمانا
لا ولم تخمك الفتورُ سنانا
ما اقتضى ميلها الأجفانَا
شق فلانا إذ لم تعالين فلانا
ن من عينيها وأخلى المكانا
أن تسمي غيري لها إنسانا

واللحظُ راحٌ وجنى الرِّيق راحٌ ؟
لما تننّى عطفه وهو صاحٌ

فكيف نكونُ منها في صلاحٍ ؟
فما فيها لحيٍّ من فلاحٍ

ولا عمك يرضى به اللهُ صالحُ

وقلت أنا :

تصبرُ إن أصابَكَ نَبْلُ عَوْضٍ وضاقَ عليكَ مُتَّسَعُ الْبَرَاكِ
فإنَّ الدَّهْرَ لَيْسَ بِذِي اصْطِبَارٍ عليكَ بِكِ التَّحَوُّلِ وَالْبَرَاكِ
وإنَّ الخُطْبَ أَسْرَعُ مِنْ ذِنَابٍ بِمُنْجَمٍ يَسِيكُ إِلَى سَرَاكِ
وما أَمْرٌ يَضِيقُ عَلَيْكَ إِلَّا بآخِرَةٍ يَصِيرُ إِلَى سَرَاكِ
فَكَمْ أُمْسَيْتَ ذَا حُزْنٍ وَأَصْبَحْتَ تَصْبَحُ مِسْرُورٍ كُؤُوسَ رَاكِ !
العَوْضُ : الدَّهْرُ، كما قال الحماسي :

وَلَوْلَا نَبْلُ عَوْضٍ فِي خُضْمَاتِي وَأَوْصَالِي
لَطَاعَنْتُ صُدُورَ الْخَيْلِ طَعْنًا لَيْسَ بِالْأَلِي

والبراحُ : المُتَّسَعُ مِنَ الْأَرْضِ، لَا زَرْعَ فِيهَا وَلَا شَجَرَ ؛ والبراحُ فِي الْبَيْتِ الثَّانِي :
الزَّوَالُ، مَصْدَرُ بَرَحَ مَكَانَهُ، أَي زَالَ عَنْهُ ؛ وَالذِّنَابُ مَسِيلٌ مَا بَيْنَ التَّلْعَتَيْنِ ؛ وَالسَّرَاكِ
- بِالْيَاءِ، كَالثَّمَانِي - جَمْعُ سِرْحَانٍ وَهُوَ هُنَا وَسَطُ الْحَوْضِ ؛ وَالسَّرَاكِ فِي الْبَيْتِ بَعْدَهُ
الانْسِرَاحُ وَالْانْفِرَاجُ ؛ وَتَصْبَحُ تَسْقِي، تَقُولُ : صَبَحْتُ زَيْدًا إِذَا سَقَيْتُهُ
الصَّبُوحَ، فَهُوَ مَصْبُوحٌ ؛ وَقَوْلِي مِسْرُورٍ أَي مِنَ السَّرُورِ، فَحُذِّقْتَ نُونٌ مِنْ وَهُوَ جَائِزٌ
فَصِيحٌ .

ولنكتف بهذا القدر، واللّه يقول الحقّ وهو يهدي السبيل .

بابُ الخاءِ المُعْجَمَةِ

خُبَاةٌ خَيْرٌ مِنْ يَفْعَةٍ سُوءٍ .

الخُبَاةُ السُّتْرُ، تقول : خَبَاتُ الشيءِ خَبَاً وخَبِيئَةً إذا سَتَرْتَهُ ؛ والخُبَاةُ - على مثالِ هُمَزَةٍ - المرأةُ تلزم بيتها . وفي الصحاح : الخُبَاةُ المرأةُ تطلع ثم تخبىء . واليفع التَّلُّ والمرتفع من الأرض ووصفٌ للغلام . يقال : غلامٌ يَفْعُ - بفتحتين - وَيَفْعَةٌ .

والمعنى أن بنتاً تلزم بيتها تخبأ فيه خَيْرٌ من غلامٍ يَفْعَةٌ لا خير فيه، وهو واضح . والمسوِّغُ الابتداءُ بالنكرة، في هذا وما يشبهه، نحو تَمَرَةٍ خَيْرٌ مِنْ جَرَادَةٍ، القصد إلى العموم، ذكره ابن مالك في شرحه على التسهيل . وهو أحسن من التعبير بأنَّ المسوِّغَ كونه مثلاً، إذ لا يكون مثلاً إلاً بعد حين . وهو مفتقر أولٌ وهلة إلى المسوِّغِ، مع أن كونه مثلاً وإن حصل ابتداءً لا يناسب أن يكون مسوِّغاً بوجه كما لا يخفى، إذ التسويغُ [إنما] هو بالتخصيص أو التعميم المُخْرَجُ للقضية عن الإهمال المحض لفظاً ومعنى . نعم، المعنى قد يفهم بقرائن، وإن لم يكن ثمَّ مُسَوِّغٌ ظاهر فيكفي ذلك، ويمكن أن يدعى أنَّ هذا المثل ونحوه من ذلك . مع أنَّه في مثلنا يدعى أنَّ المسوِّغَ كونُ المُبتدأِ وصفاً لمحذوف هو المبتدأ حقيقة . فإنَّ المعنى امرأةٌ خُبَاةٌ خَيْرٌ من غلامٍ يَفْعَةٌ . وفي المسألة كلام، وليس من غرضنا ولا هذا محلّه .

خَبِطَ خَبِطَ عَشَوَاءُ .

الخَبِطُ : الضَّرْبُ، يقال : خَبِطَ البعيرُ الأرضَ إذا ضَرَبَهَا بِرِجْلِهِ . والعَشَى - بالقصر - سُوءُ البَصَرِ بالليل . يقال : عَشِيَ - بالكسر - يَعْشَى، وَعَشَى أيضاً عَشَى فهو أَعْشَى وهي عَشَوَاءُ . والعشواء في المثل الناقصة الضعيفة البَصَرِ والتي لا

تبصر أمامها، وهي تضرب وتخبط بيديها كل شيء، فيضرب بها المثل . ويقال : خبط فلان هذا الأمر خبطَ عَشْوَاء، وذلك إذا دخل فيه بغير بصيرة، وهو ظاهر .

حَبِيقَةٌ حَبِيقَةٌ، تَرَقَّ عَيْنَ بَقَّةٍ !

الْحَبِيقَةُ - على مثال هِجَفٍ، وعلى مثال فَلِزٍّ - الطويل من الرجال والخيول . وقيل : الْحَبِيقُ من الخيل : السَّريع ؛ وَالْحَبِيقُ أيضا الرجلُ الوثَّاب . وهكذا وقع هذا الكلام في القاموس . والذي في الصحاح : حُرْقَةُ حُرْقَةٍ تَرَقَّ عَيْنَ بَقَّةٍ . والحُرْقَةُ الرجلُ القصير، أو الذي يقارب الخطو لضعف بدنه . يقال : رجل حُرْقٌ - على مثال عَتَلٍ - ورجل حُرْقَةٍ . قال الشاعر في الأوَّل :

حُرْقٌ إِذَا مَا الْقَوْمُ ابْدَوْا فُكَاهَةً تفكَّرَ آيَّاهُ يَعْنُونَ أَمَ قِرْدًا^(١)
وقال امرؤ القيس في الثاني :

وأعجبني مشيُ الحُرْقَةِ خالدٍ كمشي أتانٍ حُلَّتْ في المناهلِ
حُلَّتْ : مُنَعَتْ وطُرِدَتْ ؛ وَالتَّرْقَى : الصُّعُود ؛ وَالبَقَّ : البعوض أو أعظمها . قال ذو الرِّمَّة يذكر خيلا :

قيامًا تَذُوذُ البَقَّ عن نُخْرَاتِها بنهز كإيماء الرُّؤوسِ المَوَانِعِ
النُّخْرَات - بالنون والخاء المعجمة - مخارجُ النَّفْسِ من الأنوف ؛ وَنَهَزَتِ الدَّابَّةُ برأسها إذا ذَبَّتْ به .

وروي في الحديث أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُرْقِّصُ أَحَدَ سِبْطَيْهِ فيقول : حُرْقَةُ حُرْقَةٍ تَرَقَّ عَيْنَ بَقَّةٍ ! فجعله حُرْقَةً لِصِغَرِهِ وقوله : تَرَقَّ، أي اصْعَدَ في النِّمَاء . ويقال أيضا : رجل حَبِيقَةٌ - بالحاء المهملة وبكسرتين، مشددة القاف - أي قصير . ورجل حُبَقٌ - على مثال صُرْدٍ - أي ضعيف العقل . وكذا امرأة حُبَقَةٍ . قال الراجز :

حُبَقَةٌ يَتْبَعُهَا شَيْخٌ حُبَقٌ وَإِنْ يُوفِّقُهَا لَخَيْرٌ لَا تَفِيقُ

(١) البيت لرجل من بني كلاب، وقيله :
وَلَيْسَ بِحَوَّارٍ لِاحْلَاسِ رَجُلِهِ وَمَزُودِهِ كَيْسًا مِنَ الرَّأْيِ أَوْ زُهْدًا

أَخْدَعُ مِنْ ضَبٍّ .

الخَدْعُ : الخَتْلُ . يقال : خَدَعَهُ خَدْعًا إذا خَتَلَهُ وأراد به المكروه من حيث لا يشعر، واختدَعَهُ أيضًا اختدِعا، فانخدَع هو ؛ والاسم الخديعة . والضَّبُّ تقدَّم ما فيه، وهو يوصف بالخديعة والمكر . قال الشاعر :

وأخدَعُ من ضبٍّ إذا جاءَ حارِشٌ أعدَّ له عندَ الذُّنابةِ عقرباً⁽²⁾
وإنَّما قال ذلك لأنَّهم يزعمون أنَّ بين الضَّبِّ والعقرب ألفة، فتأوي إلى جُحره، فمن مدَّ إليه يده لسعته.

قال المبرد في الكامل : العرب تزعم أنَّه ليس من ضبٍّ إلَّا في جحره عقرب . فهو لا يأكل ولد العقرب، وهي لا تضربه، فهي مسالمة له وهو مسالم لها . وأنشد البيت السابق .

مُخْرَنْبِقٌ لِيَنْبَاعٍ .

الآخرنْباقُ : انقِماعُ الرجل المريب، واللصوق بالأرض، والسكوت والاطراق ؛ والانْبِيعاءُ : سِيلان العَرَف . يقال : انباع العَرَف إذا سَالَ، ويقال : انباعت الحيَّة إذا بسطت نفسها بعد تحوُّيها لتساور.

ومعنى مُخْرَنْبِقٌ لِيَنْبَاعٍ : مُطْرَقٌ وسَاكِتٌ لِيَثِبَ إذا أصاب فرصة . والمعنى أنَّه سَاكِتٌ لِدَاهِيَةِ يريدها . يُضرب في الرجل يطيل الصَّمَتَ حتَّى يُحسب مغفلاً وهو ذو نكراء . والمُخْرَنْبِقُ : اللَّصِق بالأرض لينباع ليثب . أو المُخْرَنْبِقُ : السَّاكِت على ربيبة لينباع ليظهر ما طواه من الشرِّ . والمقصد واحد . ويروى : مُخْرَنْبِقٌ لِيَنْبَاعٍ، ومعناه لِيَنْدَفِعَ . وقيل ليأتي بالباطقة، أي الدَّاهية . ويروى لينْبَاعُ - بالمعجمة - أي ليتحرَّك بالشرِّ الذي في طيِّه، فيظهره كأنَّه من تَبَوَّغ الدَّمِّ بمعنى هاج، أو من تَبَوَّغَ زيدٌ إذا غلب .

وفي معنى هذا المثل قول النابغة الذبياني :

لَقَدْ نَهَيْتُ بَنِي ذُبْيَانَ عَنْ أَقْرِ وَعَنْ تَرْفُعِهِمْ فِي كُلِّ أَصْفَارٍ
وَقُلْتُ : يَا قَوْمَ إِنَّ الْلَيْثَ مُنْقَبِضٌ عَلَى بَرَاثِينِهِ لَوَثْبَةِ الضَّارِي

(2) في د : « الذبابة » بدل « الذنابة » .

قوله : عَنْ أَقْرِ هو موضع . وقوله : فِي كُلِّ أَصْفَارٍ هو جمع صَفَرٍ .
 -بالتَّحْرِيك - اسم الشهر ، وكان صَفَرٌ يَوْمُئِذٍ فِي زَمَنِ الرَّبِيعِ ، وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ .
 وأراد بالليث النعمان بن الحارث الأكبر الغساني أو أخاه عمرو بن
 الحارث . وقوله : لِيُوَثِّبَةَ الضَّارِي - بالاضافة - أي لِيُوَثِّبَةَ الْأَسَدِ الضَّارِي . وَيُرْوَى
 لِيُوَثِّبَةَ الضَّارِ ، فيكون الضَّارِي وصفًا لليث .

ومثلك ذلك أيضا قول ابن الرومي :

سَكَّتْ سَكُوتًا كَانَ رَهْنًا بَوْثِبَةً عُفُوسٍ كَذَاكَ اللَّيْثُ لِلْوُثْبِ يَلْبَدُ
 وستأتي أمثال من هذا المعنى كثيرة، وتقدّم بعضها .

تَخْرُسِي يَا نَفْسُ لَا مُخْرَسَ لَكَ .

الخُرس - بالضم - طعام الولادة . قال الرَّاجِزُ :

كُلُّ طَعَامٍ تَشْتَهِي رِبْعَهُ الْخُرْسُ وَالْأَعْذَارُ وَالنَّقِيعَةُ
 والخُرْسَةُ - بالضم - أيضا - طعام النُّفَاسِ نَفْسَهَا . وتقول : خَرَسَتْ عَلَى الْمَرْأَةِ تَخْرِسًا
 إِذَا أَطْعَمَتْ فِي وَلادَتِهَا ، وَتَخْرَسَتْ هِيَ اتَّخَذَتْ ذَلِكَ لِنَفْسِهَا ، وَخَرَسَتْ جَعَلَ لَهَا
 الخُرْسَةُ . قال الهذلي :

إِذَا النُّفَسَاءُ لَمْ تَخْرُسْ بِبِكْرِهَا غُلَامًا وَلَمْ يُسَكَّتْ بِحِثْرِ فَطِيمُهَا
 الْحِثْرُ : الشَّيْءُ الْقَلِيلُ الْحَقِيرُ ، أَيْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَيْءٌ يُسَكَّتُونَ بِهِ الصَّبِيَّ مِنَ الطَّعَامِ وَلَوْ
 قَلِيلًا ، لَشِدَّةَ الْمَجَاعَةِ . وَكَانَتْ امْرَأَةٌ وَلَدَتْ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا مَنْ يَهْتَمُّ بِأَمْرِهَا فَقَالَتْ : تَخْرُسِي
 يَا نَفْسُ لَا مُخْرَسَ لَكَ ! فَذَهَبَ مِثْلًا يُضْرَبُ عِنْدَ اعْتِنَاءِ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ .

خَرْقَاءُ ذَاتُ نَيْقَةٍ .

الخَرْقُ - بِالضَّمِّ - عَدَمُ الرَّفْقِ فِي الْأُمُورِ ، وَعَدَمُ إِتْقَانِ الصَّنْعَةِ ، وَالْحَمَقُ . خَرْقُ
 الرَّجُلِ - بِالْكَسْرِ وَالضَّمِّ - فَهُوَ أَخْرَقَ وَهِيَ خَرْقَاءُ . قَالَ :
 إِذَا كَوَّكَبُ الْخَرْقَاءِ لَاحَ بِسِحْرَةٍ سُهَيْلٌ أَذَاعَتْ غَزْلَهَا فِي الْقَرَائِبِ
 يريد أن المرأة الخرقاء لا تشتغل بالغزل في الصيف ، بل تتماهى على التسويف والتفريط ،
 حتّى إذا طلع سهيل - وذلك حين يقبل البرد - قامت إلى قرائبها ليُعِنَّهَا ، وجعلت

تفرّق بينهما غزلاً . فسمّى سهيلاً بكوكب الخرقاء لهذه العلاقة . وذات بمعنى صاحبة .
والنّيقة - بكسر الأوّل - اسم من التّنوّف . يقال : تنوّف الرجلُ في الشيء
يتنوّفُ إذا تأنّف فيه، أي تخيّر.

والمعنى أنّها خرقاء، ومع ذلك تتأنّف . فيضرب في الجاهل بالشيء يدعي فيه
المعرفة ويتخيّر في الإرادة.

الخرقُ شؤمٌ .

تقدّم أنّ الخرقَ يكون عدم الرفق في الأمور يتناولها على غير وجهها، مع عجلة
وإفراط وتجاوز مقدار . والشؤمُ - بضمّ الشين وسكون الهمزة - ضدّ اليُمْن .⁽³⁾
والمعنى أنّ من خرّف في أمر فلا بدّ أن يعود عليه شؤمٌ . وهذا الكلام يروى حديثاً
مرفوعاً إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم، وأنّه قال : الرّفقُ يُمْنٌ والخرقُ شؤمٌ .
وقال أيضاً صلّى الله عليه وسلّم : إنّ الله يحبُّ الرّفقَ في الأمر كلّهِ . وقال :
مَا كَانَ الرَّفْقُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا زَانَهُ، وَمَا كَانَ الْخُرْقُ فِي شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ
وقال : يَا عَائِشَةُ، مَنْ أَعْطَى حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ أَعْطَى حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ حُرِمَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ . وقال صلّى الله عليه وسلّم : إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ تَعَالَى أَهْلَ بَيْتٍ
أَدْخَلَ عَلَيْهِمُ الرَّفْقَ . وقال صلّى الله عليه وسلّم : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى
لَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْخُرْقِ . وَإِذَا أَحَبَّ اللَّهُ تَعَالَى
عَبْدًا أَعْطَاهُ الرَّفْقَ، وَمَا مِنْ أَهْلٍ بَيْتٍ يُحْرَمُونَ الرَّفْقَ إِلَّا قَدْ حُرِمُوا .
وقال صلّى الله عليه وسلّم : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ وَيُعْطِي
عَلَيْهِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ . وقال صلّى الله عليه وسلّم : يَا عَائِشَةُ
ارْقِي فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَرَادَ بِأَهْلِ بَيْتٍ كَرَامَةً دَلَّاهُمْ عَلَى بَابِ
الرّفقِ . وقال صلّى الله عليه وسلّم : مَنْ يُحْرِمِ الرَّفْقَ يُحْرِمِ الْخَيْرَ كُلَّهُ .
وقال صلّى الله عليه وسلّم : التَّأَنِّي مِنَ اللَّهِ وَالْعَجَلَةُ مِنَ الشَّيْطَانِ . وقال

(3) صحفت كلمة « اليمن » في ب، فكتبت « اليمنى » .

صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم : إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرَفْقٍ، فَإِنَّ
الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى.

وما أحسن قول أبي الفضل [بن] النحوي في هذا :
وَالرَّفَقُ يَدُومُ لِصَاحِبِهِ وَالْخُرْقُ يَصِيرُ إِلَى الْهَرَجِ
خَرْقَاءُ عَيَّابَةٌ .

الْعَيَّابَةُ : التي تعيب النَّاسَ كثيرا . وهذا مثق للأحمق وذو العيوب، يعيب غيره
وينسى عيوبه . قال إسماعيل بن القاسم :
يَا مَنْ يَعِيبُ وَعَيْبُهُ مُتَشَعِّبٌ كَمْ فِيكَ مِنْ عَيْبٍ وَأَنْتَ تَعِيبُ !
لِلَّهِ دَرْكٌ كَيْفَ أَنْتَ وَغَايَةٌ يَدْعُوكَ رَبُّكَ عِنْدَهَا فَتُجِيبُ ؟
وفي الحديث : طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ !

أَخْرَقُ مِنْ حَمَامَةٍ .

الْخُرْقُ مَرٌّ، وَالْحَمَامُ أَيْضًا تَقَدَّمَ مَا فِيهِ، وَوُصِفَ بِالْخُرْقِ لِأَنَّ الْحَمَامَةَ تَبْيِضُ عَلَى
أَعْوَادٍ وَلَا تَحْكُمُ عَشَّهَا، فَرَبَّمَا وَقَعَ بَيْضُهَا فَتَكْسَرُ . وقد تأتي إلى غصن شجرة فتبني
عليه عشَّها في الموضع الذي يحرّكه الريح، فلا يكاد يسلم ببيضها . قال عبيد بن
الأبرص :

عَيَّوْا بِأَمْرِهِمْ كَمَا عَيَّتْ بَبَيْضَتِهَا الْحَمَامَةُ
جَعَلَتْ لَهَا عَوْدِينَ مِنْ نَشْمٍ وَآخِرَ مِنْ ثُمَامَةٍ
ويقال أيضا : أَحْمَقُ مِنْ حَمَامَةٍ .

خَرْقَاءُ وَجَدَتْ صُوفًا .

تَقَدَّمَ أَنَّ الْخُرْقَ يَكُونُ بِمَعْنَى عَدَمِ الْإِتْقَانِ ؛ وَالْمَرْأَةُ الْخَرْقَاءُ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى ضِدَّ
الصَّنَاعِ ؛ وَالصُّوفُ مَعْرُوفٌ، الْبَعْضُ مِنْهُ صُوفَةٌ .

وَمَعْنَى الْمَثَلِ أَنَّ الْمَرْأَةَ غَيْرَ الصَّنَاعِ إِذَا وَجَدَتْ صُوفًا عَائَتْ فِيهِ وَوَدَّرَتْهُ . يُضْرَبُ مَثَلًا

لأحْمَقُ يجد مالا فيضيعه ويتلفه، أو لمن يخرق في كل⁽⁴⁾ ما وجده وتمكّن منه .
يُحْكِي أَنَّ الحسن رضي الله عنه لقي سابق الحاج وهو يسرع، فجعل [الحسن] يومئذ إليه
بأصبعه كفعل الغزالة ويقول : خَرَقَاءُ وَجَدَتْ صُوفًا .
وهذا المثل كالمثل الآخر الآتي : عَبْدٌ وَخَلَّى فِي يَدَيْهِ .

أَخْسَرُ صَفْقَةً مِنْ أَبِي غُبْشَانَ .

الْخَسَارَةُ ضدَّ الرِّبْحِ . خَسِرَ الرجل - بالكسر - يَخْسِرُ خَسْرًا وَخَسَارَةً : وَأَبُو
غُبْشَانَ هو الخزازي . وتقدّم هذا المثل وما كان من قصّته في حرف الحاء المهملة.

خَشَى ذُوْالَةَ، بِالْحِبَالَةِ .

الْخَشْيَةُ : الْخَوْفُ، خَشِيَ - بالكسر - يَخْشَى خَشْيَةً ؛ وَخَشَيْتُهُ أَنَا
تَخَشُّيَّةٌ : خَوْفَتُهُ ؛ وَخَشَيْ فَلَانًا تَخَشُّيَّةٌ : خَوْفُهُ ؛ وَذُوْالَةَ - بذاك معجمة،
على مثال ثُمَامَةَ - الذئب، مأخوذ من الذَّلَّالَن، وهو مشية فيها إسراع أو خفة وميس .
يقال : ذَالَ يَذَالُ ذَالًا وَذَالَانَا إِذَا مَشَى تِلْكَ الْمَشْيَةَ ؛ وَالْحِبَالَةُ : الَّتِي يُصَادُ
بِهَا .

والمعنى : خوف الذئب بالحبالة . يُضْرَبُ عِنْدَ الْأَمْرِ بِالْتَهْدِيدِ وَالتَّبْرِيقِ .

خَشْيَةُ خَيْرٍ مِنْ مَلَأَ وَأَدِ حُبًّا .

أَي : أَن تَخَافَ أَرْفَعَ لِمَقْدَارِكَ وَأَسْمَى لِحُبَابِكَ مِنْ أَنْ تُحِبَّ .
وهذا كقولهم : رَهْبُوتِي، خَيْرٌ مِنْ رَحْمُوتِي ؛ وقول الغضبان بن القبعثري
للحجاج : أو فرق خير من حبين، وسيأتي .

أَخْطَأْتُ اسْتِكَ الْحُفْرَةَ .

الْخَطَأُ ضدَّ الصَّوَابِ . يُقَالُ : أَخْطَأَ يَخْطِئُ إِخْطَاءً فَهُوَ مُخْطِئٌ ؛ وَيُقَالُ

(4) فِي ب : فِي كُلِّ عَامٍ مَا وَجَدَهُ...

خَطِيءٌ - بالكسر - يَخْطَأُ إذا سلك سبيل الخطأ، عامداً أو غير عامد، فهو خاطيء .
 وقيق : الخاطيء هو المتعمد ؛ والاسْتُ - بهمزة وصل - والسَّتَه : الدُّبُرُ أو حلقتَه ؛
 والحفرة - بضم الحاء - معروفة . وهذا المثل يُضرب لِمَنْ يَحِيدُ عن الصَّواب في
 مقصده، ويضع الشيء في غير موضعه . ومعناه ظاهر .

أَخْطَأَ مِنْ ذُبَابٍ .

الخطأ مرّ، وكذا الذُّبَابُ، ووُصف بالخطأ لأنَّه يقع في الهلاك بنفسه : فقد يسقط
 في الماء الحارَّ فيموت، أو في الشيء الذي يلتزق به ولا يتخلَّص منه.

أَخْطَأَ مِنْ فَرَّاشٍ .

الفرَّاش - بفتح الفاء، بوزن سحاب - هو الذي يتهافت على السراج، واحده فرَّاشة .
 ووُصف بالخطأ أيضاً كما ذكر في الذباب، لأنَّه يلقي نفسه على السراج والنَّار كلها فيحترق .
 وقال الشاعر:

جِهَالَةُ سَنُورٍ وَخَطْءُ فَرَّاشَةٍ وَإِنَّكَ مِنْ كَلْبِ التَّهَارُشِ أَجْهَلُ
 وفي الحديث : إِنَّكُمْ تَتَهَافَتُونَ فِي النَّارِ تَهَافُتَ الْفَرَّاشِ وَأَنَا أَخِذٌ
 بِحُجَزِكُمْ، أو كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .
 وما أحسن قول بعض الأدباء :

لَهَيْبُ الْخَدَّيْنِ بَدَأَ لِيَطْرُقِي هَوَى قَلْبِي عَلَيْهِ كَالْفَرَّاشِ
 فَأَحْرَقَهُ فَصَارَ عَلَيْهِ خَلَا وَهَذَا أَثَرُ الدُّخَانِ عَلَى الْحَوَاشِي
 وقول الآخر :

جَلَّتْ مُحَاسِنُهُ عَنْ كُلِّ تَشْبِيهِ وَجَلَّ عَنْ وَاصِفٍ فِي الْحُسْنِ يَحْكِيهِ
 أَنْظَرُ إِلَى حُسْنِهِ وَاسْتَغْنَى عَنْ صِفَةٍ سُبْحَانَ خَالِقِهِ سُبْحَانَ بَارِيهِ !
 النَّرْجِسُ الْغَضُّ وَالْوَرْدُ الْجَنِيُّ لَهُ وَالْأَقْحَوَانُ النَّصِيرُ الضُّوْءُ فِيهِ
 دَعَا بِالْحَظِّ قَلْبِي إِلَى عَطْيِي فَجَاءَهُ مُسْرِعًا طَوْعًا يُلْبِّيهِ
 مِثْلَ الْفَرَّاشَةِ تَأْتِي إِذْ تَرَى لَهَا إِلَى السَّرَاجِ فَتُلْقِي نَفْسَهَا فِيهِ

الْخُنْفَسَاءُ إِذَا مُسَّتْ نَتْنَتْ .

الْخُنْفَسَاءُ : الدُّوَيْبَةُ السوداء المعروفة . يقال إِنَّهَا خُنْفَسَاءٌ وَخُنْفَسٌ وَخُنْفَسَةٌ ، ونونها زائدة . والنَّتْنُ قبح الرائحة . يقال : نَتْنُ الشَّيْءِ - بالضم - وأنتنَ ، فهو مُنتِنٌ . والْخُنْفَسَاءُ معروفة بالنَّتْنِ ، فيضرب ذلك مثلا للرجل المشتعل على الخبث والعيب ، وأنه يُترك ويُجتنب . والمعنى : لا تفتش ما عنده فإنه يوزيك بنتن معائبه !

أَخَفُ حِلْمًا مِنْ بَعِيرٍ .

الْخَفُ ضدُّ الثَّقَلِ . خَفَّ الشَّيْءُ يَخْفُ خِفَةً ، فهو خَفِيفٌ . والقياس خَافٌ - كَدَبٌ يَدِبُ فهو دَابٌ - . ولكن حملوا الخِفَّةَ على ضدِّها - وهو الثَّقَلُ - خَفِيفٌ ، كما قالوا : ثَقِيلٌ . والحِلْمُ تقدّم . والبَعِيرُ معروف . وهذا كما قال الحماسي :
لَقَدْ عَظُمَ الْبَعِيرُ بِغَيْرِ لُبٍّ فَلَمْ يَسْتَعْنِ بِالْعِظَمِ الْبَعِيرُ
يُصْرَفُهُ الصَّبِيُّ بِكُلِّ وَجْهِ وَيَحْبِسُهُ عَلَى الْخَسْفِ الْجَرِيرُ

أَخَفُ حِلْمًا مِنْ عُصْفُورٍ .

الْحِلْمُ مَرٌّ ، والعُصْفُورُ : الطَّائِرُ الصغير المعروف ، وهو على أنواع كثيرة . والأنثى عُصْفُورَةٌ . قال الشاعر :

كعُصْفُورَةٍ فِي كَفِّ طِفْلٍ يَسُومُهَا حِيَاضُ الْمَنَايَا وَهُوَ يَلْهُو وَيَلْعَبُ
وَيُضْرِبُ الْمَثَلُ فِي خِفَّةِ الْحِلْمِ بِالْعُصْفُورِ ، ولا خفاء بذلك . قال حسَّان بن ثابت ، رضي الله عنه :

لَا بَأْسَ بِالْقَوْمِ مِنْ طَوْلٍ وَمِنْ عِظَمٍ . جِسْمُ الْبَغَالِ وَأَحْلَامُ الْعَصَافِيرِ !
وقال الآخر :

إِنْ يَسْمَعُوا سُبَّةً طَارُوا بِهَا فَرَحًا عَنِّي وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا
مِثْلَ الْعَصَافِيرِ أَحْلَامًا وَمَقْدَرَةً لَوْ يُوَزَنُونَ بِزِفِّ الرَّيْشِ مَا وَزَنُوا

أَخَفُ رَأْسًا مِنْ ذِئْبٍ .

الذئبُ معروف، ويُوصف بخفّة الرأس - ويعنون في النوم - لما يزعمون من أنّه لا ينام إلاّ بإحدى مقلتيه، كما قيل :
يَنَامُ بِأَحَدَى مَقْلَتَيْهِ وَيَتَّقِي بِأُخْرَى الْمَنَآيَا فَهُوَ يَقْظَانُ هَاجِعُ
وقالوا أيضا : أَخَفُ رَأْسًا مِنَ الذِّئْبِ وَمِنَ الطَّائِرِ .

أَخَفُ مِنْ لَا عَلَى اللِّسَانِ .

الخِفَّةُ مرّت، ولاّ : حرف نفى، وهي خفيفة على اللسان . فيضرب المثل بذلك في الخِفَّةِ، وهو يحتمل أن تكون الخِفَّةُ من جهة اللفظ لِقَلَّتِهِ وهو ظاهر، أو من جهة المعنى لملائمه الانكار للطبع غالبا، وخِفَّةُ التبرّي والتنصّل على النفس في أكثر الأمور، أو منهما معًا . ويقال أيضا : كَلَاَ وَلَاَ، في التعبير عن السرعة والخِفَّةِ . قال :
يَكُونُ نَزُولُ الْقَوْمِ فِيهَا كَلَاَ وَلَاَ غَشَاشًا وَلَا يُدْنُونَ رَحْلًا إِلَى رَحْلِ
غَشَاشًا : أي على عَجَلٍ . وقال الآخر :
وَأَرَوَعَ أَهْدَاهُ لِيَ اللَّيْلِ وَالْفَلَا وَحَسَّ بِمَسِّ الْأَرْضِ لَكِنْ كَلَاَ وَلَاَ

أَخَفُ مِنْ يِرَاعَةٍ .

اليرَاعَةُ - بفتح الياء المثناة من تحت، ثمّ راء، ثمّ ألف، ثمّ عين مهملة - واحد اليرَاع، وهو يُطلق على القصب وعلى طائر يطير بالليل كأنّه نار . وهو في هذا المثل يجوز أن يراد به القصبه وأن يراد به الطائر .
والمعنى الأوّل هو مراد البلغاء والأدباء عند وصف أحد بالكتابة . وقولهم مثلا : إن فلانا من أرباب اليراعة، وفرسان اليراعة، وهذا في الشعر والنثر لا يُحصى .

تَخَلَّصَتْ قَائِبَةً مِنْ قُوبٍ .

التَّخَلَّصُ : النِّجَاةُ . خَلَّصَتْ الرَّجُلَ تَخْلِيصًا، فَتَخَلَّصَ هو : نَجَا ؛
وَالْقَائِبِيَّةُ : الْبَيْضَةُ ؛ وَالْقُوبُ : الْفَرْخُ ؛ وَأَمَّا بِالْفَتْحِ فَمَصْدَرٌ . يقال : قَابَ

الطَّائِرُ بَيَضَتْهُ إِذَا فَلَقَهَا، قُوبًا، فَانْقَابَتْ هِيَ وَتَقَوَّبَتْ .

ومعنى تَخَلَّصَتْ قَابِيَّةٌ مِنْ قُوبٍ - على هذا - : تَخَلَّصَتْ البَيْضَةُ مِنَ الْفَرْخِ .
يُضْرَبُ لِمَنْ انْفَصَلَ مِنْ صَاحِبِهِ . وَعَلَيْهِ، فِي الْمَثَلِ قَلْبٌ، لِأَنَّ الَّذِي يَتَخَلَّصُ هُوَ الْفَرْخُ لَا
الْبَيْضَةُ ؛ غَيْرَ أَنَّهُ يَصَحُّ إِسْنَادُهُ إِلَى الْبَيْضَةِ بِاعْتِبَارِ، كَمَا تَقُولُ : تَخَلَّصَتْ الْحَامِلُ مِنْ ذِي
بَطْنِهَا . وَقِيلَ إِنَّ الْقَائِيَةَ الْفَرْخَ، وَالْقُوبَ الْبَيْضَةَ ؛ وَعَلَيْهِ فَلَا قَلْبَ، وَالْأَوَّلُ أَنْسَبُ .
وَلَفْظُ الْمَثَلِ عِنْدَ الْجَوْهَرِيِّ : بَرَّتْ قَائِيَّةٌ مِنْ قُوبٍ . وَهَذَا اللَّفْظُ لَا يَكُونُ [مَعَهُ
قَتْلٌ] عَلَى كَلَا التَّفْسِيرَيْنِ، لِأَنَّ نِسْبَةَ الْبَرَاءَةِ إِلَيْهِمَا مَعًا صَحِيحَةٌ .
وَحُكِيَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا اسْتَخْفَرَ أَحَدًا فَقَالَ لَهُ : إِذَا بَلَغْتُ بِكَ مَكَانَ كَذَا فَبَرِّتْ قَائِيَّةً مِنْ
قُوبٍ، أَيْ فَقَدْ تَخَلَّصْتُ مِنْ خُفَّارَتِكَ .

اِخْتَلَطَ الْحَابِلُ بِالنَّابِلِ .

الْاِخْتِلَاطُ مَعْرُوفٌ ؛ وَالْحَابِلُ الَّذِي يَصِيدُ الْبَيْضَ بِالْحَبَالَةِ ؛ وَالنَّابِلُ الَّذِي يَصِيدُهُ
بِالنَّبْلِ، فَيُضْرَبُ ذَلِكَ فِي اخْتِلَاطِ الرَّأْيِ، وَيُقَالُ الْحَابِلُ هُنَا هُوَ السَّدَى وَالنَّابِلُ الطُّعْمَةُ .
وَهَذَا كَمَا مَرَّ فِي قَوْلِهِمْ : حَوَّلَ حَابِلُهُ عَلَى نَابِلِهِ .

اِخْتَلَطَ الْخَائِرُ بِالزُّبَادِ .

هَذَا الْمَثَلُ كَالَّذِي قَبْلَهُ . وَالْخَائِرُ ضِدُّ الرَّقِيقِ . يُقَالُ : خَيْرَ اللَّبَنِ - بِالضَّمِّ - وَالْكَسْرِ -
فَهُوَ خَائِرٌ . وَالزُّبَادُ - عَلَى مِثَالِ رُمَّانٍ - نَبْتٌ، وَالزُّبَادُ أَيْضًا مِنَ اللَّبَنِ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ .
فَكَانَ الْمَعْنَى أَنَّهُ اخْتَلَطَ الْجَيِّدُ بِالرَّدِيِّ، وَالصَّحِيحُ بِالسَّقِيمِ .
وَقَالَ الْبَكْرِيُّ فِي شَرْحِ الْأَمْثَالِ : الزُّبَادُ نَبْتٌ كَانُوا يَضَعُونَ وَرْقَهُ عَلَى ظُرُوفِ اللَّبَنِ . وَيُقَالُ
أَيْضًا : زَبَدَتِ الْمَرْأَةُ الصُّوفَ وَالشَّعْرَ إِذَا نَفَسَتْهُ . فَيَحْتَمَلُ أَنْ يَرِيدَ فِي الْمَثَلِ أَنَّ خَائِرَ
اللَّبَنِ اخْتَلَطَ بِمَنْفُوشِ الصُّوفِ، فَلَا يُوَكَّلُ . انْتَهَى . وَمَا ذَكَرْنَاهُ أَوَّلًا أَظْهَرَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

خَلَعَ الدُّرْعَ بِيَدِ الزَّوْجِ .

هَذَا مَثَلٌ يَضْرَبُ عِنْدَ الْخَطَا فِي وَضْعِ الْأَشْيَاءِ غَيْرِ مَوْضِعِهَا، وَتَقَدَّمَتْ قِصَّتُهُ وَمَنْ قَالَ
فِي حَرْفِ الْجِيمِ، عِنْدَ قَوْلِهِمْ : التَّجْرِيدُ لِغَيْرِ نِكَاحٍ مُثَلَّةٌ، فَاَنْظُرْ هُنَاكَ .

أَخْلَفُ مِنْ صَقَرٍ .

يقال : خَلَفَ فَمُ الصَّائِم - بفتح اللام - يَخْلُفُ خُلُوفًا وَخُلُوفَةً - بضمهما ؛ وأخلف إذا تَغَيَّرَتْ رائحته . ومنه : نَوْمَةُ الضُّحَى مَخْلُفَةٌ لِلنِّعَمِ . وفي الحديث أيضا : لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمَسْكِ . والصَّقَرُ : الطائر المعروف، وتقدَّم . ضربوا المثل بخُبَيْث رائحة فمه .

أَخْلَفُ مِنْ عُرْقُوبٍ .

أَخْلَفُ اسم تفضيل، من الاخلاف في الوعد . لكن المعروف فيه الرباعي . يقال : أَخْلَفَنِي فلانٌ ما وَعَدَنِي، وهو أن يقول شيئا ولا يفعله على الاستقبال . وقد يقال : أخلفه إذا وجد وعده خلفا . قال الأعشى :
أَثْوَى وَقَصَّرَ لَيْلَةً لِيُزَوِّدَا فَمَضَتْ وَأَخْلَفَ مِنْ قَتِيلَةٍ مَوْعِدَا
أَي مَضَتْ اللَّيْلَةَ .

نعم، يجوز بناء اسم التفضيل من الرباعي على أَفْعَلَ عند بعض المحققين، كأعطى . وعرقوب رجل من العمالقة وعد أخاه تمرا فأخلفه، وسيأتي . قال علقمة :
وَقَدْ وَعَدْتُكَ مَوْعِدًا لَوْ وَفَّتْ بِهِ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ أَخَاهُ بِيَثْرِبٍ (٤٤)
وقال كعب بن زهير، رضي الله عنه :
كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلًا وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا الْأَبَاطِيلُ
وَقُلْتُ أَنَا مِنْ قَصِيدَةٍ :

فَسِيحَتْ بِكَ بِيَوْعَدٍ غَانِيَةٍ أَوْ وَعْدِ عُرْقُوبٍ جَنَى التَّمْرِ

خَلَّه دَرَجَ الضَّبِّ !

التَّخْلِيَةُ : التَّرْكُ ؛ والدَّرَجُ - بفتح التين - الطريق ؛ والضَّبُّ معروف . والمثل يضرب في الأنفة من مصاحبة مَنْ يُرْغَبُ عن صحبته .
والمعنى : خَلَّدَ يَهْبُ حَيْثُ شَاءَ وَقِيلَ مَعْنَاهُ الذَّهَابُ، كَأَنَّهُ قِيلَ : يَذْهَبُ ذَهَابَ

(٤٤) سقط ما بين معقوفتين من د .

الضَبَّ !، أي خَلَّه كضلال الضَّبِّ !، لأنَّ الضَّبَّ أسوأَ الحيوان هدايةً، ولذلك يضرب به المثل فيقال . أَضَلُّ مِنْ ضَبِّ . ويقال أيضا : خَلَّ دَرَجَ الضَّبِّ !، أي خَلَّ طريقَه لئلاَّ يمرَّ بين يديك فتنتفخ ! وهذا قريب في المعنى ممَّا تقدَّم من قولهم : الخنفساءُ إذا مُسَّتْ نَتْنَتْ، كما مرَّ ذلك.

خَلَّ سَبِيلَ مَنْ وَهَى سِقَاؤُهُ !

التَّخْلِيَّةُ مرَّت، وتقول : خَلَّيْتُ سَبِيلَ الرَّجُلِ إذا تركته ولم تتعرَّضْ له .
وَوَهَى السَّقَاءُ - بالفتح - يَهِي وَهْيًا : تَمَزَّقَ . والسَّقَاءُ - بالكسر والمد - القِرْبَةُ .
قال الشاعر :

أَقُولُ لِعَبْدِ اللَّهِ لَمَّا سَقَاؤُنَا، ونحنُ بوادي عبدِ شمسٍ، وَهَى: شِمْرُ!
أي أقول له، حين وهى سِقَاؤُنَا ونحن بوادي عبد شمس : شِمْرُ البرَقْ ! أي انظر إليه ! فشِمْرُ، في آخر البيت، فعل أمر، وهو معمول القول . وهذا المثل قد يروى رجزاً فيقال :

خَلَّ سَبِيلَ مَنْ وَهَى سِقَاؤُهُ وَمَنْ هَرِيقَ بِالْفَلَاةِ مَأْوُهُ
يقال : أَرَقْتُ وَهَرَقْتُ - بقلب الهمزة هاء - فَأَنَا مُرِيقٌ وَمُهْرِيقٌ - بفتح الهاء - وكان القياس حذف الهاء لأنَّها في مكان همزة أفْعَلَ . وهي تُحذف في المضارع لكنَّها، لَمَّا صارت هاء ذهب الثقل فبقيت . قال الشاعر :

فَظَلَلْتُ كَالْمُهْرِيقِ فَضْلَةَ مَائِهِ فِي ظِلِّ هَاجِرَةٍ لِلْمَعْرِ سَرَابٍ
وقد يقال : أَهَرَقْتُهُ - بتسكين الهاء، والجمع بين الهمزة وبدلها - تناسيا للأصل، فَأَنَا مُهْرِيقٌ - بالسكون أيضا . قال :

فَصِرْتُ كَمُهْرِيقِ الَّذِي فِي سَقَائِهِ لِرُقْرَاقِ آلِ فَوْقَ رَابِيَةٍ صَلْدٍ
وَالْفَلَاةُ : الْقَفْرَةُ، والجمع فَلَى وفَلَوَاتٌ .

وهذا المثل كالذي قبله مضرباً . وقد قيل إنَّه يضرب في الرجل لا يستقيم في أمره، وإنَّه لا ينبغي أن يعانى . وقيل إنَّه يضرب في اقتناء السرِّ، بمعنى أنَّه إذا باح صاحبك بسرِّك ونضح به، كما ينضح هذا السقاء الواهي بالماء، فدعَّه عنك ولا تؤاخره ولا تصاحبه، فلا خير لك فيه ! وهذا مناسب لتشبيههم مَنْ لا يكتُم السرَّ بالغرباك، كما قال الحطيئة :

أَغْرَبَالَا إِذَا اسْتَوْدَعْتَ سِرًّا وَكَانُونَا عَلَى الْمُتَحَدِّثِينَ ؟
خَلَاؤُكَ أَقْنَى لِحَيَائِكَ .

الْخَلَاءُ - بفتح الخاء والمدّ - يطلق مصدرًا من قولك : خَلَا المكانُ وغيره، يَخْلُو خَلَاءً وَخُلُوءًا . ومكان خَالٍ وَخَلَاءٌ : لا أحدَ به . قال حسان، رضي الله عنه : عَفَتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَالْجِوَاءُ إِلَى عِزَّاءٍ مَنْزِلُهَا خَلَاءٌ قد يُطلق على الْمُتَوَضَّأ، كما في الحديث، ويطلق على المكان القفر لا شيء به، وهو المراد . قال زهير :

قَامًا مَا فُؤِيْقَ الْعِقْدِ مِنْهَا فَمِنْ أَدْمَاءٍ مَرْتَعُهَا الْخَلَاءُ
وَالْحَيَاءُ - بالمدّ - معروف . وَقْنِيَّ الرَّجُلُ الْحَيَاءُ وَقْنَاهُ - بالكسر والفتح - وأقْنَاهُ وأقْتْنَاهُ : لَزِمَهُ وحفظه . قال عنتره :

قَامَتْ تَخَوُّفَنِي الْحُتُوفَ كَأَنَّنِي أَصْبَحْتُ عَنْ غَرَضِ الْحُتُوفِ بِمَعْزِلِ (5)
فَأَجَبْتُهَا : إِنْ الْمَنِيَّةُ مِنْهُ لَابُدُّ أَنْ أَسْقَى بِكَاسِ الْمَنْهَلِ
فَأَقْنِي حَيَاءَكَ لَا أَبَالِكَ وَأَعْلَمِي أَنِّي أَمْرٌ سَأَمُوتُ إِنْ لَمْ أَقْتَلِ !
أي : الزمي حيائك واحفظيه ولا تضيّعه ! وقال العطوي :

أَيَقْنَى جَمِيلَ الصَّبْرِ مِنْ هُدًى رَكْنِهِ وَهَيْضَ جَنَاحَاهُ وَجُدَّ الْأَنَامِلِ ؟
ومعنى المثل أن منزلك، إذا خلوت به، هو ألزم وأحفظ لحياك

الْخَلَّةُ، تَدْعُو إِلَى السَّلَّةِ .

الْخَلَّةُ - بفتح الخاء - الْحَاجَةُ وَالْخَصَاصَةُ وَالْفَقْرُ . قال :
رَأَى خَلَّتِي مِنْ حَيْثُ يَخْفَى مَكَانُهَا فَكَانَتْ قَذَى عَيْنَيْهِ حَتَّى تَجَلَّتْ !
ويقال للرجل إذا مات : اللَّهُمَّ اخْلُفْ عَلَى أَهْلِهِ بِخَيْرٍ وَاسْدُدْ خَلَّتَهُ ! أي فُرْجَتَهُ التي تركها . قال أوس بن حجر :

لَهْلُكَ فُضَالَةٌ لَا تَسْتَوِي الْفُقُودُ وَلَا خَلَّةُ الذَّاهِبِ

(5) يروى أيضا : بَكَرَتْ تَخَوُّفَنِي...

يقول : إِنَّهُ كَانَ سَيِّدًا ، فَلَمَّا مَاتَ تَرَكَ ثُلُمَةً لَمْ تُسَدَّ . تقول : خَلَ الرَّجُلُ ، وَأَخْلَ بِهِ - بِالضَّمِّ - إِذَا احتاج . وَرَجُلٌ مُخْلٌ وَمُخْتَلٌ وَخَلِيلٌ ، أَيُّ فَقِيرٍ . قَالَ زُهَيْرٌ :
وإن أتاهُ خَلِيلٌ يَوْمَ مَسْأَلَةٍ يَقُولُ : لا عَائِبٌ مَالِي ولا حَرَمٌ
وَاخْتَلَّ إِلَيْهِ : احتاج . وفي كلام ابن مسعود : عَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ ! فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَا
يَدْرِي مَتَى يُخْتَلُّ إِلَيْهِ ، أَيُّ مَتَى يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَى مَا عِنْدَهُ . وما أَخْلَكَ إِلَيْهِ ، أَيُّ
مَا أَحْوَجَكَ ! وَالْأَخْلُ الْأَفْقَرُ . ويقولون : « الْأَخْلُ فَلَاخِلٌ ، أَيُّ الْأَفْقَرِ فَلَاأَفْقَرِ » .

وَالسَّلَّةُ - بفتح السين - : السَّرِقَةُ . وكذا الاسْلَالُ . ويقال : لي في بني فلان سَلَّةٌ ، أَيُّ
سَرِقَةٍ . والمعنى أَنَّ الحاجة والخصاصة تدعو إلى السَّرِقَةِ وتُلجِئ إلىها ، عِيَاذًا بِاللَّهِ تَعَالَى !
وَأَمَّا الْخُلَّةُ - بضمّ الخاء - فهي الصداقة . والصديق أيضا للذكر والأنثى ، رَجُلٌ خُلَّةٌ لِي
وَامْرَأَةٌ خُلَّةٌ . قال امرؤ القيس :

وَكَانَ لَهَا فِي سَالِفِ الدَّهْرِ خُلَّةٌ يُسَارِقُ بِالطَّرْفِ الْخِبَاءَ الْمُسْتَرًّا
أَيُّ خَلِيلٍ . وقال الآخر :

أَلَا أَبْلِغَا خُلَّتِي جَابِرًا بَأَنَّ خَلِيلَكَ لَمْ يُقْتَلِ !
وقال الآخر :

شَبَعْتُ مِنْ نَوْمٍ وَزَاحَتْ عَلَّتِي وَطَرَقْتَنِي فِي الْمَنَامِ خُلَّتِي
وَمَا عَلِمْتُ أَنَّهَا أَلَمَّتْ حَتَّى قَضَتْ حَاجَتَهَا وَوَلَّتْ
أَيُّ خَلِيلَتِي .

خَالِكِ الْجَوْ فَبِيضِي وَاصْفِرِي !

الْجَوْ معروف ؛ وَبَاضَتْ الدَّجَاجَةُ وَنَحَوْهَا ، تَبْيِضُ ؛ وَصَفَرُ الطَّائِرِ ، يَصْفَرُ ،
صَفِيرًا : صَوْتٌ .

وهذا المثل يضرب لأمر يقدر عليه الإنسان متمكِّنا . وأوَّلُ من قاله كَلَيْبُ بْنُ رَبِيعَةَ
التَّغْلِبِيُّ الْوَاهِلِيُّ فِي شعر له ، وذلك أَنَّهُ كَانَ لَهُ حِمِيٌّ لَا يَقْرُبُ ، فَبَاضَتْ فِيهِ قُبْرَةٌ ؛
وَالْقُبْرَةُ - بضمّ القاف وفتح الباء المشدَّدة - الطَّائِرُ المعروف ؛ فَأَجَارَهَا وَقَالَ يَخَاطِبُهَا :

(5م) يروى أيضا : ... يَوْمَ مَسْغَبَةٍ .

يَا لَكَ مِنْ قُبْرَةٍ بِمَعْمَرٍ خَلَائِكَ الْجَوْ فَبِيضِي وَاصْفِرِي !
وَنَقَرِي مَا شِئْتُ أَنْ تُنْقَرِي !

وذلك أَنَّهُ إِنَّمَا يَصْفَرُ الطَّائِرُ وَيَتَغَنَّى فِي الْخَصْبِ . فَدَخَلَتْ نَاقَةُ الْبَسُوسِ الْحُمَى ، فَوَطَّئَتْ
بِيضَ الْقُبْرَةِ ، فَرَمَى كَلِيبُ ضَرْعَهَا ، فَقَتَلَ جَسَاسَ كَلِيبَا ، وَهَاجَتْ مِنْ ذَلِكَ حَرْبُ الْبَسُوسِ بَيْنَ
بَنِي وَائِلَ أَرْبَعِينَ سَنَةً . وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الشَّاعِرُ :

كَلِيبٌ لِعَمْرِي كَانَ أَكْثَرَ نَاصِرًا وَأَيْسَرَ جَرْمًا مِنْكَ ضَرْجٌ بِالدَّمِ
رَمَى ضَرْعَ نَابٍ فَاسْتَمَرَ بِطَعْنَةٍ كَحَاشِيَةِ الْبُرْدِ الْيَمَانِيِّ الْمُسْهِمِ
وَسَيَاتِي تَتَمَّةُ هَذَا الْحَدِيثِ .

وَقِيلَ إِنَّ أَوَّلَ مَنْ قَالَهُ طَرْفَةُ بْنُ الْعَبْدِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ لِأَمِّهِ وَهُوَ غَلَامٌ : إِنِّي أُرِيدُ صَيْدَ
الْقَنَابِرِ ، فَابْعَثِي أَمْتَكِ مَعِ الْبَهْمِ ! وَالْقَنَابِيرُ جَمْعُ قُنْبُرَةٍ وَهِيَ الْقُبْرَةُ ، فَقَالَتْ لَهُ
أُمُّهُ : يَا بَنِيَّ ، إِنَّ الْمَضِيعَ مِنْ وَكَلٍ مَالِهِ وَأَضَاعَ عِيَالَهُ . ثُمَّ إِنَّهَا أَرْسَلَتْ أَمْتَهَا مَعِ الْبَهْمِ
. وَخَرَجَ طَرْفَةُ وَصَاحِبُ لَهُ مَعَهُمَا فَخًى ، حَتَّى أَتَيَا مَكَانًا كَانَا يَعْمَدَانِ بِهِ الْقَنَابِرَ كَثِيرَةً .
فَنَصَبَ الْفَخَّ ، وَتَنَحَّى غَيْرَ بَعِيدٍ . فَجَعَلَتْ قُبْرَةً تَحُومُ حَوْلَ الْفَخِّ ، ثُمَّ نَقَرَتْهُ فَأَخْطَأَهَا .
فَأَقْبَلَ طَرْفَةُ نَحْوَ فَخِّهِ وَهُوَ يَقُولُ : قَدْ يَعْتَرِ الْجَوَادُ ، وَتُمَحِلُ الْبِلَادُ ، وَيُنْهَبُ التَّلَادُ ،
وَيُضْعَفُ الْجَلَادُ ، وَالْفَخُّ قَدْ يُعَادُ . ثُمَّ نَصَبَ فَخَّهَ ، فَوَقَعَتِ الْقَنَابِرُ حَوْلَ الْفَخِّ ، وَهِيَ
تَحِيدُ عَنْهُ وَتَلْقُطُ مَا أَصَابَتْ . فَلَمَّا طَالَ ذَلِكَ بِهِ ، ضَجَرَ وَانْتَزَعَ فَخَّهَ وَهُوَ يَقُولُ :

قَاتَلَكُنَّ اللَّهُ مِنْ قَنَابِيرٍ مُهْتَدِيَاتٍ بِالْفَلَاحِ نَوَافِرٍ
وَلَا سَقِيئِنَّ مَعِينِ الْمَاطِرِ وَلَا رَعِيئِنَّ جَنُوبَ الْحَاجِرِ !
وَانْصَرَفَ هُوَ وَصَاحِبُهُ رَاجِعَيْنِ . ثُمَّ التَفَتَ ، فَإِذَا الْقَنَابِرُ قَدْ سَقَطْنَ بِالْمَوْضِعِ الَّذِي نَصَبَ
فِيهِ فَخَّهَ يَلْتَقِظْنَ ، فَقَالَ : يَا لَكَ مِنْ قُبْرَةٍ ... الْأَبْيَاتُ الْمَذْكُورَةُ . فَلَمَّا أَتَى مَنْزِلَهُ ،
وَرَأَتْهُ أُمُّهُ لَمْ يَصْنَعْ شَيْئًا ، قَالَتْ لَهُ : حَدِّثْكَ الْيَوْمَ حَادً ، وَصَدِّكَ صَادً ! فَقَالَ لَهَا طَرْفَةُ :
مَا كُنْتُ مُحَدِّدًا إِذَا غَدَوْتُ وَمَا رَأَيْتُ مِثْلَ مَا لَقِيتُ
مِنْ طَائِرٍ ظَلَّ بِنَا يَحُوتُ يَنْصَبُ فِي اللَّوْحِ فَمَا يَفُوتُ
يَكَادُ مِنْ رَهْبَتِنَا يَمُوتُ !

فَقَالَتْ أُمُّهُ : إِنِّي لِأَرْجُو أَنْ تَكُونَ شَاعِرًا ، وَأَنْ تَشَبِهَ خَالِكَ ! وَحَاتَ ، يَحُوتُ : أَسْرَعَ .

ورد أن ابن عباس، رضي الله عنهما، تمتك بهذا المثل، وذلك حين خرج الحسين، رضي الله عنه، إلى العراق، فلقي ابن عباس ابن الزبير، فقال له : خلاك الجو فبيضي واصفري . هذا حسين يخرج إلى العراق ويخلى لك الحجاز !

خامري أم عامر !

خامري : معناه استتري وتغطي ، كأنه من التخمر وهو التغطية والستر . ومنه الخمر والخمار ؛ وأم عامر : الضبع . قال :

وَمَنْ يَجْعَلَ الْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ أَهْلِهِ يُلَاقِي الَّذِي لَاقَى مُجِيرُ أُمِّ عَامِرٍ
وسياتي . وللضبع كُنَى كثيرة : يقال لها أم عامر . وأم عمرو، وأم الهنبر، وأم خنور ؛ ويقال لها أيضا : حَصَاجِرُ - بفتح الحاء - على وزن الجمع، وجعار، وجيأل؛ ويقال لها الموقفة . قال معاوية بن زهير :

فَدُونَكُمْ بَنِي لَأَيٍّ أَخَاكُمْ وَدُونَكُمْ مَالِكَا يَا أُمَّ عَمْرٍ
فَلَوْلَا مَشْهَدِي قَامَتْ عَلَيْهِ مَوْقِفَةُ الْقَوَائِمِ أُمُّ أَجْرٍ !
أراد بكونها مَوْقِفَةُ القوائم أن في قوائمها الأوقاف، وهي الخلاخ، جمع وقف، يعني السواد الذي في قوائمها . يقال : جارية مَوْقِفَةٌ : ليست الوقف . والأجر جمع جر، وهي أولادها . ومثله قول الهذلي :

وَعُودِرَ ثَاوِيَا وَتَاوَبَتْهُ مَوْقِفَةُ أَمِيمٍ، لَهَا فَلِيكَ
ويقال لها عرفاء والخامعة - أي العرجاء - قال الشنفرى :

وَلِي دُونَكُمْ أَهْلُونَ : سِيدٌ عَمَلَسٌ وَأَرْقَطٌ زُهْلُولٌ وَعِرْفَاءُ جَيْئَلُكَ
وقال الآخر :

يَا لَهْفٍ مِنْ عِرْفَاءَ ذَاتِ فَلِيلَةٍ جَاءَتْ إِلَيَّ عَلَى ثَلَاثٍ تَخْمَعُ
وتظللُ تنشيطني وتلحم أجرياً وسط العرين وليس حي يدفع !
لو كان سيفي باليمين دفعتها عنِّي ولم أوكك وجنبي الأضيعة
وقال عنتره :

إِنْ يَعْقِرَا مُهْرِي فَإِنَّ أَبَاهُمَا جَزَرَ لِحَامِعَةٍ وَنَسَرَ قَشْعَمَ

(6) عَيْنُ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ (مَادَّةُ فَك) اسْمُ الشَّاعِرِ . سَاعِدَةُ بِنِ جُوْبَةَ، وَرَوَادُ هَكَذَا :
وَعُودِرَ ثَاوِيَا وَتَاوَبَتْهُ مَوْقِفَةُ أَمِيمٍ، لَهَا فَلِيكَ .

ولذلك قال ابن المهلب : الضَّبْعَةُ العَرَجَاءُ، فلحن في قوله الضبْعَة، إذ لا يقال كما مرَّ .

ويقال إنَّ الذي بها من العَرَج ليس عَرَجًا حقيقة، وإنَّما يتخيَّك كذلك للنّاظر من إفراط الرطوبة في أحد جانبيها . والضبع أحمق الحيوان، كما مرَّ ذلك في الحاء . وهي أفسقها أيضًا وأشبَقها . يزعمون أنَّها لا يمرُّ بها حيوان من نوعها إلّا علاها، وأنَّها تقلب الميت على قفاه وتستعمل كمرته، ولذلك يقال لها حين تصطاد : أبشري أمَّ عامر بجراد عضال، وكمر رجال ! يخذعونها بذلك . وقال الشاعر :

فلو مات منهم من جرحنا لأصبحت ضباعٌ بأكنافِ الشَّريبِ عرائسًا
وقولهم في هذا المثل : خَامِرِي أمَّ عامر، تقدَّم أنَّهم يقولونه للضبع عند الاصطياد
يخذعونها به . فبقي مثلًا للمغرور ومن عرف الدنيا وتقلَّبَها ونقضها ما أبرمت وسلَبها ما
وهَبَتْ، ثمَّ يسكن إليها مع ذلك ويغترُّ بها كما تغترُّ الضبع بقول القائل : خَامِرِي
أمَّ عامر . وقال البهاء زهير يشير إليه :

يَا هَذِهِ لَا تَغْلَطِي وَاللَّهِ مَالِي فِيكَ خَاطِرُ
خَدَعُوكِ بِالْقَوْلِ الْمُحَا لٍ فَصَحَّ أَنَّكَ أُمُّ عَامِرٍ

الْخَنَقُ، يُخْرِجُ الْوَرَقَ .

الْخَنَقُ - بفتح الخاء وكسر النون، كالكذب - مصدر . يقال : خَنَقْتُهُ - بفتح
النون - خَنَقًا، فهو خَنَقٌ أيضًا وخنيق، ومخنوق ؛ وَخَنَقْتُهُ فَاجْتَنَقَ .
وَالْخِنَاقُ - بالكسر - الحب يُخْتَنَقُ به - وبالضم - : داءٌ يمتنع معه نفوذ النَّفْسِ إلى
الرئة والقلب . وَالْوَرَقُ - بوزن كَتِفَ - : الدراهم المضروبة، ويقال لها الرِّقَّةُ - بحذف الواو
- على مثال عِدَّة، وَالْوَرَقُ - بفتحتيْن - وَالْوَرَقُ - بسكون وتثنية الواو.

والمعنى أَنَّكَ إذا اشتدَّت على الرجل وضيَّقْتَ عليه، أعطاك . وهذا دأب الدنيء لا
يسمح إلا رهبةً أو رغبة، كما قيل :

رَأَيْتُكَ مِثْلَ الْجَوْزِ يَمْتَنِعُ لُبَّهُ صَاحِبًا وَيُعْطِي لُبَّهُ حِينَ يُكْسَرُ

خَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَطُهَا .

الْخَيْرُ هَذَا اسْمُ تَفْضِيلٍ . يُقَالُ : فَلَانٌ أَخْيَرُ مِنْ فَلَانٍ . وَتَحْذَفُ الْهَمْزَةُ غَالِبًا فَيُقَالُ : هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ . فَإِنْ أُطْلِقَ تَنَاوُلُ جَمِيعِ أَوْصَافِ الْمَدْحِ ، وَإِنْ قُيِّدَ بِشَيْءٍ تَقْيِيدٌ ؛ وَالْأُمُورُ جَمْعُ أَمْرٍ ، وَهُوَ عَامٌّ ؛ وَالْأَوْسَاطُ جَمْعُ وَسْطٍ بِمَعْنَى مُتَوَسِّطٍ بَيْنَ طَرَفَيْنِ . وَهَذَا الْكَلَامُ يُرْوَى حَدِيثًا ، وَهُوَ مِنْ جَوَامِعِ كَلِمَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهُوَ مُتَنَاوِلٌ لِأُمُورٍ مِنَ الدِّيَانَاتِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْآدَابِ وَالسِّيَاسَاتِ وَالْمَعَاشِرَاتِ وَالْمَعَامَلَاتِ ، تَعْجَزُ عَقُولُ الْخَلْقِ عَنْ إِحْصَائِهَا . وَقَدْ صَنَّفَ ذَوُو الْبَصَائِرِ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي تَفَاصِيلِ ذَلِكَ دَوَاوِينَ . وَهُوَ بَحْرٌ لَا سَاحِلَ لَهُ ، جَمَعَ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جُمْلَةٍ وَاحِدَةٍ كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَوْتِيْتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ، وَاخْتَصِرَ لِي الْكَلَامُ اخْتِصَارًا .

قَالَ الْجَاهِظُ : يَنْبَغِي لِلرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ سَخِيًّا لَا يَبْلُغُ التَّبْذِيرَ ، حَاطًّا لَا يَبْلُغُ الْبَخْلَ ، شَجَاعًا لَا يَبْلُغُ الْهَوَجَ ، مُحْتَرَسًا لَا يَبْلُغُ الْجُبْنَ ، حَيِيًّا لَا يَبْلُغُ الْعَجْزَ ، مَاضِيًّا لَا يَبْلُغُ الْقِحَّةَ ، قَوًّا لَا يَبْلُغُ الْهَذَرَ ، صَمُوتًا لَا يَبْلُغُ الْعِيَّ ، حَلِيمًا لَا يَبْلُغُ الذُّلَّ ، مُنْتَصِرًا لَا يَبْلُغُ الظُّلْمَ ، وَقَوْرًا لَا يَبْلُغُ الْبِلَادَةَ ، نَافِذًا لَا يَبْلُغُ الطَّيْشَ . قَالَ : ثُمَّ وَجَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَمَعَ ذَلِكَ فِي كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَهِيَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : خَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَطُهَا وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْتِيَ جَوَامِعَ الْكَلِمِ . انْتَهَى . وَإِلَى هَذَا أَشَارَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ بِقَوْلِهِ :

عَلَيْكَ بِأَوْسَطِ الْأُمُورِ فَإِنَّهَا نَجَاتٌ وَلَا تَرْكَبُ ذُلُولًا وَلَا صَعْبًا !
وَالْآخِرُ بِقَوْلِهِ :

[لَا تَذْهَبَنَّ فِي الْأُمُورِ فَرَطًا وَكُنْ مِنَ النَّاسِ جَمِيعًا وَسَطًا !
وَالْمَعْرِي فِي قَوْلِهِ] (6) :

فَإِنْ كُنْتَ تَهْوَى الْعَيْشَ فَابْغِ تَوْسَطًا فَعِنْدَ التَّنَاهِي يَقْصُرُ الْمُتَطَاوُلُ
تَوَقَّى الْبُدُورَ النَّقْصَ وَهِيَ أَهْلَةٌ وَيُدْرِكُهَا النُّقْصَانُ وَهِيَ كَوَامِلُ

(6) سَقَطَ مَا بَيْنَ مَعْقُوفَتَيْنِ مِنْ د .

خَيْرُ الْعِشَاءِ سَوَافِرُهُ .

خَيْرٌ : تقدّم ؛ وقال عِشَاءٌ - بالفتح والمدّ - طعام العشيّ . ولا يخرجُه التأخير عن كونه عشاءً، كما قال الحطيئة :

وَأَنَيْتُ الْعِشَاءَ إِلَى سَهِيلٍ أَوْ الشَّعْرَى فَطَالَ بَيْ الأَنْاءِ
وَأَنَيْتُهُ : جعلتُ أناءه - أي وقته - ذلك الزمان المتأخّر . ويروى : وَأَكْرَيْتُ الْعِشَاءَ ...
الخ، فَطَالَ بَيْ الكراءِ، أي أَخَرْتُ ؛ والسّوّافِرُ جمع سَافِرَةٍ، يقال أسْفَرَتِ
الشَّمْسُ وسَفَرَتْ إذا أَضَاعَتْ، وسَفَرَتِ المرأةُ عن وجهها : كَشَفَتْ عنه . والمراد أنّ
خير العشاء ما أكل منه بضوء النهار، وكأنّ اللقمة حينئذ تسفر للظلام عن وجهها .

وهذا المثل تكلم به الأصمعي للرّشيد . ذكر بعض الأدباء عن أبي بكر بن شقير النحوي
قال : دخلنا على محمّد اليزيديّ، وهو يتغدّى فقال : يا أبا بكر، خير الغداء بواكره، فما
خير العشاء ؟ فقلت : لا أدري . فقال : دخلت على عبيد الله بن سليمان، وهو يتغدّى،
فقال : خير الغداء بواكره، فخير العشاء ماذا ؟ فقلت : لا أدري . فقال : دخلت على حسين
الخدام، وهو يتغدّى، فقال : يا أبا القاسم، خير الغداء بواكره، فخير العشاء ماذا ؟
فقلت : لا أدري . فقال : كنت بحضرة الرّشيد، وهو يتغدّى، فدخل الأصمعي فقال : يا
أصمعي، خير الغداء بواكره، فخير العشاء ماذا ؟ فقال : بواصره، ومعناه ما يُبصر من
الطعام . انتهى .

وزعموا أنّ تأخير العشاء يورث ضعفاً بالبصر . ومن ثمّ قال أبو بكر بن دريد :
وَأَرَى الْعِشَاءَ فِي الْعَيْنِ أَكْثَرَ مَا يَكُونُ مِنَ الْعِشَاءِ
العِشَاءُ الأوّل - بألف مقصورة - وهو ضعف البصر، وبالمدّ الطعام . وقال كُشَاجِم :

وَنَدِيمٌ مُخَالِفٌ لَا يَشَاءُ الَّذِي أَشَاءُ
هُوَ فِي الصَّخْرِ لِي آخٌ وَعَدُوٌّ إِذَا انْتَشَأَ
اِقْتَرَحْتُ الْعِشَاءَ يَوْمًا عَلَيْهِ فَأَدْهَشَا
سَاعَةً ثُمَّ قَالَ لِي : الْعِشَاءُ يورثُ الْعِشَاءَ !

وورد في بعض الأحاديث نهياً عن ترك العشاء : لَا تَدْعُوا الْعِشَاءَ وَلَوْ بِكَفٍّ مِنْ
حَشَفٍ فَإِنَّ تَرْكَهُ مَهْرَمَةٌ .

خَيْرُ الْعِلْمِ مَا حُضِرَ بِهِ .

المُحَاضَرَةُ : المَذَاكِرَةُ . والمعنى أَنَّ خير العلم ما حصَّك الانسان في صدره فوجده عند المحاضرة، وكان عدَّة له عند المذاكرة . ويقال حرفٌ في قلبك، خيرٌ من ألف في كتبك . ويقال : لا خير في علم لا تُعْبَرُ به الأودية، ولا تُعْمَرُ به الأنديَّة . ويقال : حِفْظُ سطرين، خيرٌ من حِمْلِ وقْرَيْن، ومذاكرة اثنين، خيرٌ من هذين . وينسب للشافعي :

عِلْمِي مَعِيَ حَيْثُمَا مَشَيْتُ يَتْبَعُنِي وَعَاوُهُ الْقَلْبُ لَا بَيْتِي وَصُنْدُوقِي
إِنْ كُنْتُ فِي الْبَيْتِ كَانَ الْعِلْمُ فِيَّ مَعِيَ أَوْ كُنْتُ فِي السُّوقِ كَانَ الْعِلْمُ فِي السُّوقِ
وقال آخر :

عَلَيْكَ بِالْحِفْظِ دُونَ الْكُتُبِ تَجْمَعُهَا فَإِنْ لِلْكِتَابِ آفَاتُ تُفَرِّقُهَا
الْمَاءُ يُغْرِقُهَا وَالنَّارُ تُحْرِقُهَا وَالْفَارُ يَخْرِقُهَا وَاللِّصُّ يَسْرِقُهَا
لكن قد يولع المرء بالحفظ حتَّى يفوته تصوُّر المعاني، فيكون كالحمار يحمل أسفارا . ولذلك رُوِيَ فِي الْخَبَرِ : هَمَّةُ السُّفْهَاءِ الرُّوَايَةُ، وَهَمَّةُ الْعُلَمَاءِ الدَّرَايَةُ . وقال ابن مسعود : كُونُوا لِلْعِلْمِ وُعَاةً، وَلَا تَكُونُوا لَهُ رُوَاةً، فَقَدْ يُرَوَّى مَا لَا يُدْرَى، وَيُدْرَى مَا لَا يُرَوَّى . وَحَدَّثَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ بِحَدِيثٍ . فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : عَمَّنْ ؟ فَقَالَ : وَمَا تَصْنَعُ بَعْمَنَ ؟ قَدْ نَالَتْكَ عَظِيمَتُهُ، وَقَامَتْ عَلَيْكَ حَجَّتُهُ . وَرَبَّمَا وَثِقَ بِصَدْرِهِ وَلَمْ يَقَيِّدْ فَيْطَرًا عَلَيْهِ النَّسِيَانُ وَيُضَيِّعَ عِلْمَهُ. وَلِذَلِكَ وَرَدَ فِي الْخَبَرِ : قَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ⁽⁷⁾.
وَوَرَدَ أَنَّ رَجُلًا شَكَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَثْرَةَ النَّسِيَانِ، فَقَالَ لَهُ اسْتَغْمِلْ يَدَكَ - أَيِ اكْتُبْ ! - .

وشاع فِي أَمْثَالِ النَّاسِ : يَنْسَى الرَّأْسَ، وَلَا يَنْسَى الْكُرَّاسَ .

خَيْرُ الْغَدَاءِ بَوَاكِرُهُ .

الْغَدَاءُ - بِالْفَتْحِ وَالْمَدِّ وَالْدَّالُّ مَهْمَلَةٌ - ضِدُّ الْعِشَاءِ، وَتَقَدَّمَ هَذَا. وَالْمَرَادُ أَنَّ خَيْرَ الْغَدَاءِ أَيْضًا مَا ابْتَكُرَ بِهِ . وَلِهَذَا عَلَّةٌ وَتَحْقِيقٌ يُذَكِّرُ فِي الطَّبِّ . وَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى فِي الْغَدَاءِ
(7) فِي ب : بِالْكِتَابِ .

التأخير . ويروى قول عليّ كرم الله وجهه أو غيره من الحكماء : من أراد النساء ولا نساء فليُكِر الغداء، وليُبَاكِِر العشاء، وليُخَفِّفِ الرداء، وليقلِّكُ غِشِيَانِ النساء . انتهى . قوله فليُكِرِ الغداء : أي يُؤَخِّرْهُ، كما مرَّ في بيت الحطيئة . وأراد بتخفيف الرداء أن يجنب نفسه ثقل الدَّيْن : فإنَّ هَمَّ الدَّيْن يهرم، كما يقال : لا هَمَّ إِلَّا هَمُّ الدَّيْن، ولا وَجَعَ إِلَّا وَجَعُ الْعَيْن.

خَيْرُ الْغِنَى الْقُنُوعُ، وَشَرُّ الْفَقْرِ الْخُضُوعُ .

الغِنَى - بكسر الغين وألف مقصورة، بوزن رضى - ضدُّ الفقر . قال : فتى غيرٌ محبوبٍ الغنى عن صديقه . ولا مظهرُ الشكوى إذا التعلُّ زلت . وقد يمدُّ للضرورة . قال : سيُغْنيني الذي أغناكَ عنِّي فلا فقرٌ يدومُ ولا غِناءٌ والقنُوعُ : السُّؤَالُ والتذلُّكُ للمسؤول . وقد قَنَعَ الرجل - بالفتح - قنوعاً، فهو قانعٌ وقنِيعٌ . قال :

لَمَّاكَ الْمَرْءُ يَصْلَحُهُ فَيُغْنِيهِ مِفَاقِرُهُ أَخْفَى مِنْ الْقُنُوعِ
وَالْمِفَاقِرُ جَمْعُ فَقْرٍ - على غير قياس -، مثك مَذَاكِرُ لِدَكَرٍ، وَمَحَاسِنُ لِحُسْنٍ، على ما في ذلك من الكلام عند النحويين . ومنه قول النابغة :
فَأَهْلِي فِدَاءٌ لَامِرِيءٍ إِنْ أَتَيْتُهُ تَقْبَلُ مَعْرُوفِي وَسَدَّ الْمُفَاقِرَا
وقال عديُّ بن زيد العبادي :

وَمَا خُنْتُ ذَا عَهْدٍ وَأَبْتُ بِعَهْدِهِ وَلَمْ أَحْرَمْ الْمُضْطَرَّ إِذْ جَاءَ قَانِعَا
أَي سَائِلَا . وفي كلامهم : نَسَأَلُ اللَّهَ الْقَنَاعَةَ، ونَعُوذُ بِهِ مِنَ الْقُنُوعِ .
وقلت في هذه المادَّة من قصيدة :

إِنَّ لِّلْقُنُوعِ لَيْسَ بِشَافِيَةٍ عَلَى الْمَرْءِ نَيْكُ أَقْصَى الْأَمَانِي
وَمَنْ اعْتَزَّ بِالْقَنَاعَةِ أَمْسَى فِي نَعِيمٍ وَعِزَّةٍ وَأَمَانٍ
وقد يكون القنوع بمعنى القناعة، وهو الرضى بالقسم على الضدِّ، وهذا هو المراد في المثل . قال الشاعر :

وَقَالُوا قَدْ زَهَبَتْ فَقُلْتُ كَلَّا وَلَكِنِّي أَعَزَّتِي الْقُنُوعُ

والقانع : الراضي . قال لبيد :

فمنهم سعيدٌ آخِذٌ بنصيبِهِ ومنهم شقيٌّ بالمعيشَةِ قانعٌ
ويقال إنّما سمّي السائل قانعا لأنّه يرضى بما أعطي وإن كان قليلا . فيكون معني القنوع
والقناعة واحداً أبداً ؛ غير أنّ فعل القناعة هو بالكسر، يقال : قَنِعَ - بالكسر - يَقْنَعُ
قَنَاعَةً، فهو قَنِيعٌ وقَانِعٌ وقَنُوعٌ وقَنِيْعٌ . والفَقْرُ - بفتح الفاء - الحَاجَةُ :
والخضوع : التذلل .

ومعنى المثل واضح؛ يُضرب في صيانة الحرّ نفسه عن خسيس المكاسب . وهو من كلام
أوس بن حارثة .

روى أنّه عاش دهرًا وليس له إلّا ابنه مالك . وكان لأخيه الخزرج خمسة أولاد : عمرو،
وعوف، وجشّم، والحارث، وكعب . فلمّا احتضر أوس قال له قومه : كنّا نأمرُك بالترّوج
في شبابك، فلم تتزوّج حتّى حضرَك الموت . فقال : الأوس : لم يَهْلِكْ هَالِكٌ ،
تَرَكَ مِثْلَ مَالِكٍ - يعني مالك بن أوس ولده - وإن كان الخزرج ذا عدد، وليس لمالك
ولد . فلعلّ الذي استخرج العذَفَ من الجريمة، والنارَ من الوثيمة، أن يجعلَ لمالك
نَسْلاً، ورجالاً بُسْلاً، يا مالكُ المنية، ولا الدّنيّة، والعتاب، قبل العقاب، والتجلّد، لا
التبلّد ! وأعلم أنّ القبر، خير من الفقر ؛ وشرُّ شاربِ المُشْتَفِّ، وأقبحُ طاعمِ المُقْتَفِّ؛
وذهاب البصر، خير من كثير من النظر ؛ ومن كرم الكريم، الدّفاع عن الحريم ؛ ومن قلَّ ذلٌّ،
ومن أمرٌ فلّ . وخير الغنى القناعة، وشرُّ الفقر الضراعة ؛ والدهر يومان : فيوم لك ويوم
عليك، فإذا كان لك فلا تَبْطِرْ، وإذا كان عليك فاصْبِرْ، فكلّهما سَيَنْحَسِرُ . فإنّما
تَعَزُّ مَنْ تَرى، ويعزُّكَ مَنْ لا تَرى . ولو كان الموت يُشْتَرَى، لسلم منه أهل الدنيا،
ولكنّ الناس فيه مُسْتَوُونَ : الشريفُ الأبلج، واللّئيمُ المُعْلَهَج ؛ والموت المُفِيت،
خيرٌ من أن يقال لك هَبِيت . وكيف بسلامة، من ليست له إقامة ؟ وشرُّ من المصيبة سوءُ
الخلف، وكلُّ مجموع إلى تلف . حيّاك إلهُك ! انتهى.

فنشر الله من مالك بعدد بني الخزرج . والعذَف - بالفتح - النخلة نفسها، وبالكسر
كباستها - كما مرّ في الهمزة ؛ والجريمة النّواة ؛ والوثيمة الموطوعة من الحجارة بحوافر الخيل
ونحوها، من الوثم، وهو الكسر، كما قال عنتره :

خَطَاةٌ غِيبٌ السُّرَى مَوَاةٌ⁽⁸⁾ تَطِيسُ الْإِكَامَ بِذَاتِ خُفٍّ مِثْمَ

وهذا الكلام يحلف به العرب، يقولون : لا، والذي أَخْرَجَ الْعَذْقَ مِنَ الْجَرِيمَةِ، وَالنَّارَ مِنَ الْوَيْمَةِ ! ومن أيمانهم أيضا : لا، والذي شَقَّهْنَّ خَمْسًا مِنْ وَاحِدٍ ! أي الأصابع ؛ ولا، والذي أَخْرَجَ قَابِيَةَ مِنْ قُوبٍ ! - أي فرخًا من بيضة - كما مرَّ ؛ و : لا، والذي وَجَّهِي زَمَمَ بَيْتَهُ ! بفتحيتن - أي تلقاه وتجاهه ؛ والبُسْلُ : الشجعان، واحدهم بَاسِلٌ، والبسالة : الشجاعة ؛ والمشتفَّ هو المستقصي ما في إنائه، ومنه حديث أمّ زرع : إن شَرِبَ اشْتَفَّ . والمقتفَّ : الآخذ للشيء بعجلة ؛ وأمر الرجل : كثر عدده ؛ وتعزَّز : تغلب ؛ والمُعَلَّهَجُ : المُتَنَاهِي في الدناءة واللُّؤْم، وقيل هو العريق فيه اللئيم بن اللئيم ؛ والهبيت : الأحمق الضعيف، ويقال له الجبان المخلوع القلب . وضدّه التَّبَيَّتُ .

قال طرفة

فَالْهَبَيْتُ لَا فَوَادَ لَهُ وَالتَّابَيْتُ قَلْبُهُ قِيَمُهُ⁽⁹⁾

ويُروى : فهمه قيمه.

وقد علمت أنَّ لفظ المثل في هذه الوصيَّة التي سردنا من كلام أَوْس : خَيْرُ الْغِنَى الْقَنَاعَةُ، وَشَرُّ الْفَقْرِ الضَّرَاعَةُ . ورواية المثل - على هذا الوجه - هو رأي من لا يرى أنَّ القنوع يكون بمعنى القناعة، وبذلك اعترض البكري على أبي عبيد في إيراد المثل على اللَّفْظِ السَّابِقِ، وقد علمت ممَّا مرَّ أنَّه صحيح . ومثل هذا المثل قول الفارعة بنتِ طريف ترثي أخاها :

فَتَى لَا يُعِدُّ الزَّادَ إِلَّا مَنْ التَّقَى وَلَا الْمَالَ إِلَّا مَنْ قَنَى وَسُيُوفِ
وَقَوْلِ الْأَبِيرِ : الْيَرْبُوعِيَّ :

فَتَى كَانَ يُدْنِيهِ الْغِنَى مِنْ صَدِيقِهِ إِذَا مَا هُوَ اسْتَغْنَى وَيُبْعَدُهُ الْفَقْرُ
وقول إبراهيم بن العباس الصُّولي :

أَسَدٌ ضَارٍ إِذَا اسْتَنْجَدْتَهُ وَأَبٌ بَرٌّ إِذَا مَا قَدَرَا
يَعْرِفُ الْأَبْعَدَ إِنْ أَثَرَى وَلَا يَعْرِفُ الْأَدْنَى إِذَا مَا افْتَقَرَا
وقوله أيضا :

(8) يروى أيضًا « زِيَّافَةٌ » بدل « مَوَاة ».

(9) كتب الشطر الآخر محرفًا في المخطوطات، في بعضها مثلًا : « وَالتَّابَيْتُ ثَبَتَهُ نَقْمَهُ ».

ولكنَّ الجَوَادَ أَبَا هِشَامٍ نَقِيَّ الجَيْبِ مَأْمُونُ المَغِيبِ
بَطِيٍّ عَنْكَ مَا اسْتَغْنَيْتَ عَنْهُ وِطْلَاءٌ عَلَيْكَ مَعَ الخُطُوبِ
وقول الآخر :

إِذَا أُعْطِشْتَكَ أَكْفُ اللَّامِ كَفَّتَكَ القَنَاعَةُ شَبْعًا وَرِيًّا
فَكُنْ رَجُلًا رَجُلُهُ فِي الثَّرَى وَهَامَةٌ هِمَّتِهِ فِي الثَّرِيَّا
فَإِنَّ إِرَاقَةَ مَاءِ الحَيَا قَدْ دُونَ إِرَاقَةِ مَاءِ المُحَيَّا !
وتقدّم ما في ذكر القناعة من الشعر، وسيأتي أيضا كثير، إن شاء الله تعالى !
ووصيّة أوس المذكورة مشتملة على أمثال عدّة، وقد نبّهنا على غريبها، والباقي واضح.

خَيْرُ مَا رُدَّ فِي أَهْلٍ وَمَالٍ.

هذا يُستعمل في الدعاء بالخير للقادم من السفر . والمعنى : جعل الله ما جئت به خير
ما رجع به الغائب ! وقيل : المعنى أن مجيئك بنفسك خير مارد في أهلك ومالك.

خَيْرُ المَالِ سِكَّةٌ مَأْبُورَةٌ، ومُهْرَةٌ مَأْمُورَةٌ .

المَالُ معروف ؛ والسِّكَّةُ - بالكسر - : الحديدة التي تُضرب عليها الدّارهم، والتي
يُحْرَثُ بها . وتُطْلَقُ أيضا على السطر من الأشجار ؛ والمَأْبُورَةُ : المُصْلَحَةُ، يقال :
أَبَرَ نَخْلَهُ، يَأْبُرُهُ، أَبَرًا وَإِبَارًا وَإِبَارَةً - كَكَتَبَ كِتَابًا وَكِتَابَةً ؛
وَأَبَرَهُ تَأْبِيرًا : أَلْقَحَهُ وَأَصْلَحَهُ ؛ وَائْتَبَرَ الرَّجُلُ : طَلَبَ غَيْرَهُ أَنْ يَأْبُرَ لَهُ . قال
طرفة :

وَلِيَّ الأَصْلُ الَّذِي فِي مِثْلِهِ يُصْلِحُ الأَبَرُ زَرْعُ المُوْتَبِرِ
وَتَأْبَرَتِ النَّخْلُ : قَبِلَتِ الإِبَارَ . قال الزجاج :

تَأْبَرِي يَا خَيْرَةَ الفَسِيلِ إِذْ ضَنَّ أَهْلُ النَّخْلِ بِالفَحُولِ !
والمهرة معروف ؛ والمأْمُورَةُ : الكثيرة النَّسْلِ والنتاج . تقول : أَمَرْتُهُ - بالمد - : كَثَرَتْهُ .
فكان القياس أن يقال مُؤْمَرَةٌ، كما تقول أَعْمَرْتُهَا فهي مُعْمَرَةٌ ؛ ولكنه قيل
مَأْمُورَةٌ إِتِبَاعًا لِمَأْبُورَةٍ، كما قيل لَا دَرِيْتَ وَلَا تَلَيْتَ - أَي تَلَوْتُ، وَارْجِعْ
مَازُورَاتٍ، غَيْرَ مَا جُورَاتٍ - أَي مَوْزُورَاتٍ . على أَنَّهُ قد يقال أَمَرْتُهُ - كَنَصَرْتُهُ -

فهو مأمور، أي كثرته، وهو لغية. وقد قيل بذلك في قوله تعالى : وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها أي كثرنا . ويقال : أمر القوم - بالكسر - أي كثروا . ومنه قول أوس بن حارثة السأقي : من أمير فلء، وقول الآخر : نعلهم كلما يبني لهم سلف بالمشرفي ولولا ذاك قد أمرؤا وقول أبي وجزة :

أمرؤن لا يرثون سهم القعد

أي كثيرون، اسم فاعل أمر . وقول الآخر :

أم جوار صنوها غير أمر

أي نسلها . وقول الآخر :

والاثم من شر ما يصال به والبر كالغيث نسله أمر والسكة هنا أريد بها الأشجار . والمعنى أن خير المال نخيل قمت عليه وأصلحته، أو فرس ولود . وقيل : أريد بالسكة الحديدية التي يحرق بها . ومعنى مأبورة : مصلحة . والمعنى أن خير المال الحرث والبطن . واعلم أن هذا الكلام ذكره اللغويون، وظاهر كلامهم أنه من كلام العرب . وفي الصحاح أنه حديث، والله أعلم ! ورؤي في الحديث أيضا من هذا المعنى : خير المال عين ساهرة لعين نائمة . ورؤي : تسعة أعشار الرزق في التجارة . ورؤي أنه صلى الله عليه وسلم كان يأمر الأغنياء باتخاذ الغنم، ويأمر الفقراء باتخاذ الدجاج . وقالت ابنة الخس : مائة من المعزقني، ومائة من الضأن غني، ومائة من الابل مني.

الخيل تجري على مساويها .

الخيل جماعة الأفراس . قال عنتره :

والخيل تقتحم الخبار عوابسا ما بين شيطمة وأجرد شيطم⁽¹⁰⁾ ولا واحد لها . وحكى بعض اللغويين في واحده خائل - من الاختيال - وهو التبخر . والخيل أيضا جماعة الفرسان . قال امرؤ القيس :

فيارب مكروب كررت وراءه وطاعنت عنه الخيل حتى تنفسا

(10) ويروى أيضا : وآخر شيطم.

وقال الآخر :

علامَ تقولُ الرُّمَحُ يُثْقِلُ عاتقي إذا أنا لم أظعن إذا الخَيْكُ كَرَّتْ ؟
والجَرِيُّ معروف ؛ والمساوي : المعائبُ، قيل لا واحد لها، وقيل جمع مَسْوءٍ - على
غير قياس -، والأظهر أَنَّهُ جمع مَسَاءَةٍ، كما تقول في مَنَارَةٌ مَنَائِرٍ . قال الشاعر في
المفرد :

لئن ساءَني أن نلتَني بِمَسَاءَةٍ لَقَدْ سرَّني أَنِّي خَطَرْتُ بِبَالِكٍ
وقول الآخر في الجمع :

وعَيْنُ الرُّضَى عن كلِّ عيبٍ كَلِيلَةٌ ولكنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدي المَدَاوِيَا
يقال : سَاءَهُ، يَسُوؤُهُ، سَوءًا - بالفتح - وسُوءًا، وسَوَائِيَّةٌ - كَعَلَانِيَّةٍ، وسَوَائِيَّةٌ
- بِحَدَفِ الهمزة -، ومَسَاءٌ، ومَسَاءَةٌ، ومَسَائِيَّةٌ، ومَسَائِيَّةٌ إذا فعل به ما يكره .
وهذا المثل يُضرب في حماية الحريم والدفع عنه، مع الضرر والخوف . والمعنى أَنَّ الخيلَ،
وإن كانت بها أوصاب وعيوب، فإنَّ كرمها مع ذلك يحملها على الجري : فكذلك الحرُّ من
الرجال يحمي حريمه على ما فيه من علة . وقيل إنَّ المراد بالمثل أَنَّ الرجل يستمتع به،
وفيه الخصال المكروهة، وهو ظاهر .

الخَيْكُ أَعْلَمُ بِفُرْسَانِهَا .

الخَيْكُ تقدَّم ؛ والفُرْسَانُ جمع فَارِسٍ، والفَارِسُ صاحب الفرس، كما قالوا لابن
وتامر " لصاحب اللَّبَنِ والتمر . ويجمع على فَوَارِس . قال عنتره :
فإن يك عبد الله لاقى فوارسًا يردُّون خال العارضِ المتوقِّدِ
والفراسة - بالفتح - والفُرُوسَةُ والفُرُوسِيَّةُ الحِذْقُ بِركوب الخيل وأمورها . وقد فرُسَ
الرجل - بالضم - يَفْرُسُ . قال ابن ظفر : وليس مَنْ ركب الفرس له حكمُ الفراسة عند
العرب ؛ ولكن الفارس عندهم مَنْ أحسن الجلال على الفرس واشتهر بالشجاعة، كعمرو بن
مَعْدِي كَرَب، وربيعة بن مكرم، ومُلاعبِ الأَسِنَّةِ، وعنتره العبسي، وأضرابهم . فهؤلاء
فرسانُ العرب . وقال الشاعر :

لَعَمْرُ أبيك الخير إنِّي لَخادمٌ لضيبي وإنِّي إن ركبْتُ لفارسُ
فلم يتمدح بنفسِ الركوب . انتهى .

وهذا المثل يُضرب لمن يظنّ أنّ عنده غنى، ولا غنى عنده .

الخَيْلُ أَعْلَمُ مِنْ فُرْسَانِهَا .

هذا المثل يُضرب لمن تظنّ به ظنّاً فتجده على ما ظننت، هكذا قال بعض العلماء .
ويحتمل أنّ هذين المثلين واحد ؛ وإنّما وقع التحريف في أحدهما . وتفسير الثاني أنسب
بالأوّل، كما لا يخفى .

أَخِيكَ مِنْ مُذَالَةٍ .

يقال : خَالَ الرجل، يَخَالُ، واختَالَ، إذا تكبّر وتبختر عُجْبًا، فهو خَالٌ
وخَائِلٌ وخَالٍ - كَقَاصِرٍ - مقلوبًا، ومُخْتَالٌ . والْمُذَالَةُ - بالذال المعجمة - :
الاهانةُ . يقال : أَذَلْتُ الرجل، فهو مُذَالٌ . قال زَيْدُ الخَيْلِ يخاطب بني الصَّيْدَاءِ،
وكان غزا غزوة، فطلع بعض خيله فأدركوه فأخذوه :

يا بني الصَّيْدَاءِ رَدُّوا فَرَسِي إِنَّمَا يُصْنَعُ هَذَا بِالذَّلِيلِ
لَا تَذِيلُوهُ فَإِنِّي لَمْ أَكُنْ يَا بني الصَّيْدَاءِ لِمُهْرِي بِالْمُذِيلِ
عَوْدُوهُ كَالَّذِي عَوْدَتُهُ دَلَجَ اللَّيْلِ وإِيطَاءَ الْقَتِيلِ !
ويُحْكِي أَنَّ أبا تَمَّامَ الطَّائِي خرج قاصدًا البصرة، وفيها عبد الصَّمَد بن المُعَذَّلِ .
فلَمَّا سمع عبد الصَّمَد بقدومه إليها كتب إليه :

أَنْتَ بَيْنَ اثْنَتَيْنِ تَبْرُزُ لِلنَّاسِ وَكَلْتَاهُمَا بَوَجْهِ مُذَالٍ
لَسْتَ تَنْفَكُ رَاجِيًا لِرِوَاكِ مِنْ حَبِيبٍ أَوْ طَالِبًا لِنَوَالٍ
أَيُّ مَاءٍ لِحَرٍّ وَجْهَكَ يَبْقَى بَيْنَ ذَلِكَ الْهَوَى وَذَلِكَ السُّؤَالِ ؟
فلَمَّا وقف أبو تَمَّامَ على الأبيات رجع وقال : شغل هذا ما وراءه ولا حاجة لنا فيه .

وقريب من هذا قول بعضهم في هجو أبي الطيّب المتنبيّ :
أَيُّ فَضْلٍ لَشَاعِرٍ يَطْلُبُ الْفَضْلَ مِنَ النَّاسِ بَكْرَةً وَعَشِيًّا ؟
عاش حينًا يبيع في الكوفة الماءَ وحينًا يبيع ماءَ المُحِيَّا
وإنّما قال ذلك لما يُحْكِي أَنَّ أبا المتنبيّ كان سقّاء بالكوفة، واللّه أعلم !

ونحو الأول قول الإسعريّ في مجونه الهجويّة :
 أنت بين اثنتين يا نجل يعقوب . وكلتاها مقرّ السيّاده
 لست تنفكّ راغباً عرّدت عبد مُسبّطراً أو حاملاً خفّ غاده
 أيّ ماءٍ لحُرٍّ وجهك يبقى . بين ذلّ البِغَا وذلّ القياده
 والمذالّة في هذا المثل أرادو بها الأمة لأنّها تُذال، أي تُمتن بالخدمة وغيرها، وهي
 أكثر خلق الله اختيالا وتبختراً وعجياً، وذلك من ضعف عقلها وسقاطة نفسها ونقصان
 همّتها : فإنّ الهموم بقدر الهمم .

وممّا يلتحق بهذا الباب قولهم :

أَخْرَجْتُ لَهُ حَرِيشَتِي،

أي ملك يدي . وقولك مثلاً :

أَخْشَنُ مِنْ لَيْفَةٍ .

والخُسُونَةُ ضدّ اللَّيْنِ، واللَّيْف - بالكسر - ليف النخل، وهو معروف، والواحدة لَيْفَةٌ -
 بالهاء - وهذا المعنى مطرّد، كما مرّ في نظائره.
 ومن هذا الباب قولهم :

خِفَّةُ الظَّهْرِ أَحَدُ الْيَسَارَيْنِ .

جعلوا خِفَّةَ الظهر كناية عن عدم أو قلّة الحقوق اللازمة، والنفقات الواجبة، فإنّها
 للزومها، كالشيء المحمول على الظهر، يخفّ ويثقل . ولا فرق في أنّ الأحمال المحسوسة
 يحملها البدن المحسوس، والحقوق تحملها اللطيفة الروحانيّة من البدن، وهي الثّنب، وهذه
 أقلّ صبراً على الثقل للطافتها . واليسار : الغنى . وثنّي بحسب حقيقته ومجازه
 لاتّفاق اللَّفْظ . وقد قالوا من هذا النحو : الغُرْبَةُ أَحَدُ السَّبَاعَيْنِ، واللَّبَنُ أَحَدُ
 اللَّحْمَيْنِ، وتَعَجُّيلُ الْيَأْسِ أَحَدُ الْيُسْرَيْنِ، والشَّعْبُ أَحَدُ الْوَجْهَيْنِ أي
 النظر إلى الشعر كالنظر إلى الوجه ؛ وَالْحِمِيَّةُ إِحْدَا الْمَوْتَتَيْنِ - أي امتناع الطعام؛
 وَالْقَلَمُ أَحَدُ اللَّسَانَيْنِ ؛ وَالْخَالُ أَحَدُ الْأَبْوَيْنِ - والرّأْيَةُ أَحَدُ الْهَاجِيَيْنِ،

أي راوي الهجو كقائله . وهذا كله من تتنية الحقيقة والمجاز . وفي ذلك خلاف عند النحويين، والمشهور المنع والصحيح جوازه، وأنه لا يشترط اتفاق [معنى] المثنيين بل اللفظ فقط .

وممّا يشهد لصحته هذا الذي ذكرنا من الأمثلة، فإنّها أمثال من كلام العرب، ودليله من الشعر قول الشاعر :

كم ليثٍ اعتنّ لي ذا أشبلٍ غرثتُ فكَانَنِي أعظمُ اللَّيْثَيْنِ إقداماً
أي كان أعظم الليثين إقداماً إليّ . وقول الآخر :

يداك كَفَتِ إحداهُمَا كُلَّ بَائِسٍ وَأَخْرَاهُمَا كَفَتِ أذى كُلِّ مُعْتَدٍ
وإن كان في هذا احتمال ضعيف . وممّا يدلّ عليه قول جحدَر : ليث وليث في محلّ
ضنك، إذ لا فرق بين نحو هذا العطف وبين التثنية، فإنّه أصلها . وليس هذا محلّ تحرير
هذه المسألة والاحتجاج لها.
وقولهم أيضاً :

خَفِيفُ الْحَاذِ .

الحَاذُ] - بالذال المعجمة - الظَّهْر . وألفه عن واو، والذال لام الكلمة ومحلّ الإعراب،
وليس بعدها ياء كما يصحف . ومعنى خفيف الحاذ : قليل المال والعيال . وفي الحديث :
مُؤْمِنٌ خَفِيفُ الْحَاذِ .⁽¹¹⁾ وقولهم :

خَفِيفُ الرَّدَاءِ .

أي قليل العيال والدين . والرَّدَاءُ - بالكسر والمدّ - يُطلق على الملحفة المعروفة، وعلى
السيف والقوس، وعلى الجهل، وعلى ما زان وما شان - على الضدّ -، وعلى الوشاح، وعلى
الدين . وممّا يحسن أن يُتمثَّل به في هذا الباب قول النبي صلّى الله عليه وسلّم لابن
صيّاد :

(11) سقط ما بين معقوفتين من ب.

خَطَّ عَلَيْكَ الْأَمْرُ .

والقصّة مشهورة ؛ وقول أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب، رضي الله عنه :

هُوَ يَخْبَأُ وَأَبُوهُ يَكْنِزُ .

وذلك أنّ خبيثة بن كناز وليّ في خلافة الابلّة، فقال عمر، رضي الله عنه، : لا حاجة لنا به ! هو يخبأ وأبوه يكنز.

ومن الأمثال المولدة قولهم :

الخطّ الحسَنُ يَزِيدُ الحَقَّ وضوحًا،

بمعنى أنّه، إذا أُجيد الخطّ وبُيِّنَت الحروف، تبيّنت الألفاظ المؤدّية للمعاني، وانشرحت النفس، وانبسطت إليها، وأقبلت عليها، فكان قبولها للمعاني أتمّ، وفهمها لها أكثر . وقد قالوا : الخطّ أحدُ اللّسانين . وقالوا : حُسْنُ الخطّ إحدى الفصاحتين . وقال جعفر بن يحيى : الخطّ بسطُ الحِكم : به تَفْصَلُ شذوَرُها وَيُنْظَمُ مَنْثُورُها . وقال المبرّد : رداءة الخطّ زمانة الأدب . وقال الامام الماوردي : خطوط العلماء في الأغلب رديئة، لا شتغالهم بالعلم، حتّى قال الفضل ابن سهل : من سعادة المرء رداءة خطّه، أي لئلاّ يشغله تعلّم الخطّ عن تعلّم العلم . قيل : والأسباب المخلّة بالخطّ ثمانية : إسقاط ألفاظ منه، أو زيادة ألفاظ فيه، أو إسقاط بعض حروف الكلم، أو زيادة حروف أثناءها، أو وصل المفصول، أو فصل الموصول، أو تغيير الحروف حتّى يشتبه حرف بغيره، أو ضعف الخطّ جملة، أو إهمال النقط أو الشكل .

قيل : وقد استقبح الكتّاب النقط والشكل في مكاتباتهم، ورأوا ذلك من تقصير الكتّاب وسوء نظرهم في فهم المكتوب، لا سيما مكاتبات الرؤساء . كما حكى أنّ بعض كتّاب الديوان حاسب عاملا، فشكاه في رقعته إلى عبيد الله بن سليمان، فوقع فيها : هذا هذاه. فظنّ العامل أنّ عبيد الله أراد : هذا هذا، إثباتا لذلك القول، كما تقول في إثبات الشيء: هو هو . فحمل الرقعة للذي يحاسبه، فخفي عليه ما يقتضي التوقيع، فطيف به على الكتّاب، فلم يفهموه . فردّ إلى عبيد الله . فشدد الثانية وكتب تحتها : والله

المستعان! استعظاما لقصور نظرهم .

واستحسن آخرون النقط والشك، وقالوا : الخطوط المعجمة كالبرود المعلمة . وقالوا : إعجام الخطّ يمنع من استعجابه، وشكله يمنع من إشكاله . وقيل، ربّ علم لم تُعْجَمْ فصوله فاستعجم محصوله.

آلاتُ الكتابة وأصنافُ الكُتّاب

وإذ انجَرَّ بنا الكلام في الخطّ فلنكمّل الغرض بذكر ما تيسّر من آلات الكتابة، ومعنى الكتاب، والبراعة، والطبع، والتوقيع، والعنوان، وأصناف الكُتّاب، وجملّة من شعر الأدباء في ذلك، وهذا باب واسع ألف فيه النّاس . لكن نشير نحن إلى جملة يسيرة على وجه الاختصار يُنتفع بها .

فمن الآلات الدّواة - ووزنها فعلة كشجرة -، ثمّ قلبت الياء ألفا فصارت كفتاة وقناة، والجمع دويات - كقنوات - ودويّ - كقنيّ . قال الشاعر :

لِمَنْ الدَّارُ كَخَطٍّ بالدُّوَيِّ ؟ أَنْكِرَ الْمَعْرُوفُ مِنْهَا وَامْحَى
ودُويّ - بضمّ الأوّل - على فُعُول، كما يقال قُنِيّ وَعُصِيّ في الجمع . قال الشاعر
عَرَفْتُ الدِّيَارَ كَرَقَمِ الدُّوَيِّ حَبْرَهُ الْكَاتِبُ الْحَمِيرِي
وقال الآخر :

وَكَمْ تَرَكْتَ دِيَارَ الشَّرْكِ تَحْسِبُهَا تَلْقَى الدُّوَيُّ عَلَى أَطْلَالِهَا لَيْقًا
واشتقاقها من الدواء، لأنّ بها صلاح أمر الكاتب . واشتقاقها بعض الأدباء من قولك : دويّ
الرجل - بالكسر - دويّ إذا مرض، فقال :

أما الدّواة فادويّ حملها جسدي وحرف الحظّ تحريف من القلم
أي أمرضه . ونحو هذا الاشتقاق لا يُعتمد عليه . ويقال لصانعها مُدوّ، كما يقال لصانع
القني مُقْنِيّ، ولبائعها دواء [كحنّاط]⁽¹²⁾ لبائع الحنطة، ولحاملها داور - كسائف -
لصاحب السيف، ولمتخذها مُدور، وقد أدوّى دواة . ولما تُصان به صوان وغشاء وغلاف.
وما تسدّ به صمام ونسداد وعفاص، وكذا غيرها . ويقال لصوفتها، إذ اتفشت لتعمل فيها

(12) سقط من ب .

قبل أن تبلَّ، البوهة - بالضم - ، وإذا بُلَّتْ فهي اللَّيْقَةُ، وقد تُسمَّى به قبل ذلك مجازاً. ولقت الدواة فهي مَلِيقَةٌ، وأَلَقْتُهَا فهي مَلَاقَةٌ . فإن كانت من قطن فهي العطبة والكرسفة . والقطن كله يقال له ذلك . ولمدادها نِقْسٌ - بكسر الأوَّل، ويُفتح - . والمداد يذكر ويؤنث . ومَدَدْتُ الدَّوَاةَ مَدًّا : جعلته فيها ؛ وأمَدَدْتُها : زدتها منه ؛ واستمددت: أخذت بالقلم من المداد ؛ وأمَدَدْتُ فلانا من دواتي : أعطيته . ويقال للدَّوَاةَ مَحْبَرَةٌ - بالفتح - لأنها محلُّ الحَبَرِ - بالكسر - وهو النِّقْسُ ؛ ويقال لها النَّوْنُ والجمع أنوَان ونِيْنَان ؛ ويقال لها الرقيم أيضا . وأمَهْتُ الدواة ومَوَّهْتُهَا جعلتُ فيها ماء.

ومنها القلم، والجمع قِلَامٌ وأَقْلَامٌ - كجِبَالٍ وأَجْبَالٍ - . ويقال له المِزْبَرُ والمِذْبَرُ - بالذَّال المعجمة - لأنه يُزْبَرُ به ويُذَبَرُ، أي يُكْتَبُ، وقيل الذبر، بمعنى القراءة . ويقال للقصبيرة راعة واباءة والجمع يراع واباء ؛ ويقال لعُقْدَه الكُعُوبُ : فإن كانت فيه عُقْدَةٌ تشينه فهي الأَبْتَةُ ؛ ولما بين العُقْدَ الأنابيب، وكذا في الرماح . ويقال لطرفي القلم اللَّذين يكتب بهما السَّنَان والشَّعِيرَتَان، والواحد سنٌّ وشعيرة . فإن سُوِّيَا في القطع فهو قلم مبسوط، وإن جُعِلَ أحدهما أطول فهو مُحَرَّفٌ.

ومنها السكِّين والمقص . قال ابن عبد ربّه : ينبغي للكاتب أن يصلح آلته التي لا بدَّ له منها، وأداته التي لا تتمُّ صناعته إلَّا بها، وهي دواته . فلينعِمَ رباها وإصلاحها، ثمَّ يتخيَّرَ من أنابيب القصب أقلَّه عقدة، وأكثفه لحما، وأصلبه قشرا، وأعد له استواء . ويجعل لقرطاسه سكِّينا ليكون عوناً على بري أقلامه، ويبريها من ناحية نبات القصب . انتهى . ويقال السكِّين والمدية والمجزأة والمبراة والغالية والشَّلْثَاء - بالكسر والمد - ، وغير ذلك . ويقال المِقْصُ والمِقْرَاض والمِقْطَع - بكسر أوائلها - والجَلَم، وأكثر ما يُقال بالتثنية. قال الشاعر :

وَلَوْلَا نَوَالٌ مِنْ يَزِيدَ بْنِ مَزِيدَ لَصَوَّتَ فِي حَافَاتِهَا الْجَلَمَانِ
يعني لحيته . وجاء فيه الأفراد . قال سالم بن وابصة :

دَاوَيْتُ صَدْرًا طَوِيلًا غِمْرُهُ حَقْدًا . مِنْهُ وَقَلَّمْتُ أَظْفَارًا بِلَا جَلَمٍ
وقال أعرابي :

فَعَلَيْكَ مَا اسْطَعَّتِ الظُّهُورُ بِلَمَّتِي وَعَلَيَّ أَنْ أَلْكَأَ بِالْمِقْرَاضِ

وأما الكتاب فهو المكتوب، ويقال له الزُّبور والزَّبِير، والذَّبُور والذَّبِير . قال امرؤ القيس :

كَخَطِّ زَبُورٍ فِي مَصَاحِفِ رَهْبَانٍ

وقيل : الزُّبور في هذا البيت هو الكاتب، وهو الظاهر . فإن كان ما يُكتب فيه من جلود، فهو رَقَّ وقِرطاس - بكسر القاف وضمها -؛ وإن كان من خرق فهو كاغد - بَدَال مَهْمَلَة، وروي بمعجمة - . وقد يستعمل القِرطاس في الكل . ويقال لما يكتب الصحيفة والمُهْرَق - على وزن مُكْرَم - والجمع مَهَارِق . قال الأعشى :

رَبِّي كَرِيمٌ لَا يُغَيِّرُ نِعْمَةً وَإِذَا تَنَوَّسِدَ بِالْمَهَارِقِ أَنْشَدَا⁽¹³⁾
والقضية . قال امرؤ القيس :

وَبَيْنَ شَبُوبٍ كَالْقَضِيَّةِ قَرْهَبٍ

والسجل والصكّ والقطّ . وكذا كتب الجوائز والصلّات، والجمع صُكُوك وقُطُوط . قال الأعشى :

وَلَا الْمَلِكُ النُّعْمَانُ يَوْمَ لَقِيَّتْهُ بَغِيْطَتِهِ يُعْطِي الْقُطُوطَ وَيَأْفِقُ
وقال المتلمّس :

أَلْقَيْتُهَا بِالسَّيْنِ مِنْ جَنْبِ كَافِرٍ كَذَلِكَ أَقْنُو كُلَّ قَطٍّ مُضَلِّ
فإن كتب فيها بعد محو، فهي طرس . ونمّقت الكتاب نمّقا ونمّقتُه تنميّقا، وحَبَرْتُهُ وِرْقَتُهُ وزَوَرْتُهُ، تحبيراً وترقيشاً وتزويراً ؛ وكذا زَبَرْتُهُ وزخرفْتُهُ زَبْرَجَةً وزخرفةً، أي كتبتُه كتابة حسنة . فإذا نَقَطَهُ قَلتَ وَشَمَهُ وَشَمًا، وأعجمه إعجامًا، وِرْقَتُهُ تَرْقِيشًا . قال طرفة :

كَسُطُورِ الرَّقِّ رَقَّتْهُ بِالضُّحَى مُرَقَّتْهُ يَشِمُهُ
فإذا أفسد الخطّ قَلتَ مَجْمَجُهُ وَشَرْمَجَهُ وَهَلْهَلَهُ وَلَهْلَهَهُ، مجمجةً وشَرْمَجَةً وَهَلْهَلَةً وَلَهْلَهَةً، وَشَبَجَهُ تَثْبِيْجًا . وإذا لم يبينه قَلتَ دَحْمَسَهُ دَحْمَسَةً وَمَجْمَجَهُ وَعَقَمَهُ عَقْمًا وَعَقَلَهُ عَقْلًا . فإذا أدقّ الحروف وقارب بعضها من بعض قَلتَ قَرْمَطَ وَقَرَصَعَ قَرْمَطَةً وَقَرَصَعَةً . فإذا مدّ الحروف قَلتَ مَشَقَّ مَشَقًّا، وقيل المَشَقُّ سُرْعَةُ الْكِتَابَةِ وَخِفَتُهَا . فإن نقص شيئا فألحقه فهو لَحَقَّ وجمعه السَّحَاقُ .

(13) يروى هذا البيت أيضًا هكذا :

رَبِّي كَرِيمٌ لَا يَكْدُرُ نِعْمَةً وَإِذَا يَنْشَدُ بِالْمَهَارِقِ أَنْشَدَا

قال الشاعر :

عُورٌ وَحُولٌ وَثَالِثٌ لَهُمْ كَأَنَّهُ بَيْنَ أَسْطُرٍ لِحَقٍّ
فإن وضعت عليه بعد الكتب ترابا قلت تَرَبُّثُهُ تَتَرَبُّبًا، وأتَرَبُّثُهُ إِتْرَابًا ؛ أو نشارة قلت
نَشَرْتُهُ تَنْشِيرًا .

وأما البراءة، فهي في الأصل مصدر قولك : بَرَأْتُ من الأمر - بالكسر - بَرَاءَةً، أي
تبرأت ؛ وأما هذه البراءة المستعملة في صناعة الكتاب، فقال أبو محمد بن السيد، رحمه
الله، : سميت بذلك لمعنيين : أحدهما أن تكون من قولهم بَرَأْتُ إليه من الدَّيْنِ
براءةً، إذا أعطيتُهُ ما كان له عندك، وبرئت إليه من الأمر بَرَاءَةً، إذا تخلَّيت له عنه،
فكانَّ المرغوب إليه يتبرأ إلى الراغب مما أمْلَهُ لديه، ويتخلَّى له عمَّا رغب فيه إليه .
وقيل إنَّما كان الأصل في ذلك أنَّ الجاني كان، إذا جنى جناية يستحقُّ عليها العقاب ثمَّ
عفا عنه الملك، كتب له أمانا مما كان يتوقَّعه ويخافه، فكان يقال : كتبت لفلان براءة، أي
أمانا، ثمَّ صار مثلا واستعير في غير ذلك . قال : وقد جرت عادة الكتاب ألاَّ يكتبوا في
صدر البراءة : بسم الله الرحمن الرحيم، اقتداء بسورة براءة التي كتبت في المصحف من غير
بسملة .

وأما الطبع، فهو طبع الكتاب . تقول : طَبَعْتُ الكتاب طبعًا، وَخَتَمْتُهُ ختمًا،
وَأَفَقَّطُهُ أَفْقًا، ومن ذلك قول الأعشى السابق : يُعْطِي القُطُوطُ وَيَأْفِقُ، أي يختم .
ويقال لما يُطبع به طابع . قيل : وأوَّل من طبع الكتب عمرو بن هند، وذلك أنَّه، لما
أعطى المتلمَّس الصحيفة ليُقْتَلَ ثمَّ استقرَّها فهرب، كما سيأتي حديثه، أمر عمرو بعد
ذلك بالكتب تَخْتَم . فكان يؤتى بالكتاب مطبوعًا فيقال من عني به، فلتلك سمي
العنوان عنوانا . ثمَّ لما كتب النبي صلَّى الله عليه وسلَّم كتابا إلى ملك الروم ولم
يختمه، قيل له إنَّه لا يقرؤه إن لم يكن مختوما . فأمر أن يُعمل له خاتم وينقش على
فصّه: محمد رسول الله، فصار الختم سنة في الاسلام . وقيل أوَّل من ختم الكتاب سليمان
ابن داود، عليه السلام . وقيل في تأويل قوله تعالى : إِنِّي الْفَقِيءُ الْبَلِيءُ إِلَى كِتَابٍ
كَرِيمٍ، أي مختوم . وأكرمتُ الكتاب ختمته، وهو أوَّل من افتتح كتابه بالبسملة .

قيل : وكانت العرب تقول في افتتاح كتبها وكلامها . باسمك اللهم ! فجري الأمر على
ذلك في صدر الاسلام، حتَّى نزلت : لِيَسْمِ اللهَ مُجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا، فكتب رسول الله

صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : بِسْمِ اللّٰهِ، حَتَّى نَزَلَتْ قُلْ ادْعُوا اللّٰهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ،
فَكُتِبَ : بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمَنِ . ثُمَّ نَزَلَتْ : إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللّٰهِ
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَصَارَتْ سُنَّةٌ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا .

وَأَوَّلَ مَنْ كُتِبَ مِنْ فُلَانٍ إِلَى فُلَانٍ رَسُولَ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَصَارَ ذَلِكَ سُنَّةً،
يَكْتُبُ الْكَاتِبُ وَيَبْدَأُ بِاسْمِهِ قَبْلَ اسْمِ مَنْ يَخَاطِبُهُ، وَلَا يَكْتُبُ لِقَبًا وَلَا كُنْيَةً، حَتَّى وَلِيَ عُمَرُ بْنُ
الْخَطَّابِ وَتَسَمَّى بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَكُتِبَ : مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ . فَجَرَتْ السُّنَّةُ بِذَلِكَ إِلَى
أَيَّامِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَكَانَ الْوَلِيدُ أَوَّلَ مَنْ أَكْتَنَى فِي كُتْبِهِ، وَأَوَّلَ مَنْ عَظَّمَ الْخَطَّ
وَالْكَتْبَ وَجَوَّدَ الْقَرِاطِيصَ . وَلِذَلِكَ قَالَ أَبُو نَوَاسٍ :

سُبُطٌ مَشَافِرُهَا رَقِيقٌ خَطْمُهَا وَكَأَنَّ سَائِرَ خَلْقِهَا بُنْيَانٌ
وَاحْتِازَاهَا لَوْنٌ جَرَى فِي جِلْدِهَا يَقُقُ كَقَرِطَاسِ الْوَلِيدِ هِجَانٌ
فَجَرَتْ سُنَّةُ الْوَلِيدِ بِذَلِكَ إِلَى أَيَّامِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَبِزِيدِ الْكَامِلِ، فَإِنَّهُمَا لَمَّا وَلِيََا رَدَّ
الْأَمْرَ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ فِي زَمَنِ رَسُولِ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَزَمَنِ أَصْحَابِهِ رِضْوَانِ اللّٰهِ
عَلَيْهِمْ . فَلَمَّا وَلِيَ مَرْوَانَ رَجَعَ إِلَى أَمْرِ الْوَلِيدِ، فَجَرَى الْأَمْرُ عَلَيْهِ . ذَكَرَ ذَلِكَ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ
السَّيِّدِ، رَحِمَهُ اللّٰهُ تَعَالَى .

وَأَمَّا التَّوْقِيعُ فَهُوَ مَا يُلْحَقُ بِالْكِتَابِ بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنْهُ مِمَّنْ رَفَعَ إِلَيْهِ، كَالسُّلْطَانِ وَنَحْوِهِ مِنْ
وَلَاةِ الْأُمُورِ، كَمَا إِذَا رَفَعْتَ إِلَى السُّلْطَانِ أَوْ إِلَى الْوَالِي شِكَاةَ فَكُتِبَ تَحْتَ الْكِتَابِ أَوْ عَلَى ظَهْرِهِ :

يُنْظَرُ فِي أَمْرِ هَذَا، أَوْ : يَسْتَوْفَى لِهَذَا حَقُّهُ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ . فَهَذَا تَوْقِيعٌ .
وَرُفِعَ إِلَى جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى كِتَابٌ يُشْتَكَى فِيهِ بِعَامِلٍ، فَكُتِبَ عَلَى ظَهْرِهِ : يَا هَذَا، قَدْ قُلْتَ
شَاكِرُوكَ، وَكَثُرَ شَاكِرُوكَ، فَإِمَّا اعْتَدَلْتَ، وَإِمَّا اعْتَرَزْتَ !

وَرَفَعَ إِلَى الصَّاحِبِ بْنِ عَبَّادٍ كِتَابٌ فِيهِ : إِنَّ إِنْسَانًا هَلَكَ وَتَرَكَ يَتِيمًا وَأَمْوَالًا جَلِيلَةً لَا تَصْلَحُ
لِلْيَتِيمِ، وَقَصِدَ الْكَاتِبُ إِغْرَاءَ الصَّاحِبِ . فَأَخَذَهَا فَوَقَّعَ الصَّاحِبُ فِيهَا : الْهَالِكُ رَحِمَهُ اللّٰهُ،
وَالْيَتِيمُ أَصْلَحَهُ اللّٰهُ، وَالْمَالُ ثَمَرُ اللّٰهِ، وَالسَّاعِي لَعْنَةُ اللّٰهِ ! وَنَحْوَ هَذَا مِنَ التَّوْقِيعَاتِ .
وَالتَّوْقِيعُ فِي الْأَصْلِ التَّأْثِيرُ فِي الشَّيْءِ . يَقَالُ : حِمَارٌ مَوْقَعُ الظَّهْرِ، أَيُ أَصَابَتْهُ فِي ظَهْرِهِ
دَبْرَةٌ، فَسَمِّيَ هَذَا تَوْقِيعًا لِأَنَّهُ تَأْثِيرٌ فِي الْكِتَابِ حَسًّا أَوْ فِي الْأَمْرِ مَعْنَى ؛ أَوْ فِي الْوُقُوعِ
لِأَنَّهُ سَبَبٌ لَوْقُوعِ الْأَمْرِ الْمَذْكُورِ، أَوْ لِأَنَّهُ إِيقَاعٌ لِذَلِكَ الْمَكْتُوبِ فِي الْكِتَابِ : فَتَوْقِيعٌ كَذَا
بِمَعْنَى إِيقَاعِهِ .

وأما العنوان فهو ما يُجعل عليه، ليستدلّ به عليه ويقال فيه : عنوان وعُنْيَان - بضمّ الأوّل فيهما وكسره . - وأصله عُنَّان - على مثال رُمَّان - لأنّه مشتقّ من قولك : عَنَّ لي الأمر، يَعْنُ إذا عَرَضَ، لأنّه هو يعرض للكتاب من ناحية، وعَنَّتْه وعَنُّوْنَه وعَنَّاَه : كتب عنوانه . ويقال فيه أيضا عُلُوّان - باللام - وعَلُوْن الكتاب وعلاه تعلية : كتب عنوانه، وكلّ ظاهر شيء استدللت به على باطنه فهو عنوان له . قال الشاعر :

رَأَيْتُ لِسَانَ الْمَرْءِ رَائِدَ عَقْلِهِ وَعُنْوَانَهُ فَاَنْظُرْ بِمَاذَا تَعْنُونُ !

وقال الآخر :

ضَحَوْا بِأَسْمَطَ عُنْوَانُ السُّجُودِ بِهِ يَقْطَعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقُرْآنًا
وأما أصناف الكتّاب فكثيرة، منها : كاتب التدبير، وهو أجلّها وأعلاها درجة، وهو كاتب السلطان الذي يكتب سرّه ؛ ومنها كاتب أرباب الأحكام، وأجلّها كاتب القاضي، ثمّ كاتب صاحب المظالم، ثمّ كاتب صاحب الديوان - وهو الخراج -، ثمّ كاتب صاحب الشرطة ؛ ومنها كاتب العامل، وكاتب المجلس، إلى غير ذلك . وكلّ واحد منها له أحكام وآداب ذُكرت في محلّها .

ولهم أقلام مختلفة اصطلاحوا عليها في الكتابة، انتهى . مجموعها - بسحب ما ذكروا - إلى أحد وعشرين، وهي الجليل والسجلى - ويسمّى قلم الثلثين -، والقلم الرئاسي، والنصف، وخفيف النصف، والثلث، وخفيف الثلث، والمسلسل، وغبار الحلبة، وصغير الغبار - وهو قلم المؤامرات -، وقلم القصص، والحوائجي، والمحدث، والمدمج، وثقيل الطومار، وخفيف الطومار، والشامي، ومفتح الشامي، والمنثور، وخفيف المنثور، وقلم الجزم .

واختلف في أوّل من كتب : ف قيل آدم، عليه السلام، كتب الصحف قبل موته بثلاثمائة سنة في طين، ثمّ طبخه . فلمّا كان بعد الطوفان أصاب كلّ قوم كتابهم ؛ وقيل أوّل من كتب إدريس، عليه السلام ؛ وقيل أوّل من وضع الكتابة إسماعيل، عليه السلام، وضعها بلفظه ومنطقه ؛ وقيل أوّل من كتب قوم من الأوائل أسماؤهم أبجد، هوز، حطي، إلى آخرها . وكانوا ملوك مدين، وقيل هم أبجد، هوز إلى قرست ملوك مدين، فوضعوا الكتابة العربية على عدد حروف أسمائهم، وكان سيدهم كلّم فهلكوا يوم الظلّة، فقالت ابنة كلّم تراثيه :

كَلِمِنْ هَدَمَ رُكْنِي هُلْكُهُ وَسَطَ الْمَحَلَّةِ
 سَيِّدُ الْقَوْمِ أَتَاهُ الْحَتْفُ نَارٌ وَسَطَ ظِلِّهِ
 جَعَلَتْ نَارٌ عَلَيْهِمْ دَارُهُمْ كَالْمُضْمَحِلَّةِ

ويروى أيضا :

أَلَا يَا شُعَيْبُ قَدْ نَطَقْتَ مَقَالَةً سَبَقَتْ بِهَا عَمْرًا وَحِيَّ بَنِي عَمْرِ
 ملوكُ بني حُطَيٍّ هَوَزَ مِنْهُمْ وَسَعَفَضَ أَهْلٌ لِلْمَكَارِمِ وَالْفَخْرِ
 وقيـل هم أسماء ملوك الجن الذين سكنوا الأرض قبل آدم، عليه السلام، فألقيت إلى
 العرب ؛ وقيـل أسماء ملوك الجبابرة.

وقيـل أول من وضع الخطَّ العربي نفر من طيء من بولان، وهم : مرام بن مرة، وأسلم بن
 سدره، وعامر بن حدره . فساروا إلى مكة، فتعلَّمه منهم شَيْبَةُ بن ربيعة بن حرب بن
 عبد شمس، وعُتْبَةُ بن ربيعة، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وهشام بن
 المغيرة المخزومي . ثمَّ أتوا الأنبار فتعلَّمه نفر منهم . ثمَّ أتوا الحيرة فتعلَّمه منهم جماعة
 منهم : سفيان بن مجاشع بن عبد الله بن دارم وولده، يُسمَّوه بالكوفة بنو الكاتب . ثمَّ
 أتوا الشام فعلموه جماعة، فانتَهت الكتابة إلى رجلين من أهل الشام يقال لهما الضحَّاك
 وإسحاق بن حمَّاد، وكانا يخطَّان الخطَّ الجليل . فأخذ إبراهيم بن السجزي الخطَّ الجليل
 عن إسحاق بن حمَّاد واخترع منه خطًّا أخفَّ فسمَّاه الثلثين السَّابق . ثمَّ جعل الناس
 يختصرون ويغيِّرون حتَّى انتهى إلى ما مرَّ . وليس هذا محلَّ تفصيل هذا.

وأما ما قِيلَ من الشعر في وصف الكتاب أو الأقلام أو المحابر، أو تفصيل القلم على
 السيف أو العكس، فأكثر من أن يُحصى . وقد وضعت في ذلك موضوعات مستقلة . فمن
 مستحسن ذلك قول أبي الفتح البستي :

إِنْ هَزَّ أَقْلَامُهُ يَوْمًا لِيُعْمِلَهَا أَنْسَاكَ كُلَّ كَمِيٍّ هَزَّ عَامِلُهُ
 وَإِنْ أَقْرَّ عَلَى رَقٍّ أَنْأَمِلُهُ أَقْرَّ بِالرَّقِّ كُتَّابُ الْأَنَامِ لَهُ
 وقول الآخر :

يُؤْمِسُكَ الْفَارِسُ رَمَحًا يَبِيدُ وَأَنَا أَمْسِكُ فَيْدٍ قَصَبَهُ
 فَكَلَانَا فَارِسٌ فِي شَأْنِهِ : إِنَّ الْأَقْلَامَ رَمَاحُ الْكُتَّابَةِ

وقول الآخر :

وما روضُ الربيعِ وقد زهَاهُ نَدَى الأشجارِ يَارجُ بالغَدَاةِ
بِأُضْوَعٍ أو بِأَبْسَطٍ من نَسِيمِ تُودِيهِ الْأَفَاوَهُ مِنْ دَوَاةِ
وقول الآخر في خلاف هذا :

دَعِيَّ فِي الْكِتَابَةِ لَا رَوِيَّ لَهُ فِيمَا يُعَدُّ وَلَا بَدِيَّ
كَأَنَّ دَوَاتَهُ مِنْ رِيْقٍ فِيهِ تَلَاقُ فَرِيحَهَا أَبَدًا كَرِيَّهَ !
وقول بعضهم، وقد نظر إلى فتى عليه أثر المداد وهو يستره :

لَا تَجْزَعَنَّ مِنَ الْمِدَادِ فَإِنَّهُ عِطْرُ الرَّجَالِ وَحِلْيَةُ الْكُتَّابِ !
ويقال : أثر المداد دليل على الفضل، حتَّى [إنَّ] عبيد الله بن سليمان [رأى] صغرة
زعفران في ثوبه، فطلاها بالحناء وقال : المداد أحسن بنا من الزعفران !، وأنشد :
إِنَّمَا الزَّعْفَرَانُ عِطْرُ الْعَذَارَى وَمِدَادُ الدَّوَاةِ عِطْرُ الرَّجَالِ
وقول الآخر يهجو كاتبًا :

حمارٌ فِي الْكِتَابَةِ يَدْعِيهَا كَدَعَوَى آلِ حَرْبٍ فِي زِيَادِ
فَدَعُ عَنْكَ الْكِتَابَةَ لَسْتُ مِنْهَا وَلَوْ غَرَّقْتَ ثَوْبَكَ فِي الْمِدَادِ !
وقال بعضهم : كنت عند إبراهيم بن العباس وهو يكتب كتابا، فوقعت من القلم نقطة
مفسدة، فمسحها بكمه، فتعجبت، فقال : لا تتعجب ! المال فرع والقلم أصل، والأصل
أحوج من الفرع إلى المراجعة، وبهذا السواد جاءت الثياب . ثمَّ أطرق قليلا فأنشد :

إِذَا مَا الْفِكْرَ وَلَدَ حُسْنُ لَفْظٍ وَأَسْلَمَهُ الْوُجُودُ إِلَى الْعِيَانِ
وَوَشَّاهُ فَنَمْنَمَهُ مُسَدِّ فَصِيحٌ فِي الْمَقَالِ بِلَا لِسَانِ
تَرَى حُلَّ الْبَيَانِ مُنْشَرَاتٍ تَجَلَّى بَيْنَهَا صُورُ الْمَعَانِي
وكتب سليمان بن وهب بقلم صلب واعتمد عليه فصرَّ تحت يده فقال :

إِذَا مَا التَّقِينَا وَانْتَضَيْنَا صَوَارِمَا يَكَادُ يُصْمُ السَّامِعِينَ صَرِيرُهَا
تَسَاقَطَ فِي الْقُرْطَاسِ مِنْهَا بَدَائِعُ كَمَثَلِ الْآلِي نَظْمُهَا وَنَثِيرُهَا
تَقُودُ أَبْيَاتَ الْبَيَانِ بِفِطْنَةٍ يُكْشَفُ عَنْ وَجْهِ الْبَلَاغَةِ نُورُهَا
تَظَلُّ الْمَنَايَا وَالْعَطَايَا شَوَارِعَا تَدُورُ بِمَا شِئْنَا وَتَمْضِي أُمُورُهَا
إِذَا مَا خُطُوبُ الدَّهْرِ أُرْخَتْ سَتُورُهَا تَجَلَّتْ بِنَا عَمَّا تُسْرُ سَتُورُهَا

وقول أبي تمام يمدح محمد بن عبد الملك الزيَّات من قصيدة :

لك القلمُ الأعلى الَّذي بشباتِهِ
لَهُ الْخَلَوَاتُ الْإِلاءُ لَوْلَا نَجِيُّهَا
لُعَابُ الْأَفَاعِي الْقَاتِلَاتِ لُعَابُهُ
لَهُ رِيْقَةٌ طَلٌّ وَلَكِنْ وَقَعَهَا
فَصِيحٌ إِذَا اسْتَنْطَقْتَهُ وَهُوَ رَاكِبٌ
إِذَا مَا أَمْتَطَى الْخُمْسَ اللَّطَافَ وَأَفْرَغَتْ
أَطَاعَتُهُ أَطْرَافُ الْقَنَى وَتَقَوَّضَتْ
إِذَا اسْتَغْزَرَ الذَّهْنُ الذَّكِيَّ وَأَقْبَلَتْ
وَقَدْ رَفَدَتْهُ الْخِنْصِرَانِ وَسَدَّدَتْ
رَأَيْتَ جَلِيلًا شَأْنُهُ وَهُوَ مُرْهَفٌ
وقول أبي الفتح البُستي :

إِذَا أَقْسَمَ الْأَبْطَالُ يَوْمًا بِسَيْفِهِمْ
كَفَى قَلَمَ الْكِتَابِ مَجْدًا وَرَفْعَةً
وقول البحري :

تَعْنُو لَهُ وَزُرَاءُ الْمَلِكِ قَاطِبَةٌ
وقول الآخر :

إِنْ يَخْدُمُ الْقَلَمُ السَّيْفُ الَّذِي خَضَعَتْ
فَالْمَوْتُ، وَالْمَوْتُ لَا شَيْءَ يُقَابِلُهُ،
بِذَا قَضَى اللَّهُ لِلْأَقْلَامِ مِزْدَ بُرَيْتٍ
وقول أبي الطيب مناقضًا لهذا :

حَتَّى رَجَعْتُ وَأَقْلَامِي قَوَائِلُ لِي:
اكَتُبْ بِذَا أَبَدًا بَعْدَ الْكِتَابِ لَهَا

وقول سليمان بن جرير النمري في نحوه :
جَهَابَذَةٌ وَكِتَابٌ وَلَيْسُوا
سَتَذْكُرْنِي وَتَعْرِفُنِي إِذَا مَا

يُصَابُ مِنَ الْأَمْرِ الْكُلِّي وَالْمَفَاصِلُ
لَمَا اخْتَلَفْتُ لِلْمَلِكِ تِلْكَ الْمَحَافِلُ
وَأَرَى الْجَنَّا اشْتَارَتْهُ أَيْدٍ عَوَاسِلُ
بِآثَارِهِ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ وَابِلُ
وَأَعْجَمُ إِنْ خَاطَبْتَهُ وَهُوَ رَاجِلُ
عَلَيْهِ شَعَابُ الْفِكْرِ وَهِيَ حَوَافِلُ
لِنَجْوَاهُ تَقْوِيضُ الْخِيَامِ الْجَحَافِلُ
أَعَالِيهِ فِي الْقِرَاطِ وَهِيَ أَسَافِلُ
ثَلَاثَ نَوَاحِيهِ الثَّلَاثُ الْأَنَامِلُ
ضَنْىَ وَسَمِينًا خَطْبُهُ وَهُوَ نَاحِلُ

وَعَدُوهُ مِمَّا يُكْسِبُ الْمَجْدَ وَالْكَرَمُ
مَدَى الدَّهْرِ أَنَّ اللَّهَ أَقْسَمَ بِالْقَلَمِ

وعادة السَّيْفِ أَنْ يَسْتَخْدِمَ الْقَلَمَ

لَهُ الرِّقَابُ وَدَانَتْ خَوْفَهُ الْأَمَمُ
مَا زَالِ يَتَّبَعُ مَا يَجْرِي بِهِ الْقَلَمُ
أَنَّ السُّيُوفَ لَهَا مِزْدُ أَرْهِفَتْ خَدَمُ

الْمَجْدُ لِلْسَّيْفِ لَيْسَ الْمَجْدُ لِلْقَلَمِ
فَإِنَّمَا نَحْنُ لِلْأَسْيَافِ كَالْخَدَمِ !

بِفُرسَانِ الْكِرِيهَةِ وَالطَّعَانِ
تَلَاقَى الْحَلَقَتَانِ مِنَ الْبِطَانِ

وقول كُشَّاجِم :

هنيئًا لأصحابِ السُّيُوفِ بطالةٌ
وكم فيهمُ من دائمِ الأَمْنِ لم يَرُعْ
وكلُّ ذوي الأَقْلَامِ في كلِّ ساعةٍ
وقول الآخر في مدح القلم وأهله :

قومٌ إذا أخذوا الأَقْلَامَ من قصبٍ
نالوا بها من أعاديهم وإنْ بعدوا
وقول البحترى يمدح الحسن بن وهب، ويصف أقالمه :

وإذا تَأَلَّفَ في النَّدْيِ كلامه
وإذا دَجَّتْ أَقْلَامُهُ ثُمَّ انْتَحَتْ
فَاللَّفْظُ يَقْرُبُ فَهْمُهُ فِي بُعْدِهِ
حِكْمٌ فَسَائِحُهَا خِلَالُ بَنَانِهِ
فَكَأَنَّمَا وَالسَّمْعُ مَعْقُودٌ بِهَا
وقوله أيضا في ابن الزيات :

لتَصَرَّفَتْ فِي الْكِتَابَةِ حَتَّى
فِي نِظَامٍ مِنَ الْبَلَاغَةِ مَا شَكَّ
وَبَدِيعَ كَأَنَّهُ الزَّهْرُ الضَّامَا
مَا أُعِيرَتْ مِنْهُ بُطُونُ الْقَرَاطِيسِ
حُزْنَ مُسْتَعْمَلِ الْكَلَامِ اخْتِيَارًا
كَالْعَذَارَى غَدُونٍ فِي الْحُلَلِ الصُّفْرِ
ومن أمثال الأدباء قولهم :

أَخَفُ مِنْ دِينَارٍ يَحْيَى،

وهو يحيى بن علي، أعطى بعض الأدباء دينارا خفيفا، فقال فيه عدة مقاطيع، منها :
دِينَارُ يَحْيَى زَائِدُ النُّقْصَانِ فِيهِ غَلَامَةٌ سَكَّةُ الْحَرَمَانِ

قَدْ رَأَى مَنْظَرَهُ وَرَقَّ خَيَالُهُ فَكَأَنَّهُ رُوحٌ بِلَا جُثْمَانِ
أَهْدَاهُ مَكْتَتَمًا إِلَيَّ بَرَقْعَةً فَوَجَدْتُهُ أَخْفَى مِنَ الْكِتْمَانِ !
ومن أمثال العامة قولهم :

خَالِفْ تَعْرِفْ !

ونحوه قول الشاعر :

خَلَفًا لِرَأْيِي مِنْ فَيَالَةِ رَأْيِهِ كَمَا قِيلَ قَبْلَكَ الْيَوْمَ : خَالِفْ فَتَذَكَّرَا !
ويظهر من هذا البيت أنَّ المثلَّ قديم، والبيت أنشده الجاحظ.

ولنلمَّ الآن بشيء من الشعر في هذا الباب . قال الشاعر :

تَرَكْتُ النَّبِيذَ لِأَهْلِ النَّبِيذِ وَأَصْبَحْتُ أَشْرَبُ مَاءٍ نُقَاخَا
شَرَابَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ وَمَنْ لَا يُحَاوِلُ مِنْهُ اطِّبَاخَا
رَأَيْتُ النَّبِيذَ يُدَلُّ الْعَزِيزَ وَيَكْسُو التَّقِيَّ النَّقِيَّ اتِّسَاخَا
فَهَبْنِي عَذْرَتُ الْفَتَى جَاهِلًا فَمَا الْعُذْرُ فِيهِ إِذَا الْمَرْءُ شَاخَا ؟
قوله ماءٌ نُقَاخَا، أي باردًا عذبًا صافيًا، وهو بضمَّ النُّون وبالْقَاف - على مثال غُرَاب - .
وقال الآخر :

نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ أَنْكَاسٍ تَشِيخُوا قَبْلَ أَنْ يَشِيخُوا
تَقَوَّسُوا وَانْحَنَوْا رِيَاءَ فَاحْذَرَهُمْ : إِنَّهُمْ فُخُوحُ !

وأشار بهذا التمثُّك في الرياء إلى نحو ما حكى في الاسرائليات أنَّ عصفورة وقفت على فخٍّ
فقالَتْ له : مالي أراك منحنيًا ؟ قال : لكثرة صلَّاتي انحنيت . قالت : فمالي أراك بادية
عظامك ؟ قال : لكثرة صيامي، بدت عظامي ! قالت : فما هذا الصوف عليك ؟ قال : لزهادتي
لبست الصوف . قالت : فما هذه العصا عندك ؟ قال : أتوكَّؤُ عليها وأقضي بها حوائجي .
قالت : فما هذه الحبة في يدك ؟ قال : قربان، إن مرَّ بي مسكين ناولته إياها . قالت :
فإني مسكينة . قال : خذوها ! فقبضت على الحبة فإذا الفخُّ في عنقها، فصاحت : قعى!
قعى ! وتفسيره : لا غرنبي مرَّاءٍ بعدك أبدا !

وممَّا جاء في الرياء، أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْهُ !، قوله صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم : إِنَّ أَخَوْفَ مَا
أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشَّرْكَ الْأَصْغَرُ . قالوا : وما الشَّرْكَ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قال :

الرِّيَاءُ . يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جَازَى الْعِبَادَ بِأَعْمَالِهِمْ
 اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تَرَاوُونَهُمْ فِي الدُّنْيَا، فَانظُرُوا كَيْفَ
 تَجِدُونَهُمْ عِنْدَهُمْ الْجَزَاءَ . وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَنْ رَأَى، رَأَى اللَّهَ
 بِهِ، وَمَنْ سَمِعَ سَمِعَ اللَّهَ بِهِ⁽¹⁾ . وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَنْ أَسَرَ
 سَرِيرَةً أَلْبَسَهُ اللَّهُ رِدَاءَهَا، إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ . وَالْآيَاتُ
 وَالْأَحَادِيثُ وَالْآثَارُ فِي ذَمِّ الرِّيَاءِ وَالتَّنْفِيرِ عَنْهُ لَا تُحْصَى وَهِيَ مشهورة . وَفِي مَعْنَى ذَلِكَ
 قَوْلُ الشَّاعِرِ :

وَإِذَا أَظْهَرْتَ شَيْئًا حَسَنًا فَلْيَكُنْ أَحْسَنَ مِنْهُ مَا تُسِرُّ
 فَمُسِرُّ الْخَيْرِ مَوْسُومٌ بِهِ وَمُسِرُّ الشَّرِّ مَوْسُومٌ بِشَرِّ
 وَقَوْلُ الْآخَرِ فِي الْمُتَشَابِهِينَ :

أَهْلَ الرِّيَاءِ لِبَسْتُمْ نَامُوسَكُمْ كَالذِّئْبِ يَدْجُجُ فِي الظَّلَامِ الْعَاتِمِ
 فَمَلَكْتُمْ الدُّنْيَا بِمَذْهَبِ مَالِكٍ وَقَسَمْتُمْ الْأَمْوَالَ بَابِنِ الْقَاسِمِ
 وَرَكِبْتُمْ شُهْبَ الْبِغَالِ بِأَشْهَبِ وَبَأْصَبِغِ صُبْغَتِ لَكُمْ فِي الْعَالَمِ
 وَقَوْلُ الْآخَرِ :

قُلْ لِلَّامِمْ سَنَا الْأَيْمَةِ مَالِكٍ نُورِ الْعَيُونِ وَنُزْهَةِ الْأَسْمَاعِ :
 لِلَّهِ دُرُكٌ مِنْ هُمَامٍ مَاجِدٍ قَدْ كُنْتَ رَاعِيَنَا فَنَعَمْ الرَّاعِي !
 فَمَضَيْتَ مُحَمَّدٌ النَّقِيبَةَ طَاهِرًا وَتَرَكْتَنَا قَصَا لَشَرٍّ سَبَاعِ
 أَكَلُوا بِكَ الدُّنْيَا وَأَنْتَ بِمَعْزَلٍ طَاوِي الْحَشَا مُتَكَفِّتِ الْأَضْلَاعِ
 تَشْكُوكَ دُنْيَا لَمْ تَزَلْ بِكَ بَرَّةً مَاذَا رَفَعْتَ بِهَا مِنَ الْأَوْضَاعِ
 وَقَالَ مُحَمَّدُ الْوَرَّاقُ لَابِنِ أَخْتِهِ :

تَصَوَّفَ كَيْ يَقَالَ لَهُ أَمِينٌ وَمَا مَعْنَى التَّصَوُّفِ وَالْأَمَانَةُ ؟
 وَلَمْ يُرِدِ إِلَهَ بِهِ وَلَكِنْ أَرَادَ بِهِ الطَّرِيقَ إِلَى الْخِيَانَةِ !
 وَقَوْلُ الْآخَرِ :

صَلَّى وَصَامَ لِأَمْرِ كَانَ يَطْلُبُهُ وَمُذْ حَوَاهُ فَمَا صَلَّى وَلَا صَامَا !
 وَقَوْلُ الْآخَرِ :

شَمَّرَ ثِيَابَكَ وَاسْتَعَدَّ لِقَابِكَ وَاحْكُكْ جَبِينَكَ لِلْقَضَاءِ بِثُومِ

وَعَلَيْكَ بِالْغَنَوِيِّ فَاجْلِسْ عِنْدَهُ حَتَّى تَصِيبَ وَدِيعَةً لِيَتِمَّ !
وقول الآخر :

لَا شَيْءَ أَخْسَرَ صَفْقَةً مِنْ عَالَمٍ لَعِبْتَ بِهِ الدُّنْيَا مَعَ الْجُهَّالِ
فَعَدَا يُفَرِّقَ دِينَهُ أَيْدِي سَبَا وَيَدْلِيهِ حِرْصًا بِجَمْعِ الْمَالِ
لَا خَيْرَ فِي كَسْبِ الْحَرَامِ وَقَلَّمَا يَرْجَى الْخُلَاصُ لِكَاسِبِ لِحَالِ
فَخُذِ الْكَفَافَ وَلَا تَكُنْ ذَا فَضْلَةٍ فَالْفَضْلُ تُسْأَلُ عَنْهُ أَيُّ سُؤَالِ !
وقول بعضهم، وقد رأى ثمَّ افتضح، نعوذ بالله :

بَيْنَا أَنَا فِي تَوْبَتِي مُقْبِلًا قَدْ شَبَّهُونِي بِابْنِ رَوَادِ
وَقَدْ حَمَلْتُ الْعِلْمَ مُسْتَظْهِرًا وَحَدَّثُوا عَنِّي بِإِسْنَادِ
إِذْ خَطَرَ الشَّيْطَانُ بِي خُطْرَةً نَكِسْتُ مِنْهَا فِي أَبِي جَادِ
وقال آخر يخاطب معزولا :

وَلَوْ كُنتَ إِذْ عَلِمُوا بِجَهْلِكَ مَنْصِبًا عِلْمُوا بِأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ تَبْرُخُ
طَبَخُوا بِنَارِ الْعِزْلِ قَلْبَكَ بَعْدَ ذَا وَكَذَا الْقُلُوبُ عَلَى الْمَنَاصِبِ تَطْبُخُ
وقال الآخر في حمَّام :

حَمَّامُكُمْ قِيَمُهُ أَسْوَدُ هَرَبْتُ مِنْهُ وَأَنَا صَارُخُ :
قَدْ سَلَخْتُ جِسْمِي أَظْفَارُهُ يَا قَوْمُ هَذَا الْأَسْوَدُ السَّالِخُ !
وفي هذين الشعرين التورية، وهي أن يذكر الشاعر لفظا له معنيان : قريب وبعيد . ويريد
البعيد نحو قوله تعالى : الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى، فإنَّ المراد أحد معنيي
الاستواء، وهو الاستيلاء قهرا وغلبة، وهو المعنى الأبعد لأنَّه مجاز، وتُسمَّى التورية
إيهاما. فإن كان المعنيان مستويين، سمِّي ذلك توجيها . وقد تقدَّم في ذلك جملة من
الشعر في الأبواب السابقة، ونحن نزيد [هنا] من مستحسن ذلك قول بعضهم يُهنِّئ
بعيد النحر :

تَهْنِئَ بَعِيدَ النَّحْرِ وَابْقَ مُنْتَعَا بِأَمْثَالِهِ سَامِيَ الْعُلَى نَافِذَ الْأَمْرِ !
تُقَلِّدُنَا فِيهِ قَلَائِدُ أَنْعَمَ وَأَحْسَنُ مَا تَبْدُو الْقَلَائِدُ فِي النَّحْرِ
وقول الآخر :

بِرُوحِي أَقْدِي خَالَهُ فَوْقَ خَدِّهِ وَمَا أَنَا فِي الدُّنْيَا فَأَقْدِيهِ بِالْمَالِ

تَبَارَكَ مَنْ أَخْلَى مِنَ الشَّعْرِ خَدَّه
وقول الآخر :

مُهَفِّهَف الْقَدِّ إِذَا مَا انْتَنَى
مَا أَنْتَ كِفْلِي يَا كَثِيبَ اللّٰوِي
لَوْ نِلْتُ مِنْ خَدِّهِ تَقْبِيلَةً
وقول الآخر :

قُلْتُ لِلْأَهْيَفِ الَّذِي فَضَحَ الْغُصْنَ :
قَالَ : قَوْلُ الْوُشَاةِ عِنْدِي رِيحٌ
وقول الآخر :

تَهَاوَنَ شَمْسُ الدِّينِ بِي وَهُوَ صَاحِبُ
نَزَلَتْ بِهِ أَبْغِي النَّدَا وَهُوَ طَالِعُ
وقول الآخر فِي حَقِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
يَا عَيْنُ إِنْ بَعْدَ الْحَبِيبِ وَدَارُهُ
فَلَقَدْ ظَفِرْتَ مِنَ الزَّمَانِ بِطَائِلِ
وقول الآخر :

عَايَنْتُهُ وَدَمُوعِي غَيْرُ جَارِيَةٍ
فَقَالَ : لَمْ أَدْرِ وَكَفَ الدَّمْعُ . قُلْتُ لَهُ :
وقول الصفدي مع حسن التضمين :
مَلَكْتُ كِتَابًا أَخْلَقَ الدَّهْرُ جِلْدَهُ
إِذَا عَايَنْتُ كُتُبِي الصَّحِيحَةَ حَالَهُ
وقول أبي بكر بن حجة :

عَزَمْتُ عَلَى السُّلُوِّ لَطُولَ هَجْرِي
وَكَانَ الْعُذْرُ يُقْبَلُ فِي سُلُوِّي
وقول البدر الدمايني :

وَبِي وَجَنَّةٌ حَمَاءُ زَادَ صِفَاؤُهَا
فَدَعَمَ لَاتَمِّي فِيهَا عَنِ الْحُبِّ جُهِدُهُ

وَأَسْكَنَ كُلَّ الْحُسْنِ فِي ذَلِكَ الْخَالِ !

قَالَ ، وَلَا يَخْشَى مِنْ الْوَدِّ :
وَلَسْتُ يَا غُصْنَ النَّقَا قَدِّي !
تَزِيْنُ الرِّيْحَانَ بِالْوَرْدِ

كَلَامُ الْوُشَاةِ مَا يَنْبَغِي لَكَ
قُلْتُ : أَخْشَى يَا غُصْنَ أَنْ تَسْتَمِيلَكَ !

وَأُظْهِرُ لِي أَضْعَافَ مَا يُظْهِرُ الْعِدَا
وَعِنْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ يَرْتَفِعُ النَّدَا !
وقول الآخر :

وَنَأَتْ مَرَابِعُهُ وَشَطَّ مَزَارُهُ
إِنْ لَمْ تَرِيهِ فَهَذِهِ آثَارُهُ

لَأَنَّ دَمْعِي مِنْ طُولِ الْبُكَاءِ نَشَفَا
حَسِيبُكَ اللَّهُ يَا بَدْرَ الدُّجَا وَكَفَا !

وَمَا أَحَدٌ فِي دَهْرِهِ بِمُخَاَدِّ
يَقُولُونَ : لَا تَهْلِكُ أَسَى وَتَجَلَّدُ !

فَجَاءَتْنِي عَوَارِضُهُ تَعَارِضُ
وَلَكِنْ مَا سَلَمْتُ مِنَ الْعَوَارِضِ

فَأَبْدَتْ صِفَاتِ أْبْدَعِ الْحُسْنِ كَوْنَهَا
فَمَا أَنَا بِالسَّالِي صِفَاها وَلَوْنَهَا

وقول ابن جعفر العسقلاني :

قد جئت في علم الأصول لنا وفي
برزت في هذا وفي هذا على
علم الفروع بخالص الأبريز
الرازي بالاحسان والتبريزي
وقوله :

خليلي ولّي العمر منّا ولم نتب
فحتّى متى نبني بيوتاً مشيدة
وننوي فعال الصالحين ولكنّا
وأعمارنا منّا تهدّ وما تبنا ؟
وقول المعمار :

إن قام يتلو سورة الشمس المنيرة في ضحاها
يا حسنه فكأنه القمر المنير إذا تلاها

وقوله :

تملك قلبي صارم قد هويته
أقول لصحبي حين يرنو بلحظه:
من الهند معسول اللّمي أهيف القد
خذوا حذرکم قد سلّ صارمه الهندي
وقول الآخر :

يا من تولّى قاضيّا
عذرک في نسياننا
هذا قضاء أم قدر ؟
أنّ القضا يعمي البصر !
وقول ابن العفيف :

ليس خليلاً ولكنه
يا ردفه جرّت على خصره
يضمّم في الأحشاء نار الخليل
رفقاً به ما أنت إلاّ ثقیل !
وقوله ممّا يكتب على كأس :

أدور لتقبيل الندامى ولم أزل
وأكسو أكفّ الشرب ثوباً مذهباً
أجود بروحي للندامى وأنفاسي
فمن أجك هذا لقبوني بالكاس
وقوله في مليح خيالي :

خيالي أخاف الهجر منه
وكنّت عهدتني قدماً شجاعاً
وليس أراه يرغب في وصالي
فمالي صرت أفرع من خيالي ؟
وما قيل في التورية والتوجيه أكثر من أن يحصى . ولولا خوف الاطالة لأوردنا من مستحسن
ذلك ما يكون جزءاً مستقلاً، وليس ذلك من غرضنا . وأنا أذكر هنا بعض ما اتّفق لي نظمه

في باب التورية أو التوجيه من غير تعبئة لنزول هذا الميدان، ومطاردة هؤلاء الفرسان . فمن ذلك قلبي :

بنفسي من أضحي فؤادي طائرًا على غصنٍ من قدّه اللدن ميّالٍ
على روضةٍ من خدّه الخالٍ عارضٌ وأبْهَجُ روض ما علًا عارضٍ الخالٍ
وفيه التورية بالطائر من حيث إنّه اسم فاعل أو اسم ذي الجناح على التشبيه وحرف الجرّ
بعده للتعليل على الأوّل والاستعلاء على الثاني، والتورية بالخال من حيث إنّه النقطة أو
الغيم المخيل بالمطر مع الجناس بين على وعلًا والعكس .
وقولي :

مررتُ على بالٍ من الرّبّع دارسٍ بكُلِّ ربابٍ عارضٍ اسحمٍ خالٍ
ففاضت شؤون الجفن من ذكر حيرتي وثار هواهم إذ مررت على البالٍ
وفيه التورية بالخال من حيث إنّه وصف للدارس من الخلوّ أو وصف للرباب بمعنى المخيل
كما مرّ . والتورية بالبال آخرًا من حيث إنّه راجع إلى الربع من البلى أو إنّه الفكر والخطر
ومعمول مررتُ علَيْنِ محذوف أيّ عليه .
وقولي :

وعاذِلْ عَنِ الْهَوَى عَادِلٍ يَدْعُو لِأَمْرِ فِي الْهَوَى إِمْرٍ
قَالَ اسْلُهِمْ وَأَصْبِرْ فَكَمْ ذَائِقِرٍ أَمْرٌ فِي الْعَجْرِ مِنَ الصَّبْرِ
وزع عِنَانَ الْقَلْبِ عَمَّا جَرَى عَلَيْهِ مِنْ بَلَوَاءٍ أَوْ يَجْرِي
فَأَيُّ عُذْرٍ فِي اتِّبَاعِ الصَّبَا ؟ قُلْتُ لَهُ إِنَّ الْهَوَى عُذْرِي
وفيه التورية بالصبر من حيث إنّه على معناه أو أنّه المرء المعروف . وأصله صبر ثمّ خفف
بالتسكين والتورية يجري من حيث إنه من الجريان بقريئة العنان أو أنّه من الوقوع . والمعنى
عليهما واضح . والتورية بالعذر من حيث أنّه بمعنى الاعتذار أضيف إلى ياء المتكلم أو
منسوب إلى بني عذرة، وهو الهوى الشديد، والمعنيان ظاهران .
وقولي :

قَالَ الْعُذُولُ إِذْ بَدَأَ	بِعَارِضٍ مُعَذِّرٍ :
الْوَجْهَ الْاِعْتَزَالَ عَنْ	هَذَا الْوَجْهِ الْأَشْعَرَ
فَقُلْتُ : ذَاكَ الْوَجْهَ	يَبْقَى فِيهِ فَضْلُ نَظَرٍ

وفيه التورية في الأشعر مع الاعتزال من حيث إنّه وصف كأحمر - أي ذو شعر - أو بياض النسبة . والتورية في النظر والوجه من حيث إنّه نظر البصر أو نظر البصيرة، والوجه وجه الحبيب أو وجه الدليل .

وقولي من قصيدة زمن الصبا أخطب شيخنا الامام أمتعني الله به :
وفينا معانٍ بيّنتُ قِدمَ الهوى فليسَ لعمري بالبديعِ إلى الصّدر
وقد أعربتُ جزءًا بنصبٍ أدلّةٍ فيُرفع ما بيني على الظّنّ من هجر
فإن لم يكن عن ذاك فعليّ مُعربًا تغنّيت بالماضي من الحال والأمّر
وهذه التوريات واضحة كلّها، وقد وقع لي مثك هذا النوع كثيرا ولم أذكره .

وقولي من قصيدة أخرى موريا بالعباب و « الجوهري » من كتب اللغة :
وعبرتُ من لُججِ العلوم عُبَابها حتّى انثنتُ بمنفُساتِ الجوهر
وهذه القصيدة خاطبت بها بعض فضلاء العصر . فلما وقف عليها استحسناها هو وجماعة من الفضلاء الواقفين عليها غاية . وكان من أغبياء الطلبة بعض من لم يرتق فهمه إلى ألفاظها، فضلا عن معانيها، فتعلّك لنفسه القاصرة بأنّها مشتملة على الوحشيّ من اللغة . فلما بلغني ذلك قلت :

تسامى لأذيالي مُذالٍ ولم أكنْ لكلّ ذليكَ بالذّلول ولا السّهْل
ورامَ مرَاماتِ امرئٍ طالما علّا على الحزن من فيح البلاغة والسّهْل
وارسلتها غراء ليس يذيمُها سوى العمي عن شمس الظهيرة والجُهْل
فأنكر جهلاً ما حوته رسالتي ولا غرّوا فالتكذيب شأنُ أبي جهل !
وفيه التورية بأبي جهل مع الجناسات الكثيرة . والجُهْل - بضمّ فسكون - جمع جاهل .
وتخلف بعض أصحابي عن مجلس الدرس في اليوم المسمّى بالعجوز، آخر نيّير، حبسه البرد، فكتبت إليه على سبيل المطايبة :

أعجرتَ عنّا بالعجوز ولم يكنْ رجلٌ لتمنّعه عجزٌ عائده ؟
وعدلت عن أبحار فكريّ بكرة اتّباعُ بكرٍ بالعجوز الباردة ؟
وفيه التورية بالعائدة من حيث إنّه وصف للعجوز - أي صارفة وعائقة - وأنّه معمول المنع بمعنى العطية والصلة، وفي العجوز [أيضا] بين اليوم والمرأة بقرينة ذكر الرجل . وينشد أيضا عجز جالدة أو فائدة، وفي كليهما التورية : فالجالدة إمّا بمعنى ذات الجليد، من

قولك جَلَدْتَ الأرضُ - بالكسر -، تَجَلَّدُ فهمي جَلْدَةً وجالِدَةً، اعتباراً للعجوز بمعنى اليوم على قصد الليلة أو الصبيحة والبركة ؛ وإمّا بمعنى المدافعة والمقاتلة، من قولك جَلَدْتُهُ بالعصا : ضربته، اعتباراً للعجوز بمعنى المرأة ؛ والفائدة إمّا بمعنى الافادة وهو معمول المنعم، أو بمعنى الهالكة، من قولك : فَاد، يَفِيدُ، فَيَدًا، إذا هلك ومات، اعتباراً للعجوز بمعنى المرأة وأنها هرمة فانية، فكيف تغلب الرجال ؟ والتورية في العجوز الباردة واضحة ؟ وأعلم أنَّ التورية والتوجيه أعلى فنون البديع وأجلّها وأدقّها، وهو أحد معاريض البلغاء الذي يرفلون به في الحل الرقائق، وينجون بفُسْحَتِها من المضائق .

فمن أظرف ما وقع من ذلك ما رُوِيَ عن خالد بن الوليد، رضي الله عنه، أنَّه لمّا نزل على الحيرة أتاه عبد المسيح الغسّاني، وهو ابن ثلاثمائة وخمسين سنة . فلمّا مثل بين يديه قال له : أنعم صباحاً أيها الأمير ! فقال له خالد : قد أغنى الله عن تحيَّتكم بسلام عليكم . ثمَّ قال له خالد : من أين أقصى أثرك أيها الشيخ ؟ قال : من ظهر أبي . قال : من أين خرجت ؟ قال : من بطن أمِّي . قال : فَعَلَا مَ أنت ؟ [قال : على الأرض . قال : فيم أنت ؟ قال : في ثيابي . قال : أتعقل ؟ قال : إي والله، وأقيد . قال : ابن كم أنت ؟] (2)

قال: ابن رجل وامرأة . قال : ما سنّك ؟ قال : عظم . قال : كم سنّك ؟ قال : اثنان وثلاثون . بين ضرس وغيض . قال : كم لك من السنين ؟ قال : السنون كلّها لله . قال : كم أتى عليك ؟ قال : لو أتى عليّ شيء لقتلني . قال : كم عمرك ؟ قال : لا يعلمه إلّا الله . فقال خالد : ما رأيت كالיום إنساناً أسأله عن شيء وهو ينحو في غيره . فقال : ما أجبتك إلّا عن مسألتك .

وما روي عن النبي صلّى الله عليه وسلّم حيث قال له الأعرابيُّ : مَنْ أَنْتُمْ ؟ فقال صلّى الله عليه وسلّم : نَحْنُ مِنْ مَاءٍ، والقصة مشهورة.

وما رُوِيَ من أنَّ رجلاً وقف بباب المأمون ليشتكو فلم يجد من يدخله فصاح : أنا أحمد المصطفى النبي المبعوث ! فأخذ . وأدخل على المأمون وقيل له إنّه تنبأ، فسئل عن أمره فذكر شكواه فقال له : ما هذا الذي حكى عنك ؟ قال : ما هو ؟ قال : إنهم قالوا إنك تنبأت . قال : معاذ الله ! إنّما قلت : أنا أحمد المصطفى النبي المبعوث، وأنت يا أمير المؤمنين تَحْمَدُهُ، وكذلك هؤلاء . فاستظرفه المأمون وأمر بانصافه.

وما رُوِيَ عن بشّار بن برد من أنَّه خاط له رجل أعور يُعرف بعمره برداً فلم يعجبه فقال له:

ما هذه الخياطة ؟ قال له : خطته لك كذلك لتلبسه إن شئت على وجهه، وإن شئت من باطنه . فقال له بشّار : وأنا قد قلت فيك شعرا، إن شئت جعلته مدحاً وإن شئت جعلته هجواً، ثمّ أنشد :

خَاطَ لِي عَمْرٌو قَبَاءَ لَيْتَ عَيْنَيْهِ سَوَاءُ
فَأَحَاجِي النَّاسَ طَرًّا أَمَدِيحٌ أَمْ هِجَاءُ !
ويُروى :

خَاطَ لِي عَمْرٌو قَبَاءَ لَيْتَ عَيْنَيْهِ سَوَاءُ
فَسَلَّ النَّاسَ جَمِيعًا أَمَدِيحًا أَمْ هِجَاءُ !
وهو على نصب الجزئين بِلَيْتَ .

وما رُوي أنّه نشأ ببغداد غلامان أحدهما ابن حجّام والآخر ابن مرّاق، فبرعا في الأدب . فخرجا ليلة وهما ثلمان من نبيذ . فأخذهما العسّسُ فأتوا بهما إلى صاحبهم . فلما مثلا بين يديه قال لهما : ما أخرجكما جوف اللَّيل ؟ فقالا : القدر والقضاء . فقال مَنْ أنتما ؟ فقال ابن المرّاق :

أنا ابنُ الذي لا تنزلُ الدَّهرُ قدرهُ وإن نزلت يوماً فسوفَ تعودُ
تري النَّاسَ أفواجاَ إلى ضوءِ نارهِ فمَنهُم قيامٌ حولها وقعودُ
وقال ابن الحجّام :

أنا ابن من ذلّت الرِّقابُ له ما بين مخزومِها وهاشمِها
تأتيهم طوعاً إليهِ خاضِعةٌ يأخذُ من مالِها ومن دمِها
فقال في نفسه : الأوّل من أبناء الكرام، والثاني من أبناء الملوك . فقال لأعوانه : خلّوا عنهما، فإنّه بلغنا عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال : أَقْبِلُوا ذَوِي الْعَيْتَاتِ عَثْرَاتِهِمْ . فلمّا انصرفا أخبر بأمرهما، فاسترجعهما بالغد وقال لهما : ويحكمّا ! خدعتما نبي . فقالا : ما خدعناك، وما أخبرناك إلّا بما هو صفة والدينا . فلمّا تأمّل كلامهما وجده صدقا وقال : انطلقا ! من لم يكن منكما شريفا فلقد كان ظريفا .

ومّا رُوي عن أبي الفرج الجوزيّ، رضي الله عنه، أنّه كان في مجلس فيه السنيّة والشيعة، فسأله سائل : أيّ النَّاس كان أحبّ إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أبو بكر أم عليّ ؟ فتعافى، فقيل له : قل ما عندك ! فقال : أحبّهما إليه من كانت ابنته تحته.

ويروى : أفضلهما من كانت ابنته تحته - على أن السؤال كان على الأفضلية - . ففهم
السنينة أبا بكر وفهم الشيعة عليا، ورضي الفريقان . ومحاسن هذا النوع أكثر من أن
تُحصى . وقد خرجنا عن الغرض، فلنعد إلى المقصود . وقال أبو محمد الحريري :

يَقُولُونَ إِنَّ جَمَالَ الْفَتَى وَزِينَتَهُ أَدَبٌ رَأْسُهُ
وَمَا إِنْ يَزِينُ سِوَى الْمَكْثَرِينَ وَمَنْ طَوْدُ سُودَدِهِ شَامِخُ
فَامًا الْفَقِيرُ فَخِيرٌ لَهُ مِنْ الْأَدَبِ الْقُرْصُ وَالْكَامِخُ
وَأَيُّ جَمَالٍ لَهُ أَنْ يُقَالَ أَدِيبٌ يَعْلَمُ أَوْ نَاسِخُ
الْكَامِخُ : شيء يؤتد به، أو طعام يتخذ من الحنطة واللبن على أنواع، والعرب كانت
لا تعرفه . وقدّم لأعرابي فقال : ما هذا ؟ ففيل له : كامخ . فقال : مِمَّ صنع ؟
ففيل : من الحنطة واللبن . فقال : أبوان كريمان وما أنجبا، وقلت :

إِذَا الْمَرْءُ إِنْ أَرْضَيْتُهُ كَانَ لِي أَخًا وَإِنْ أَسْرَ عَادَانِي فَمَا هُوَ لِي بِأَخٍ
فَلَا خَيْرَ فِي وَدٍّ أَمْرِي لَيْسَ صَافِيًا تَرَاهُ بِأَدْرَانِ الْمَسَاوِي قَدْ اتَّسَخَ
وَلَا خَيْرَ فِي وَدٍّ يَكُونُ تَكَلَّفًا وَلَا فِي وَدودٍ حَيْثُ لَنْتَ لَهُ شَمَخُ
وَمَا الْوَدُّ إِلَّا مَا تَكَنَّفَهُ الْحَشَا مَتَى تَهَزُّزُ الْأَحْدَاثُ أَغْصَانُهُ رَسَخُ
وقلت أيضا من هذا المعنى :

وَلَا تَبِتْ مِنْ فَتَى عَلَى ثِقَةٍ وَلَا يَغُرَّنْ حِجَاكَ مِنْ آخَى
حَتَّى تَرَاهُ لَدَى النَّوَائِبِ إِنْ قَاضَيْتَهُ فِي الْحَاجَاتِ هَكَ سَاخَى
وَعِنْدَ سَعْيِ الْوَشَاةِ هَكَ ثَبَّتَ رَجُلًا حِشَاهُ فِي الْوَدِّ أَمْ سَاخَا
سَاخَى الْأَوَّلُ فَاعَلَّ، مِنَ السَّخَاءِ وَهُوَ الْكِرْمُ، وَسَاخَ الثَّانِي مِنْ سَاخٍ يَسُوخُ
وَيَسِيخُ إِذَا هَوَى فِي الطِّينِ وَنَحْوَهُ، وَفِيهِمَا الْجِنَاسُ التَّامُ.

ولنكتف بهذا القدر من هذا الباب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

بَابُ الدَّلَالِ الْمُهِمَّةِ

دَرَدَبَ لَمَّا عَضَّهُ الثَّقَافُ .

الدَّرَدَبَةُ عَدُوٌّ عَلَى خَوْفٍ، وَهُوَ أَنْ يَجْرِي وَيَلْتَفِتَ وَرَاءَهُ مِنَ الْخَوْفِ . وَعَضَضْتُ الشَّيْءَ - بِالْكَسْرِ - كَعَلِمْتُ، - وَبِالْفَتْحِ - كَمَنْعْتُ - : أَمْسَكْتُهُ بِأَسْنَانِي أَوْ بِلِسَانِي ثُمَّ يَسْتَعْمَلُ الْعَضَّ فِيمَا يَشْبَهُ هَذَا مِنَ إِمَامِ الْحَوَادِثِ وَوَقْعِ الْخُطُوبِ : وَالثَّقَافُ - بِالْكَسْرِ الْخِصَامُ وَالْمَجَادَّةُ . وَيُقَالُ : ثَقِفَهُ - كَعَلِمَهُ - إِذَا صَادَفَهُ أَوْ أَخَذَهُ أَوْ أَدْرَكَهُ وَظَفَرَ بِهِ. قَالَ الشَّاعِرُ :

مَنْ يَتَّقَفَنَ مِنْهُمْ فَلَيْسَ بِأَبِيٍّ أَبَدًا وَقَتْلُ بَنِي قُتَيْبَةَ شَافٍ
وَقَالَ ذُو الْكَلْبِ الْهَذْلِيُّ :

فَأَمَّا تَتَّقَفُونِي فَأَقْتُلُونِي فَإِنْ أَتَّقَفَ فَسُوفَ تَرَوْنَ بِالِيٍّ⁽¹⁾
وَالثَّقَافُ أَيْضًا - بِالْكَسْرِ - الْخَشْبَةُ تَسْوَى بِهَا الرِّمَاحُ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ فِي الْمَثَلِ . فَمَعْنَى دَرَدَبَ لَمَّا عَضَّهُ الثَّقَافُ : خَضَعَ وَذَلَّ . وَمَضْرِبُهُ وَاضِحٌ . وَقَالَ عَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ : إِذَا عَضَّ الثَّقَافُ بِهَا اشْمَأَزَّتْ وَوَلَّتْهُمْ عَشْوَزَّةٌ زَبُونًا⁽²⁾ وَثَقَقْتُ الرُّمَحَ بِالثَّقَافِ تَثْقِيفًا : سَوَّيْتُهُ وَقَوَّمْتُهُ، فَهُوَ مُثَقَّفٌ وَمُقَوَّمٌ.

دَفَعْتُ إِلَيْهِ الشَّيْءَ بِرُمَّتِهِ

الدَّفْعُ هُنَا الْإِعْطَاءُ . وَالرُّمَّةُ - بِالضَّمِّ - الْقِطْعَةُ مِنَ الْحَبْلِ الْبَالِيَةِ . وَدَفَعَ رَجُلٌ لآخرَ بَعِيرًا فِي رِقْبَتِهِ حَبْلٌ فَقِيلَ : دَفَعَهُ إِلَيْهِ بِرُمَّتِهِ، وَذَهَبَ مِثْلًا لِكُلِّ مَنْ أَعْطَى الشَّيْءَ أَوْ أَخَذَهُ بِأَجْمَعِهِ . قَالَ الْأَعْشَى يَخَاطِبُ خَمَّارًا :

(1) سَقَطَتِ الْبَاءُ مِنْ «بَالِيٍّ» فِي مَخْطُوطَاتِنَا.

(2) الرِّوَايَةُ الْمَشْهُورَةُ لِهَذَا الْبَيْتِ :

إِذَا عَضَّ الثَّقَافُ بِهَا اشْمَأَزَّتْ تَشَجُّ قَفَا الْمُثَقَّفِ وَالْجَبِينَا

فَقُلْتُ لَهُ : هَذِهِ هَاتِيهَا بِأَدَمَاءَ فِي حَبِّكَ مُقْتَادِيهَا
دَعُ بُنَيَّاتِ الطَّرِيقِ !

دَعُ : معناه اتركْ، أصله الودْعُ، وهو التَّركُ، لكن لم يُستعمل هذا المصدر إلا قليلاً، كقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَيَنْتَهِيْنَ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَةَ، الحديث. ولم يُستعمل منه أيضاً الماضي إلا قليلاً، كقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : دَعُوا الْحَبْشَةَ مَا وَدَعُوكُمْ ! وقُرئ : مَا وَدَعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى، بالتخفيف من هذا، وإنَّما المستعمل منه كثيراً المضارع والأمر، وهما بفتح عين الكلمة لكان حرف الحلق، نحو قَعُ وَيَقَعُ . وقد علمت من هذا أَنَّ حَقَّ هذا الحرف أن يُذكر في باب الواو، ولكن كتبناه في هذا الباب تقرباً لما أَنَّ الواو مستهلكة لا تظهر كما مرَّ نظيره في حرف التاء . و**بُنَيَّاتُ** الطريق الطرق الصغار المتشعبة عن الطريق الكبيرة وكأنَّها بنات لها من حيث إنَّها تنشأت عنها وخرجت منها . ثمَّ أطلقوا **بُنَيَّاتِ** الطريق على الأباطيل، فضُربَ المثل عند أمر الرجل أن يقصد معظم الشَّأن ويدع سفاسف الأمور . قال ابن منادر في قاضي البصرة :

أَيُّ قَاضٍ أَنْتَ لِلنَّقْصِ وَتَعْطِيلِ الْحُقُوقِ ؟
يَدْعُ الْحَقَّ وَيَهْوِي فِي بُنَيَّاتِ الطَّرِيقِ

دَعُوا دَمًا ضِيَعَهُ أَهْلُهُ !

الدَّمُ معروف، وفيه لغات : يُقال دمٌ، وهي الفصحاء، وأصله دَمَوٌ ودَمِيٌّ فحذفت اللام . ويقال دَمٌ - بالتضعيف -، كقوله :
أَهَانَ دَمَكَ فَرغاً بَعْدَ عَزَّتِهِ يَا عَمْرُو بِغِيَّتِكَ إِصْرَارٌ عَلَى الْحَسَدِ ؟
فَقَدْ شَقِيتَ شَقَاءً لَا انْقِضَاءَ لَهُ وَسَعْدُ مُرْدِيكَ مَوْفُورٌ عَلَى الْأَبَدِ
ويُقال دَمَى - بالقصر - مثلك فتى وعَصَى كقوله :
كَأَطُومٍ فَقَدْتُ بَرَزُغَهَا أَعْقَبَتْهَا الْغُبْسُ مِنْهَا عَدَمًا⁽³⁾

(3) صحفت كلمة «الغُبْس» في بعض المخطوطات فكتبت «العنيس».

غَفَلَتْ ثُمَّ أَتَتْ تَطْلُبُهُ فَإِذَا هِيَ بِعِظَامٍ وَدَمٍ الْأَطْوَم - بوزن صَبُور - البقرة، والبُرْزُغُ ولدها، والتَّضْيِيعُ معروف . وهذا المثل من كلام جذيمة الأبرش المتقدم ذكره.

وكانت الزَّبَاءُ لَمَّا احتالت على قتله، كما مرَّ، قيل لها : احتفظي بدمه فَإِنَّهُ إن يضع وتقع منه قطرة بالأرض طُلبتِ بثأره . فلمَّا قبضت على جذيمة، وأجلس على النُّطْعِ، وجعل الخدم يقطعن رواهشه قالت الزَّبَاءُ : لا تضيِّعن دم الملك ! فقال جذيمة : دعوا دَمًا ضيِّعه أَهْلُهُ !

والمعنى : اتركوا دَمًا أراقه أَهْلُهُ !، أي مستحقَّوه وهم الزَّبَاءُ، أي فلا يهولنكم ضياعه، ولا يهمنكم حفظه، ولا تتخوفوا إذا ضاع أن تطالبوا به، لأنَّكم لم تريقوه ظلمًا . وهذا كما في الرواية الأخرى : لا يُحْزَنَنَّكَ دَمٌ أَرَاقَهُ أَهْلُهُ ! يخاطب الزَّبَاءُ . وتقدَّمت القصة مستوفاة . وجذيمة يُحتمل أن يكون في هذه الرواية عبَّرَ بتضييع الدَّم عن إراقته مجازًا ليشاكل لفظ الزَّبَاءُ ؛ ويُحتمل أن يريد معناه لصحَّته في المعنى ؛ وقد يكون جذيمة أراد أَهْلُهُ هو وأنَّهم ضيَّعوا دمه فيقول : إنَّ دَمًا أسلمه جمعه وواليه، وخانه ناصره وحاميه، جدير أن لا يُحتفظ عليه، وأن يضيع ولا يُلتفت إليه.

دَعَوْا دَعْوَةً كَوَكْبِيَّةً .

الدُّعَاءُ : الرَّغْبَةُ إلى اللَّهِ تعالى، دعا له وعليه، يدْعُو دُعَاءً، والمرَّة منه دَعْوَةٌ . والكوكْبِيَّةُ : قرية كان أهلها ظلمهم عامل فدعوا عليه دعوةً فمات عقبها، فضُرب المثل بذلك .

وممَّا يشبه هذا ما حكاه صاحب المدخل أنَّ قرية من أعمال السودان كان أهلها إذا ولَّى عليهم السلطان عاملاً فانبسط عليهم دعوا فهلك . فلمَّا أعيا السلطان أمرهم وتحيرَّ قام إليه بعض الحاضرين فقال : أنا أُلِيَّ عليهم ! فولَّاه السلطان بعد أن عرفه بكنهه الأمر . فذهب ذلك الوالي فغصَّب ملحا واستصحبه معه، ولم يكن في بلد السودان الملح . فلمَّا بلغ موضع عمله قعد في المسجد ولم يصعد إلى موضع الأمير . فقالوا له : ألا تصعد إلى موضعك ؟ فقال : إنَّما جئت على أن أكون واحدا منكم وأبأشركم، ولا أصدر إلاَّ عن

رأيكم، أو كما قال . وبقي على ذلك حتّى أعجبهم وحسنوا به الظنّ . فتمارض حينئذ، فسألوه عن موجب مرضه، فقال لهم : موجب المرض فقدّ الملح . فقالوا : نأتيك بالملح . فقال : لا أعرف أصله، وإنّ عندي ملحاً بالبلد أعرف جهته وأصله، فلعلّه يكون فيه الشفاء . فإن أردتم أن أرسل من يأتي به، وإلاّ فلا . فأذنوا له، فأرسل إليه حتّى بلغه، ففرّقه عليهم على وجه التبرّك . فلمّا علم أنّهم قد أكلوه قام إليهم ومدّ اليدهم، وطلع إلى موضع الولاية حينئذ . وكان قبل يخشى من دعائهم لاقتياتهم الحلال الصرف . فلمّا دخل أجوافهم ذلك الملح علم أنّ دعاءهم لا يُسمع عليه، وكان في القوم رجلان تفتّنا لذلك فلم يأكلا ملحهما . فلمّا ظهر أمره أتياه بما عندهما لم يفسدا شيئاً منه . فلمّا علم أنّهما قد بقيا هرب خوفاً منهما .

ومثّل هذا حُكي عن الحجّاج لمّا دخل العراق والياً، وكانوا لا يلي عليهم أحد ويظلمهم إلاّ دعوا فهلك . فلمّا خاف الحجّاج من دعائهم طلب منهم أن يأتوه كلّهم ببيضة بيضة لحاجة ذكرها، وقعد على صحن . فكلّ من أتى ببيضة أمره أن يطرحها في الصحن . فاستخفوا البيض منه وفعلوا ما أمرهم . فلمّا اجتمع البيض واختلط، أمرهم أن يأخذ كلّ واحد بيضة، وأراهم أنّه قد بدا له في ذلك ورجع عمّا أراد . فأخذ كلّ واحد بيضة من البيض ولا يدري عين بيضته . فلمّا علم الحجّاج أنّهم تصرّفوا في ذلك، مدّ يده إليهم فدعوا عليه، فُمنعوا الاجابة . قال رحمه الله تعالى : ولأجل هذا كثرت المظالم وكثرت الدعاء على فاعلها، وقلّت الاجابة أو عدمت .

دَفَنُ الْبَنَاتِ مِنَ الْمَكْرُمَاتِ .

الدَّفَنُ معروف ؛ والبَنَات جمع بنت ؛ والمَكْرُمَة فِعْلُ الكرم . وهذا المثل مشهور، ومثله المثل الآخر : نِعَمَ الصَّهْرُ الْقَبْرُ ! وقال الشاعر، مضمّناً المثل :

القَبْرُ أَخْفَى سِتْرَةً لِلْبَنَاتِ وَدَفَنُهَا يُرَوَّى مِنَ الْمَكْرُمَاتِ
أَمَّا رَأَيْتَ اللَّهَ عَزَّ اسْمُهُ قَدْ وَضَعَ النَّعْشَ بَجَنْبِ الْبَنَاتِ !
وقول الآخر :

أَحَبُّ بُنْيَتِي وَأَوْدُ أَنْبِي دَفَنْتُ بُنْيَتِي فِي قَعْرِ لَحْدِ

وشبه هذا قول الأمير ابن أبي حفصة :

وفي الدار خلفي صبية قد تركتهم يطئون إطلاك الفراخ من الوكر
جنيت على روعي بروحي جناية فأتقلت ظهري بالذي خف من ظهري
والشعر في هذا المعنى كثير .

دَقَّكَ بِالْمِنْحَازِ حَبَّ الْقَلْقَلِ .

الدَّقُّ معروف . والمِنْحَاز - بالحاء المهملة وبالزاي - الهاوُن، وهو المهراس . ونَحَرَت الشيء : دَقَّقْتَه . والقَلْقَل - بقافَيْن مكسورَيْن، على مثال زَبْرَج - : نبت له حبّ أسود أصلب ما يكون من الحبوب، حسن الشم . قال أبو النّجْم :

وَأَصَتِ الْبُهْمَى كَنْبَكَ الصَّيْقَلِ وَطَارَتِ الرِّيحُ يَبِيسَ الْقَلْقَلِ⁽⁴⁾
وقد يُقال في هذا المثل بقافَيْن مضمومَيْن، وهو الْفُلْفُلُ المعروف من الأيزار، وجعله الأصمعي تصحيفا من العامّة . ومن النَّاس من ادّعى أنَّ هذا هو الصواب، وأنَّ الأوَّل هو التصحيف، لأنَّ حَبَّ الْقَلْقَل - بالقاف - لا يُدَق . وهذا المثل يضرب في اللاحاح على الشحيح والحمل عليه، وكأنَّه شطر بيت من الرجز .

دَقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشِمٍ .

الدَّقُّ مَرَّ ؛ والعِطْرُ - بالكسر - معروف ؛ وَمَنْشِمٍ - على مثال مجلس، وعلى مثال مَقْعَد، قيل ويروى أيضا مَنْشِمٍ - بالهمز - ؛ وَمَنْ شَمَّ مفصولة . واختلف في معناه: ففيل مَنْشِم اسم الشرِّ ؛ وقيل الْمَنْشِم يكون في سنبك العطر يُسمَّى قرون السنان وهو سمّ ساعة . وقيل مَنْشِم اسم امرأة . واختلف في اشتقاقه أيضا : ففيل مَنْشِم وضع وضع الأعلام ؛ وقيل مُشْتَقَّ من قولك : نشم في الشيء إذا بدأ وأخذ فيه، ويُسْتعمل في الشرِّ . وقيل هو مركَّب من اسم وفعل، والأصل مَنْ شَمَّ، على أنَّ شَمَّ فعل ماضٍ من شَمَّ الرائحة، وهو صِلَّةٌ من . ثم وصل وحذفت الميم الثانية من الفعل وجُعِلَ الاعراب على الأولى . وعلى رواية مَنْشَأَم فهو مأخوذ من الشَّؤْم . واختلف أيضا

(4) الرواية المشهورة : «وحازت الرِّيحُ يَبِيسَ الْقَلْقَلِ» يسما نجد في مخطوطاتنا «وطارت الرِّيحُ...» أو «صارت الرِّيحُ...».

في سبب المثلث ومعناه : ف قيل إنَّ منشِم اسم امرأة، وهي بنت الوجيه، وكانت عطارة بمكة . وكانت خزاعة وجُرُّهُم إذا أرادوا الحرب تطيَّبوا من طيبها، فكثرت القتلى، فجعلوا يقولون : أَشَامُ مِنْ عِطْرِ مَنْشَمٍ.

وقيل كانوا إذا أرادوا الحرب غمسوا أيديهم في طيبها وتحالفوا أن يستमितوا في الحرب ولا يولّوا . فكانوا إذا دخلوا الحرب بطيب تلك المرأة يقول النَّاسُ : دَقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشَمٍ . فلمَّا كثر منهم هذا القول صار مثلاً للشَّرِّ العظيم . قال زهير :

تَدَارَكْتُمَا عَبْسًا وَذِبْيَانًا بَعْدَ مَا تَفَانَا وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشَمٍ
وقيل إنَّ منشَم امرأة كانت تبيع الحنوط فسمَّوا حنوطها عطرًا في قولهم عِطْرَ مَنْشَمٍ، لأنَّهم أرادوا عطر الموتى . وأمَّا من ذهب إلى أنَّه مركب فزعم أنَّ امرأة من العرب كانت تبيع العطر، فورد عليها بعض أحياء العرب، فأخذوا عطرها وفضحوها . فلحقها قومها ووضعوا السيف فيهم وجعلوا يقولون : اقْتُلُوا مَنْ شَمَّ مِنْ طِيبِهَا ! فبقي مَنْ شَمَّ اسمًا مركَّبًا من هذا.

وقيل إنَّ سبب المثلث قتالُ يَوْمِ حَلِيمَةَ الذي قيل فيه : مَا يَوْمُ حَلِيمَةَ بِسَرٍّ . وكانت فيه الحرب بين الحارث بن أبي شمر، ملك الشام، وبين المنذر بن المنذر بن امرئ القيس، ملك العراق . وأُخرجت حليلة إلى المعركة مراكن الطيب، فكانت تطيَّب الداخلين في الحرب، فقاتلوا من أجل ذلك حتَّى تَفَانُوا . وسيأتي شرح هذه القصة .

دَمْتُ لِنَفْسِكَ قَبْلَ النَّوْمِ مُضْطَجَعًا !

التَّدْمِيثُ : التَّسْهِيلُ . يقال : مكان دَمِث - كَفَرَح - أَي لَيْسَ سَهْلًا . ودَمِثَ الشيء - بالكسر - يَدْمِثُ، دَمَاثَةً، فهو دَمِثٌ . ودَمَّثْتُهُ أَنَا تَدْمِيثًا : سَهَّلْتُهُ وَلَيَّيْنْتُهُ؛ وَالْمُضْطَجَعُ - بِالْفَتْحِ - مكان الاضطجاع .

والمعنى أَنَّكَ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَنَامَ فَسَوِّ الْمَكَانَ وَلِيْنَهُ، وَأَزِلْ مَا فِيهِ مِنَ الْخُشُونَةِ قَبْلَ اضْطِجَاعِكَ ! يُضْرَبُ فِي الْإِسْتِعْدَادِ لِلنَّوَائِبِ قَبْلَ نَزْوِلِهَا . ومثله قول تَابِطُ شَرًّا : ولكنْ أَخُو الْحَزَمِ الَّذِي لَيْسَ نَارِلًا بِهِ الْأَمْرُ إِلَّا وَهُوَ لِلْقَصْدِ مُبْصَرٌ وقول الآخر :

ولكنَّ من لا يلقَ أمرًا يَنْوِبُهُ بَعْدَتِهِ يَنْزِلُ بِهِ وَهُوَ أَعَزُّ

وقول أمّ المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، في عمر، رضي الله عنه، : كان والله أحذيثاً نسيماً وحده، قد أعدّ للأمور أقرانها . ويروى [إنّ] من رأى عمر ابن الخطاب عليم أنّه خليف غناء للإسلام . كان والله أحذيثاً إلخ...

الدّمُّ لا يَنَامُ .

هذا المثل من كلام قصير بن سعد لجذيمة حيث شاورهم على الخروج إلى الزبّاء، فقال له قصير : إنّ الزبّاء قتلت أباهما والدّمُّ لا ينام، وتقدّم ذلك مشروحا . والمراد أنّ من كان له قبلك ثأر وثبت له عندك دم، لا يغفل عنك وعن أخذ ثأره منك ليلا ولا نهاراً، ولا يكون منه سلّمٌ صحيح ولا مضافة خالصة أبداً.

دُهِدُرَيْن، سَعْدُ الْقَيْن .

دُهِدُرَيْن - بضمّ الدالين وفتح الراء المشدّدة -، وقد اختلف فيه : ف قيل هو اسم مبنيّ بصيغة المثنى ؛ وقيل هو تثنية دُهِدُرٍ، وهو الباطل . ويقال أيضاً دُهِدُنٌ بالنون - على وزنه . قال الراجز :

لأَجْعَلَنَّ لابنةَ عمرو قِنًا حتّى يعود مهرُها دُهِدُنًا
وهو في هذا المثل منصوب بفعل مضمر، وسَعْدُ منادى، وهو قَيْنٌ كان ادّعى أنّ اسمه سَعْدُ زماناً ثمّ تبين كذبه، والقَيْنُ وصف له، ف قيل له ذلك، أي جمعت كذبا إلى كذب يا سَعْدُ الحدّاد ! وقيل إنّ دُهِدُرَيْن اسم فعل مبنيّ بمعنى بطل، كما بُني شَتَانٌ وهَيَّهَاتَ، وسعد فاعله، والقَيْنُ وصف له . والمعنى : بطل سعدُ القَيْن . والمراد بطلان استعماله لتشاغل النَّاسِ عنه بالقحط . وحُذِفَ تنوين سعد في هذا الوجه تخفيفاً لكثرة الاستعمال، نحو : ولا ذاكِرُ الله إلاّ قليلاً . وقيل إنّ دُهِدُرَيْن موضع رفع على الابتداء، كأنّه قيل : كلامك باطل، أو فعلك باطل . وكذلك سعد، أي أنت سعد القين، أي مثله . وقيل إنّهُ مركّب، وأصله دُهُ أمر من الدَّهَاء - وكان الأصل دهى - ثمّ قلب فقيل دَاه - بجعل اللّام موضع العين - كما قيل : لآم ولا ئع، ودُرَيْن من قولك : دُرُ الشيء إذا تتابع . والمعنى : بالغ في الكذب يا سعد ! وقد قيل إنّهُ حدّاد عجميّ يدور في اليمن . وكان إذا كسد في مخلاف قال بالفارسيّة : دُهُ بدرود، أي بالوداع،

يخبرهم أَنَّهُ يخرج غذا ليستعملوه، فعَرَّبُوهُ وضربوا به المثل في الكذب والباطل . وقالوا :
إِذَا سَمِعْتَ بِسُرَى الْقَيْنِ فَإِنَّهُ مُصْبِحٌ، وقد تقدَّم . ورواه بعضهم :

دُهُدُرَيْنِ وَسَعْدَ الْقَيْنِ - بالواو ونصب سعد . وروى آخرون :

دُهُدُرَى - مقصود بغير نون التثنية -، وقالوا موضعه في ضرب المثل إذا ردَّ على مُخِير خبره، أو على فاعل فعله، أو حمق أحمق . وروى آخرون :
دُهُدُرَيْنِ سَاعِدِ الْقَيْنِ .

والمقصود من ذلك كلُّه واحد، وهو الباطل والَلَّغو . فيُضْرَبُ عند التَكْذِيبِ للحديث وادِّعاء بطلان الأمر . وقال أبو زيد : يُقَالُ للرجل يُهْزَأُ به : طَرَطَبَيْنِ ودُهُدُرَيْنِ ودُهُدُرًا وسعدَ الْقَيْنِ .

وللنَّاسِ في هذا اللَّفْظِ أَقَاوِيلُ هذا حاصلها، واللَّه أعلم .

الدَّهْرُ حُبْلَى لَا يُدْرَى مَا تَلِدُ .

الدَّهْرُ - بفتح فسكون، وتُحْرَكُ الهاء - الزمان الطويل، والزمان الممدود، أو ألف سنة :
هذا قول اللُّغَوِيِّينَ . والفلاسفة فيه كلام بيِّنَاتُهُ في علم الكلام ؛ والحُبْلَى : الحَامِلُ .
قال امرؤ القيس :

فمِثْلُكَ حُبْلَى قَدْ طَرَقْتَ وَمَرْضَعًا وَأَلْهَيْتَهَا عَنْ ذِي تَمَائِمٍ مُحَوَّلِ
حَبَلَتِ الْمَرْأَةُ - بالكسر- حبلاً، فهي حَابِلَةٌ، والجمع حَبَلَةٌ ؛ وحُبْلَى، والجمع
حُبْلِيَّاتٍ وحَبَالَى، والولادة معروفة . والمعنى أَنَّ الدَّهْرَ، لا نبهام الأقدار الجارية فيه،
وحفاء التصاريح الواقعة بذويه، يشبه الحبلى المنبهم أمر ذي بطنها، لا تُعرف له ذكورة ولا
أنوثة، ولا كمال ولا نقص، ولا حسن ولا قبح، حتَّى تلد فيتبيَّن ذلك . وكذا الدَّهْرُ لا
يُعرف فيما يأتي به من الأقدار والحوادث، أخير أم شرّ، وزيادة أم نقص، وسعة أم ضيق،
حتَّى يقع ذلك فيظهر .

أَدْهَى مِنْ ثَعْلَبٍ .

الدَّهَاءُ والدَّهْنِيْ : المَكْرُ وجودة الرأي . ورجل دَاهٍ ودَاهٍ ودَاهِيَّةٌ، والجمع دُهَاءٌ
ودُهُونٌ . وقد دَهِىَ الرجل - بالكسر -، دَهِيًا ودَهَاءً ودَهَاءَةً، وتَدَهَّى : فَعِلَ

فَعَلَّ الدُّهَاءَ ؛ والثعلب : الحيوان المعروف، وتقدَّم فيه كلام . وهو موصوف بالمكر والاحتياك مشهور بذلك . ومن مكره أنه إذا رأى الغلبة عليه تماوت حتَّى لا يُشكَّ في موته فإذا غُفل عنه وثب هاربا .

ومن مكره المحكيّ في الخرافات عند العرب أنَّهم قالوا: إنَّ الضبع صادت ثعلبا فقالت : أَخِيرَك يا ثعلب بين خصلتين، فاختر أيتهما شئت . قال : ماها ؟ قالت : إمَّا أن أكلك، وإمَّا أن أنكحك . فقال الثعلب : أما تذكرين يوم نكحتك ؟ فقالت : متى ؟ وانفتح فوها . فأفلت الثعلب [وهرب] . فضربوا المثل بذلك وقالوا : عَرَضَ عليك خَصْلَتِي [الثعلب] (٤٤) . وقالوا أيضا : إنَّ الثعلب اطلع على بئر وهو عطشان، وعليها رشاء ودلوان، فقعده في الدلو العليا، فانحدرت به إلى البئر حتَّى شرب وبقي هناك . فإذا بضبع اطلعت على البئر، فرأت بياض القمر انتصف الماء، والذئب قاعد في ضوئه، فقالت له : ما تصنع هنا ؟ فقال لها : إنِّي أكلت نصف هذه الجيفة وبقي نصفها، فانزلي تأكليها ! قالت: وكيف أنزل ؟ قال : تقعدين في الدلو الأخرى . فلمَّا التقيا في وسط البئر قالت له : ما هذا ؟ قال : كَذَا التَّجَارِبُ تَخْتَلِفُ ! فضربوا ذلك للمختلفين في الأمور . ومثل هذه الحكايات كثير.

دَارُ الْفُسُوقِ جَدَتْ، وَحَدِيثُهُ حَدَثٌ .

هذا مثل مصنوع فيما أظنّ وهو ظاهر المعنى ؛ والجَدَتْ - بالجيم - القَبْرُ . قال الشاعر:

جَدَتْ يَكُونُ مَقَامُهُ أَبَدًا بِمُخْتَلَفِ الرِّيَاحِ
والجمع أَجْدَاثٌ وَأَجْدُثٌ . قال الآخر : أنشده الجوهري :

عَرَفْتُ بِأَجْدُثٍ فَنِعَافٍ عِرْقٍ عِلَامَاتٍ كَتَحْيِيرِ النَّمَاطِ

دُونَ ذَلِكَ خَرُطُ الْقَتَادِ

دُونَ نَقِیْضٍ فَوْقَ وَبمعنى أَمَامَ . ويكون ظرفا للمكان القاصر عن الغاية فيما يُضاف إليه، ثمَّ يُطلق على كل رتبة أدنى من أخرى في الأمكنة والأزمنة والمعاني ؛ والخَرُطُ : النَّزْعُ، تقول : خرطت الشجرة خَرَطًا إذا انتزعت الورق منها اجتذابًا ؛ والقَتَادُ - على

مثاك سَحَاب - شجر صلب شوكة كالابر شديد، يُضرب به المثل كما قال أبو تمام :
نَثَا خَيْرٌ كَأَنَّ الْقَلْبَ أَمْسَى يُجْرُ بِهِ عَلَى شَوْكِ الْقَتَادِ
وقال أيضا :

عَدْتُ تستجير الدَّمْعَ خوف نوى غدٍ وعادَ قَتَادًا عندها كلُّ مرقَدٍ
وخرطه أشدُّ شيء، فضرِبَ المثل به . وتقدَّم مثله في حرف الهمزة . قال أبو المظفر :
يا من يُساجلني وليس بمُدركٍ شأوي وأين له جَلَالَةُ منصبي
لا تتعَبَنَّ فدُونُ ما حاولته خُط القَتَادِ وامْتَطَأُ الكوكب !
جديّ مُعاويةُ الأغرُّ سمتُ به جرثومةٌ من طينِها خُلق النَّبي
وروثتهُ شرقًا رفَعْتُ مَنَارَهُ فبنو أُميَّةَ يفخرونَ به وببي
وقال الآخر :

مالكُ ابن دارةَ دونهُ لعَفَاتِهِ خرطُ القَتَادِ والتماسُ الفرقَدِ
مالكُ لزومُ الجمعِ يمنَعُ صرفهُ في راحةٍ مثلكُ المنادي المُفردِ

دُونَ ذَا وَيَنْفُقُ الْحِمَارُ !

دُونَ تقدَّم [معناه] ، والنَّفَاقُ : الرَّوْجَانُ ، تقول : نَفَقَ البيع - بالفتح - ينفق،
نَفَاقًا - على مثالك سَحَاب - إذا رَاجَ ؛ وَنَفَقَتِ الدَابَّةُ أو الرجل : مَاتَ ؛ والحمار
معروف . ودخل رحل السوق بحمار له يبيعه . فقام رجل يقال له أبو يسار يمدح الحمار،
وجعل يقول : إِنَّ حافره جلود، وإنَّ ظهره حديد . فقال صاحبه : شَاكِهِ أَبَا يَسَارٍ،
دُونَ ذَا وَيَنْفُقُ الْحِمَارُ ! فذهب مثلا يُضرب للمفرط في الثناء والمدح . ومعنى
شَاكِهِ : شَابِهٍ وَقَارِبُ في المدح ولا تُفْرِطُ، من المشاكهة وهي المشابهة . وسيأتي
تتمّة المثل في الشين، إن شاء الله.

ومن أمثال العامة في هذا الباب قولهم :

دَجَاجَةٌ وَتَرَكَكُ .

يُضرب لاستبعاد الصولة من الضعيف، والدجاجة معروفة - مثلة الأول - والجمع
دجَاج ؛ والرَّكَكُ ضرب الأرض برجل واحدة، وركض الفرس بالرجل، والأرض المركَّلة

المكدودة بحوافر الدواب . قال امرؤ القيس يصف فرسا :
 مِسْمٌ إِذَا مَا السَّابِحَاتُ عَلَى الْوَنَى أَثَرْنَ غُبَارًا بِالكَدِيدِ الْمُرْكَلِ
 وَيُسْتَعْمَلُ الرُّكْلُ، فِي لِسَانِ الْعَرَبِ، فِي الضَّرْبِ بِالرَّجْلِ مَطْلَقًا، وَهُوَ الْمَرَادُ.
 ثُمَّ نَذَرَ مِنَ الشَّعْرِ فِي هَذَا الْبَابِ مَا تيسَّرَ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.
 قال طرفة بن العبد :

سَتُبْدِي لَكَ الْإِيَّامُ مَا كُنْتُ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَزُودْ
 وَإِلَى مَعْنَى هَذَا الْبَيْتِ أَشَارَ ابْنُ شَرَفٍ فِي لَامِيَّتِهِ بِقَوْلِهِ :
 لَا تَسْأَلِ النَّاسَ وَالْإِيَّامُ عَنْ خَبْرٍ هُمَا يَبْتُلَانِكَ الْأَخْبَارُ تَطْفِيلًا !
 وقال دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ :

وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ غَزِيَّةٍ إِنْ غَوَتْ غَوِيَتْ وَإِنْ تَرَشَّدَ غَزِيَّةٌ أَرَشُدْ
 وَغَزِيَّةٌ قَبِيلَةٌ، وَهِيَ - فِيمَا أَظُنُّ - بَفَتْحِ الْمَعْجَمَةِ وَكَسْرِ الرَّاي . وَهَكَذَا رَأَيْتُهُ فِي نَسْخَةٍ مِنْ
 الصَّحَاحِ مَضْبُوطًا بِالْقَلَمِ، وَيؤَيِّدُهُ مَا فِي الْقَامُوسِ مِنْ أَنَّهُمْ يُسَمُّونَ غَازِيَةً وَغَزِيَّةً
 كَغَنِيَّةٍ - وَلَمْ يَثْبُتْ فِي أَسْمَائِهِمْ غَزِيَّةٌ . - بِلَفْظِ التَّصْغِيرِ . - وَقَالَ مِنْ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ
 أَيْضًا :

أَمَرْتُهُمْ أَمْرِي بِمُنْعَرَجِ اللَّوَى فَلَمْ يَسْتَبِينُوا الرُّشْدَ إِلَّا ضُحَى الْغَدِ
 وَتَمَثَّلَ بِهَذَا الْبَيْتِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ - عَلَى الْمَنْبَرِ، فِي قِصَّةِ التَّحْكِيمِ
 حِينَ وَقَعَ مَا وَقَعَ مِنَ الْحَكَمَيْنِ، يَعَاتِبُ أَهْلَ الْعِرَاقِ وَيُوبِّخُهُمْ عَلَى سَفَاهَةِ رَأْيِهِمْ فِي ذَلِكَ
 وَتَوْجِيهِهِمْ أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيَّ، وَالْقِصَّةُ مَشْهُورَةٌ . وَعَلَى هَذَا الْبَيْتِ نَبَأُ ابْنِ شَرَفٍ بِقَوْلِهِ فِي
 لَامِيَّتِهِ :

يَرَى الْبَلِيدُ الْبَلَايَا بَعْدَ مَا نَزَلَتْ وَذُو الذِّكَاةِ يَرَى الْأَشْيَاءَ تَخْيِيلًا
 وَقَالَ الْأَسْوَدُ بْنُ يَعْفُرَ :

جَرَتْ الرِّيَّاحُ عَلَى مَحَلِّ دِيَارِهِمْ فَكَأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى مِيعَادِ
 وَنَظَّمَهُ ابْنُ شَرَفٍ فِي لَامِيَّتِهِ بِقَوْلِهِ :

بَادُوا كَأَنَّهُمْ لِلْفِرْقَةِ اتَّعَدُوا فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ الْمِيعَادُ مَمْطُولًا
 وَقَالَ الْآخَرُ :

أَجْمِلْ إِذَا طَالَيْتَ فِي طَلَبِ فَالْجَدُّ يُغْنِي عَنْكَ لَا الْكَدُّ !

ونظمه ابن شرف بقوله :

والجَدُّ يُغْنِي الفتى عن كدٍ مُهْجته

وقال الشاعر :

السيف يقطع وهو ذو صدى

ونظمه ابن شرف بقوله :

والنَّفْسُ جوهرةٌ ملبوسُها صدف⁽⁵⁾

وقال :

هَلْ تَنْفَعَنَّ السَّيْفَ حليته⁽⁶⁾

ونظمه ابن شرف بقوله :

وربَّ سيفٍ كهامٍ لا مضاءَ له

وقال الآخر :

وإنَّ امرءًا يمسي ويصبحُ سالمًا

ونظمه ابن شرف بقوله :

ومن يُعاقَبُ بما تجني يَداه بلا

وقال الآخر :

وغيظُ على الأيَّام كالنَّارِ في الحشى

ونظمه ابن شرف بقوله :

لنا على الدَّهر غيظٌ ليس ينفَعُنا

وقال الآخر :

ماذا لقيتُ من الدُّنيا وأعجَبُه

ونظمه ابن شرف بقوله :

قلْ للحسودِ على أشياءٍ تحزنني:

فليغْدُ تكثير حرص المرءِ تَقليلاً !

والحدُّ يفري الهامَ لا الغِمْدُ

والسَّيفُ يقطعُ رذلَ الغِمْدِ مفلولاً

يومَ الجِلادِ إذا نبا الحدُّ

وقد تراهُ مُحلَّى الغِمْدِ مصقولاً

من النَّاسِ إلاَّ ما جنى لسَعيدُ

ظَلَمَ التَّجَنِّي فَقَد نالَ اليَدَ الطُّولَى

ولكنَّه غيظُ الأسيرِ على القَدِّ

غيظُ الأسيرِ أسيرِ القَدِّ مغلولاً

أُنِّي بما أنا باكٍ منه محسودُ !

خُذْها احتقاراً وتهويناً وترذيلاً !

(5) في د : ملبوسة صدفًا.

(6) في بعض المخطوطات في أول البيت : «بِكَ تَنْفَسْنَ...»

وقال بعض العرب :

إذا الرجالُ وَلَدَتْ أَوْلادُها واضطربت من كبرِ أعضادُها
وجعلت أوصابُها تعتادُها فهني زُرومٌ قد دنا حصادُها
وقال الآخر :

لقد أَسْمَعْتُ لو ناديتَ حيًّا ولكن لا حياة لمن تُنادي !
وما أحسن قول عزَّ الدين المقدسي في كتابكلام الطيور والأزهار، على لسان الغراب:

أنوحُ على ذهابِ العُمُرِ مني وحقَّ أن أنوحَ وأن أنادي
وأندبُ كلَّما عاينتُ ربعا حدا بهمُ لوشكِ البينِ حادِ
يعنِّفني الجهولُ إذا رأيَني وقد أَلْبَسْتُ أثوابَ الحِدادِ
فإنِّي قد نصحتُك باجتِهَادِ !
وها أنا كالخطيبِ وليس عيبًا على الخطباءِ أثوابُ السَّوادِ
ألم ترني إذا عاينتُ ركبًا أنوحُ على الطُّلولِ فلم يُجبني
فأكثر في نواحيها نُواحِي فما من شاهدٍ في الكونِ إلَّا
فكم من رائحٍ فيها وِغَادِ لقد أَسْمَعْتُ لو ناديتَ حيًّا
وقال الحطيئة :

وما قُلْتُ إلَّا بالَّذي علّمت سَعْدُ
وهذا مثك مشهور، وصدر البيت :

وتعذّلني أبناءُ سَعْدٍ عليهمُ

وهذا البيت من جملة أبيات له، وهي من جيّد شعره . يقول فيها :

وإنَّ التي نكبتُها عن معاشِرِ عليَّ غضابٍ أنْ صددتْ كما صدّوا
أتت آلَ شَمَّاشٍ بنِ لَأيٍ وإنَّما أتاهم بيها الأحلامُ والحسبُ العدوّ
فإن الشَّقِيَّ من تُعادي صدورهم وذو الجَدِّ من لانوا إليه ومن ودّوا
يسوسونَ أحلامًا بعيدًا أناثها وإن غضبوا جاء الحفيظةُ والجِدُّ

أَقْلَسُوا عَلَيْهِمْ لَا أَبَا لِأَبْيَكُمُ
أُولَئِكَ قَوْمٌ إِنْ بَنُوا أَحْسَنُوا الْبِنَا
وإن كانت النُّعْمَى عَلَيْهِمْ جَزَوْا بِهَا
وإن قال مولاهم على جلٍّ حادثٍ
فكيف ولم أعلمهمُ خذلوكُمُ
مطاعينُ في الهيجا مكاشيف للدجى
فمن مُبلغُ أبناءِ سعدٍ فقد سعى
رأى مجدَ أقوامٍ أضيعَ فحثَّهمُ
وتعذَّلني أبناءُ سَعْدٍ (البيت)

وقال أبو تمام حبيب بن أوس الطائي :

ما لِأَمْرِي خاض في بحر الهوى عُمُرُ
كما نما البينُ من إلحاحه أبداً
وقال يخاطب محمد بن يوسف :

واعذر حسودك فيما قد خُصصتَ به
وقال أيضا في وداعه لعلِّي بن الجهم يمدحه :

هي فرقةٌ من صاحبٍ لك ماجدٍ
فافزَعِ إلى دُخْرِ الشُّؤُونِ وغريبِهِ:
فإذا فقدتَ أخا فلم تفقد له
ومنها :

إن يُكْدَ مُطَرِّفُ الاخاءِ فَإِنَّا
أو يَخْتَلِفُ ماءُ الوصالِ فَمَاؤُنَا
أو نفترقُ نسباً يُؤَلَّفُ بيننا
وقال أيضا من قصيدة أخرى :

من اللوم أو سُدُّوا المكانَ الَّذِي سَدُّوا !
وإن عاهدوا أوفِّوا وإن عقدوا شدُّوا
وإن أنعموا لا كدَّروها ولا كدُّوا
من الدَّهْرِ رُدُّوا فضلكَ أحلامِكُم رَدُّوا
على مُعْظَمٍ ولا أديمكُمُ قَدُّوا ؟
بَنَى لَهُمُ آبَاؤُهُمْ وَبَنَى الْجَدُّ
إلى السُّورَةِ العليا لهم حازمٌ جلدٌ
على مجدهم لما رأى أَنَّهُ الجَهْدُ

إِلَّا وَلِلدِّينِ فِيهِ السَّهْلُ وَالْجَلْدُ
على النُّفُوسِ أَخٌ لِلْمَوْتِ أَوْ وَلَدُ
إِنَّ الْعُلَى حَسَنٌ فِي مِثْلِهَا الْحَسَدُ !

فَعَدَا إِذَابَةُ كُلِّ دَمْعٍ جَامِدٍ
فَالدَّمْعُ يَذْهَبُ بَعْضُ جُهِدِ الْجَاهِدِ
دمعاً ولا صبراً فلستَ بفاقد !

نَعْدُو وَنَسْرِي فِي إِخَاءٍ تَالِدٍ
عَذْبٌ تَحْدَرُ مِنْ غَمَامٍ وَاحِدٍ
أَدْبٌ أَقْمَنَاهُ مَقَامَ الْوَالِدِ (٤٦)

وَسَمُّ اللَّيَالِي فَوْقَ سَمِّ الْأَسَاوِدِ

سَقَتَهُ دُعَاةَا غَارَةُ الدَّهْرِ فِيهِمْ

ومنها :

غدا قاصدا للحمْد حتَّى أصابه

ومنها :

يصدُّ عن الدُّنيا إذا عنَّ سؤدَدُ

إذا المرء لم يزهْد وقد صبغتْ له

وقال أيضا من أخرى :

إذا انصرف المحزون قد فَلََّ صبره

ومنها :

نوى كَانْقِضاضِ النَّجْمِ كانت نتيجة

فلا تحسبا هندا لها العذرُ وحدها

ومنها :

وحنْدٌ من الأيَّام وهيَ قديرة

إساءة دهرٍ أذكرتْ حُسْنَ فعله

وقال أيضا :

ومن يأذنُ إلى السَّاعينَ يسْلُق

وقال أيضا :

ولكم عدوٌّ قال لي مُتمثِّلا :

ومنها :

وإذا أراد اللهُ نشْرَ فضيلةٍ

لولا اشتعالُ النَّارِ فيما جاورتْ

لولا التَّخَوُّفُ للعواقبِ لم تَرَكَ

يُعطي لها البَشَرى الكريمُ ويحتبي

بُشرى الغنى أبي البنات تتابعت

وقال أيضا :

وانتِ رأيتِ الوسمَ في خلقِ الفتى

وكم من مصيبٍ قصدهُ غير قاصِد !

ولو برزتْ في زيِّ عذراء ناهِد

بعصرها الدُّنيا فليسَ بزاهد

سؤالُ المغاني فالبُكاءُ له ردُّ

من الهزل يوما إنَّ هزلَ الهوى جدُّ

سجيةً نفسٍ كلُّ غانيةٍ هندُ

وشرُّ السَّجَايا قُدرةٌ حازها حقدُ

إليَّ ولولا الشَّرى لم يُعرف الشَّهدُ

مسامِعهُ بالسَّنةِ حِدادِ

كم من ودودٍ ليس بالمودودِ !

طويتْ أتاح لها لسانُ حسودِ

ما كان يُعرف طيبُ عَرَفِ العودِ

للحاسِدِ النُّعمى على المحسودِ

بردائها في المحفَلِ المشهودِ

بُشراؤه بالفارسِ المولودِ

هو الوسمُ لا ما كان في الشَّعر والجِلْد

وقال أيضا :

ولكنّني لم أحوِ وفرا مُجمعا
ولم تُعطني الأيامُ نومًا مُسكنا
وطول مقامِ المرءِ في الحيّ مُخلقا
فإنّني رأيتُ الشَّمسَ زِيدتُ محبّةً
ومنها :

وليس يُجلّي الكربَ رأيٌ مُسدّدٌ
ومنها :

محاسنُ أصنافِ المغنّين جمّةٌ
وقال أيضا :

أحلى الرّجالِ من النّساءِ مواقعًا
حتى إذا ما الشّعْرُ سوّدَ وجهه
ومنها :

ما إن تَرى الأحسابَ بيضا وضحا
ومنها :

أيقنتُ أنّ من السّماحِ شجاعةً
ومنها :

إنّ القوافيَ والمساعيَ لم تزلْ
هي جوهرٌ نثرٌ فإن ألفتَه
في كلِّ مُعتركٍ وكلِّ مَقامةٍ
وقال أيضا :

شابَ رأسي وما رأيتُ مَشيبَ
وكذاك الرُّؤوسُ في كلِّ بُؤسٍ
طالَ إنكارِي البياضَ وإنْ عُمِرَ
ومنها :

وضيَاءُ الأمورِ أفسَحُ في الطّرفِ

لفزتُ به إلّا بِشملٍ مُبدّدٍ
الذُّ به إلّا بنومٍ مُشرّدٍ
لديباجتيهِ فاغترِبَ تتجدّدُ !
إلى النّاسِ أنْ لیسَتِ عليهم بسرمدٍ

إذا هو لم يُؤنسَ برمحٍ مسدّدٍ

وما قصباتُ السّبقِ إلّا لمُعبدٍ

مَنْ كان أشبهَهُم بهنَّ خُدودًا
كان المُسوّدُ بينهنَّ مَسودًا

إلّا بحيثُ تَرى المنايا سُودًا

تُدمي وأنّ من الشّجاعةِ جُودًا ؟

مثل النّظامِ إذا أصابَ فريداً
بالشّعْرِ صارَ قلائِداً وعُقوداً
يأخذُنْ منه ذمّةً وعُقوداً

الرّأسِ إلّا مِنْ فَضْلِ شَيْبِ الفؤادِ
ونعيمِ طلائِعِ الأجنّادِ
تُ شَيْئًا أنكرتُ لَوْنَ السّوادِ !

وفي القلبِ مِنْ ضيَاءِ البلادِ

ومنها :

غَيْرَ أَنَّ الرُّبَى إِلَى سَبَلِ الْأَنْوَاءِ

ومنها :

كُلُّ شَيْءٍ غَثٌّ إِذَا عَادَ وَالْمَعْرُوفُ

وقال أيضا :

وما شيءٌ من الأشياءِ أَمْضَى

وقال أيضا :

لِمَ تُنْكِرِينَ مَعَ الْفِرَاقِ تَبْلَدِي

وقال أيضا :

وَالسَّيْفُ أَعْمَى غَيْرَ أَنَّ غِرَارَهُ

ومنها :

وَمِنْ الْعَجَائِبِ شَاعِرٌ قَعَدَتْ بِهِ

وقال أيضا :

مَا كُلُّ مَنْ شَاءَ اسْتَمَرَّتْ بِالنَّدَى

وقال أيضا :

وَكَذَا الْمَنَايَا مَا يَطَّانَ بِمَنْسَمٍ

وقال أيضا :

لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ عِلْمِي بِالزَّمَانِ وَمَا

وقال أبو الطيب أحمد بن الحسن المتنبي :

فَمَا تُرْجِي النُّفُوسُ مِنْ زَمَنٍ

إِنَّ نِيُوبَ الزَّمَانِ تَعْرِفْنِي

وفِيَّ مَا قَارَعَ الْخُطُوبَ وَمَا

وقال أيضا من قصيدة :

إِذَا كُنْتُ تَخْشَى الْعَارَ فِي كُلِّ خَلُوقٍ

ومنها :

أَهْمُ بِشَيْءٍ وَاللَّيَالِي كَأَنَّهَا

أَدْنَى وَالْحَظُّ حَظُّ الْوَهَادِ !

غَثٌّ مَا كَانَ غَيْرَ مُعَادٍ

على المهجّاتِ من رأيٍ سديدٍ

وبراعةُ المشتاقِ أنْ يَتَبَلَّدَا ؟

يَقِظُ إِذَا هَادٍ نَحَاهُ لِهادٍ

هِمَّاتُهُ أَوْضَاعٌ عِنْدَ جَوَادٍ

يَدُهُ وَلَا اسْتَوَطَا فِرَاشَ الْجُودِ

إِلَّا عَلَى أَعْنَاقِ أَهْلِ السُّؤْدِ

عَاثَتْ يَدَاهُ لِمَا رَبَّوْا وَلَا وَلَدُوا !

أَحْمَدُ حَالِيهِ غَيْرُ مَحْمُودٍ

أَنَا الَّذِي طَالَ عَجْمُهَا عُودِي

أَنْسَنِي بِالْمَصَائِبِ السَّودِ

فَلَمْ تَتَصَبَّأكَ الْحَسَانُ الْخَرَّائِدُ

تُطَارِدُنِي عَنْ كَوْنِهِ وَأُطَارِدُ

وحيدٌ من الخَلانِ في كُلِّ بَلَدَةٍ
ومنها :

ولكن إذا لم يَحْمِلِ القلبُ كَفَّهُ
ومنها :

أَحَقُّهُمْ بالسَّيفِ مَنْ ضَرَبَ الطُّلا
ومنها :

بذا قَضَتِ الأَيَّامُ ما بين أهلِها
ونظمه ابن شرف بقوله :

وموتُ قومٍ حياةٌ عند غيرهمُ
ومنها :

وكلُّ يرى طُرُقَ الشَّجَاعَةِ والنَّدَى
ومنها :

فإنَّ قليلَ الحُبِّ بالعقلِ صالِحٌ
وقال أيضا من أخرى :

لكلِّ امرئٍ من دهرِهِ ما تَعَوَّدَا
ومنها :

ومن يجعلُ الضَّرْغامَ في الصَّيدِ بازِهٌ
ونظمه ابن شرف بقوله :

ولا تَضُمَّنْ لِيثًا كي تصيدَ به
ومنها

وما قَتَلَ الأَحْرارَ كالعَفْوِ عنهمُ
إذا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الكَريمَ ملكَتَهُ

ووضع النَّدَى في موضعِ السَّيفِ بالعلَى
ومنها :

إذا عَظُمَ المَطْلُوبُ قلَّ المُساعدُ
ومنها :

على حالَةٍ لم يَحْمِلِ الكَفَّ ساعدُ
ومنها :

وبالأمن من هانتَ عليهِ الشَّدائِدِ
ومنها :

مصائبُ قومٍ عند قومٍ فوائِدُ
ومنها :

وقَد أبى الدَّهْرُ بين النَّاسِ تَعْدِيلًا
ومنها :

ولكنَّ طَبَعَ النَّفْسِ لِلنَّفْسِ قَائِدُ
ومنها :

وإنَّ كثيرَ الحُبِّ بالجهلِ فاسدُ
ومنها :

تصَيَّدَهُ الضَّرْغامُ فيمن تصيَّدَا⁽⁷⁾
ومنها :

فتَغْتَدِي خاتِلًا للصَّيْدِ مَخْتولًا
ومنها :

ومَنْ لَكَ بالحرِّ الَّذي يَحْفَظُ اليَدَا ؟
وإنَّ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ قَمَرَدًا

مُضِرٌّ كوضعِ السَّيفِ في موضعِ النَّدَا
ومنها :

ومنها :

(7) المشهور في رواية هذا البيت هو - كما في الديوان - :
ومن يجعلُ الضَّرْغامَ بازًا لصيده

تَصَيَّدَهُ الضَّرْغامُ فيما تصيَّدَا

ودع كلَّ صوتٍ غير صوتي فإنني
ومنها :

وقيدت نفسي في ذاك محبة
وقال أيضا :

يا عاذل العاشقين دم فية
ومنها :

فعد بها لا عدمتها أبداً :
وقال أيضا :

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم
فروؤوس الرماح أذهب للغيط
لا كما قد حيت غير حميد
فاطلب العز في لظى وذر الذل
يقتل العاجز الجبان وقد يعجز
ويوقى الفتى المخش وقد خو
لا بقومي شرفت بك شرفوا بي
وقال أيضا :

يفنى الكلام ولا يحيط بفضلكم
وقال أيضا :

وكم للهوى من فتى مدنف
ومنها :

فما لك تقبل زور الكلام
وقال أيضا :

وما ماضي الشبَاب بمُسترد
ومنها :

فإن الجرح يفر بعد حين

أنا الصائح المحكي والآخر الصدا

ومن وجد الاحسان قيذا تقيدا

أضلها الله كيف ترشدها

خير صلات الكريم أعودها

بين طعن القنا وخفق البنود !
وأشفى لغل صدر الحقود
وإذا مت مت غير فقيد
ولو كان في جنان الخلود !
عن قطع بخنق المولود
ض في ماء لبة الصنديد
وبنفسى فخرت لا يجدود

أيحيط ما يفنى بما لا ينفد ؟

وكم للنوى من قتيل شهيد !

وقدر الشهادة قدر الشهود ؟

ولا يوم يمر بمستعاد

إذا كان البناء على فساد

وإنَّ المَاءَ يَخْرُجُ مِنْ جَمَادٍ⁽⁸⁾ وإنَّ النَّارَ تَخْرُجُ مِنْ زَنَادٍ
وقال أيضا :

سَأُطْلَبُ حَقِّي بِالْقَنَا وَمَشَايخِ كَأَنَّهُمْ مِنْ طُولِ مَا التَّثَمَّوْا مُرْدُ
ثَقَالٍ إِذَا لَاقَوْا خِفَافٍ إِذَا دَعَوْا كَثِيرٍ إِذَا شَدُّوا قَلِيلٍ إِذَا عُدُّوا
ومنها :

وَمَنْ نَكَدَ الدُّنْيَا عَلَى الْحَرِّ أَنْ يَرَى عُدْوًا لَهُ مَا مِنْ صِدَاقَتِهِ بُدُ
يُروِحُ وَيَغْدُو كَارِهًا بِوَصَالِهِ وَتَضَطَّرُّهُ الْأَيَّامُ وَالزَّمَنُ النَّكَدُ⁽⁹⁾
وزعموا أَنَّهُ قَدْ قِيلَ لَهُ إِذْ تَنَبَّأَ : لَكَ نَبِيٌّ مُعْجِزَةٌ، فَمَا مُعْجِزَتُكَ ؟ فَقَالَ : هَذَا الْبَيْتُ .
وقال أيضا :

مَنْ خَصَّ بِالذِّمِّ الْفِرَاقَ فَإِنِّي مَنْ لَا يَرَى فِي الدَّهْرِ شَيْئًا يُحْمَدُ
وقال أيضا :

إِذَا غَدَرْتَ حَسَاءُ أَوْفَتْ بِعَهْدِهَا وَمَنْ عَهْدِهَا أَنْ لَا يَدُومَ لَهَا عَهْدُ
وإنْ عَشَقْتَ كَانَتْ أَشَدَّ صِبَابَةً وَإِنْ فَرَكْتَ فَاذْهَبْ فَمَا فِرْكُهَا قَصْدُ
وإنْ حَقَدْتَ لَمْ يَبْقَ فِي قَلْبِهَا رِضَى وَإِنْ رَضِيتَ لَمْ يَبْقَ فِي قَلْبِهَا حِقْدُ
كَذَلِكَ أَخْلَاقُ النِّسَاءِ، وَرَبَّمَا يَضِلُّ بِهَا الْهَادِي وَيَخْفَى بِهَا الرُّشْدُ
ومنها :

يُرومُونَ شَأْوِي فِي الْكَلَامِ وَإِنَّمَا يُحَاكِي الْفَتَى فِيمَا سِوَى الْمَنْطِقِ الْقَرْدُ
ومنها :

وَأَصْبَحَ شِعْرِي مِنْهُمَا فِي مَكَانِهِ وَفِي عُنُقِ الْحَسَاءِ يُسْتَحْسَنُ الْعِقْدُ
وقال أيضا :

أَبَى خُلُقُ الدُّنْيَا حَبِيبًا تُدِيمُهُ فَمَا طَلَبِي مِنْهَا حَبِيبًا تَرُدُّهُ
وَأَسْرَعُ مَفْعُولٍ فَعَلْتُ تَغْيِيرًا تَكْلُفُ شَيْءٍ فِي طَبَاعِكَ ضَدُّهُ
ونظم الأول ابن شرف بقوله :

قَدْ يَحْتَنِي الدَّهْرُ مِنْ كَفَّيْكَ مَا أُجْتَنَّا فَكَيْفَ مَا كَانَ عَنْ كَفَّيْكَ مُعْزُولًا ؟

(8) فِي الدِّيَّوَانِ : وَإِنَّ الْمَاءَ يَجْرِي مِنْ جَمَادٍ .

(9) لَا يَوْجَدُ هَذَا الْبَيْتُ فِي الدِّيَّوَانِ، وَلَعَلَّهُ مَقْهَمٌ، بِدَلِيلِ الْقِصَّةِ الْوَارِدَةِ بَعْدَهُ فِيهِمَا : «هَذَا الْبَيْتُ» لَا هَذَا الْبَيْتَانِ .

ومنها :

وَأَتَعَبُ خَلْقَ اللَّهِ . مَنْ زَادَ هَمَّهُ
ومثله قول الامام الشافعي رضي الله عنه :

وَأَحَقُّ خَلَقَ اللَّهُ بِالْهَمِّ أَمْرُو
وبعده :

فَلَا يَنْحُلُكَ فِي الْمَجْدِ مَالُكَ كُلُّهُ
ودبره تدبير الذي المجد كفته
فَلَا مَجْدٌ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ
ونظم هذا ابن شرف بقوله :

لَا مَالٌ إِلَّا بِمَجْدٍ فَالْتَمَسْهُ وَلَا
هكذا وجدته وكأنه تحريف، وإنما قال هكذا :

لَا مَالٌ إِلَّا بِمَجْدٍ فَالْتَمَسْهُ وَلَا
أو هكذا :

لَا مَجْدٌ إِلَّا بِمَالٍ فَالْتَمَسْهُ وَلَا
ومنها :

إِذَا كُنْتَ فِي شَكٍّ مِنَ السَّيْفِ فَابِلْهُ:
وما الصَّارِمُ الْهِنْدِيُّ إِلَّا كَغَيْرِهِ
وقال أيضا :

حَسْمُ الصُّلْحِ مَا اشْتَهَتْهُ الْأَعَادِي
ومنها :

وَكَلَامُ الْوَشَاةِ لَيْسَ عَلَى الْأَحْبَابِ
إِنَّمَا تَنْجُمُ الْمَقَالَةُ فِي الْمَرْءِ
ومنها :

قَدْ يُصِيبُ الْفَتَى الْمُشِيرَ وَلَمْ يَجْهَدْ
ومنها :

وَإِذَا الْحِلْمُ لَمْ يَكُنْ فِي طَبَاعِهِ

ومنها :

إِنَّمَا أَنْتَ وَالِدٌ وَالْأَبُ الْقَا

ومنها :

هذه دولة المكارم والرف

ومنها :

كيف لا يُطرقُ الطَّرِيقُ لَسَيْلٍ (10)

وقال أيضا :

إذا أردتُ كُمَيْتَ اللَّوْنِ صَافِيَةً

ماذا لَقِيتُ من الدُّنْيَا وأعجبه ؟

ومنها :

العبدُ ليس لحرٍّ صَالِحٌ بِأَخٍ

لا تَشْتَرِي العبدَ إِلَّا والعصا معه

ما كُنْتُ أَحْسِبُنِي أَحْيَى إِلَى زَمَنِ

ومنها :

إِنَّ أُمَّةً أُمَّةً حُبْلَى تُدَبِّرُهُ

وعندها لَذَّ طَعْمُ الموتِ شَارِبُهُ

وقال أيضا :

إِنَّ فِي المَوْجِ للغريقِ لَعُذْرًا

وقال أيضا :

وغيظٌ على الأَيَّامِ كالنَّارِ فِي الحِشَا

ومنها :

وليس حياءُ الوجه في الذُّبِّ شِيمَةً

وقال أيضا :

رَأَوْكَ لَمَّا بَلَوكَ نَابِتَةً

(10) فِي الدِّيَّانِ : كَيْفَ لَا يُتْرَكُ الطَّرِيقُ لَسَيْلٍ

(11) بَيْنَ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ فِي الدِّيَّانِ :

وَيَلْتَمِسُ خُطَّةً وَيَلْتَمِسُ قَابِلَهَا

طِعْمُ أَحْنَى مِنْ وَاصِلِ الْأَوْلَادِ

فَقَرٌ وَالْمَجْدُ وَالنَّدَى وَالْأَيَادِي

ضِيْقٌ عَنْ أَتَيْهِ كُلُّ وَادٍ

وَجَدْتُهَا وَحَبِيبُ النَّفْسِ مَفْقُودُ

أَنْتِي بِمَا أَنَا بَاكِ مِنْهُ مُحْسُودُ

لَوْ أَنَّهُ فِي ثِيَابِ الْحُرِّ مَوْلُودُ

إِنَّ الْعَبِيدَ لَأَنْجَاسُ مَنَاقِيدُ !

يُسِيءُ بِي فِيهِ كَلْبٌ وَهُوَ مُحْمُودُ

لِمُسْتَضَامٍ سَخِينُ الْعَيْنِ مَفْقُودُ

إِنَّ الْمَنِيَّةَ عِنْدَ الذُّلِّ قَنْدِيدُ (11)

وَاضِحًا أَنْ يَفْقُوتَهُ تَعْدَادُهُ

وَلَكِنَّهُ غَيْظُ الْأَسِيرِ عَلَى الْقَدِّ

وَلَكِنَّهُ مِنْ شِيمَةِ الْأَسَدِ الْوَرْدِ

يَأْكُلُهَا قَبْلَ أَهْلِهِ الرَّأْيِدُ

لَمَثَلَهَا خُلِقَ الْمَقْرِبَةُ الْقُودُ

وخلّ زِيًّا لِمَنْ يُحَقِّقُهُ : ما كلُّ دَامٍ جَبِينُهُ عَابِدٌ
ومنها :

فَالأَمْرُ لِلَّهِ رَبِّ مُجْتَهِدٍ مَا خَابَ إِلَّا لِأَنَّهُ جَاهِدٌ
وقال أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري :

غير مُجَدِّ فِي مَلَّتِي وَاعْتِقَادِي نَوْحُ بَاكِ وَلَا تَرْنَمُ شَادٍ
وشبيهه صوتُ النَّعْيِ إِذَا قَيْسُ بصوتِ البَشِيرِ فِي كُلِّ نَادٍ
ومنها :

تعبٌ كُلُّهَا الحَيَاةُ فَمَا أُعْجِبُ إِلَّا مِنْ رَاغِبٍ فِي ازْدِيَادٍ !
إِنْ حُزْنَا فِي سَاعَةِ الْمَوْتِ أَضْعَا فُ سُرُورٍ فِي سَاعَةِ الْمِيلَادِ
خُلِقَ النَّاسُ لِلْبَقَاءِ فَضَلَّتْ أُمَّةٌ يَحْسِبُونَهُمْ لِلنَّفَادِ
إِنَّمَا يُنْقَلُونَ مِنْ دَارٍ أَعْمَا لِرَ إِلَى دَارٍ شَقِوَةٍ أَوْ رَشَادِ
ضَجَعَتِ الْمَوْتِ رَقْدَةً يَسْتَرِيحُ الْجِسْمُ فِيهَا وَالْعَيْشُ مَثَلُ السَّهَادِ
ومنها :

زحلٌ أَشْرَفُ الْكَوَاكِبِ دَارًا مِنْ لِقَاءِ الرَّدَى عَلَى مِيعَادِ
ولنارِ المَرِيخِ مِنْ حَدَثَانِ الدَّهْرِ مُطْفِئٍ وَإِنْ عَلَتْ فِي اتِّقَادِ
ومنها :

وَإِذَا الْبَحْرُ غَاضَ عَنِّي وَلَمْ أَرَوْ قَلَا رَيَّ بَادِخَارِ الثَّمَادِ
كُلُّ بَيْتٍ لِلْهَدْمِ مَا تَبَتَّنِي الْوَرُ قَاءُ وَالسَّيِّدُ الرَّفِيعُ الْعِمَادِ
وَالْفَتَى ظَاعِنٌ وَيَكْفِيهِ ظَلُّ السِّدْرِ ضَرْبُ الْأَطْنَابِ وَالْأَوْتَادِ
بَانَ أَمْرُ الْإِلَهِ وَاخْتَلَفَ النَّاسُ سِ فِدَاعِي إِلَى الضَّلَالِ وَهَادِ
وَالَّذِي حَارَتِ الْبَرِيَّةُ فِيهِ حَيَوَانٌ مُسْتَحْدَثٌ مِنْ جَمَادِ
وَاللَّيْبُ اللَّيْبُ مَنْ لَيْسَ يَغْتَرُّ بِكَوْنِ مَصِيرُهُ لِلْفَسَادِ
وقال أيضا :

أَحْسَنُ بِالْوَاكِدِ مِنْ وَجْدِهِ صَبْرٌ يُعِينُ النَّارَ فِي زَنْدِهِ
ومن أَبِي فِي الرُّزْءِ إِلَّا الْأَسَى كَانَ أَسَاهُ مُنْتَهَى جُهْدِهِ (12)

(12) يروى أيضا : كان بكاه منتهى جهده.

ومنها :

والشَّيْءُ لَا يَكْثُرُ مُدَّاحُهُ
لَوْلَا غَضَى نَجْدٍ وَقَلَامُهُ
لَيْسَ الَّذِي يُبْكِي عَلَى وَصْلِهِ
وَالطَّرْفُ يَرْتاحُ إِلَى غَمْضِهِ
ومنها :

إِنْ لَمْ يَكُنْ رَشْدُ الْفَتَى نَافِعًا
ومنها :

لَوْ عَرَفَ الْإِنْسَانُ مَقْدَارَهُ
أَمْسَرَ الَّذِي مَرَّ عَلَى قُرْبِهِ
ومنها :

سَلَّمَ إِلَى اللَّهِ فَكُلُّ الَّذِي
لَا يَعْدَمُ الْأَسْمَرُ فِي غَابِهِ
وقال أيضا :

أَفُوقَ الْبَدْرِ يَوْضَعُ لِي مِهَادُ
قَنِعْتُ فَخِلْتُ أَنَّ النَّجْمَ دُونِي
وَأَطْرَبْنِي الشَّبَابُ غَدَاةً وَلَيَّ
وَلَيْسَ صَبًا يُعَادُ وَرَاءَ شَيْبٍ
ومنها :

سَفَاهُ زَادَ عَنْكَ النَّاسَ حِلْمُ
وقال أيضا :

ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ هِيَ الدَّهْرُ كُلُّهُ
ومنها :

وَقَدْ يُجْتَدَى نَيْكُ الْغَمَامِ وَإِنَّمَا
وَيَهْدِي الدَّلِيلُ الْقَوْمَ وَاللَّيْلُ مَظْلَمٌ
من البحر فيما يزعم الناس يجتدي
ولكنه يهدي ويهتدي

(13) يروى : «مثل الذي يبكي على صده» وهو الأنسب للوصول السابق.

ومنها :

وليس قضيب الهند إلا كُنابتِ من القضب في كفّ الهدان المُعَرِّدِ
الهدانُ - على مثال كِتَاب - : الجَبَانُ، ويقال هو الأحمق الثقيل.

ومنها :

أرى المجدَ سيفًا والقريضَ نجادهُ ولولا نجادُ السَّيفِ لم يُتَقَلَّدِ
وخيرُ حمالاتِ السُّيُوفِ حمالةٌ تحلَّتْ بأبكارِ التَّنَاءِ المُخَلَّدِ
وقال أيضا :

كذاك اللَّيالي ما يجدُنَ بمَطْلَبِ لخلقٍ ولا يُبقينَ شيئًا على عَهْدِ
وقال أيضا :

أرى العنقاءَ تكبرُ أن تُصَادَا فعانِدُ من تُطيقُ له عِنادا !
وما نهنتُ في طلبِ ولكنُ هي الأيَّامُ لا تُعطي قِيَادَا
فلا تُلْمِ السَّوَابِقَ والمَطَايَا إذا غرضُ من الأغراضِ حَادَا !
ومنها :

إذا ما النَّارُ لم تُطعمَ ضرامًا فأوشِكُ أن تَمُرَّ بها رَمَادَا
فظُنَّ بسائرِ الاخْوانِ شرًّا ولا تَأْمَنُ على سِرِّ فؤَادَا
فلو خَبَرْتَهُمُ الجوزاءُ خُبْرِي لما طلعتُ مخافةً أن تُكَادَا
تجنَّبْتُ الأنامَ فما أُوَاحِي وزدْتُ عَنِ العَدُوِّ فما أَعَادَا
ولمَّا أن تَجْهَمَنِي زَمَانِي جَرِيتُ مَعَ الزَّمَانِ كما أَرَادَا
وقال أيضا يخاطب خاله، وقد سافر إلى المغرب :

ظَعَنْتَ لتستفيدَ أخًا وفيَّا وضيَّعْتَ القديمَ المُستَفَادَا
وقال طرفة بن العبد :

وظلمَ ذوي القُرْبَى أشدُّ مضاضةً على الحرِّ من وقعِ الحُسامِ المُهَنْدِ
وقال عديُّ بن زيد :

إذا كنتَ في قومٍ فصاحبُ خيارهمُ ولا تصحبِ الأَرْدَى فتَرْدَى مع الرَّدَى
عن المرءِ لا تسألَ وسلكَ عن قرينه : فكلُّ قَريْنٍ بالمُقارنِ يقتدي
إذا ما رأيتَ الشرَّ يبعثُ أهله وقامَ جُنَاةُ الشرِّ للشرِّ فاقعدِ !

وقال الأعشى :

إذا أنت لم ترحل بزادٍ من الثقي
ندمت على أن لا تكون كمثلِه
وقال المهلهلي :

وكيف جُحود القلب والعينُ تشهدُ ؟
وقال أيضا :

ولا خير فيمن لا يدومُ له عهدُ
وقال الخريمي :

وحسبك مني أن أودَّ فأجهدا
وقال الخوارزمي :

لا تصحب الكسلانَ في حاجتهِ
عدوى البليدِ إلى الجليدِ سريعةٌ
وقال عمر بن أبي ربيعة :

حسنٌ في كلِّ عينٍ مَنْ تودَّ
وقال الآخر :

وكلُّ ربحٍ لها هُبُوبٌ
وقال الآخر :

إذا أكل الأحابُ لحمي بغريبةِ
وقال الآخر :

إذا قلَّ عقلُ المرءِ قلَّتْ همومه
وقال الآخر :

إذا كان غير الله للمرءِ عدَّةُ
وقال الآخر :

تخونون عهدي في الهوى وأحبكم
كذا الوردُ محبوبٌ وليس له عهدُ

(14) في مختار الشعر الجاهلي : وأنك لم ترصد كما كان أرضداً.

وقال الآخر :

تشكّى المحبُّون الصَّباة ليتني

وقال الآخر :

تصافحتِ الأكُفُّ وكان أشهى

وقال الآخر :

تعدُّون ذنبًا واحدًا إن جنيتُه

[وقال أبو الطيّب :

تفضّلتِ الأيّامُ بالجمع بيننا

وقال الآخر :

ثوبي على من كسوتُ في نظري

وقال الآخر :

جامل عدوك ما استطعت فإنما

وقال الآخر :

جدلي يعفوك يا من دأبه الجود

وقال الآخر :

جعلتُ إليك ياربِّي انقطاعي

وقال الآخر :

حاشاك أن يقبِضَ الزَّمانُ يدي

ومثله :

حاشاك يا قوَّتِي ويا سَنَدِي

وقال الآخر :

حسبي بقلبي شاهدٌ لك في الهوى

وقال الآخر :

ذو العقلِ يسخو بعيشِ ساعته

غيره :

رأيتُ دنوَّ الدَّارِ ليس بنافعٍ

تحملتُ ما يلقون من بينهم وحدي !

إلينا لو تصافحتِ الخُدودُ

عليكم ولا أحصي ذنوبكمُ عدًا

فلمّا حمدنا لم تُدمنّا على الحمى⁽¹⁵⁾

أزينُ من كونه على جسدي

بالرفقِ يُطعمُ في صلاحِ الفاسد !

فالجود عندك مأمول ومعهود

إذا انقطعَ العبادُ إلى العبادِ

عن نيكِ سُؤلٍ وأنتَ لي عضدُ

يضعُفُ ركني وأنتَ لي سَنَدُ

والقلبُ أعدكُ شاهدُ يُستشهدُ

وبالذّي بعدها تشحُّ يدهُ

إذا كان ما بينَ الفؤادِ بعيدًا

(15) سقط هذا البيت من ب .

غيره :

فَلَا تَجْزَعْ لَتَكْذِيبِ الْجَحُودِ !

رَسُولَ اللَّهِ كَذَّبَهُ الْأَعَادِي

غيره :

زَيْنَ فِي قَلْبِ وَالِدٍ وَلَدًا

رَيْنَكَ اللَّهُ فِي الْقُلُوبِ كَمَا

غيره :

كَأَنِّي بِهَا قَدْ كُنْتُ فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ !

سَقَى اللَّهُ أَيَّامًا تَقْضَتْ بِقَرْبِكُمْ

غيره :

مِنَ الْعُمَرِ إِلَّا مِنْ حَبِيبٍ عَلَى وَعْدٍ !

سَقَى اللَّهُ دَهْرًا لَمْ أَبْتَ فِيهِ لَيْلَةً

غيره :

وَأَنْتَ فِي حِلٍّ مِّنَ الْوَالِدِ !

صَحَّحْ لَنَا وَالِدَةً أَوْلَا

غيره :

لَا تُكْرَهَنَّ عَلَى الْهَوَى أَحَدًا !

صَلِّ مِنْ دَنَا وَتَنَاسَّ مِنْ بَعْدِهَا :

غيره :

وَهُوَ حُلُوٌّ إِذَا رَأَيْتُكَ عِنْدِي

طَعْمُ عِيشِي مَرٌّ إِذَا لَمْ تَزُرْنِي

غيره :

قَصِيرُ عَمْرِ الْأَعَادِي وَالْمَوَاعِيدِ

طَوِيلُ عُمُرِ الْمَعَالِي وَالنَّدَا أَبَدًا

غيره :

فَاقْرَأْ عَلَيْهِمْ سُورَةَ الْمَائِدَةِ !

قَدْ جُنَّ أَصْحَابُكَ مِنْ جُوعِهِمْ

غيره :

مَا فِيهِ إِلَّا سُورَةُ الْمَائِدَةِ !

قَدْ حَفَظُوا الْقُرْآنَ وَاسْتَعْمَلُوا

غيره :

وَيَحُلُّ الْبَلَاءُ بِالصَّيِّدِ

قَدْ يُصَادُ الْقَطَا وَيَغْدُو سَلِيمًا

غيره :

فَاشْدُدْ يَدَيْكَ وَأَيْنَ ذَاكَ الْوَاحِدُ ؟

قَلَّ الثَّقَاتُ فَإِنْ ظَفَرْتَ بِوَاحِدٍ

غيره :

وَلَا يَبْقَى الْكَثِيرُ مَعَ الْفَسَادِ

قَلِيلُ الْمَالِ تُصْلَحُهُ فَيَبْقَى

غيره :

كلُّ المصائبِ قد تمرُّ على الفتى

غيره :

كلَّما زادتِ الذُّبالةُ ضوَّءاً

غيره :

كلَّما قلتُ أعتَقَ الشُّكرُ رِقِّي

غيره :

كلوا اليوم من رزقِ الله وأبشروا:

غيره :

كم تَأْثَرُ بِوَلَايَةِ

غيره :

لأُخرجنَّ من الدُّنيا وحبُّكمُ

غيره :

لمائدةٍ موضوعةٍ ألفُ عائبٍ

غيره :

لم أبكِ من زمنٍ أشكو مساءته

غيره :

لو علمنا مجيئكم لفرشنا

غيره :

ليس في العالمين أقنَعُ منِّي

غيره :

ما كلَّفَ الله نفساً فوقَ طاقتها

غيره :

مُعَاتِبَةُ الأحبابِ تحسُنُ مرَّةً

غيره :

من لم يبتِ والحبُّ حشوُ فؤاده

فتَهونُ غيرَ شماتَةِ الحُسَّادِ

كان أدنى لها إلى الإخمادِ

صيرتني لك المكارمُ عبداً

فإنَّ على الرَّحمان رزقكم غداً !

وبِعزلهِ يَغْدُو البَرِيدُ !

بين الجوانحِ لم يشعُرْ به أحدُ

وعيب التي لم توضعِ الدهرَ واحدُ

إلاَّ بكيتُ عليه حينَ أفقدهُ

تحتَ أقدامكمُ بساطُ الخُدودِ

أنا أرضى بنظرةٍ من بعيدِ

ولا تجودُ يدٌ إلاَّ بما تجدُ

فإن اكثروا منها تؤوُلُ إلى المصدِّ

لم يدر كيفَ تفتَّتْ الأكبادِ

غيره :

وأجلهـنَّ نجابةُ الأولادِ

نِعَمُ الإله على العباد كثيرةٌ

غيره :

وأقبحُ من حرمانِ نِعْمى جحودها

وأحسنُ من وجه الصَّنِيعَةِ شكرها

غيره :

فهو المرادُ وأينَ ذاك الواحدُ ؟

وإذا صفا لك من زمانك واحدٌ

غيره :

شُجُونًا فزدني من حديثك يا سعدُ !

وحدَّثتني يا سعدُ عنها فزدتني

غيره :

أضرَّ عليك من ظلمِ العبادِ !

ودَعُ ظلمَ العبادِ فليسَ شيءٌ

غيره :

ولكنَّما الإخوانُ عند الشَّدائدِ !

وكلُّ آخرٍ عند الهوينا مُلاطفٌ

غيره :

فقد صرتُ في محفلٍ من قُرودِ !

وكنتُ من النَّاسِ في محفلٍ

غيره :

فَمَنْ لي بخلٌ أودعُ العقلَ عندهُ ؟

ولا بُدَّ لي من خفَّةٍ في وصالِهِ

غيره :

نِصفًا وآخرهُ لبيتِ يهُودي !

ولربَّ عودٍ قد يُشَقُّ لمسجدٍ

غيره :

لم يسمع فيه وخابَ سعيُ الجاهِدِ

ولربَّما نالَ المُرادَ مرفَّهٌ

غيره :

ولا من يُرجى قُربُهُ ببَعيدِ

وليس قريبًا من تخافُ بِعَادَهُ

غيره :

يَذاكَ بدنيا فاصْطنِعْ بهما يدا !

وما الدَّهرُ إلَّا ما ترى : فَمَتَى عِلَّتْ

غيره :

ولا سيِّما إن كان قد وقع النِّدا

وما الشَّعرُ إلَّا روضةٌ راقَ زهرها

غيره :

وما المال والأيام إلا معارة : فما استطعت من معرفها فتزود !

غيره :

وما حملت من ناقة فوق راحليها
وهذا أصدق بيت قاله شاعر بعد قول لبيد :

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلٌ
وكلُّ نعيمٍ لا محالة زائلٌ !

غيره :

وما كان طرفي بالسُّهادِ مُعوّداً
ولكنّه لمّا هجرتُمُ تعوّداً

غيره :

وما ماضي الشَّبابِ بمُسْتَرَدٍّ
ولا يومٌ يسرُّ بمُسْتَعَادٍ

غيره :

ويفسد بالاكثار ما هو صالحٌ
ويصلح بالاقْتِلاص ما هو فاسدٌ

غيره :

لا أعدمُ الذَّمَّ حين أخطي
وليس لي في الصَّوابِ حمْدٌ

غيره :

لا تحقرنَّ صغيراً في قلبه
إن البعوضة تدمي مُقْلَةَ الأسد!

غيره :

وللشرارة نارٌ حين تُضرمُها
وربّما أضرمَت ناراً على بَلَدٍ

غيره :

لا تلقِ إلا بليك من تواعده
فالشَّمْسُ نَمَامَةٌ والبدرُ قَوَادُ

غيره :

لا يحسد المرءُ إلا من فضائله
لا عاش من عاش يوماً غيرَ محسودٍ !

غيره :

يا أخلاي هل يعودُ التَّداني
منكُم بالحمى يعودُ رُقَادُ ؟

غيره :

ياربُّ من أسخطنا بجُهدِهِ
قد سرّنا جهلاً بغيرِ قَصْدِهِ

غيره :

يا صاحب العُودين لا تهملهُما: حرّك لنا عوداً وحرّق عوداً !

غيره :

يا من يعدُّ الميَّتينَ تعجبُها عمّا قليل، سوف تدخل في العدد !

غيره :

يجود بالنفّس إذ ضنَّ الجبانُ بها والجودُ بالنفّس أقصى غايةِ الجودِ

غيره :

يُدبِّرُ بالنُّجوم وليس يَدري وربُّ النّجمِ يفعلُ ما يُريدُ

غيره :

يرى عاقباتِ الرّأي والأمرُ عازبٌ كأنَّ له في اليوم عيناً على غدٍ

ومثله :

يرى العواقبَ في أثناء فكرتِه كأنَّ أفكاره بالغيبِ كهفانُ

غيره :

يشرونَ مثلكَ ثيابه وعبيده أفيقُدرونَ على شراءِ أسُوده؟

غيره :

إلهي على كلّ الأمور لك الحمدُ: فليس لما أوليتَ من نعمٍ حدُّ !

وقال ابن أبي عيَّنة :

كلُّ المصائبِ قد تمرُّ على الفتى فتَهونُ غيرَ شِمتَةِ الحسادِ

ومثله قول حبيب :

أجرؤُ لكنِّي نظرتُ فلم أجِدْ أجرأُ يفيّ بِشِمتَةِ الأعداءِ

وقال الآخر :

لم يبقَ إلّا نفسٌ خافتُ ومُقلّةٌ إنسانُها باهتُ

ومُدْنَفٌ تُضمُّ أحشاؤُه بالنّارِ إلّا أنّه ساكتُ

رقاً له الشّامتُ ممّا به : يا ويحَ من يرثي له الشّامتُ !

ويُروى أنّه قيل لأَيُّوب عليه السّلام : أيّ شيء كان في بلائك أشدَّ عليك ؟ فقال : شِمتة

الأعداء !

وقال علقمة الفحل :

ويلم لذاتِ الشباب معيشة مع الكثر يُعطاه الفتى المتلِفُ الندي
وقد يُقصرُ القلُّ الفتى دون همِّه وقد كان لولا القلُّ طلائعُ أنجد
القلُّ - بالضم - : الإقلال ؛ وهمُّه : ما يهتمُّ بفعله من المكارم والعطايا، فيمنعه الفقر
من ذلك، كما قال الامام الشافعي، رضي الله عنه :

أرى نفسي تتوقُّ إلى أمورٍ يُقصرُ دون مبلغين مالي
فنفسي لا تطاوعني لبخلٍ ومالي لا يُبلِّغني فعالي

وقال أيضا :

يا لهف نفسي على مالٍ أفرَّقه على المقلِّين من أهل المروعاتِ !
إنَّ اعتذاري إلى من جاء يسألني ما ليس عندي من إحدى المصيباتِ
وفلان طلائعُ أنجدٍ أي ذو أفعال كريمة، ومآثر عظيمة ؛ والأنجدُ جمع نَجْد، وهو ما
ارتفع من الأرض، جعل طلوعه كناية عن البروز والاستعلاء وعدم الاستتار، كقول الآخر :

أنا ابن جلا وطلائعُ الثنايا

وقول دريد بن الصمة :

كميشُ الأزار خارجُ نصفِ ساقه بعيدٌ من السَّوعاتِ طلائعُ أنجدٍ
وقال الآخر :

لعمرك ما يدري الفتى أيُّ يومه وإن كان محروسًا على الرُّشدِ أرشدُ
أفي عاجلاتِ الأمر أم أجلاته أم اليومُ أدنى للسَّعادةِ أم غدُ ؟
وقال المُنقَّب :

وللموت خيرٌ للفتى من حياته إذا لم يثبُ للأمر إلا بقائِدِ
ويروى :

إذا لم يُطِفْ عُلَياءَ إلا بقائِدِ

وبعده :

فعالجُ جسيماتِ الأمور ولا تكن هببتَ الفؤاد همُّه للوسائدِ !
إذا الرِّيحُ جاءتْ بالحمام تشكُّه هذاليله شلَّ القلاصِ الطرائدِ

وأعقب نوءُ المرزَمين بَغْبَرَةً . وقطرَ قَليلِ الماءِ بِالَّيْلِ بَارِدٍ .
 كفى حاجةَ الأضيافِ حتَّى يَريحَها . على الحيِّ مِنَّا كلُّ أرومٍ ماجِدٍ .
 تراهُ لتفريجِ الأمورِ ولفَها . لما ناك من معروفِها غيرَ زاهِدٍ .
 وليس أخونا عندَ شيءٍ يخافُه . ولا عندَ خيرٍ إن رجاهُ بواحدٍ .
 إذا قيلَ مَنْ . للمُعْضَلاتِ أجابُه . عظامُ اللّهي مِنّا طوالُ السَّواعِدِ .
 الهَبِيتُ الفُؤادُ : الضَّعيفُ ، والهِذالِكُ جمعُ هذلولٍ وهو ما طاك من الرمل . وهذالِكُ
 الرِّيحُ : ما امتدَّ منها ؛ والمرزمانِ نجْمانِ مع الشَّعْريَيْنِ .
 وقال حُرْثانُ بنُ عمرو :

إذا هَتَفَ العصفورُ طارَ فُؤادُه . وليثُ حديدُ النَّابِ عندَ الثَّرائِدِ .
 وهذا الشعرُ هجا به أُمَيَّةُ بن عبد اللّهِ بن خالد بن أسيد . فقال عبد الملك بن مروان يوماً
 لأُمَيَّةَ هذا : مالك ولحُرْثان بن عمرو إذ يقولُ فيكَ : إذا هَتَفَ العُصفورُ (البيت) ؟ فقال :
 يا أمير المؤمنين وجب عليه حدٌّ فأقمته عليه . فقال : هَلَّا درأت بالشبهات عنه ؟ فقال :
 كان حدّه أبين ، وكان زَعَمُه عليَّ أهون . فقال عبد الملك : [يا] بُني أُمَيَّةَ ! أحسابكم
 أنسابكم ، لا تعرّضوها للجَهَّالِ : فإنّه باق ما بقي الدهر ، واللّهُ ما يسرّني أني هُجيت
 بهذا البيت وأن لي ما طلعت عليه الشمس :

تبيتون في المشتى ملأً بَطُونُكُمْ . وجاراتُكم غرثى يبتنَ خَمائِصاً .
 وما يبالي مَنْ مُدَحَ بهذين البيتينِ إلّا يُمدحَ بغيرهما :

هناك إن يُستخْبَلُوا المالكُ يُخْبِلُوا . وإن يُسألوا يُعطوا وإن يَيسرُوا يُغْلُوا .
 على مُكثريهم رزقُ من يعترِيهمُ . وعند المُقلِّين السَّماحةُ والبذلُ .
 قلت : وهذان البيتانِ لزهير ، وقبلهما :

إذا السَّنةُ الشَّهَاءُ بالنَّاسِ أجمعت . ونال كرامَ المالكِ في الجُحرةِ الأكلُ .
 رأيتَ ذوي الحاجاتِ حولَ بيوتهم . قطيناً بها حتّى إذا نَبَتَ البقلُ .
 هُناك (البيت)

وبعده :

وفيهـم مقاماتٌ حسانٌ وجوهُهُـم . وأنديةٌ يَنتابُها القولُ والفعلُ .

عَلَى مُكْثَرِهِمْ (البيت)

قوله : إن يَسْتَخْبِلُوا، الاستخبالُ أن يستعير الرجل من آخر إبلا يحلبها ويشرب ألبانها، فإذا أخصب ردّها . وأنكر بعضهم هذا اللفظ وقال : لعَلَّه قال يَسْتَخْوِلُوا، والاستخوالُ أن يملكها إياه .

وقوله : إن يَئْسِرُوا يُغْلُوا، يريد أَنَّهُم إذا يسروا بالقداح أعطوا سمان الابك وأغلاها ثمنًا . وتقدّم هذا المعنى . وقال أعرابي كان يمنعه أبوه من الضرب في الأرض وطلب المعيشة شفقة عليه، فكتب إلى أبيه :

ألا خَلَّني أذهبْ لَشَأْني ولا أَكُنْ على النَّاسِ كَلًّا إِنَّ ذَا لَشَدِيدُ !
أرى الضَّرْبَ في البلدان يُغْني معاشرا ولم أرَ من يُجْدي عليه قُعودُ
أَتَمْنَعُني خوفَ المنايا ولم أَكُنْ لأهْرَبَ ممَّا ليسَ عنه محيدُ ؟
فدعْني أجولَ في البلادِ لَعَلَّني أسْرُ صديقًا أو يُسَاءَ حَسودُ
فلو كنتَ ذا مالٍ لَقَرَّبَ مجلسي وقيلَ إذا أَخْطأتُ أنتَ سديدُ !
وسياتي ما قيلَ في هذا المعنى بعد، إن شاء اللّهُ تعالى.

وقال كلثوم بن عمرو :

إِنَّ الكَريمَ ليُخْفِي عَنكَ عُسْرَتَهُ حتّى تراهُ غنيًّا وهو مجهودُ
وللبخيلِ على أموالِهِ عِلٌّ رُزْقُ العَيُونِ عليها أَوْجُهُ سُدُودُ
وكان كلثوم هذا كتب إلى صديق له : أمّا بعد، أطال اللّهُ بقاءك وجعله يمتدّ بك إلى رضوانه والجنّة ! فَإِنَّكَ كنتَ عندنا روضةً من رياض الكرم تبتهج النفوس لها، وتستريحُ القلوب إليها . وكنا نعفيها من النّجعة استتمامًا لزهرتها [وشفقة على خضرتها] (16)،

وادخارًا لثمرتها، حتّى أصابتها سنة كانت عندي قطعةً من سِنِّي يوسف، واشتدّ علينا كدّها، وغابت عنا فِضَّتُها، وكذَبَتْنا غيومُها، وأخْلَفَتْنا بُروقُها، وفَقَدْنَا صالحَ الإخوان فيها، فانتجعتك وأنا بانتجاعي إياك شديدُ الشفقة عليك، مع علمي بأنّك نعم موضع الزاد وأنّك تغطي عين الحاسد . واللّهُ يعلم أنّي ما أعدك إلاّ في حومة الأهل . وأعلم أنّ الكَريم، إذا استحيا من إعطاء القليل ولم يحضره الكثير، لم يعرف

جوده ولم تظهر همته . وأنا أقول في ذلك :

ذلك اليسار إلى العباس ممدود وقلبه أبداً بالمحك ممدود
إن الكريم، إلخ....

قيل : فشاطره ماله حتى أعطاه إحدى نعليه ونصف قيمة خاتمه .

واجتمع جماعة بباب دار عدي بن الرقاع، فخرجت إليهم بنية له صغيرة فقالت
 لهم : ما تريدون ؟ فقالوا لها : نريد أباك . فقالت : وما حاجتكم به ؟ فقالوا : جئنا إليه
 نهاجيه . فقالت على الفور :

تجمعتهم من كل أوب ووجهة على واحد لا زلتهم قرن واحد
وقال أبو مسلم الخراساني :

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت عنه ملوك بني مروان إذ حشدوا
 ما زلت أسعى بجدي في دمارهم والقوم في غفلة الأيام قد رقدوا
 حتى ضربتهم بالسيف فانتبهوا من نومة لم ينمها قبلهم أحد
 ومن رعى ثمنًا في أرض مسبعة ونام عنها تولّى رعيها الأسد
 وقال الآخر :

وأكرم نفسي إن أهينها لأنّها وحقك لم تكرم على أحد بعدي
 حدث الأصمعي قال : مررت في بعض سكك الكوفة، فإذا رجل خرج من حش على كتفه
 جرة وهو يقول : وأكرم نفسي (البيت) . قال : فقلت له : أيمثك هذا تكرمها ؟ قال :
 نعم ! وأستغني عن مسألة مثلك . فصاح : يا أصمعي ! فالتفت، فقال :

لنقل الصخر من قلب الجبال أحب إلي من من الرجال
 يقول الناس كسب فيه عار وكل العار في ذلك السؤال !
 وقال الآخر :

يأيها الاخوان أوصيكم وصية الوالد والوالدة
 لا تنقلوا الأقدام إلا إلى من تترجى من عنده فائده
 إمّا لعلم تستفيدونه أو لكريم عنده مائده !

وروي عن الأصمعي قال : لقيني أبو عمرو بن العلاء وأنا ماشٍ في بعض أزقة البصرة، فقال: إلى أين يا أصمعي ؟ قلت : لزيارة بعض إخواني . فقال : يا أصمعي، إن كان لفائدة أو لمائدة، وإلا فلا !

وقال الآخر :

ولمّا رأيت الدهر أنحتْ صُروفه
حذفتْ فضولَ العيشِ حتى ردّدتُها
وقلتْ لنفسِي : أبشري ، وتوكّلي
فإلّا تَكُنْ عندي دراهمُ جمّةٌ
وقال الآخر :

إن يحسدوني فإنني غير لائمهم :
فدام لي ولهم ما بي وما بهم
أنا الذي يجدوني في صدورهم
وقال أبو فراس :

قد كنت عدّتي التي أسطويها
فرميتُ منك بضدٍّ ما أمّلتُه
وقال ابن الضّريّ النّفرواني :

لا بارك الله في الطّعام إذا
كم دخلت لقمة حشى شره
وقال الوزير المهلبّي في غلام قدّمه معزّ الدولة على سريّة، من أبيات :

جعلوه قائداً عسكراً : ضاع الرّعيلُ ومن يقوده
وقال أبو الفتح ابن جنيّ النحوي، وقيل أبو منصور الديلمي :

صدودك عنّي ولا ذنب لي
فقد، وحياتك، ممّا بكّيت
وقال الامام السّفروزيّ لمّا ضعف وكبر :

يا ربّ لا تحيني إلى زمن
خُذني قبل أن أقولَ لمن
أكونُ فيه كلاماً على أحد
ألّقاءه عندَ القيام : خُذ بيدي !

وقال أبو محمد اليزيدي :

عش بجدّ ولا يضرنك نوك : إنّما عيش من ترى بالجدود
ربّ ذي إربة مقلّ من الما ل وذي عنجهيّة مجدود
عش بجدّ وكن هبنقة القيسيّ أو مثلك شيبّة بن الوليد !
وسبب قوله ذلك أنّه تناظر هو والكسائي في مجلس المهدي، وكان شيبّة بن الوليد حاضراً،
فتعصّب للكسائي وتحامل على اليزيدي فهجاه بذلك، واللّه أعلم . وقال السّلاميّ يصف
الدّرّع :

يا ربّ سابغة حبّتيّ نعمة
أضحت تصون عن المنايا مهجتي
وقال الآخر :

أخّ لك ما مودّته بمذق
سألناه الجزيل فما تلّك
فعدنا ثمّ عدنا ثمّ عدنا
مراراً ما نعود إليه إلّا
وقال الآخر :

هجرتك، لا قلبي منّي، ولكن
كهجر الحائات الورد لمّا
تغيّظ نفسها ظمّاً وتخشى
تصدّ بوجه ذي البغضاء عنه
وقال أبو نواس :

ليس من اللّه بمستنكر
وهذا المعنى سبق إليه جرير فقال :

إذا غضبت عليك بنو تميم
إلّا أنّ قول أبي نواس أشمل . ومن هذا المعنى قول السّلاميّ :

فبشرت آمالي بملك هو الورى ودار هي الدّنيا ويوم هو الدّهر

وأخذه الأَرَجَانِيّ فقال :

قد زرتُه فرأيت النَّاسَ في رَجُلٍ والدَّهْرَ في ساعةٍ والأَرْضَ في دارٍ
ومنه [أيضاً] قول أبي الطَّيِّب :

هي الغَرْضُ الأقصى ورؤيتُكَ المُنَى ومنزلُكَ الدُّنْيَا وأنتَ الخَلَائِقُ !
وبيتُ السَّلامِي والأَرَجَانِيّ أسلس وأفخم مع انتقاصِ الزَّمانِ من بيتِ أبي الطَّيِّب، إلَّا أنَّ
قوله : وأنتَ الخَلَائِقُ، إن لم يقصره العرف، يقوم مقام قول أبي نواس في الشمول. وهذا
المعنى موجود في بعض أبيات البوصيري في البردة في حقِّ النبي صلَّى الله عليه
وسلَّم . وقال الأَفْوَه الأودِي :

بنى معاشرُ لم يبنوا لقومهمُ وإن بنى قومهمُ ما أفسدوا عادوا
لا يرشِّدون ولن يرعوا لمُرشدهم فالجهلُ منهم معًا والغِيُّ ميعادُ
أضحوا كقَيْل بن عمرو في عشيرته إذ أهلك بالَّذي قد قدمتُ عادُ
ويروى :

كانوا كمثلك لقيم في عشيرته إذا أهلكت (البيت)
أو بعده كقَدَّار حينَ تابَعَه على الغوايةِ أقوامٌ فقد بادُوا
والبيت لا يَبْتَنِي إلَّا له عَمَدٌ ولا عماد إذا لم تُرس أوتادُ
فإن تجمَّع أوتادٌ وأعمدةٌ وساكنٌ بلَّغوا الأمرَ الَّذي كادُوا
وإن تجمَّع أقوامٌ ذَوو حَسَبٍ اصطادَ أمرهمُ بالرُّشدِ مُصْطادُ
لا يصلُح النَّاسُ فوضَى لا سِراةَ لهم ولا سِراة إذا جهَّأهم سادوا !
ونظمه ابن شرف بقوله :

إذا تساوى الورى ضاعوا وحفظُهم أن يجعلوا فاضلاً منهم ومفضلاً

* * *

تُهدى الامور بأهل الرأى ما صلحتُ فإن تولت فبالأشرار تنقَادُ
ونظمه ابن شرف بقوله :

فإن هم سوّدوا جهَّأهم هلكوا هلكَ الدَّيْلِك إذا ما ضلَّ مدلولاً
وقد علمت أنَّ ما يطابق آخر شطر [البيت] قبله :

إذا تولّى سِراة القومِ أمرهمُ نما على ذاكَ أمر القومِ فازدادوا

أَمَارَةُ الْغَيِّ أَنْ تَلْقَى الْجَمِيعَ لَدَى
الْإِبْرَامِ لِأَمْرِ وَالْإِذْنَابِ اكْتَاد
وبعده :

حَانَ الرَّحِيلُ إِلَى قَوْمٍ وَإِنْ بَعْدُوا
فَسَوْفَ أَجْعَلُ بَعْدَ الْأَرْضِ دُونَكُمْ
إِنَّ النَّجَاةَ إِذَا مَا كُنْتَ فِي نَفَرٍ
وَالْخَيْرُ تَزْدَادُ مِنْهُ مَا لَقِيتَ بِهِ
وقال بَشَّارُ :

فَخَيْرٌ مِنْكَ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ
وَأَخَيْرٌ مِنْ زِيَارَتِكُمْ قُعُودِي
وسبب قوله ذلك أَنَّهُ تَعَشَّقَ امْرَأَةٌ فَرَّاسِلَهَا مَرَارًا . فَلَمَّا أَحْمَ عَلَيْهَا شَكَّتْهُ إِلَى زَوْجِهَا فَقَالَ
لَهَا : أَجِيبِيهِ وَعَدِيهِ أَنْ يَأْتِيَنِي هُنَا ! فَوَجَّهَتْ إِلَيْهِ، فَجَاءَ زَوْجُهَا مَعَهَا وَبَشَّارُ لَا يَشْعُرُ
فَجَعَلَا يَتَحَدَّثَانِ، ثُمَّ قَالَ لَهَا بَشَّارُ : مَا اسْمُكَ، بِأَبِي أَنْتِ ؟ فَقَالَتْ : أُمَامَةُ . فَقَالَ :
أُمَامَةُ قَدْ وَصِفْتَ لَنَا بِحُسْنٍ وَإِنَّا لَا نَرَاكِ فَالْمَسِينَا !
فَأَخَذَتْ يَدَهُ وَوَضَعَتْهَا عَلَى أَيْرِ زَوْجِهَا وَقَدْ أَنْعَظَ مِنْ حَسَنِ مَا سَمِعَ مِنْ حَدِيثِهَا . فَفَزَعَ
بَشَّارُ وَوَثَبَ قَائِمًا وَقَالَ :

عَلَيَّ الْإِيَّةُ مَا دُمْتُ حَيًّا
وَلَا أَهْدِي لِأَرْضٍ أَنْتَ فِيهَا
طَلَبْتُ غَنِيمَةً فَوَضَعْتَ كَفِّي
فَخَيْرٌ مِنْكَ (الْبَيْتِ)
ومثل هذا البيت في المعنى قول طرفة :

فَلَيْتَ لَنَا مَكَانَ الْمَلِكِ عَمْرُو
مِنْ الزَّمَرَاتِ أَسْبَلَ قَادِمَاهَا
يُشَارِكُنَا لَنَا رَخْلَانِ فِيهَا
رَغُوْنَا حَوْلَ قُبَّتِنَا تَخُورُ
وَضَرَّتْهَا مُرْكَنَةٌ دَرُورُ
وَتَعْلُوهَا الْكِبَاشُ فَمَا تَنُورُ

يقول : ليت لنا - بدل هذا الملك، وهو عمرو بن هند - رَغُوْنَا، أي شاة، ترضع من
الزَّمَرَاتِ، أي القليلات الصُّوف، وضرتها، أي لحم ضرعها، مركنة، مجتمعة، ويعني أَنَّهَا
قليلة الصوف صغيرة الجسم، ومع ذلك يرضعها رخلان، أي ولدان لها، وهي هزيلة تعلوها

الكباش للفساد، فما تنور، أي ما تستطيع أن تنفر لهُزَالها . ومعلوم أَنَّها، إذا كانت على هذه الأوصاف، لم يكن بها خير من صوف ولا لبن ولا لحم، ومع ذلك فهي خير لنا من هذا الملك . وهذا الشعر كان سبب قتل عمرو بن هند طرفة، وسنشرح قصته بعد، إن شاء الله تعالى . وقال عبيد بن الأبرص :

لأَعْرِفَنَّكَ بعد الموتِ تَنَدُّبُنِي وفي حياتي ما زوَدْتُني زَادِي !
وهو مثلك سائر يُضْرَبُ للرجل يُضَيِّعُ حَقَّ أخيه في حياته، ثم يبكيه بعد الموت .
يُروى عن طلحة بن عبيد الله - رضي الله عنه - قال : خرجت مع عمر بن الخطاب في بعض أسفاره، فإذا براكب على الطريق فقال : ما وراءك ؟ قال : أمر جليك . قال : ويحك، ما هو ؟ قال : مات خالد بن الوليد ! فاسترجع عمر استرجاعاً طويلاً، فقلت له : يا أمير المؤمنين :

ألا أراك بُعِيدَ الموتِ تَنَدُّبُنِي وفي حياتي ما زوَدْتُني زَادِي ؟
فقال : يا طلحة، لا تَوَنِّبُنِي !

وقال من شعراء الحماسة عمرو بن معدي كرب الزبيدي :

لَيْسَ الْجَمَالُ بِمُزْرَرٍ فاعْلَمْ، وإنْ رُدَّيتَ بُرْدًا !
إنَّ الْجَمَالَ مَعَادِنٌ وَمَنَاقِبٌ أَوْرَثَنَ مَجْدًا
ومنها :

كلُّ امرئٍ يجزِّي إلى يومِ الهِياجِ بما استَعَدَّ
ومنها :

كم من آخرٍ لي ماجد⁽¹⁷⁾ بوَّأته بيديَّ لحدا
ما إنْ جَزَعْتُ ولا هَلِيعْتُ ولا يَرُدُّ بُكَايَ زَنْدًا
ألْبِسْتُهُ أَثْوَابَهُ وَخُلِقْتُ يَوْمَ خُلِقْتُ جُلْدًا
أَغْنِي غَنَاءَ المِيتَتَيْنِ⁽¹⁸⁾ أَعَدُّ للأَعْدَاءِ عَدَا
زَهَبَ الَّذِينَ أَحْبَبُهُمْ وَبَقِيتُ مِثْلَ السَّيْفِ فَرْدًا !

وقال العباس بن مرداس السُّلَمي :

إذا طالتِ النَّجْوَى بغيرِ أُولَى النُّهَى أَضَاعَتْ وَأَصْغَتْ خَدَّ من هو فاردُ

(17) في الحماسة : كم من آخرٍ لي صالح . . .

(18) في الحماسة أيضا : أغنى غناء الذاهبين .

فحاربُ فإن مولاك حارداً نصره^١ ففي السَّيفِ مولى نصره لا يحارد !
الفارد : المنفرد ؛ وحارداً نصره^٢ : قلّ، من قولك : حاردتِ الابلُ إذا قلّ درّها.

وقال العَبَّابُ العَجَلِيّ :

لعلّ اللّذي قاد النّوى أن يردّها إلينا وقد يُدني البعيدَ من البُعد
وعلّ النّوى في الدّار تجمع بيننا وهل يُجمع السيّفان ويحك في غمّد ؟
ومنها :

فكنت كمُهريقِ اللّذي في سقائه لرقراق آلٍ فوق رابيةٍ صلدٍ
كمُرضعةٍ أولادٍ أخرى وضيّعت بني بطنها هذا الضّلالُ عن القصد !
وقال عَقيلُ بنُ علفّة المُرّي :

وأبغضُ من وضعتُ إليّ فيه لسانيّ معشَرَ عنهم أذودُ
ولستُ بسائلٍ جاراتِ بيتي أغيابُ رجالكِ أم شهودُ
ولا مُلقٍ لذي الودعاتِ سوطي ألاعبُ وربّته أريدُ
ولست بصادِرٍ عن بيتٍ جاري صدورَ العَيْرِ غمّره الورودُ⁽¹⁹⁾
العَيْرُ : الحِمَارُ ؛ والتَّغْمِيرُ : أن يشرب دون الرّيّ . يقول : لست بخارج من بيت
جاري مربياً ألتفت وأتحيّر خشية أن أرى كالعير المزعمج عن الماء قبل أي يروى، أولاً أخرج
ملتفتاً عاملاً على العود إلى الرّيبة مرّة أخرى كالعير الملتفت إلى الماء لبقاء العطش . وقال
قيس بن كلثوم :

قد يُخْطَمُ الفحلُ قسراً بعد عزّته وقد يُردُّ على مكروهه الأسدُ
الخَطْمُ : أن يُشدَّ على البعير خطامه فيملك بذلك . وقال تأبّط شرّاً :
وإنّك لو أصلحت ما أنت مُفسدٌ تودّك الأقصى اللّذي تتودّدُ
وكان لك ابن العمِّ يحمي ذماره ويمنعه حينَ الفرائصُ ترعدُ
أخوك اللّذي إن تدّعه لملمّةٍ يجبك لها والمستعدّون رُقْدُ
وقال الفرزدق :

وفي الأرض عن ذي الجود منأى ومبعد وكلُّ بلادٍ أوْطنتْ كـ____بلادٍ

(19) هذا البيت مقدم على البيت قبله في الحماسة .

وماذا عسى الحجاجُ يبْلُغُ جُهدَه إذا نحن خَلَّفنا حَفيرَ زيادِ ؟
وقال غَسَّانُ بن وَعِلَّةَ :

إذا كُنْتَ في سَعْدٍ وأُمُّكَ مِنْهُم غريباً فلا يَغْرُرْكَ خالُكَ من سَعْدِ
فإنَّ ابنَ أختِ القومِ مُصْغَى إناءُه إذا لم يُزاحِمِ خالَه بأبٍ جَلَدِ
وقال شُبَيْكُ الفَزاري :

وما عن ذلَّةٍ غَلَبوا وَلَكِنْ كذاكَ الأسدُ تَفَرَّسُها الأَسودُ
وقال دريد بن الضَّمَّة :

صبا ما صبا حتَّى علا الشَّيبُ رأسَه فلماً علاه قال للباطل : ابعُدِ !
وكان الأصمعي يقول : هذا أحسن بيت قالته العرب ! ومنها :

وهوَنَ وجَدِي أتما هو فارطُ أمامي وأُنِّي هامةُ اليومِ أوْغَدِ
وقال عبد الله بن ثعلبة :

لكلِّ أناسٍ مقبرٌ بفنائِهِمُ : فهُم يَنْقُصونَ والقُبورُ تَزِيدُ
وما إن يُزالَ رِسمُ دارٍ قد أخْلَقْتَ وعَهْدٌ لَمِيتٍ بالفناءِ جَدِيدُ
فهُم جيرةُ الأحياءِ أمّا محلُّهُم فدانٍ وأمّا المُلْتَقى فبَعِيدُ
وقال آخر في ابن له :

الْأَمُّ عَلَى تَبَكُّيهِ وَالْمُسُّهُ فَلَا أَجِدُهُ
وَكَيْفَ يَلَامُ مَحْزُونُ كَبِيرُ فَاتِهِ وَلَدُهُ ؟
وقال رجل من خثعم :

خَلَّتِ الدِّيَارُ فَسُدْتُ غيرَ مَسوَدٍ ومن الشَّقَاءِ تَفَرَّدِي بالسُّودِ !
وهذا مثلك مشهور . (رؤي أن حارثة بن بدر الغداني خرج ومعه كعب موله . فجعل لا يمر
بمجلس من بني تميم إلّا قالوا : مرحباً ببيدنا ! فقال كعب : ما سمعت قطّ كلاماً أقرّ
لعيبي من هذا ! فقال حارثة : ما سمعت كلاماً أكره إليّ منه ! وتمتلك بالبيت .

ويروى أيضاً أن أمةً مرّت بابن جُرَيْجٍ ، أحد علماء المدينة ، وهو يصلّي وقد خطّ خطّاً
بين يديه . فقالت : واعجباً لهذا الشيخ وجهه بالسنة ! فأشار إليها أن قفي ! فلما أن
قضى صلاته قال : ما رأيت من جهلي ؟ فقالت : إنك تخطّ خطّاً تصلّي عليه ، وقد

حدَّثتني مولاتي عن أمها عن أمِّ سَلَمَة، زوج النبي صَلَّى الله عليه وسلَّم، أَنَّهُ قال :
الْخَطُّ بَاطِلٌ، لِأَنَّ الْعَبْدَ إِذَا كَبَّرَ تَكْبِيرَةَ الْأَحْرَامِ سَدَّتْ مَا بَيْنَ
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . فَسَأَلَهَا أَنْ تَقْفُوهُ لِمَوْلَاتِهَا . ففعلت، فحدَّثته بذلك وقالت : أتجهل، وأنت
من علماء المدينة ؟ فقال عند ذلك :

خَلَّتِ الدِّيَارُ فَسُدَّتْ غَيْرَ مَسْوَدٍ (البيت)

وقال آخر :

إِنَّ الْمَسَاعِدَ لِلْمَسْرَةِ مَوْعِدٌ
فَإِذَا سَمِعْتُ بِهَالِكٍ فَيَتَقَنَّ
أَخْتَانِ رَهْنٌ لِلْعَشِيَّةِ أَوْ غَدِ
أَنَّ السَّبِيلَ سَبِيلُهُ فَتَزَوَّدِ !

وقال رجل من بني قُرَيْع :

مَتَى مَا يَرِ النَّاسُ الْغَنَى وَجَارُهُ
وَلَيْسَ الْغَنَى وَالْفَقْرُ مِنْ حِيلَةِ الْفَتَى
فَقِيرٌ يَقُولُوا : عَاجِزٌ وَجَلِيدٌ
لَكِنْ أَحَاطَ قُسِّمَتْ وَجَدُودُ
إِذَا الْمَرْءُ أَعْيَتْهُ الْمَرْوَةُ نَاشِئًا
وَكَائِنُ رَأَيْنَا مِنْ غَنَى مَذْمُومٍ
فَمَطْلُبُهَا كَهَلَا عَلَيْهِ شَدِيدُ
وَصَعْلُوكَ قَوْمٍ [مَاتَ وَهُوَ حَمِيدٌ] (20)

وقال الْمُقَنَّنَعُ الْكَنْدِيُّ :

يُعَاتِبُنِي فِي الدَّيْنِ قَوْمِي وَإِنَّمَا
أَلَمَ يَرِ قَوْمِي كَيْفَ أَوْسَرُ مَرَّةً
فَمَا زَادَنِي الْاِقْتَارُ مِنْهُمْ تَقَرُّبًا
أَسَدُ بِهِ مَا قَدْ أَخْلَوْا وَضِيعُوا
دِيُونِي فِي أَشْيَاءٍ تُكْسِبُهُمْ حَمْدًا
وَأُعْسِرُ حَتَّى تَبْلُغَ الْعُسْرَةُ الْجُهْدَا ؟
وَلَا زَادَنِي فَضْلُ الْغَنَى مِنْهُمْ بُعْدًا
تُغَوِّرُ حَقُوقِي مَا أَطْلَقُوا لَهَا سَدًّا

ومنها :

وَإِنَّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ بَنِي أَبِي
أَرَاهُمْ إِلَى نَصْرِي بَطَاءً وَإِنْ هُمْ
إِذَا أَكَلُوا لَحْمِي وَفَرَّتْ لِحُومِهِمْ
وَإِنْ ضِيعُوا غِيبِي حَفِظْتُ غُيُوبَهُمْ
وَإِنْ زَجَرُوا طَيْرًا بِنَحْسٍ تَمْرِييَ
وَلَا أَحْمِلُ الْحَقْدَ الْقَدِيمَ عَلَيْهِمْ
وَبَيْنَ بَنِي عَمِّي لِمُخْتَلَفٍ جَدًّا
دَعُونِي إِلَى نَصْرِي أَتَيْتَ لَهُمْ شَدًّا
وَإِنْ يَهْدُمُوا مَجْدِي بَنِيْتُ لَهُمْ مَجْدًا
وَإِنْ هُمْ هَوُوا غِيَّيَ هَوَيْتَ لَهُمْ رُشْدًا
زَجَرْتُ لَهُمْ طَيْرًا تَمْرُ بِهِمْ سَعْدًا
وَلَيْسَ رَثِيسُ الْقَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الْحَقْدَا

(20) سقط ما بين معقوفتين من ب .

لهم جُلٌّ مالي إن تتابع لي غنى
وإنِّي لعبدُ الضَّيْفِ ما دام نازلاً
وقال محمد بن [أبي] شحاذ الضَّبِّي :

إذا أنت أعطيتَ الغنى ثمَّ لم تجد
إذا أنت لم تعرُكَ بجنبك بعض ما
إذا الحلم لم يغلب لك الجهل لم تزل
إذا العزمُ لم يفرجْ لك الشَّكَّ لم تزل
وقلَّ غناءٌ عنكَ ماكُ جمعته
إذا أنت لم تترك طعاماً تحبُّه
تجللتَ عاراً لا يزالُ يشبُّه

وإن قلَّ مالي لم أكلفهم رِفداً
وما شيمةٌ لي غيرها تُشبه العبداء !

بفضلِ الغنى ألفتَ مالكَ حامدُ
يريبُ من الأدنى رماك الأبعادُ
عليك بروقُ جمَّةٌ ورواعِدُ
جنيباً كما استتلى الجنيبة قائِدُ
إذا صار ميراثاً وواراك لأحدُ
ولا مجلساً تدعى إليه الولائدُ⁽²¹⁾
سباب الرِّجال نثرهم والقصائدُ

وقال أعرابيٌّ قتَلَ أخوه ابناً له، فقرَّب إليه ليقتصَّ منه، فألقى السيف من يده وقال :
أقول للنفس تأساءً وتعزيةً :
كلاهما خلفٌ من فقد صاحبه :

وقال أحد بني فقعس :

وذوي ضبابٍ مظهرين عداوةً
ناسيتهم بغضاءهم وتركتهم
كيما أعدَّهم لأبعد منهم

الضَّبَاب : جمع ضَبٍّ هو الحِقْدُ.

وقال آخر :

تمنَّى لي الموتَ المعجَّلَ خالدُ

وقال آخر :

وإنَّك لا تدري إذا جاء سائلُ
عسى سائلٌ ذو حاجةٍ إن منعته
وفي كثرةِ الأيدي على الجهلِ زاجرُ

وقال شبيب بن البرصاء :

ولا خير فيمن ليس يُعرف حاسده !

أأنتَ بما تُعطيه أم هو أسعدُ ؟
من اليوم سؤلاً أن يكونَ له غدُ
وللحلم أبقى للرجالِ وأعودُ !

(21) في الحماسة : ولا مقعداً تدعى إليه الولائدُ .

إذا المرء أعراه الصديق بدا له بأرض الأعادي بعض ألوانه الرُّبْدُ
 أعراه : انفرد به وأفضى به إلى العراء . يقول : إذا انفرد الرجل بمن يعتدّه صديقاً وصار
 معه في بلاد العدو فاحتاج إلى نصرته ومشورته انكشف له أمره، وبان له حينئذ أنّه عدوٌّ
 له أم صديق . والرُّبْدُ : الغُبرُ المُظلمة . ضربه مثلاً لما يخفى من الصداقة والعداوة.
 وقال الحسن بن مطير :

كُنْتُ أَذُودُ الْعَيْنَ أَنْ تَرَدَّ الْبُكَ
 خَلِيلِيَّ مَا بِالْعَيْشِ عَتَبٌ لَوْ أَنَّنَا
 فَقَدْ وَرَدَتْ مَا كُنْتُ عَنْهُ أَذُودُهَا
 وَجَدْنَا لِأَيَّامِ الْحُمَى مِنْ يُعِيدُهَا
 وقال آخر :

هَلِ الْحَبُّ إِلَّا زَفَرَةٌ بَعْدَ زَفَرَةٍ
 وَحَرٌّْ عَلَى الْأَحْشَاءِ لَيْسَ لَهُ بَرْدٌ ؟
 غيره :

وَمَا كُلُّ مَا فِي النَّفْسِ لِلنَّاسِ مَظْهَرٌ
 وَقَالَ آخَرُ مِنْ بُلْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ :

مَنْ بِيْ إِنْ تَكُنْ [حَقًّا] تَكُنْ أَحْسَنَ الْمُنَى
 وَقَالَ حَطَّائِطُ، أَخُو الْأَسْوَدِ بْنِ يَعْفَرٍ :

أَرَيْنِي جَوَادًا مَاتَ هَرَلًا لَعَلَّنِي
 وَقَالَ يَزِيدُ الْحَارِثِيُّ :

وَإِذَا الْفَتَى لَأَقَى الْحِمَامَ رَأَيْتَهُ
 وَقَالَ آخَرُ، وَتُرَوَّى لِقَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

أَيَا ابْنَةَ عَبْدِ اللَّهِ وَابْنَةَ مَالِكٍ
 إِذَا مَا صَنَعْتَ الزَّادَ فَالْتَمِسِي لَهُ
 أَخًا طَارِقًا أَوْ جَارَ بَيْتٍ فَإِنَّنِي
 وَكَيْفَ يُسَيعُ الْمَرْءُ زَادًا وَجَارَهُ
 وَلَكُمُوتٌ خَيْرٌ مِنْ زِيَارَةٍ بَاخِلٍ
 وَإِنِّي لَعَبْدُ الضَّيْفِ مَا دَامَ ثَاوِيًا
 وَقَالَ آخَرُ :

وَنُبْتُ رُكْبَانَ الطَّرِيفِ تَنَازَرُوا
 عَقِيلًا إِذَا حَلُّوا الذَّنَابَ فَصَرَ خَدَا

فتى يجعل المحض الصريح لبطنه شعاراً ويقري الضيف عصباً مهتداً
وقال الآخر :

وإننا لنجفو الضيف من غير علةٍ مخافةً أن يغرى بنا فيعود
غري : كلف .

وقال الأسود بن يعفر :

ولقد علمت لو أن علمي نافعٌ أن السبيل سبيل ذي الأعواد
ماذا أؤمك بعد آل محرقٍ ؟ تركوا منازلهم وبعث إباد
أرض الخورنق والسدير وبارقٍ والقصر ذو الشرفات من سداد
جرت الرياح على محل ديارهم فكانهم كانوا على ميعاد
ولقد غنوا فيها بأكرم غنيةٍ في ظل ملك ثابت الأوتاد
فإذا النعيم وكل ما يلهى به يوماً يصير إلى بلى ونفاد !

وتقدم بعض هذا الشعر . وذو الأعواد رجل اسمه غوي بن سلامة ، أو سلامة بن غوي ، وقيل غير ذلك . وكان له خراج على مضر . فلمّا شاخ وضعف كان يحمل على سرير ويطاف به على مياه العرب فيجيبها . وقيل هو جد لأكثم بن صيفي ، الحكيم المعروف . وكان أعز أهل زمانه ، فكان لا يأتي سريره خائف إلا آمن ، ولا جائع إلا شبع . ومثك هذا الشعر ما روي أنه وجد في حفير رجل عليه خفّان وعند رأسه لوح فيه مكتوب : أنا عبد المسيح بن حيّان بن نفيلة :

حلبت الدهر أشطره حياتي ونلت من المنى فوق المزيّد
وكافحت الأمور وكافحتني ولم أخضع لمعضلة كؤود
وكدت أنال بالشرف الثريا ولكن لا سبيل إلى الخلود !

ودخل أرطاة بن سهية على عبد الملك فقال : كيف حالك ؟ وكان قد أسن ، فقال : ضعف حالي ، وقلّ مالي ، وكثر منّي ما كنت أحبّ أن يقلّ ، [وقلّ منّي ما كنت أحبّ أن يكثر] (22) ، قال : فكيف أنت في شعرك ؟ قال : والله ما أغضب ولا أطرب ولا أرهب . وما الشعر إلا من نتائج هذه ، على أندي القائل :

رأيت المرء تأكله الليالي كأكل الأرض ساقطة الحديد
وما تبقي المية حين تأتي على نفس ابن آدم من مزيد
وأعلم أنها عمّا قليك ستوفي نذرها بأبي الوليد

فارتاع عبد الملك ثم قال : بك تُوفِّي نَذَرُهَا بك ! ويلك، مالي ولك ؟ فقال : يا أمير المؤمنين، لا ترع ! واللّه ما عنيت إلا نفسي ! فقال : أما واللّه لتلمنّ بي ! وأبو الوليد كنية لعبد الملك وكنية لأرطاة أيضا .. وقال الآخر :

لنا عزٌّ ومَرَمَانَا قريبٌ ومولّى لا يدبُّ مع القُرَادِ
وقوله : لا يدبُّ مع القُرَادِ، أشار به إلى رجل من العرب كان يخرج ومعه شَنَّةٌ فيها قِرْدَانٌ، فيشدّها في ذنب بعير من الابل، فإذا قرصته القِرْدَانُ نُفِرَ، فنَفَرَتِ الابلُ لقعقة الشَّنِّ . فإذا نفرت استكّ منها بعيرًا، فذهب به .
وقال الآخر :

ستبكي المِخَاضُ الجُرْبُ إن مات هيثمٌ وكلُّ البواكي غيرهنَّ جُمُودُ
يقول إنّه كان بخيلا يستنقيهنَّ ولا ينحرهنَّ : فهنَّ يبكين عليه إن مات، لِمَا أحسن إليهنَّ، ولا يبكي عليه أحدٌ من النَّاسِ، لعدم خيره وإحسانه . وهذا من أقبح الهجو، غير أنّ في قوله «جُمُودُ» مغمزًا . وضدّ هذا من المدح قول الآخر :

قتيلان لا تبكي المِخَاضُ عليهما : إذا شبعن من قسْرْمَلٍ وأفانِ
والأفاني جمع افانية، والأفانية والقِرْمَل نبتان يُرعيان . وقال الآخر :
إذا جاوزت من ذات عرق ثنيةً فقل لأبي قابوسَ ماشئت فارعد !
ونحوه قول الفرزدق السابق :

وماذا عسى الحجاجُ يبلغُ جهده إذا نحنُ جاوزنا حفيرَ زيادٍ ؟
وتقدّم تفسير رعد وبرق بما أغنى عن إعادته . ونحوه قول الآخر :
يا جلّ ما بعدت عليك بلادنا فابرق بأرضك ما بدا لك وارعد⁽²³⁾
وقال الآخر :

ما قامَ عمرو في الولاية قائمًا حتّى قعد !
وسبب هذا أنّ بعض الوزراء قلد ابن حجاج ولاية، فخرج إليها يوم الخميس وتبعه عزله يوم الأحد، فقال فيه :

يا مَنْ إذا نظَرَ الهلالُ إلى مَحَاسِنِهِ سَجَدَ
وإذا رآته الشَّمْسُ كَادَتْ أنْ تَمُوتَ مِنَ الحَسَدِ

(23) نسبه في لسان العرب (مادة برد) إلى ابن أحمَر، وروى الشطر الثاني هكذا :
وطلابُنَا فابرق بأرضك وارعد

يَوْمَ الْخَمِيسِ بَعَثْتَنِي
وَالنَّاسُ قَدْ غَنَوْا عَلَيَّ
مَا قَامَ عَمَرُو (البيت)

وقال جميل :

فَأَقْسِمُ طَرْفِي بَيْنَهُنَّ فَيَسْتَوِي
وقال أيضا :

يَمُوتُ الْهَوَى مَنِّي إِذَا مَا لَقِيَتْهَا
وهذان البيتان من قصيدة لجميل يقول فيها :

أَلَا لَيْتَ أَيَّامَ الصَّفَاءِ جَدِيدُ
فَتَغْنَى كَمَا كُنَّا نَكُونُ وَأَنْتُمْ
وَمَا أَنْسَ مِنْ أَشْيَاءَ لَا أَنْسَ قَوْلَهَا
وَلَا قَوْلَهَا : لَوْلَا الْعَيُونُ الَّتِي تَرَى
خَلِيلِيَّ مَا أَخْفَى مِنَ الْوَجْدِ ظَاهِرُ
أَلَا قَدْ أَرَى وَاللَّهِ أَنْ رُبَّ عِبْرَةٍ
إِذَا قُلْتُ : مَا بِي يَا بُثَيْنَةُ قَاتِلِي
وَأِنْ قُلْتُ : رَدِّي بَعْضَ عَقْلِي أَعْشَ بِهِ
فَلَا أَنَا مُرْدُودٌ بِمَا جِئْتُ طَالِبًا
جَزَّتْكَ الْجَوَازِي يَا بُثَيْنَ مَلَامَةٌ
وَقُلْتُ لَهَا : بَيْنِي وَبَيْنَكَ فَاعْلَمِي
وَقَدْ كَانَ حَبِّيكُمْ طَرِيفًا وَتَالِدًا
وَإِنَّ عَرُوضَ الْوَصْلِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا
فَأَفْنَيْتَ عَيْشِي بَانْتِظَارِي نَوَالَهَا
فَلَيْتَ وَشَاةَ النَّاسِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا
وَلَيْتَ لَهُمْ فِي كُلِّ مُمَسَّى وَشَارِقِ
وَيَحْسَبُ نِسْوَانٌ مِنَ الْجَهْلِ أَنَّني
فَأَقْسِمُ طَرْفِي (البيت)

وَصَرَفْتَنِي يَوْمَ الْأَحَدِ
كَمَا خَرَجْتُ مِنَ الْبَلَدِ

وَفِي الصَّدْرِ بَوْنٌ بَيْنَهُنَّ بَعِيدُ

وَيَحْيَى إِذَا فَارَقْتُهَا فَيَعُودُ

وَدَهْرًا تَوَلَّى يَا بُثَيْنَ يَعُودُ

صَدِيقٌ وَإِذَا مَا تَبَذَّلِينَ زَهِيدُ !

وَقَدْ قَرَّبْتَ نِضْوِي أَمَصَرَ تَرِيدُ ؟

أَتَيْتَكَ فَاعْذَرْنِي فَدَتِكَ جَدُودُ !

وَدَمْعِي بِمَا أَخْفَى الْغَدَاةَ شَهِيدُ

إِذَا الدَّارُ شَطَّتْ بَيْنَنَا سَتْرِيدُ

مِنَ الْحَبِّ قَالَتْ : ثَابِتُ وَبِزِيدُ

مَعَ النَّاسِ قَالَتْ : ذَاكَ مِنْكَ بَعِيدُ

وَلَا حَبُّهَا فِيمَا يَبِيدُ يَبِيدُ

إِذَا مَا خَلِيلُ بَانَ وَهُوَ حَمِيدُ

مِنَ اللَّهِ مِيثَاقٌ لَهُ وَعُهُودُ

وَمَا الْحَبُّ إِلَّا طَارِفُ وَتَلِيدُ

وَإِنْ سَهَّلْتَهُ بِالْمُنَى لَصَعُودُ

وَأَبْلَتْ بِذَاكَ الدَّهْرُ وَهُوَ جَدِيدُ

يَدُوفُ لَهُمْ سَمًا طَمَاظِمُ سُودُ

تَصَاعَقُ أَكْبَادُ لَهُمْ وَقِيُودُ !

إِذَا جِئْتُ إِيَّاهُنَّ كُنْتُ أَرِيدُ

وبعده :

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً
وهل أهبطنَّ أرضاً. تظكُّ رياحها
وهل ألقينَّ سَعْدِي من الدَّهرِ مرَّةً
وهل تلتقي الأهواءُ من بعدِ يأسٍ
وهل أزجرنَّ حرفاً علَّةً شَمِلَةً
على ظهْرٍ مرهوبٍ كأنَّ ستورهُ
سبتني بعيني جُودٍ وسطِ ربربٍ
تريف كما زافت إلى سلفاتها
إذا جئتُها يوماً من الدَّهرِ زائراً
يصدُّ ويغضي عن هَوَايَ ويجتني
فأصرمُها خوفاً كأنِّي مُجانبٌ
فمن يُعطٍ في الدُّنيا قريناً كمثلاً
يموت الهوى مني (البيت)

وبعده :

يقولون : جاهدياً جميلٌ بغزوةٍ !
لكلِّ حديثٍ بينهمُ بشاشةٌ
فمن كان في حبِّي بُثينةً يمتري
ألم تعلمي يا أمَّ ذي الودعِ أنني
وقال الآخر :

إذا كُنت تهوى الحمد والمجد مولعاً
ولست وإن أغْيى أباك مجادةً
قوله : أباك، أي أبواك، فنثني لفظ الأب من غير أن يردَّ لاه . وقال الآخر :
شريتُ برداً ولولا ما تكنفني من الحوادثِ ما فارقتُه أبداً !
وقال الآخر :

(24) يروى الشطر الأول أيضاً هكذا : على ظهرٍ مرهوبٍ كأنَّ نشُوزَهُ

أَتَعْجَبُ أَنْ رَأَيْتَ عَلِيَّ دُنْيَا ؟ (بياض)

وقال الأشهب بن رحيلة :

أَسْوَدُ شَرَى لَاقَتْ أَسْوَدَ خَفِيَّةً ، تساقَتْ على حردٍ دماءَ الأَسْوَدِ
وقال الآخر :

إِذَا كَانَتْ الْهِيَاجُ وَانْشَقَّتِ الْعَصَا فحسبُك والضَّحَاكُ سَيْفٌ مَهْنَدٌ !
وقال أعرابي في السجن :

أَيَا وَالِيَّيْ سَجَنَ الْيَمَامَةِ أَشْرَفَا بِي الْقَصْرَ أَنْظُرْ نَظْرَةً هَلْ أَرَى نَجْدَا !
فَقَالَ الْيَمَانِيَّانِ لَمَّا تَبَيَّنَا سَوَابِقَ دَمْعٍ مَا مَلَكْتُ لَهَا رَدًّا :
أَمِنْ أَجْلِ أَعْرَابِيَّةٍ ذَاتِ بُرْدَةٍ تَبْكِي عَلَى نَجْدٍ وَتَبْلَى كَذَا وَجْدَا ؟
لَعَمْرِي لَأَعْرَابِيَّةٌ فِي عِبَاءَةٍ تَحُلُّ دِمَائًا مِنْ سُؤْيَقَةٍ أَوْ فَرْدَا
أَحْبُ إِلَى الْقَلْبِ الَّذِي لَجَّ فِي الْهَوَى مِنَ اللَّابَسَاتِ الرَّيْطُ يُظْهِرُنَهُ كَيْدَا
وقال الآخر، ويقال الشافعي، رضي الله عنه :

تَمَنَّى رَجَالٌ أَنْ أَمُوتَ فَإِنْ أَمُتَ فَتِلْكَ طَرِيقٌ لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحَدٍ !
يَقَالُ : لَسْتُ فِي هَذَا الْأَمْرِ بِأَوْحَدٍ ، أَي لَا أَخْصَبُ بِهِ . وقال الآخر، ويقال هو هاتِف سُمْعَ لَمَّا
وَلِيَ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

مِنَ الْأَنْ قَدْ ظَابَتَ وَقَرَّ قَرَارُهَا عَلَى عُمْدِ الْمَهْدِيِّ قَامَ عَمُودُهَا
وقال يزيد بن الصيقل العقيلي، وكان يسرق الابل ثم تاب :

أَلَا قُلْ لِأَرْبَابِ الْمَخَائِصِرِ أَهْمَلُوا فَقَدْ تَابَ عَمَّا تَعْلَمُونَ يَزِيدُ
وَإِنَّ أَمْرًا يَنْجُو مِنَ النَّارِ بَعْدَمَا تَزَوَّدَ مِنْ أَعْمَالِهَا لِسَعِيدُ !
وتقدّم هذا الثاني . والاهتمام ترك الابل بلا راع . وقال الآخر :

تَمَنَيْتُمْ مَائَتِي فَارْسِرْ فَرَدَّكُمْ فَارِسُ وَاحِدُ
وقبلها :

فَلَيْتَ لَهَا بَارْتِبَاطَ الْخَيُْولِ ضَائًا لَهَا حَالِبٌ قَاعِدُ !
أَلَا هَلْ أَتَاهَا عَلَى نَائِيهَا بِيمَا فَضَحَتْ قَوْمَهَا غَامِدُ ؟
وغامد أبو قبيلة، وهو غامد بن نصر بن الأزد بن الغوث، فهجاهم هذا الشاعر . وقال
حاتم :

وإنَّ الكريمَ مَنْ تَلَفَّتْ حَوْلَهُ وإنَّ اللَّئيمَ دَائِمُ الطَّرْفِ أَقْوَدُ
وقال نَبْهَانُ العَبْشَمِيُّ :

يَقْرُ بَعِينِي أَنْ أَرَى مِنْ مَكَانِهِ ذُرَى عَقِدَاتِ الْأَبْرِقِ الْمُتَقَاوِدِ
وَأَنْ أَرْدَ الْمَاءَ الَّذِي شَرِبْتُ بِهِ سُلَيْمَى وَقَدْ مَلَّ السُّرَى كُلُّ وَاحِدِ
وَأَخْلِطَ أَحْشَائِي بِبِرْدِ تُرَابِهِ وَإِنْ كَانَ مَخْلُوطًا بِسَمِّ الْأَسَاوِدِ !
وَالْعَقِدَاتُ وَاحِدُ الْعَقْدَةِ - بِكسر القاف وفتحها - وهو ما تراكم من الرَّمَلِ وانعقد ؛
وَالْأَبْرِقُ حَجَارَةٌ يَخَالِطُهَا رَمَلٌ أَوْ طِينٌ ؛ وَالْمُتَقَاوِدُ : الْمُتَقَادُ الْمُسْتَقِيمُ ؛
وَالْأَسَاوِدُ جَمْعُ أَسْوَدَ ، وَهُوَ الْأَسْوَدُ السَّالِمُ . وقال أَبُو الْحَسَنِ بْنُ أَبِي الطَّيِّبِ :
لَا تُنْكِرِي يَا عَزَّى إِنْ ذَلَّ الْفَتَى ذُو الْأَصْلِ وَاسْتَعْلَى خَسِيسُ الْمُحْتَدِ
إِنَّ الْبُرْزَاةَ رُؤُوسَهُنَّ عَوَاطِلُ وَالتَّاجُ مَعْقُودٌ بِرَأْسِ الْهُدُودِ
وقال الْحَارِثُ بْنُ كُلْدَةَ :

وَلَقَدْ رَأَيْتُ مَعَاشِرًا جَمَعُوا لَهُمْ مَالًا وَوُلْدًا
وَهُمْ زَبَابٌ حَائِرٌ لَا تَسْمَعُ الْأَذَانُ رَعْدًا
وَالزَّبَابُ - بِالزَّايِ مَفْتُوحَةٌ - جَمْعُ زَبَابَةٍ ، وَهِيَ الْفَأْرَةُ الْعَمِيَاءُ ، وَضَرَبَ ذَلِكَ مَثَلًا لِرِعَاةِ
النَّاسِ وَجَهْلِهِمُ الْحَائِرِينَ . وَقَوْلُهُ : لَا تَسْمَعُ الْأَذَانُ رَعْدًا ، أَيُّ لَا تَسْمَعُ أَذَانَهُمْ
صَوْتَ الرِّعْدِ لَصَمَمِهِمْ ، فَأَقَامَ الْأَلْفَ وَاللَّامَ مَقَامَ الضَّمِيرِ وَقَالَ الْآخَرُ :
فَأَتْنُوْا عَلَيْنَا لَا أَبَا لِأَبِيكُمْ بِأَفْعَالِنَا إِنَّ التَّنَاءَ هُوَ الْخُلْدُ !
وَمِثْلُهُ قَوْلُ الْآخَرِ :

فَإِذَا بَلِغْتُمْ أَرْضَكُمْ فَتَحَدَّثُوا وَمَنْ الْحَدِيثُ مَثَلُ " وَخُلُودُ !
وَتَقَدَّمَ ذِكْرُ هَذَا الْمَعْنَى . وَقَالَ ابْنُ اللَّيْثِ يَمْدَحُ الْمُعْتَمِدَ :
لَقَدْ ضَمَّ أَمْرَ الْمَلِكِ حَتَّى كَانَتْهُ نَطَاقُ بَخْصَرٍ أَوْ سَوَارٍ عَلَى زَنْدِ
وَحَسَّنَ طَعْمَ الْعَيْشِ حَتَّى أَعَادَهُ الَّذِي مِنَ الْإِغْفَاءِ فِي عَقَبِ السُّهْدِ
وَحَسَبُ اللَّيَالِي أَنَّهَا فِي زَمَانِهِ بِمَنْزِلَةِ الْخِيَلِ فِي صَفْحَةِ الْخَدِ
تَوَقَّدَ عَنْ نَارَيْنِ لِلْحَرْبِ وَالْقِرَى وَقَامَ عَلَى طَوْدَيْنِ لِلْحِلْمِ وَالْمَجْدِ
وَجَاءَتْ بِهِ الْأَيَّامُ تَاجِرَ سُودِدِ يَبِيعُ نَفِيسَاتِ الْمَوَاهِبِ بِالْحَمْدِ
يُغِيثُكَ فِي مَحَلٍّ يُعِينُكَ فِي رَدَى يَرِوْعُكَ فِي دِرْعٍ يَرِوْقُكَ فِي بُرْدِ

جمالٌ وإجمالٌ وسبقٌ وصولَةٌ
وقال أيضا :

إليه وإلاّ قيّدوا قدمَ السّرى
وعنه أفيضوا، إنّه مشعرُ الهدى
والغوا حديثَ البحر عند حديثه:
وقال الآخر :

قلّدتني منكَ الجميلَ قلائدا
والله لو جاز السّجودُ لمُحسن
وقال أبو جعفر البطرُوني :

وما زلت أجنّي منك والدّهْر ممحلّ
ثمارُ أيّادٍ دانياتٍ قُطوفُها
ترى جاريا ماء المكارم تحتها
وقال ابن اللَّبَّانة أيضا :

هو صُبْحٌ وربيعٌ وحيا
هو طودٌ وشهابٌ ولظى
وقال بكر بن النطاح :

ملأتُ يدي من الدُّنيا مراراً
وما وجبت عليّ زكاةُ مالٍ
وقال الآخر :

بفعالي عرفتُ لا بمقالي
إنّ رأيي ورايتي بلّغاني
وقال ابن الخطيب :

تعجّلتُ وخط الشَّيب في زمن الصِّبا
فمهما رأيتم شَيْبَةً فوق مفرقي
وقال ابن الحدّاد، وللشعر حكاية :

شقيقك غيب في لُحْدِه

كشمس الضّحى كالْمُزنِ كالبرقِ كالرّعد!

وفيه وإلاّ أخرسوا ألسُنَ الحمْدِ
وحوليه طوفوا : إنّه كعْبةُ القصدِ
فكم بين ذي جزرٍ وكم بين ذي مدٍّ !

ورحمتني حتّى حسبتكَ والِدًا
ما كُنْتُ إلاّ راعيًا لك ساجدًا !

ولا ثمرٌ يُجنّي ولا زرعٌ يُحصَدُ
لأغصانها ظلٌّ علينا ممدّدُ
وأطيارُ سُكري لا تزالُ تُغرّدُ

يُجتلّى أو يُجتَنّى أو يُجتَدَى
مارسًا أو ماسرّى أو ما عدا

فما طمعَ العَواذلُ في قيادي
وهكّ تجبُ الزّكاةُ على جوادٍ ؟

وبِذاتي شَرَفْتُ لا بجُودِ
غايَتي هذه بحُكمِ السُّعودِ

لخوضي غمار الهمِّ في طلب المجدِ
فلا تُنكروها إنّها شَيْبَةُ الحمْدِ !

وتَطْلُعُ يا بَدْرُ من بَعْدِه

فهلاً خَسَفَتْ فَكَانَ الْخُسُوفُ
وقال الآخر في التعزية :

لا بُدَّ من فَقْدٍ ومن فاقِدٍ
كُنْ الْمُعْزَى لا الْمُعْزَى بِهِ
وقال الوزير المهلبى :

خليلىَّ إِنِّي لِلثَّرِيَّا لِحَاسِدٍ
أَيَبْقَى جَمِيعًا شَمْلُهَا وَهِيَ سَبْعَةٌ
وقال الآخر :

دهى الله مَصْرًا وَسَكَانَهَا
متى يَرْتَجِي مُفْلِسٌ عِنْدَهُمْ
وقال الآخر :

ما لِلْمُعِيلِ وَلِلسَّفَارِ وَإِنَّمَا
فَالشَّمْسُ تَجْتَابُ السَّمَاءَ فَرِيدَةً
وقال ابن سَكْرَةَ :

قَبِيلَ : مَا أَعْدَدْتَ لِلْبَرْدِ
قُلْتُ : دُرَّاعَةٌ عُرِي
وقال الآخر :

بين اللثامِ وَصُدْغِهِ الْمُعْقُودِ
يلوي على زردِ العذارِ دلاله :
وقال الآخر :

أهلاً بِطَيِّفِكَ زَائِرًا أَوْ عَائِدًا
يا من على طَيْفِ الْخِيَالِ أَحَالَني
ما نَمْتُ لَكِنَّ الْخِيَالَ يَلُمُّ بِي
وقال الراضي بن عبيد :

مرؤوا بنا أصلا من غير ميعادٍ
لا غَرَوْا إِنْ زَادَ فِي قَلْبِي مَرُورُهُمْ

حِدَادًا لِبِسْتِ عَلَى فَقْدِهِ ؟

هَيْهَاتَ مَا فِي النَّاسِ مِنْ خَالِدٍ
إِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنَ الْوَاحِدِ !

وإِنِّي عَلَى رَيْبِ الزَّمانِ لَوَاجِدٍ
وَأَفْقَدُ مِنْ أَحْبَبْتُهُ وَهُوَ وَاحِدٌ ؟

وَفَتَّتْ أَكْبَادَهُمْ بِالْحَسَدِ !
غَنَى وَعَلَى كُلِّ فُلَسٍّ أَسَدٌ ؟

يُجْلَى بِوَصْلِ الْبَيْدِ مِنْ هُوَ فَارِدٍ
وَأَبُو بَنَاتِ النَّعَشِ فِيهَا رَاكِدٍ

وَقَدْ جَاءَ بِشِدَّةٍ ؟
تَحْتَهَا جُبَّةٌ رَعْدَةٌ

خَمْرَانِ : مِنْ رَيْقٍ وَمِنْ عُنُقُودِ
كَمْ فَتْنَةٍ بَيْنَ اللَّوَى وَزُرُودِ !

تَفْدِيكَ نَفْسِي غَائِبًا أَوْ شَاهِدًا !
أَتَظُنُّ طَرْفِي مِثْلَ طَرْفِكَ رَاقِدًا ؟
فِيحِلُّهُ طَرْفِي فَيُطْرَقُ سَاجِدًا

وَأَوْقِدُوا نَارَ قَلْبِي أَيَّ إِيقَادِ
فَرُؤْيَا الْمَاءِ تُذَكِّي غُلَّةَ الصَّادِ !

وقال الآخر :

قالوا : خسرت القلب حين علقتَه
فأجبتهم : لا تعذلونني إنَّني

وقال بعض المشارقة :

ألحاظكم تجرحنا في الحشا
جرحٌ بجرحٍ فاحسبوا ذابِذاً
وقال أبو العباس بن الفيَّاض :

قُم أسقني بين خفقِ النَّاي والعودِ
نحن الشُّهود وصوتُ العودِ خاطبنا
وقال أبو البركات في غرناطة :

رعى الله من غرناطة مُتبوِّءاً
تبرَّم منها صاحبي عندما رأى
هي التَّغرُّ صانَ الله مَنْ أهله به

وقال ابن حجاج في صاحب وليمة أبطأ بالطعام فيها.

يا جائياً في داره ذاهباً
قد جُنَّ أصحابك من جوعهم
وتقدَّم بعضه . وقال الآخر :

مال ابن دارة دونه لعفاته
مال لزوم الجمعِ يمتنعُ صرفه
وقال الآخر :

فأكثر من الاخوان للدَّهر عدَّة:
وعظم صغير القوم وابدأ بحقه:
وقال الآخر :

ألا ! إنَّه كلُّنا بَائِدُ
وبدؤهم كان من ربهم
فيا عجباً كيف يعصى الاله

وربحت فيه شماتة الحسادِ
صانعتُه عن مُهجتِي بفؤادِ !

ولحظنا يجرحكم في الخدودِ
فما الذي أوجب جرحَ الصُّدودِ ؟

ولا تبع طيبَ مفقودٍ بموجودِ
فزوج ابن غمام بنتَ عنقودِ !

يسرُّ كئيباً أو يُجيرُ طريداً !
مسارحها بالبردِ عُدنَ جيذاً
وما خيرُ ثغرٍ لا يكونُ بروداً

وقال ابن حجاج في صاحب وليمة أبطأ بالطعام فيها.

لغير معنَى لا ولا فائدة
فاقرأ عليهم سورة المائدة !
خرطُ القتادِ والتماسُ الفرقَدِ
في راحةٍ مثلك المُنَادَى المُفْرَدِ

فكثرةُ درِّ العقد من شرف العِقدِ
فمن خنصيري كفتيك تبداً في العد !

وأي بني آدم خالِدُ ؟
وكلُّ إلى ربِّه عائِدُ
أم كيف يَجحدُ الجاحِدُ

وَلَيْلَةٍ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ

وقال البُستِيّ :

أَنُوكَ حَوَى الْعَلْيَا وَأَنْتَ مُبَرَّرٌ
وَلِلْخَمْرِ مَعْنَى لَيْسَ فِي الْكَرَمِ مِثْلُهُ
وقال أبو القاسم الاصْبَهَانِيّ :

أَصْبَحْتُ صَبًّا دَنِفًا
أَعُوذُ مِنْ شَرِّ الْهَوَى

وقال ابن الجهم :

أَنْفُسٌ حُرَّةٌ وَنَحْنُ عَبِيدُ
لِي حَبِيبٌ نَأَى بِهِ الْعَجْرُ عَنِّي

وقال الآخر :

وَكَمْ لَيْلَةٍ بَيْتٌ مِنْ حُبِّكُمْ
كَأَنَّ نُجُومَ الدُّجَى فِي الدُّجَى

وقال ابن الرومي :

لِمَا تُؤْذِنُ الدُّنْيَا بِهِ مِنْ صُرُوفِهَا
وَالْإِ فَمَا يُبْكِيهِ مِنْهَا وَإِنَّهَا

وقال الآخر في التورية :

تَقُولُ سَلِيمِي إِذْ رَأَتْ شَيْبَ لِمَتِّي:
وَمَا تُنْكِرُ الْحَسَنَاءُ مِنْ خَطِّ كَاتِبِ

وقال كُثَيْرٌ :

فَإِنْ تَسَلَّ عَنْكَ النَّفْسُ أَوْ تَدْعُ الْهَوَى
وَكُلُّ خَلِيكِ زَارَتِي فَهَوَ قَائِلٌ :

وتقدم أن يزيد بن عبد الملك تمثّل به على قبر جاريته حباة لما ماتت :

وقال أبو جعفر المنصور العباسي، وله قصة ستأتي في الام :

وَتَسْكِينَةٍ أَبَدًا شَاهِدُ
تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

عَلَيْهِ إِذَا نَازَعْتَهُ قَصَبَ الْمَجْدِ
وَلِلنَّارِ نُورٌ لَيْسَ يَوْجَدُ فِي الزُّنْدِ

بَيْنَ عَنَاءٍ وَكَمَدٍ
بِقُلِّ هُوَ اللَّهُ أَحَدُ !

إِنَّ رَقَّ الْهَوَى لَرَقَّ شَدِيدُ
وَأَشَدُّ الْهَوَى الْقَرِيبُ الْبَعِيدُ

تَطُولُ عَلَى طَرْفِي السَّاهِدِ
صَوَارٌ تَفَرَّقْنَ عَنْ صَائِدِ

يَكُونُ بُكَاءُ الطِّفْلِ سَاعَةً يُوَلَدُ
لَأَوْسَعُ مِمَّا كَانَ فِيهِ وَأَرْغَدُ ؟

لَقَدْ حَالَ مِنْ ذَاكَ الشَّبَابِ سَوَادُهُ
إِذَا ابْيَضَّ مِنْ طُولِ الْكِتَابِ مِدَادُهُ

فَبِالْيَأْسِ تَسْلُو عَنْكَ لَا بِالتَّجَلُّدِ !
مِنْ أَجْلِكَ هَذَا هَامَةُ الْيَوْمِ أَوْ غَدِ !

إِذَا كُنْتَ ذَا رَأْيٍ فَكُنْ ذَا عَزِيمَةٍ : فَإِنَّ فَسَادَ الرَّأْيِ أَنْ يَتَرَدَّدَا
وَلَا تَمْهَلِ الْأَعْدَاءَ يَوْمًا بِقُدْرَةٍ وَحَازِرُهُمْ أَنْ يَمْلِكُوا مِثْلَهَا غَدًا !
وَسَبَبَ ذَلِكَ أَنْ جَارِيَةً لَهُ أَهَدَتْ إِلَيْهِ تَفَاحَةً بَعْدَ أَنْ طَيَّبَتْهَا ، وَكَتَبَتْ عَلَيْهَا :
هَدِيَّةٌ مِنِّي إِلَى الْمَهْدِيِّ تَفَاحَةٌ تَقْطِفُ مِنْ خَدْيِ
مُحَمَّرَةٍ مُصْفَرَّةٍ طَيِّبَتُ كَأَنَّهَا مِنْ جَنَّةِ الْخُلْدِ !
وَقَالَ عُرْوَةُ بْنُ أَدَيْنَةَ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

إِذَا وَجَدْتُ أَوَارَ الْحُبِّ فِي كَبْدِي أَقْبَلْتُ نَحْوَ سِقَاءِ الْقَوْمِ أُبْتَرِدُ
هَبْنِي بَرَدْتُ بِبَرْدِ الْمَاءِ ظَاهِرُهُ فَمَنْ لِنَارٍ عَلَى الْأَحْشَاءِ تَتَّقِدُ ؟
وَقَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فِيمَا زَعَمُوا :

خُذُوا بِدَمِي ذَاكَ الْعِزَّالَ فَإِنَّهُ رَمَانِي بِسَهْمِي مُقْلَتِيهِ عَلَى عَمَدٍ
وَلَا تَقْتُلُوهُ إِنَّنِي أَنَا عَيْدُهُ وَفِي مَذْهَبِي لَا يُقْتَلُ الْحُرُّ بِالْعَبْدِ !
وَقَالَ الْقَاضِي عَبْدُ الْوَهَّابِ بْنُ نَصْرِ الْمَالِكِيِّ ، رَحِمَهُ اللَّهُ :

وَنَائِمَةٌ قَبَّلَتْهَا فَتَنَبَّهَتْ وَقَالَتْ : تَعَالَوْا فَاطْلُبُوا اللَّصَّ بِالْحَدِّ !
فَقُلْتُ لَهَا : إِنِّي لَثَمْتُكَ غَاصِبًا وَمَا حَكَمُوا فِي غَاصِبٍ بِسِوَى الرَّدِّ
خُذِيهَا وَكُفِّي لِي عَنْ إِثْمِ ظِلَامَتِي وَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَرْضَيْ فَأَلْفًا مِنَ الْعَدِّ
فَقَالَتْ : قِصَاصٌ يَشْهَدُ الْعَقْلُ أَنَّهُ عَلَى كَبِدِ الْجَانِي أَلْذُّ مِنَ الشَّفَدِ
فَبَاتَتْ يَمِينِي وَهِيَ هَيْمَانُ خَصَرِهَا وَبَاتَتْ يَسَارِي وَهِيَ وَاسِطَةُ الْعِقْدِ
وَقَالَتْ : أَلَمْ أَخْبِرْ بِأَنَّكَ زَاهِدٌ ؟ فَقُلْتُ : بَلَى مَا زِلْتُ أَزْهَدُ فِي الرَّهْدِ
وَقَالَ مَسْكِينُ الدَّارِمِيِّ :

قُلْ لِلْمَلِيحَةِ فِي الْخِمَارِ الْأَسْوَدِ : مَاذَا فَعَلْتَ بِزَاهِدٍ مُتَعَبِّدٍ ؟
قَدْ كَانَ شَمَّرَ لِلصَّلَاةِ إِزَارَهُ حَتَّى قَعَدَتْ لَهُ بَابُ الْمَسْجِدِ
رُدِّي عَلَيْهِ صَلَاتَهُ وَصِيَامَهُ لَا تَفْتَنِيهِ بِحَقِّ جَاهِ مُحَمَّدٍ !

وزعموا أنه كان مشتهرا بالمجون، فنسك ولزم المسجد، وصار من العبَّاد . فورد بعض تجار
العراق على المدينة، على ساكنها الصلاة والسلام، بسلة فيها خُمُرٌ مختلفة الألوان . فباعها

جميعا إلا السود من الخمر . فتحير في أمرها وجاء نحو المسجد وسأل عن من به من أهل الخير . فدل على مسكين الدارمي المذكور . فجاء وشكا إليه أمره وسأله الدعاء بتيسير بيع ما كسد من الخمر، فقال له : تباع إن شاء الله ! ثم صنع هذه الابيات، ودعا بعض أهل اللحون فدفعها له وقال له : غن بها حيثما أمكنك، فإنها لي ! فذهب يغني بها في سكك المدينة، فظن الناس أنه ترك التنسك وعاد إلى المجون، ولامه أصحابه في ذلك فقال : وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ ! وشاع في المدينة أن الدارمي تعشق صاحبة الخمار الأسود، فلم تبق في المدينة متظرفة إلا اشترت خماراً أسود، فبيعت بذلك خمر التاجر، وعاد الدارمي إلى نسكه :

وهو القائل : (25)

وَسُمِّيتُ مِسْكِينًا وَمَا بِيَّ حَاجَةٌ وَإِنِّي لَمِسْكِينٌ إِلَى اللَّهِ رَاغِبٌ
وَإِنِّي امْرُؤٌ لَا أَسْأَلُ النَّاسَ مَا لَهُمْ بِيَشْعُرُ وَلَا تُعْيِي عَلَى الْمَكَاسِبِ
وينسب إلى القاضي التنوخي في معارضة أبيات الخمار المذكورة :

قُلْ لِلْمَلِيحَةِ فِي الْخِمَارِ الْمَذْهَبُ : أَفْسَدَتْ نُسْكَ أَخِي التَّقَى الْمُتْرَهَّبُ
نورُ الْخِمَارِ وَنورُ خَدِّكَ تَحْتَهُ عَجَبًا لَوْجْهِكَ كَيْفَ لَمْ يَتَلَهَّبُ !
وَجَمَعْتَ بَيْنَ الْمَذْهَبَيْنِ فَلَمْ يَكُنْ لِلْحُسْنِ عَنْ نَهْجِيهِمَا مِنْ مَذْهَبِ
وَإِذَا أَتَتْ عَيْنٌ لِيَتَسَرَّقَ نَظْرَةٌ قَالَ الشُّعَامُ لَهَا اذْهَبِي لَا تَذْهَبِي !
وقال الفرزدق :

وَخَيْرُ الشُّعْرِ أَشْرَفُهُ رَجَالًا وَشَرُّ الشُّعْرِ مَا قَالَ الْعَبِيدُ
وسبب قوله ذلك أنه اجتمع مع نصيب، الشاعر الأسدي، في مجلس سليمان بن عبد الملك، فقال الفرزدق شعرا يفخر فيه بأبيه، ومنه :

وَرَكِبَ كَأَنَّ الرِّيحَ تَطْلُبُ عِنْدَهُمْ لَهَاتِرَةً مِنْ جَذْبِهَا بِالْعَصَائِبِ
سَرَوْا يَخْبِطُونَ الرِّيحَ وَهِيَ تَلْفُفُهُمْ إِلَى شِعْبِ الْأَكْوَارِ ذَاتِ الْحَقَائِبِ
إِذَا آنَسُوا نَارًا يَقُولُونَ لَيْتَهَا وَقَدْ خَصِرَتْ أَيْدِيهِمْ نَارُ غَالِبِ !
فأعرض سليمان كالغضب، ففطن له نصيب، فقال له : أياذن أمير المؤمنين أن أقول ؟ قال : قل ! فقال نصيب :

(25) ساقط منب .

أَقُولُ لِرَكْبٍ صَادِرِينَ لَقِيَتْهُمْ : قِفَا ذَاتَ أَوْشَالٍ وَمَوْلَاكَ قَارِبُ
 قِفُوا خَبَرُونِي عَنْ سُلَيْمَانَ إِنَّنِي لِمَعْرُوفِهِ مِنْ أَهْلِ وَدَّانَ طَالِبُ !
 فَعَاجُوا فَأَثْنُوا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ وَقَالُوا : تَرَكْنَاهُ وَفِي كُلِّ لَيْلَةٍ
 فَلَوْ كَانَ فَوْقَ النَّاسِ حَيٌّ فِعَالُهُ لَقَتْنَا لَهُ شَبَهٌ وَلَكِنْ تَعَذَّرْتَ
 هُوَ الْبَدْرُ وَالنَّاسُ الْكَوَاعِبُ حَوْلَهُ فَطَرَبَ سُلَيْمَانُ وَأَمَرَ لِنَصِيبِ بَعْشَةِ آلَافٍ . ثُمَّ التَفَتَ إِلَى الْفَرَزْدَقِ فَقَالَ : كَيْفَ تَرَى يَا أَبَا
 فِرَاسٍ ؟ فَقَالَ : هُوَ أَشْعَرُ أَهْلَ جِلْدَتِهِ . فَقَالَ سُلَيْمَانُ : وَأَهْلُ جِلْدَتِكَ ! فَغَضِبَ الْفَرَزْدَقُ وَقَالَ :
 وَخَيْرُ الشَّعْرِ أَشْرَفُهُ رَجَالًا وَشَرُّ الشَّعْرِ مَا قَالَ الْعَبِيدُ !
 وَعَنْ دَعْبَلٍ قَالَ : نُوْدِي بِالْغَفِيرِ ، فَخَرَجْتَ مَعَ النَّاسِ ، فَإِذَا فَتَى يَجْرُ رُمَحُهُ بَيْنَ يَدَيَّ ،
 فَقَالَ : يَا دَعْبَلُ ، اسْمَعْ مِنِّي ! وَأَنْشُد :

أَنَا فِي أَمْرِي رَشَادٌ بَيْنَ حُبٍّ وَجِهَادٍ
 بَدَنِي يَغْزُو عَدُوِّي وَالْهَوَى يَغْزُو فُؤَادِي !

ثُمَّ قَالَ : كَيْفَ تَرَى ؟ قُلْتَ : جَيِّدٌ وَاللَّهِ ! فَقَالَ : مَا خَرَجْتَ إِلَّا هَارِبًا مِنَ الْحُبِّ ! ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قَتَلَ .

وَقَالَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ تَخَاطَبَ زَوْجَهَا عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، حَيْثُ اشْتَغَلَ بِأُمُورِ الْخِلَافَةِ وَلَمْ يَتَفَرَّغْ لَهَا :

أَلَا يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي قَدْ أَرَاكَ وَسِعْتَ كُلَّ النَّاسِ عَدْلًا وَأَعْطَيْتَ الرِّعِيَّةَ كُلَّ فَضْلٍ وَقَالَ الْآخِرُ :

نَحْنُ قَوْمٌ تُذِيبُنَا الْأَعْيُنُ النَّجَلُ نَقْتُلُ الْأَسَدَ ثُمَّ تَقْتُلُنَا الْبَيْضُ وَتَرَانَا لَدَى الْكَرِيهَةِ أَحْرَارًا عَلَى أَنْنَا نُذِيبُ الْحَدِيدَ الْمَصُونَاتُ أَوْجُهًا وَخُدُودًا وَفِي السَّلَامِ لِلْحَسَنِ الْعَبِيدِ

وزعموا أن العلوي، قائل هذا الشعر، حاصر قلعة حتى كاد يفتحها . وكانت فيها امرأة ذات حسن وجمال، فقالت لأهلها : أنا أكفيكم أمره ! فتبرقعت وخرجت نحو العسكر وقالت : أبلغوني إلى الأمير ! فأبلغوها إليه، فقالت : أنت القائل :

نَحْنُ قَوْمٌ تَذِيبُنَا الْأَعْيُنُ ؟ .. (الآبيات الثلاثة)

فقال : نعم ! فنزعت البرقع عن وجهها وقالت : أحسنًا ترى أم قبيحًا ؟ فقال : والله ما أرى إلا حسنًا ! فقالت : ما حق المولى على عبده ؟ فقال : السمع والطاعة . فقالت : فارحل عنا وانصرف راشدا ! قال : نعم ! وأمر بالرحيل . فقال له أهل العسكر : إن المدينة بأيدينا . فقال : لا سبيل إلى الإقامة ساعة واحدة . ثم خطب تلك المرأة وتزوجها، فكانت عنده أحظى نسائه .

وقال الآخر في الثقلاء :

إِلْمَامُ كُلِّ ثَقِيلٍ قَدْ أَضَرَ بِنَا نَرُومُ نَقْصَهُمُ وَالشَّيْءُ يَزْدَادُ
وَمَنْ يَخِفُّ عَلَيْنَا لَا يُلِمُّ بِنَا وَلِلثَّقِيلِ عَلَى السَّاعَاتِ تَرْدَادُ
وقال الآخر :

إِذَا هُزَّ الْكَرِيمُ يَزِيدُ خَيْرًا وَإِنْ هُزَّ اللَّئِيمُ فَلَا يَزِيدُ
وروي أن أعرابيا وقف على مروان بن الحكم، وهو يفرض العطاء بالمدينة، فقال له : افرض [لي] ! فقال : قد طوي الكتاب ! فقال له الأعرابي : أما علمت أنني القائل :

إِذَا هُزَّ الْكَرِيمُ ؟ .. (البيت)

فقال : نشدتك الله، وأنت القائل له ؟ قال : نعم ! فقال مروان : افرضوا له ما يرضيه !
وقال الآخر :

لَا يُوْجَدُ الْخَيْرُ إِلَّا فِي مَعَادِنِهِ وَالشَّرُّ حَيْثُ طَلَبْتَ الشَّرَّ مَوْجُودُ
ويحكى عن جعفر بن يحيى أنه في بعض أسفاره عرض عليه ممالك رجل جفاه السلطان، وفيهم غلام جميل . قال : فقلت له : ما أسمك ؟ قال : ماهر . قلت : وما صنعتك ؟ قال : الأدب والشعر والغناء، وما شئت من بعد . فسألت عن ثمنه فبيك خمسمائة [دينار] على الضرورة . فوزنت ثمنه وسألته أن يسمعني شيئا من غنائه . فأخذ العود واندفع يغني :
حَمَلْتُمْ جِبَالَ الْحُبِّ فَوْقِي وَإِنِّي لَأَعْجِزُ عَنْ حَمْلِ الْقَمِيصِ وَأَضْعَفُ
ظَفِيرْتُمْ بِكِتْمَانِ اللِّسَانِ فَمَنْ لَكُمْ بِكِتْمَانِ عَيْنٍ دَمَعَهَا الدَّهْرُ يَذْرَفُ ؟

فأطربني غناؤه وشجاني، فأجزته وخلعت عليه، وأمرته بمعادلتي . فلما أجزت منزل مولاه بمقدار ميل أنشأ يقول :

وما كنتُ أخشى مَعْبِدًا أن يَبِيعَنِي بشيءٍ، ولو أَضَحَّتْ أُنَامِلُهُ صِفْرًا
أخوهُمُ ومولاهُمُ وحامِلُ سِرِّهِمُ ومَنْ قَدْ ثَوَى فِيهِمُ وعاشِرُهُمُ دَهْرًا
أشوقًا ولمَّا يَمُضِ لي غَيْرُ سَاعَةٍ فكَيْفَ إذا سارَ المَطِيُّ بنا شَهْرًا ؟
فقلت له : يا غلام، أتعرف منزل مولاك من هاهنا ؟ فقال : وهل تخفى معالم الحب ؟ فقلت : اذهب، فأنت حر لوجه الله ! ووهبت له ألف دينار . فقال لي زميلي : أمثل هذا يعتق ؟ فقلت له : ويحك ! وهل مثله يملك ؟ فانطلق وهو يقول :

لا يُوْجَدُ الخَيْرُ إِلَّا في مَعَادِنِ (البيت)

وقال محمد بن عبد الملك الزيات :

وأَيُّ امرئٍ سَمَى بِهَا قَطُّ نَفْسَهُ ففارقَهَا حتَّى يُغَيِّبَ في اللِّحْدِ ؟
وكان سبب ذلك أن ابراهيم بن المهدي اقترض من التجار أموالا كثيرة ببغداد . فيها لعبد الملك الزيات عشرة آلاف دينار . فلما لم يتم له أمر الخلافة لوى التجار أموالهم . فصنع محمد ابن عبد الملك قصيدة يخاطب المأمون، وهو صغير، منها :

تَذَكَّرْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قِيَامَهُ بإيمائِهِ في الهَزَلِ مِنْهُ وفي الجَدِّ
وَوَاللَّهِ مَا مِنْ تَوْبَةٍ نَزَعَتْ بِهِ إِلَيْكَ وَلَا مِيلٍ إِلَيْكَ وَلَا وَدِّ
وكَيْفَ بِمَنْ قَدْ بَايَعَ النَّاسَ وَالتَّقَتْ بَبَيْعَتِهِ الثُّرُكْبَانُ غَوْرًا إِلَى نَجْدِ
ومَنْ صَكَ تَسْلِيمُ الْخِلَافَةِ سَمْعَهُ يُنَادِي به بين السُّمَّاطِينَ عن بُعْدِ ؟
وأَيُّ امرئٍ سَمَى بِهَا قَطُّ نَفْسَهُ (البيت)

وعرضها على ابراهيم وقال له : إمّا أنصفت أبي، وإمّا انشدتها المامون ! فأدّى إلى أبيه ماله دون سائر التجار، واستحلفه على كتمانها، فحلف له، وهذا من فوائد الشعر .

وقال ابن الرومي يمدح النرجس :

لِلنَّرْجِسِ الفَضْلُ المُبِينُ وإنْ أَبَى أBR وَحَادَ عَنِ الطَّرِيقَةِ حَائِدُ
وَالنَّرْجِسُ احتَازَ المَلَاةَ كُلَّهَا وَلَهُ فَضَائِلُ جَمَّةٍ وفَوَائِدُ
ومنها :

سَتَانِ بَيْنَ اثْنَيْنِ : هذا مُوعِدٌ بِتَسْلُبِ الدُّنْيَا وهذا وَاَعِدُ !

وسياتي تنمة هذا الشعر وما عورض به وما قيل في ذلك، إن شاء الله .

وقال الآخر :

وتحتَ البراقِعِ مقلوبُها تدبُّ على وَرْدٍ خَدَّ نَدِي(26)

وقال الآخر :

إذا أنتَ وَلَيْتَ الخَوُونُ أمانةً فإنَّكَ قَدْ أَسَدَتْهَا شَرُّ مُسْنَدٍ !

وقال الآخر يصف الكتب :

لنا جُلَسَاءُ لا يُمْكُ حَدِيثُهُمْ ألبَاءُ مَأْمُونٍ غَيْبًا وَمَشْهُدًا

يُفِيدُونَنَا من عِلْمِهِم عِلْمَ مَنْ مَضَى وعَقْلًا وتَأْدِيبًا ورأيًا مُسَدَّدًا

فلا فِتْنَةً تَخْشَى ولا سُوءَ عِشْرَةٍ ولا تَتَّقِي مِنْهُمْ لِسَانًا ولا يَدًا

فإن قُلْتُ : أمواتٌ فَلَسْتُ بِكَاذِبٍ وإن قُلْتُ : أحياءٌ فَلَسْتُ مُفَنِّدًا !

وقال الآخر :

عَلَيَّ للإخواني رَقِيبٌ من الصِّفا تَبِيدُ اللَّيالي وَهُوَ لَيْسَ يَبِيدُ

يُذَكِّرُنِيهِمْ في مَغِيبٍ وَمَشْهُدٍ فَسَيَّانٍ مِنْهُمْ غَائِبٌ وَشَهِيدٌ

وَإِنِّي لَأَسْتَحْيِي أَخِي أَنْ أَبْرَهُ قَرِيبًا وَأَنْ أَجْفُوهُ وَهُوَ بَعِيدٌ

وقال الآخر :

رَأَيْتُ صَلَاحَ المَرءِ يُصْلِحُ حالَهُ وَيُعْدِيهِمْ داءُ الفَسَادِ إذا فَسَدَ

وَيُحْفَظُ بَعْدَ المَوْتِ في الأهلِ والوَلَدِ وَيُحْفَظُ بَعْدَ المَوْتِ في الأهلِ والوَلَدِ

وقال الآخر :

أرى صاحِبَ النِّسْوانِ يَحْسِبُ أَنَّها سَوَاءٌ، وَبِوْنٌ بَيْنَهُنَّ بَعِيدُ

فَمِنْهُنَّ جَنَّاتٌ تَفِيءُ ظِلَالُها وَمِنْهُنَّ نيرانٌ لَهْنٌ وَقودُ !

وقريب من هذا قول الأعرابي :

وإنَّ منَ النِّسْوانِ مَنْ هِيَ رَوْضَةٌ تَهْجُ الرِّياضُ دُونُها وتَصُوحُ

غيره :

وكلُّ أَمْرٍ عِنْدَ الهَوِينِ مُلاطِفٌ وَلَكِنَّمَا الاخْوانُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ !

غيره :

(26) في ب : تدبُّ على خَدَّ ورد ندي

مَا خَطْبُ مَنْ حُرِّمَ الْإِرَادَةَ وَادِعًا
غِيْرَهُ :

وَلَقَدْ أَصْرَفُ الْفَوَادَ عَنِ الشَّيْءِ
غِيْرَهُ :

عَوَّدُ لِسَانِكَ قَوْلَ الصَّدَقِ تَحْظُ بِهِ
مُوكَّلٌ بِتَقَاضِي مَا سَنَنْتَ لَهُ
وَقَالَ أَبُو الْفَتْحِ الْبُسْتِيّ :

تَكَلَّمْ وَسَدِّدْ مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنَّمَا
فَإِنْ لَمْ تَجِدْ قَوْلًا سَدِيدًا تَقُولُهُ
وَقَالَ ابْنُ الرُّومِيِّ . وَقَدْ سَمِعَ رَجُلًا يَتَنَبَّأُ عَلَى آخِرِ مَبَالِغَا :

إِذَا مَا وَصَفْتَ امْرَأًا لَامِرِيءِ
فَإِنَّكَ إِنْ تَغَلُّ تَغَلُّ الظُّنُونُ
غِيْرَهُ :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الدَّهْرَ مِنْ سَوْءٍ فِعْلِهِ
فَمَنْ سَرَّهُ إِلَّا يَرَى مَا يَسُوءُهُ
غِيْرَهُ :

إِنَّمَا الدُّنْيَا هِبَاتٌ
شِدَّةٌ بَعْدَ رَخَاءٍ

غِيْرَهُ :

لَوْ أَنَّ مَا أَنْتُمْ فِيهِ يَدُومُ لَكُمْ
لَكِنِّي عَالِمٌ أَنِّي وَأَنْتُمْ

غِيْرَهُ :

صِلْ مَنْ دَنَا وَتَنَاسَ مَنْ بَعُدَا
قَدْ أَكْثَرْتَ حَوَاءً إِذْ وَلَدْتَ

غِيْرَهُ :

مِثْلُ الَّذِي حُرِّمَ الْإِرَادَةَ جَاهِدًا

حَيَاءٌ وَحُبُّهُ فِي السَّوَادِ

إِنَّ اللِّسَانَ لِمَا عَوَّدْتَ مُعْتَادُ
فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَانْظُرْ كَيْفَ تَرْتَادُ !

كَلَامُكَ حَيٌّ وَالسُّكُوتُ جَمَادُ !
فَصَمْتُكَ عَنْ غَيْرِ السَّدَادِ سَدَادُ
وَقَالَ ابْنُ الرُّومِيِّ . وَقَدْ سَمِعَ رَجُلًا يَتَنَبَّأُ عَلَى آخِرِ مَبَالِغَا :

فَلَا تَغَلُّ فِي وَصْفِهِ وَاقْصِدِ :
فِيهِ إِلَى الْأَمْدِ الْأَبْعَدِ

يُكَدِّرُ مَا أُعْطِيَ وَيَسْلُبُ مَا أُسْدَى
فَلَا يَتَّخِذْ شَيْئًا يَخَافُ لَهُ فَقْدَا

وَعَوَارِ مُسْتَرْدَّةٍ
وَرَخَاءٍ بَعْدَ شِدَّةٍ

ظَنَنْتُ مَا أَنَا فِيهِ دَائِمًا أَبَدًا !
سَنَسْتَجِدُّ خِلَافَ الْحَالَتَيْنِ غَدَا

لَا تُكْرِهَنَّ عَلَى الْهَوَى أَحَدَا
إِذَا جَفَا وَلَدٌ فَخُذْ وَلَدًا !

إِذَا اجْتَمَعَ النَّاسُ فِي وَاحِدٍ
فَقَدْ دَلَّ إِجْمَاعُهُمْ دُونَهُ
غَيْرُهُ :

وَإِخْوَانٌ تَخَذَتْهُمْ دُرُوعًا
وَحَلَتْهُمْ سِهَامًا صَائِبَاتٍ
وَقَالُوا : قَدْ صَفَتْ مِنَّا قُلُوبٌ
وَقَالُوا : قَدْ سَعَيْنَا كُلَّ سَعْيٍ
وَقَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْحَرِيرِيُّ :

وَلَمَّا تَعَامَى الدَّهْرُ وَهُوَ أَبُو الْوَرَى
تَعَامَيْتُ حَتَّى قِيلَ إِنِّي أَخُو عَمَى
وَلَهُ :

وَالشَّبُّكَ فِي الْبَحْرِ مِثْلَ الْأَسَدِ
وَلَهُ أَيْضًا :
مَنْ ضَامَهُ أَوْ ضَارَهُ دَهْرُهُ
سَمَاحَهُ أَزْرَى بِمَنْ قَبْلَهُ
وَلَهُ أَيْضًا :

خُذْهَا إِلَيْكَ وَصِيَّةً
غُرَاءَ حَاوِيَّةٍ خَلَاصَاتٍ
نَقَحَتْهَا تَنْقِيمَ مَنْ
وَأَعْمَلَ يَمًا مَثَلَتُهُ
حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ هَذَا
وَقَالَ ابْنُ السَّاعَاتِيِّ :

حُدِدَتْ بِجَفَنِيهَا عَلَى رَشْفٍ رَيْقَهَا
وَقَالَ شَرَفُ الدِّينِ الْحَمَوِيُّ :

وَنَحْنُ مَعَاشِرُ نَأْبَى الدَّانِيَا
نُعَانِقُ مِنْ رِمَاحِ الْخَطِّ بَانَا

وَخَالَفَهُمْ فِي الرِّضَى وَاحِدٌ
عَلَى عَقْلِهِ أَنَّهُ فَاسِدٌ !

فَكَانُوهَا وَلَكِنْ الْأَعَادِي
فَكَانُوهَا وَلَكِنْ فِي فُؤَادِي
لَقَدْ صَدَقُوا وَلَكِنْ مِنْ وَدَادِي
لَقَدْ صَدَقُوا وَلَكِنْ فِي فُسَادِي !

عَنِ الرَّشْدِ فِي أَنْحَائِهِ وَمَقَاصِدِهِ
وَلَا غُرُوَ أَنْ يَحْذُو الْفَتَى حَذُوَ وَالِدِهِ !

فَلْيَقْصِدِ الْقَاضِي فِي صَعْدِهِ
وَعَدْلِهِ أَنْتَعِبَ مَنْ بَعْدَهُ

لَمْ يُوصِهَا قَبْلِي أَحَدٌ
الْمَعَانِي وَالزُّبْدَ
مَحْضَ النَّصِيحَةِ وَاجْتَهَدَ
عَمَلَ اللَّيْلِ أَخِي الرَّشْدَ
الشَّبُّكَ مِنْ ذَاكَ الْأَسَدَ !

وَمَنْ شَرِبَ الصُّهْبَاءَ يُلْزَمُ بِالْحَدِّ

وَنَلْبَسُ مِنْ صِوَانِ الْعَرَضِ بُرْدًا
وَنَنْشَقُ مِنْ سَيُوفِ الْهِنْدِ وَرْدًا

وقال المُتلمّس :

إنَّ الهوانَ حمارُ الذَّلِّ يألُفه
ولا يُقيمُ بدارِ الذَّلِّ يألُفها
هذا على الخَسَفِ مربوطٌ برُمته
وقال ابن قلايس :

إنَّ مقامَ المرءِ في بيتِهِ
فواصلِ الرِّحْلَةِ نحوَ الغنى
والنَّارُ لا يُحرقُ مشبُوبُها
غيره :

قد تعفَّفتُ وارتضيتُ بترْفيعِ
لا لأنِّي أنفَتُ معَ ذَا من الكُدِّ
وقال أبو دَلَف :

أطيبُ الطَّيِّباتِ قتلُ الأعادي
ورسولٌ يأتِي بوعْدِ حبيبِ
وسببه أنَّه قد قيل لأعرابي : ما أمتعُ لذات الدنيا ؟ فقال : بيضاء رُعبُوبة، بالشحم
مَكْرُوبة، بالمسك مشبُوبة . وسئل الأعشى فقال : صهباءُ صافية، تمزجُها ساقية، من
صوب غادية . وسئل طرفة عن ذلك فقال : مركبٌ وطيبٌ، وثوبٌ بهيٍّ، وطعمٌ
شهِيٍّ . قال بعضهم : فحدثت بذلك أبا دَلَف فقال :
أطيبُ الطَّيِّباتِ ... (البيتين)

وقال : وحدثت بذلك حميداً الطُّوسيَّ فقال :

فلولا ثلاثٌ هنَّ من عيشَةِ الفتى
فمنهنَّ سبقُ العاذلاتِ بِشربةٍ
وكربي إذا نادى المضافُ مجنباً
وتقصير يوم الدَّجن والدَّجنُ مُعجبٌ
وجدك لم أحفل متى قام عودِي⁽²⁷⁾
كُميت متى ما تُعلَّ بالماء تُزِيدِ
كسيد الغضى نبهته المتورِّد⁽²⁸⁾
ببهكنة تحت الطَّرافِ المَعْمَدِ⁽²⁹⁾

(27) في زهر الآداب فلولا ثلاثٌ هنَّ من لذة الفتى

(28) في زهر الآداب أيضاً : كسيد الغضى ذي السَّوْرة المتورِّد

(29) وفيه أيضاً : ببهكنة تحت الخباءِ المَعْمَد .

قال : وحدتُ بذلك الزبير بن عبد الله فقال : ما أدري ما أقول ولكني أقول :

فاقبلك من الدهر ما أتاك به من قر عينا بعينه نفعه !

قلت : والأبيات الأربعة التي أنشدها حميد ليست له، وإنما تمثل بها، وهي لطرفة بن العبد من قصيدته الدالية المشهورة ؛ وكذا البيت الذي أنشده الزبير هو لشاعر قديم، وسيأتي ذكره مع غيره في موضعه . وشيع طرفه في ذكر الثلاث جماعة من الفضلاء . فمن ذلك قول عز الدين بن هبة الله المعتزلي معارضا :

لولا ثلاثٌ لم أخفُ صرعتي
أن أنصر التوحيد والعذل في
وأن أناجي الله مستمعا
وإن أتية الدهر كبرا على
لذاك أهوى لا فتاة ولا
ليست كما قال فتى العبد
كل مكان باذلا جهدي
بخلوة أخلى من الشهد
لئيم [بياض] الخد
خمرًا ولا ذا ميعه نهد

وقول الآخر :

لولا ثلاثٌ هنَّ [والله من]⁽³⁰⁾
حجٌ لبیت الله أرجو به
والعلم تحصيلًا ونشرًا لما
وأهلك ودَّ أسأل الله أن
ما كنت أخشى الموت أني أتى

وقال أثير الدين :

أما إنَّه لولا ثلاثٌ أحبها
فمنهنَّ صوني النفس عن كل جاهل
ومنها رجائي أن أفوز بتوبة
أتترك نصًا للرسول وتقتدي

وقول الصفيدي :

لولا ثلاثٌ هنَّ أقصى المنى
تكميل ذاتي بالعلوم التي
لم أهب الموت الذي يردي
تنفعني إن صرت في لحدي

(30) سقط من ب .

والسَّعْيُ فِي رَدِّ الْحَقُوقِ الَّتِي
وَأَنْ أَرَى الْأَعْدَاءَ فِي صَرْعَةٍ
فَبَعْدَهَا الْيَوْمُ الَّذِي حَمَّ لِي
وَقُولِي أَنَا مِنْ هَذَا الْبَابِ :

لَوْلَا ثَلَاثُ فَوَائِدٍ تَرْجَى لَمَّا أَحْبَبْتُ تَنْفِيسَ الْحَيَاةِ إِلَى مَدَا

قُرْبٍ مِنَ الْمَوْلَى وَعِلْمٍ نَافِعٍ وَأَخٌ يُؤَاوِزُنِي وَيَشْفَعُ لِي غَدًا
وَذَكَرَ الْجَاهِظُ أَنَّ عَمْرَ بْنَ الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنْشَدَهُ رَجُلٌ قَوْلَ طَرَفَةِ الْمَذْكُورِ فَقَالَ :
لَوْلَا أَنْ أُسِيرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَضْعَ جَبْهَتِي لِلَّهِ، وَأَجَالِسَ أَقْوَامًا يَنْتَقُونَ أَطَايِبَ الْحَدِيثِ كَمَا
يَنْتَقُونَ أَطَايِبَ الثَّمَارِ، لَمْ أَبَاكَ أَنْ أَكُونَ قَدِمْتَ . قَالَ : وَقَالَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَيْسِيُّ : مَا
أَسَى مِنَ الْعِرَاقِ إِلَّا عَلَى ثَلَاثٍ : عَلَى ظُلْمِ الْهَوَاجِرِ، وَتَجَاوُبِ الْمُؤَذِّنِينَ، وَإِخْوَانِ لِي مِنْهُمْ
الْأَسْوَدُ بْنُ كَلْثُومٍ . وَقَالَ أَعْرَابِي :

لَوْلَا ثَلَاثٌ هُنَّ عَيْشُ الدَّهْرِ : الْمَاءُ وَالنَّوْمُ وَآمٌ عَمَرُوا
لَمَّا خَشِيتُ مِنْ مَضِيْقِ الْقَبْرِ

وَقَالَ الْآخَرُ :

صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يَلِيقُ بِمِثْلِي
مَا يُسَاوِي قَضَاءُ حَقِّ الْمَوَالِي
وَقَالَ الْبَحْتَرِيُّ :

وَلَسْتُ تَرَى شَوْكَ الْقِتَادَةِ خَائِفًا
وَلَا الْكَلْبَ مَحْمُومًا وَإِنْ طَالَ عُمُرُهُ
غَيْرُهُ :

لَقَدْ كَسَدَتْ سَوْقُ الْفَضَائِلِ كُلِّهَا
فَلَسْتُ أَرَى إِلَّا كَرِيمًا يَفِرُّ مِنْ
غَيْرِهِ :

وَمَا زَالَ هَذَا الدَّهْرُ يَلْحَنُ فِي الْوَرَى :

فَيَرْفَعُ مَجْرُورًا وَيَخْفَضُ مُبْتَدَأًا

وقال ابن سنّاء الملّك :

أبى الدهر إلاّ ضدّ ما أنا طالبٌ
يعدّ الفتى إخوانه لزمانه
غيره :

تحفظ من ثيابك ثمّ ضنّها
وميّز عن زمانك كلّ حين
وظنّ بسائر الأجناس خيراً
أرادوني بجمعهم فردّوا
وعادوا بعد ذا إخوان صدق
وقال الأرجاني :

أرى بين أيّامي وشعري قد بدا
فقد أصبحت سوداً وشعري أبيضاً
وقال بعض أهل المجون :

تعشّقته شيخاً كأنّ مسيّبه
أخا العقل يدري ما يراد من النّهي
غيره :

لامّ العواذل إذ عشقت فتى له
لا تعذلوني في هواه فإنّني
قيق لبعض أهل المجون : لِمَ لا تميل إلى النسوان ؟ قال : أذكر أمّي فاستحيي . فقيق له
: لِمَ لا تذكر بالذكور أباك ؟ وعكس هذا الشاعر ذلك المعنى . ومن هذا النمط قول بهاء
الدين بن النّحّاس :

قالوا: حبيبك قد تبدّى شيبه
قلت : اقصّروا فالآن تمّ جماله
الصّبْح غرّته، وشعر عذاره
فإلّا مَ قلبك في هواه يهيم ؟
وبدا سفاه فتى عليه يلوم
ليك، ونبت الشّيب فيه نجوم

وقول ابن الوكيل، وهو لطيف لولا عيب القافية :

شَبَّ وَجْدِي بِشَائِبٍ مِنْ سَنَا الْبَدْرِ أَوْجَهُ
كَلَّمَا شَابَ يَنْحَنِي بَيَّضَ اللَّهُ وَجْهَهُ !

وقال الصفدي :

عَشَقْتُ شَيْخًا بَدِيعَ حُسْنٍ لَمْ عَلَى حُبِّهِ الْعَذُولُ
كَأَنَّ يَا قُوتَ وَجْنَتَيْهِ لَا شَيْبَ فِيهَا جِبَالُ لُؤْلُ

أَي لُؤْلُؤ . وقال الآخر :

شَمْسُ الضُّحَى يُعْشَى الْعُيُونُ ضِيَاؤُهَا إِذَا رُمِقَتْ بَعِينٍ وَاحِدَةٍ
فَلَذَاكَ تَاهَ الْعُورُ وَاحْتَقَرُوا الْوَرَى فَاعْرِفْ قَضِيَّتَهُمْ وَخُذْهَا فَائِدَةً !
نُقْصَانُ جَارِحَةٍ أَعَانَتْ أَخْتَهَا فَكَأَنَّهَا قَوِيَتْ بَعِينٍ زَائِدَةٍ

وقال أبو نواس :

إِنِّي وَمَا جَمَعْتُ مِنْ صَفَدٍ وَحَوَيْتُ مِنْ سَبَدٍ وَمِنْ لَبَدٍ
هِمَمٌ تَصَرَّفَتْ الْخُطُوبُ بِهَا فَنَزَعَنْ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ
يَا وَيْحَ مَتَ حَسَمَتْ قَنَاعَتُهُ سَبَبَ الْمَطَامِعِ عَنْ غَدٍ فَغَدٍ
لَوْ لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ مُتَّهِمًا لَمْ يُمَسَّ مُحْتَاجًا إِلَى أَحَدٍ !

وقال محمد بن كِنَانَةَ الْأَسَدِيَّ :

وَمَنْ عَجَبِ الدُّنْيَا تَيَقُّنُكَ الْبِلَا وَأَنْتَ فِيهَا لِلْبَقَاءِ مُرِيدُ
إِذَا اعْتَادَتْ النَّفْسُ الرِّضَاعَ مِنَ الْهَوَى فَإِنَّ فَطَامَ النَّفْسِ عَنْهُ شَدِيدُ
وقال الامام البوصيري، رحمه الله تعالى، يمدح الشيخ أبا العباس المرسى، رحمه الله
ونفع به :

قُلْ لِلَّذِينَ تَكَلَّفُوا زِيَّ التَّقَى وَتَخَيَّرُوا لِلدَّرْسِ أَلْفَ مُجَلَّدٍ :
لَا تَحْسِبُوا كَحَلَ الْجُفُونِ بِحِيلَةٍ إِنَّ الْمَهَى لَمْ تَكْتَحِلْ بِالْإِثْمِ !
الْكَحَلُ - بفتحتين - أَنْ يعلَوْ مَنَابِتُ الْأَشْفَارِ سَوَادٌ "خِلْقَةٌ"، أَوْ هُوَ أَنْ تَسْوَدَّ مَوَاضِعُ
الْكَحَلِ . يقال : كَحَلْتُ - بالكسر - فَهِيَ كَحْلَاءٌ، وَهُوَ أَكْحَلُ . وهذا مثق قول الآخر :
لَيْسَ التَّكْحَلُ فِي الْعَيْنَيْنِ كَالْكَحَلِ
وسياتي . وقال الآخر :

وكنّا كزوجٍ من قِطَا في مفارقةٍ لدى خَفَضِ عَيْشٍ مُعْجَبٍ مُونِقٍ رَغْدٍ
أصابهما رَيْبُ الزَّمانِ فَأَفْرَدَا ولم نر شيئا قطُّ أو حشاً من فردٍ
حكى عن أَبِي السَّمُوعِ قال : دخلتُ مَنْزِلَ نَخَّاسٍ في شِراءِ جاريةٍ، فسمعتُ في بَيْتِ بِلَازاءِ
البَيْتِ الَّذِي كُنْتُ فيه صوتَ جاريةٍ وهي تقول :
وكنّا كزَوْجٍ ... (البيتين)

فقلتُ لِلنَّخَّاسِ : اعرضْ عَلَيَّ هذه المنشدة ! فقال : إِنَّها شَعَثَةُ مَرَهَاءٍ حَزِينَةٍ .
فقلتُ : وَلِمَ ذاكَ ؟ قال : اشتريتها من ميراثٍ، فهي باكية على مولاه . ثمَّ لم ألبث أن
أنشدت :

وكنّا كغُصْنَيْ بَانَةٍ وَسَطَ رَوْضَةٍ نَشْمُ جَنَى الرِّوَضَاتِ في عَيْشَةٍ رَغْدٍ
فأفْرَدَ هذا الغُصْنُ من ذاك قاطعٌ فيا فِرْدَةً باتتُ تحنُّ إلى فردٍ !
قال أَبُو السَّمُوعِ : فكتبتُ إلى عبدِ اللَّهِ بنِ طاهرٍ أخبره بخبرها، فكتب إليَّ أن أَلْقِ هذا
البَيْتَ عليها، فإنَّ أجابتْ فاشترها ولو بخراجِ خراسان ! والبيتُ هو :

قَرِيبٌ صَدٌّ بُعِيدٌ وَصَلٌّ جَعَلَتْهُ مِنْهُ لِي مَلَاذًا
قال : فَأَلْقَيْتُهُ فَقَالَتْ في سُرْعَةٍ :

فَعَاتَبُوهُ فَذَابَ شَوْقًا وَمَاتَبَ عِشْقًا فَكَانَ مَآذَا ؟
قال : فاشتريتها وحملتها إليه فماتت في الطريف، فكانت لِإِحدى الحسرات .
وقال عمرو بن معدى كرب :

أُرِيدُ حَيَاتَهُ وَيُرِيدُ قَتْلِي عَذِيرَكَ من خَلِيلِكَ من مُرَادٍ
وهذا مثْلُ مشهورٍ، كان عَلِيٌّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ - فيما يروون - يَتَمَتَّكُ به عندما يرى ابنَ
مُلْجَمٍ . وَتَمَتَّكُ به غيره أيضًا، كما مرَّ في حرفِ الهمزة . والعَذِيرُ : العَازِرُ والحال التي
تَحاولُها لِتُعْذَرَ عليها . والعربُ يقولون : عَذِيرَكَ مِنْ فُلانٍ، وينصبونه بِعاملٍ لا
يُظْهِرُ . والمعنى : هَلُمَّ من يَعْذُرُكَ من فُلانٍ، فيلومه ولا يلومك، كما قال النَّبِيُّ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَنْ يَعْذُرُنِي من أَناسٍ أَبْنُوا أَهْلِي في حديثِ الإفك .
وقال زَيْدُ الْخَيْلِ :

أمرْتُحَلُّ قَوْمِي الْمَشَارِقُ غُدُوَّةً وَأَتْرَكُ في بَيْتٍ بِفِرْدَةٍ مُنْجِدٍ ؟
ألا رُبَّ يَوْمٍ لو مَرَضْتُ لَعَادَنِي عَوَائِدُ من لم يبرِ مِنْهُمْ يَجْهَدُ

فليت اللواتي عُدنني لم يَعُدنني
وقال أعرابي :

إذا وجدت أوارَ الحب في كبدي
هبني بردتُ ببردِ الماءِ ظاهره
وقال الآخر :

ما لعيني كحلتُ بالسُّهادِ
لا أذوق النُّومَ إلا غراراً
أبتغي إصلاحَ سَعْدِي بجُهدِ
فتتاركنا على غيرِ شيءٍ
وقال المعتمد بن عبّاد في باب الغزل :
أباحَ لطيفي ظيفُها الخدَّ والنَّهْدا
ولو قدرتُ زارتُ على حالِ يقظةٍ
أما وجدتُ عنّا الشُّجونَ مُعرّساً
سقى الله صوبَ القطرِ أمَّ عُبيدةٍ
هي الطَّبْبي جيداً والعزلةُ مُقلّةٌ
وقال الرئيس أبو مروان بن رزين :

وروضُ كساهُ الطلُّ وشيئاً مُجدّداً
إذا صافحته الرِّيحُ خِلتْ غُصونَه
إذا ما انسكابُ [الماء] عاينتْ خِلتَه
وإن سكنت عنه حسبتُ صفاءه
وغنّت به ورقُ الحمامِ بيننا
فلا تجفونَ الدهرُ ما دام مُسعداً
وخذها مُداماً من غزالٍ كأنه
وقال ابو بكر بن عمّار، من قصيدة :

وما هذه الأشعارُ إلا مجامرٌ
وقال أيضاً :

وليت اللواتي غبنَ عنيَّ شُهدي !

أقبلتُ نحو سقاءِ القومِ أبتردُ
فمن لئارٍ على الأحشاءِ تتقيدُ

ولجنبي نائياً عن وسادي ؟
مثل حسو الطير ماء التّمارِ
وهي تسعى جُهدُها في فسّادي
ربّما أفسدَ طولُ التّماري

فعضّ به تَفّاحةً واجتنتى ورداً
ولكن حجابُ البينِ ما بيننا مُدّاً
ولا وجدتُ منّا خُطوبُ النّوى بُدّاً ؟
كما قد سقت قلبي على حرّه برداً
وروضُ الرُّبا عَرَفّا وغُصنُ النّقى قدّاً

فأضحى مُقيماً للنّفوسِ ومُقعِداً
رواقِصاً في خُضُرٍ من العُشبِ مُيِّداً
وقد كسرتَه راحةُ الرِّيحِ مبرداً
حُساماً صقيلاً صافيَ المتنِ جرّداً
غناءً يُنسّيك الغريضةَ ومعبدّاً
ومُدّاً إلى ما قد حباكَ به يداً
إذا ما سقى بدرٌ يُحمكُ فرقدّاً

تضوّعَ فيها للنّوى قِطْعُ النّدى

تَبَرَّعْتَ بِالْمَعْرُوفِ قَبْلَ سُؤَالِهِ وَعُدْتَ بِمَا أُولَيْتَ وَالْعُودُ أَحْمَدُ
وَقَالَ أَبُو الْحَسَنِ بْنُ الْحَاجِّ الثُّلُوثِيُّ يَتَغَزَّلُ فِي مَعْدَرٍ :

وَقَدْ كَانَ يُنْبِتُ زَهْرَ الرِّيَاضِ قَأْصِبَحُ يُنْبِتُ شَوْكَ الْقِتَادِ
أَيْنَ لِي مَتَى كَانَ بَدْرُ التَّمَامِ يُدْرِكُ بِالْكَوْنِ أَوْ بِالْفَسَادِ
وَهَلْ كُنْتَ فِي الْمُلْكِ مِنْ عَبْدِ شَمْسٍ فَأُخْفِيَ عَلَيْكَ ظَهْرُ السَّوَادِ ؟

وَقَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ عَبْدِ الدَّيْرِ فِي مَجْذُومٍ :

مَاتَ مَنْ كُنَّا نَرَاهُ أَبَدًا سَالِمَ الْعَقْلِ سَقِيمَ الْجَسَدِ
بَحْرُ سَقَمٍ مَاجٍ فِي أَعْضَائِهِ فَرَمَى فِي جِلْدِهِ بِالرَّبْدِ
كَانَ مِثْلَ السَّيْفِ إِلَّا أَنَّهُ حُسِدَ الدَّهْرِ عَلَيْهِ فَصَدَى

وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْمَلْحَمِ :

وَالرَّوْضُ يَبْعَثُ بِالنَّسِيمِ كَأَنَّمَا أَهْدَاهُ يَضْرِبُ لِاصْطَبَاحِكَ مَوْعِدًا
سَكَرَانُ مِنْ مَاءِ النَّعِيمِ فَكُلَّمَا غَنَاهُ طَائِرُهُ وَأَطْرَبَ رَدْدًا
يَأْوِي إِلَى زَهْرٍ كَانَ عَيُْونُهُ رُقْبَاءُ تَعْقِدُ لِأَحِبَّةٍ مَرَصْدًا
زَهْرٌ يَبُوحُ بِهِ اخْضِرَارُ نَبَاتِهِ كَالزَّهْرِ أَسْرَجَهَا الظَّلَامُ وَأَوْقَدَا
وَيَبِيتُ فِي فَنَنِ تَوْهَمَ ظِلِّهِ بِالصُّبْحِ فِي عَيْنِ الْقَرَارَةِ مِرْوَدًا
قَدْ خَفَّ مَوْقِعُهُ عَلَيْهِ وَرَبَّمَا مَسَحَ النَّسِيمُ بِعِطْفِهِ فَتَأَوَّدَا

وَقَالَ الْفَقِيهَ أَبُو الْحَسَنِ بْنُ زَنْبَاعٍ :

وَمَنْ يُطْفِئُ بِنَزَرِ الْمَاءِ نَارًا فَلَيسَ يَزِيدُهَا إِلَّا انْقَادًا

وَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ النَّشْطِيلِيُّ :

تَنَافَسَ النَّاسُ فِي الدُّنْيَا وَقَدْ عِلِمُوا أَن سَوْفَ تَقْتُلُهُمْ لِذَاتِهَا بَدَا
تَبَادُرُهَا وَقَدْ آذَتْهُمْ فَشَلَا وَكَاثَرُوهَا وَقَدْ أَحْصَتْهُمْ عَدَا
قُلْ لِلْمُحَدَّثِ عَنِ الْقُتْمَانِ أَوْ لُبْدٍ : لَمْ يَتْرُكِ الْمَوْتَ لِقْمَانًا وَلَا لُبْدًا !
وَلَا الَّذِي هُمُّهُ الْبُنْيَانُ يَرْفَعُهُ : إِنَّ الرَّدَى لَمْ يُغَادِرْ فِي الشَّرَى أَسَدًا !
مَا لِابْنِ آدَمَ لَا تَفْنَى مَطَالِبُهُ يَرْجُو غَدًا وَعَسَى أَلَّا يَعِيشَ غَدًا ؟

وَقَالَ الْآخَرُ :

باح مجنونٌ عامرٌ بهَوَاهُ
فإذا كان في القيامةِ نُودِي :
وقال الآخر :

يقولون : إنَّ الحبَّ كالنَّارِ في الحشى
وما هو إلَّا جذوةٌ مسَّ عُودها
وقال الآخر :

أمسِكْ ملامكَ عنيَّ إنَّني كمدُ
إن لم تُصدِّقْ دموعي في الَّذي شهدت
يا ويحَ أهلِ الهوى إنَّي لأرحمُهم
لولا ترحمُهم أيقنْتُ أَنَّهُمُ
وقال الآخر :

كفى خزنًا أنِّي مُقيمٌ بلذَّةٍ
أقلِّبُ طرْفِي في الدِّيارِ فلا أرى
وقد قلت في غرضِ البابِ قصيدةً، فرأيت أن أثبتها هنا، وإن كان فيها بعضُ طول، وهي :
أبى الدَّهرُ إلَّا أن يجورَ عن القصدِ
ويبسُطَ بينَ الفرقَدينِ يَدَ النَّوى
ويسموُ بالوهْدِ الحضيضِ على الذُّرى
ويستبدلُ البرديَّ في الطَّعنِ بالقنا
وأن يجعلَ العقْبانَ في الجوّ طُعْمةً
ويَهْدِيَ بالضَّبِّ القِطاةَ رَكِيَّةً
ويرفعُ أقدارَ اللَّثامِ على الألى
ويؤلِّيَ تدبيرَ الورى كلَّ مائقٍ
أجلُ إنَّها الأحداثُ تجري مُدارةً
مقاديرَ منه أبْرمت عن مشيئةٍ
وعدلٍ واحكامٍ مبينٍ وحِكْمةٍ
وليست بما تهوى النَّفوسُ صُرُوفُها

وكتَمْتُ الهوى فمُتُّ بوجدي
من قَتيلُ الهوى ؟ تقدَّمتُ وحدي !

لقد كذبوا فالنَّارُ تذكو وتخمُدُ
تُسعِّرُ قلبًا للمشوقِ وتوقِدُ !

إذ لم تجد في الهوى يومًا كما أجِدُ !
فانظُرْ إلى جسدي إن كان لي جسدُ
تبلى الجسومِ وأثوابِ الهوى جُدُدُ
يشقون دهرهم أضعافَ ما سعدوا !

وأحبابُ قلبي نازحونَ بَعِيدُ
وجوهًا لأحبابي الذين أريدُ !
وأن يعكسَ الآمالُ في كلِّ ما يُبدي
ويُدني الثُّريَّا من سُهَيْكٍ على بُعدِ
ويسفكُ بالطَّودِ السَّميَّ على الوهدِ
وغُصنِ النَّقى الأملودِ بالصَّارمِ الهندي
لورقاء والضُّبْعانِ مفترسَ الأسدِ
على العُشْرِ والسَّمْعِ التَّنائفِ بالخُلْدِ
لهم قدمٌ في المجدِ والشَّرَفِ العدُ
وفضلكَ الغنى كلَّ امرئٍ شكسَ نكدِ
مقاليدها في قبْضةِ الصَّمَدِ الفردِ !
قديمًا وعن علمٍ مُحيطٍ وعن قصدِ
تَحارُ النُّهيَّ في نيلِ فياضها المدِّ
ولا حذرُ المُحتالِ في صرفِها يُجدي

ولا يُحرمُ الوفْرُ الفتى بجهالةٍ
ولكنّها الأرزاقُ أَعْدَدُنْ للفتى
فكائنُ رأينا من حليمٍ مُقْتَرٍ
أراني عروفاً بالزّمان فمن يَكُنْ
ولم يَبْتئِسْ إن مسّه بمضوفةٍ
وقد قرعْتَنِي الحادِثاتُ فلم تَلِنْ
وما رَسَنَنِي حتّى نزعَنْ عن امرئٍ
إذا ظفرت كفّاه لم يَزُهْ فآخرُ
فأصْبَحْتُ لا آسى على فقد هالكٍ
ولا أبتغي وديّ امرئٍ عن تكلفٍ
ولو ملّني يوماً من الدّهر معصمي
ورُبَّ غبيٍّ يَزُدُّرِينِي إن رأى
ولم يدر أنّ الأجرَدَ النّهدَ فضله
وأنّ الحُسامَ الهندوانيَّ إنّما
وأنّ رِواءَ الوهم لم يُبْق عِزّةً
الوهمُ : الجَمَلُ العظيم الذّلُّوك، ورِواءُهُ : منظره .

وأنّ برأسِ الفُهدِ التّاجَ وهو لم
وأنّ بهار الدّفكِ كالوردِ منظرًا
وغمرٌ جهولٌ يَرتجِي نيكَ منصبي
ويصبو إلى ما نلتُهُ مثلاً ما صبا
ويسعى إلى إدراك شأوي كما سعت
وغرّتهُ منّي لينةٌ وبشاشةٌ
ومن مدّ للبدْرِ المنيرِ يمينه
وذي ثروةٍ يستأمني بلُعاةٍ
ولم يدر أنّي أجتوي الأري شابهُ
وأن لستُ للباغيّ ضيماً بمُصحبٍ

وعجْزٌ ولا يحظى بعقلٍ ولا كدٌ
قديمًا على قدر الشّقاوةِ والجَدِّ
عليه وغمرٌ بات في عيشةٍ رَغْدٍ
كمثلي لم يُصْبِحْ على الدّهر ذا نقدٍ
ولم يَزُهْ بالدُنْيا إذا فاز بالوجدِ
فَناتِي لِعَمْرٍ من شباها ولا لَهْدٍ
بعيد الهوى ثبّت الحشا حازمٍ جَلْدٍ
وإن نيك لم يضرعْ ولم يُمَسْ ذا وجدٍ
ولا يعتريني بينُ غانيةٍ رَأْدٍ
وإن كان حُسنُ العَهْدِ ديني لذي ودٍ
لفارقتُهُ طوعًا ولم يَشْكُهُ عضدي
شُحوبيّ من أحداثِ آونةٍ لُدِّ
بإحضاره لا بالّجام ولا اللّبدِ
بمضربه يعنّامُ لا جِدّةُ الغمْدِ
عليه إذا ما قادهُ أصغرُ الولدِ
الوهمُ : الجَمَلُ العظيم الذّلُّوك، ورِواءُهُ : منظره .

يفز بالذّي للبار والنّسر من مُجدٍ
وحُسنًا وبعد الخبر محمّدةُ الوردِ
رجاء حضيضٍ أن سيرقى إلى النّجْدِ
حضورٌ إلى ما نيك من عذر الخُردِ
أتانٌ خريعٌ خَلَفَ صافِنَةَ جُردِ
كما غرّ غمرًا كشرةُ الأسدِ الوردِ
ليُمسكهُ فليستبينُ ضيعةَ المدّ !
ليقتادني قود الوديقِ إلى الوردِ
هوانٌ واستحلي بعزّ جنى العَبْدِ
ولا باذلٍ ماءً بوجهي على شُكْدِ

وَأَنْتِي لَوْ أَرْتَادُ مَا ضَاقَ مَذْهَبِي
وَلَكِنْ صَوْنُ النَّفْسِ عَنْ كُلِّ مُورِدٍ
وَلَيْتِي لِفَضْضَافِ السَّجَايَا دَمِيئُهَا
وَأَنْ لِسَانِي الصَّبِيرُ مَا لَمْ أَرْمَهُ
وَأَنْتِي لَوْ هَاجَيْتُ دَانَ ابْنُ غَالِبٍ
وَلَوْلَا ثَلَاثٌ هُنَّ أَجْرَرْنَ مَقُولِي
فَمَنْهَا تَحَاشَى أَنْ يَمُرَّ بِهِ الْخَنَا
وَمَنْهَا تَجَافِي أَنْ أَنْصِبَ مَعْشَرًا
وَمَنْهَا التَّحَامِي عَنْ وَعِيدِ اللَّتِي إِلَى
وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا حَيْثُ حَلَّ بِرَحْلِهِ
وَكُنْ رَابِئًا عَنْ كُلِّ وَرْدٍ دَنِيَّةٍ
وَحُمُ بَجَنَابِ الْوَرْدِ إِنْ كُنْتَ صَادِيًا
كَمَا أَعْرَضْتَ كُدْرٌ عَنِ الْمَاءِ عِنْدَمَا
وَلَاتَكُ كَالْعَيْرِ الْوَدِيقِ يَوْمُهُ
فَإِنَّ حِيَاضَ الْعِزِّ تَغْشَى سَخِينَةً
وَمَا ضِيمَ غَيْرِ الْفَقْعِ يُوْطَأُ بِمَنْسَمٍ
وَغَيْرُ تَرِيكِ بَيْضَهُ بَلْدِيَّةٍ
وَكُنْ حَافِظًا بِالْغَيْبِ وَالسُّخْطِ وَالرَّضَى
أَلَمْ بِنَا إِلِمَامَةً بَعْدَ هِدَاةٍ
سَرَى وَرَوَاقٌ مِنْ دَجَى اللَّيْلِ مُطْنَبٌ
فَلَمْ أَرِ مَثَلَ الطَّيْفِ جَوَابَ لَاحِبٍ
وَلَا وَالْجَا لَا يُغْلَقُ الْبَابُ دُونَهُ
وَأَمَنْ مِنْ لَحْظِ الرَّقِيبِ وَرَيْبِهِ
فَهِيَجَ أَشْجَانًا مِنَ الْقَلْبِ وَأَنْتَنِي
بِأَسْرَعٍ مِنْ لَحْظِ الْجَفُونِ إِذَا رَنَا
[فَيَا لَيْتَ شِعْرِي وَالْحَوَادِثُ جَمَّةٌ]

بِحَوْلٍ وَلَمْ يَصْلِدْ لِمُفْلَقَةٍ زَنْدِي
تُهَانُ بِهِ أَحْظَى بَعِزَّتَهَا عِنْدِي
لَا لِفِي وَنَشَابٌ إِذَا شَتَّتْ فِي اللُّغْدِ
وَإِنْ كَانَ أَحْلَى لِلدُّودِ مِنَ الشَّفْدِ
لَأَمْرِي وَلَمْ يَعْرِضْ لِسِيلِي فَتَى الْعَبْدِ
عَنِ الشَّرِّ وَائْتَمَّتْ بِهِ جُدُدُ الْجَدِّ :
فَإِنَّ الْخَنَا مِنْ شِيْمَةِ الدَّانِيءِ الْهَدِّ
لِئَامًا فَمَنْ لُؤْمٍ مُنَاصِبَةُ الْوَعْدِ
مَدَاهَا جَمِيعُ الْعَالَمِينَ عَلَى وَخْدِ
فَكُنْ نَازِلًا بِالنَّفْسِ فِي يَفْعِ الْحَمْدِ
بِنَفْسِكَ تَغْشَاهُ مَعَ الشَّرِّعِ الْوَرْدِ
فَإِنْ تَسْتَرْبُ فَلْتَوَلِّهِ صَفْحَةَ الصَّدِّ
تَوَجَّسْنَ ذَعْرَا فَاثْنَيْنِ عَلَى جُهْدِ
فِيْحَلًا عَنْهُ بِالْهَرَاوِي وَبِاللَّكْدِ !
وَإِنَّ حِيَاضَ الذُّلِّ تَقْلَى عَلَى بَرْدِ
عَلَى قَرَقَرٍ مِنْ غَيْرِنُكْرٍ وَلَارِدٍ
وَغَيْرُ أَتَانِ الْحَيِّ تَعْصَى أَوْ الْوَدِّ
لِعَهْدِ مُصَافِيكِ الْهَوَى دَائِمَ الْوَدِّ !
مِنَ اللَّيْلِ طَيْفٌ مِنْ أَمِيمَةٍ أَوْ هُنْدِ
بِمَا لَوْ سَرْتَهُ الرِّيحُ ضَلَّتْ مِنَ الْبُعْدِ
بَلَا سَائِقٍ يَحْدُو وَلَا سَابِقٍ يَهْدِي
وَلَا يُتَّقَى مِنْهُ بِسُورٍ وَلَا سَدِّ
إِذَا زَارَ مِنْهُ وَالرَّقِيبُ عَلَى رَصْدِ !
بَلَا طَائِلٍ مِنْهَا عَتِيدٍ وَلَا وَعْدِ
إِلَيْكَ وَبِالْبَرْقِ الْوَمِیْضِ مِنَ الرَّعْدِ
وَعَهْدُ الْعَوَانِي كَالسَّرَابِ عَلَى صَلْدِ !

أقامت على ما بيننا من صباية
فخالك من الأخدان كلَّ مُساعدٍ
حليمٍ غضيضِ الطرفِ عمّا يريبه
فإنَّ ودادَ المرءِ كالظِّلِّ زائلٌ
وإنَّ حبالَ الوصلِ منقوضةُ العرى
وإنَّ بناءَ شدتهُ وأشدتهُ
وإنَّ ركيًّا رُدتهُ وورْدتهُ
فهل تستوي عاديةٌ بخميلةٍ
وإنَّ أليفَ المرءِ إلفٌ مُشاكلٌ
ولا تطمعن من غير شكلٍ مودَّةٌ
فإنَّ السَّجايا في الأنامِ سويَّةٌ
وإنَّك ما أبصرت أَسدًا أليفةً
وما المرءُ إلَّا ابنُ الثَّرى فمراحه
وعمرُ الفتى المضمارُ بينا جواده
وبينا الفتى يزهو بمالكٍ وأسرةٍ
إذا ما سمعت الدَّهرَ عولةً حائرٍ
وقلت أيضًا :

خطأً وذلك من إخطائي السَّددا
شوكَ القتاد ولم أسلك بها جَدَدًا
جعلت تصفيد رجلي دونكم صَفَدًا

أو فتَّشوني فأبْيَضُ الكبدِ
أنا لستُ أشكو الهوى إلى أحدٍ
إن لم أمت في غدٍ فبعْدُ غَدٍ
حرُّ الهوى وانطويْتُ فوق يدي
فريسةٌ بين ساعدي أسدٍ !

أقامت على ما بيننا من صباية
فخالك من الأخدان كلَّ مُساعدٍ
حليمٍ غضيضِ الطرفِ عمّا يريبه
فإنَّ ودادَ المرءِ كالظِّلِّ زائلٌ
وإنَّ حبالَ الوصلِ منقوضةُ العرى
وإنَّ بناءَ شدتهُ وأشدتهُ
وإنَّ ركيًّا رُدتهُ وورْدتهُ
فهل تستوي عاديةٌ بخميلةٍ
وإنَّ أليفَ المرءِ إلفٌ مُشاكلٌ
ولا تطمعن من غير شكلٍ مودَّةٌ
فإنَّ السَّجايا في الأنامِ سويَّةٌ
وإنَّك ما أبصرت أَسدًا أليفةً
وما المرءُ إلَّا ابنُ الثَّرى فمراحه
وعمرُ الفتى المضمارُ بينا جواده
وبينا الفتى يزهو بمالكٍ وأسرةٍ
إذا ما سمعت الدَّهرَ عولةً حائرٍ
وقلت أيضًا :

أستغفر الله قد ضيَّعتُ نحوكمُ
سلكتُ فيها خبارًا بك وطئتُ بها
لو كنت أعلمُ ما ألقى ببابكمُ
وقال الآخر :

إن وصفوني فنالحُ الجسدِ
أضعفَ وجدي وزادَ في سقمي
أهٍ من الحبِّ أهٍ من كيدي
جعلتُ كفيَّ على فؤادي من
كأنَّ قلبي إذا ذكرْتُكمُ

وقال الآخر :

فصرتُ فريداً في البريةِ أوحداً
وأفئيتني عني فصرتُ مُجدداً

تغربَ أمري فانفردتُ بغربةِ
تسرمدَ وقتي فيك فهو مسرمدٌ

وقال الآخر :

من بعدُ فُرقَتكم يوماً إلى أحدٍ
لأنه نظرٌ من ناظري رمدٍ

لو كنتُ أملكُ طرفي ما نظرتُ به
ولست أعتدُّه من بعدكم نظراً

وقال الآخر :

بِوادي الغضا ماءً نُقاخاً ولا ورداً
وهيَّاتِ وادٍ يُنبِتُ البانَ والرَّنداً !
متى تغدُ لا تنظرُ عقيقاً ولا نجداً !

تزوّد من الدُّنيا النُّقاخَ ولن ترى
ونلّ من نسيمِ البانِ والرَّندِ نفحةً
وكرّر إلى نجدٍ بِطرفكَ إنّه

وقال الآخر :

صبراً وذلك جمعٌ بين أضدادٍ
حاجاتِ نفسي لقد أتعبتُ رُؤادي
وكيف يُعلم حال الرّائمِ الغادي ؟
فَعن نسيمِ الصَّبَا والبرقِ إسنادي

أكلف القلبَ أن يهوى وألزمه
وأكتُم الرّكبَ أوطاري وأسأله
هك مخبرٌ عنده من مُنكرٍ خبرٌ
فإن رويتُ أحاديثَ التّذين مضوا

وقال الآخر :

ولقد زادني التّباعُدُ وجداً
وجدٌ يعقوب حين فارق عهداً

زعموا أنّ من تباعد يَسْلُو
إنّ وجدي بكم وإن طاك عهدي

وقال الآخر :

من الطّيب كافوراً وأغصانه رندا
حجارتُه دُرّاً وأوراقه وردا
أميمةٌ أو جرّت بترتبه بُرداً

خليليّ إنّ الجزمَ أضحى ترابُه
وأصبح ماء البحر خَمراً وأصبحت
وما ذاك إلّا أن مَشَتْ بجنابه

وهذا الشعر يتمكّن به السّادات الصوفية في انخراق العوائد واستحالة الأشياء ببركة من جاورها ومسّها أو استدعاها من الصالحين.

ذكر صاحب التّشوّف رحمه الله تعالى عن بعض الناس قال : كنت أتوضأ في البحر على

قرب من الشيخ أبي عبد الله الصنهاجي، المعروف بابن أمغار . قال : وكان أبو عبد الله
شرع في الوضوء من البحر، فتطعمت ماء البحر فوجدته حلوًا، فقلت له : يا أبا عبد الله،
إن ماء هذا البحر حلو ! فقال لي : هو كما قلت !

وقال بعض الناس : كنت بالحرم الشريف مكّة، فخرجت وقت السحر لأشرب من زمزم،
فوجدت شيخًا قد أخذ الدلو فشرب وأفضل، فوجدت الماء أظلم من العسل والسكر . فلمّا
كان الغد، خرجت في ذلك الوقت أيضًا إلى زمزم، فوجدت صاحبي . فلمّا شرب، أخذت
الفضلة، فتعلّقت به وقلت : سألتك بالله إلا ما أخبرتني من أنت ! قال : أنا سفيان
الثوري، واستتر عليّ !

وحدث صاحب التشوف أيضًا عن بعضهم قال : مررت بالشيخ أبي موسى الدكّالي
السلاوي المشهور، وهو يأكل عسلوجًا من عساليج الكلخ . فناولني فاكلته فوجدته طيبًا .
وعن أبي الحسن الأنصاري، المعروف بابن الصائغ، قال : زرت الشيخ أبا يعزى، فلمّا كان
غروب الشمس خرجت للوضوء مع جماعة، فبعدنا عن القرية، فحال الأسد بيننا وبين القرية .
فقبل للشيخ أبي يعزى : حال الأسد بين أصحابك وبين القرية . فأخذ الشيخ عصاه بيده
وجعل يضرب الأسد، ففرّ أمامه وقربنا منه، فجعل يأكل عيون الدقلى، فقال لترجمانه : قل
لأبي الحسن : ما تقولون أنتم معشر الفقهاء فيمن يأكل الدقلى ؟ فقلت له : قل له :
يقولون : من أكل الدقلى طرد الأسد ! فأعلمه الترجمان بقولي، فرأيته يبتسم .

ومن هذا ما حدثني به بعض الثقات، وأنا بساحل حاحة، عند ضريح الشيخ أبي
العبّاس أحمد الهشوكي، المعروف بالسائح، تلميذ الشيخ سيدي سعيد بن عبد المنعم
المناني . قال : حدثني فلان - وكان من أصحاب أبي العبّاس - قال : جئت مع أبي
العبّاس عند هبوطه إلى هذا الساحل، فأتينا على مصلّى الشيخ محمد بن سليمان
الجزولي، وكان مصلّاه معروفًا هناك بشاطئ البحر يُزار . قال : فأقمنا في المصلّى يومين
- أو قال ثلاثة . وأحسبه قال - قال : لا نطعم شيئًا حتّى أحسست بجوع شديد . فقال لي
أبو العبّاس : قم إلى الضرّو فخذ لنا من أوراقه ! - والضرّو شجر معروف، أوراقه أمرّ
شيء .. قال فقمنا إلى شجرة منها، فملأت حجري من الورق، وجئت به إليه، فطرحه أمامه -
وأحسبه قال - قال : فحرّكه، فعاد زبيبا ولوزا . قال : فأكلنا حتّى اكتفينا . فلمّا قمنا من
ذلك الموضع ومررنا على قرب من موضع الشجرة، تركت الشيخ حتّى أدبر . فانسللت منه

وأُتيت الشجرة، فاقتطفت قبضة من أوراقها وجعلتها في فمي ومضغتها، فوجدتها أمرّ شيء، فمججتها، واتبعت الشيخ فأدرسته يتوضأ في شعب هنالك . فلما رأني جعل يتبسّم وقال لي : أفعلت كيت وكيت ؟ قلت : نعم ! فقال لي ما معناه : أفتحسب أن لا إله إلا الله في أفواه الرجال سواء ؟

وقد وقع مثل هذا لابراهيم بن أدهم وغيره . وحكايات الصالحين في نحو هذا لا تنحصر، وإنّما أردنا أن نتبرّك ببعض ذلك، نفعنا الله بمحبّتهم وحشرنا في زمرتهم ! وهذا القدر يكفي، والله تعالى يقول الحقّ وهو يهدي السبيل.

انتهى الجزء الثاني من كتاب زهر الأكم
ويليه الجزء الثالث مبتدئاً من «حرف الذال».

فهرس موضوعات الكتاب

الجزء الأول

5	تقديم المحققين
11	مقدمة المؤلف
19	السمط الأول في الأمثال وما يلتحق بها
19	الفصل الأول في معنى المثل والحكمة
31	الفصل الثاني في فائدة المثل والحكمة
43	الفصل الثالث في فضل الشعر
50	الفصل الرابع في الأمثال الشعرية
58	خاتمة في اصطلاح الكتاب
59	باب الألف
177	باب الباء
309	باب التاء

الجزء الثاني

5	باب الثاء
37	باب الجيم
95	باب الحاء
185	باب الخاء المعجمة
237	باب الدال المهملة

الجزء الثالث

7	باب الذال المعجمة
29	باب الراء
137	باب الزاي
155	باب السين المهملة
205	باب الشين المعجمة
247	باب الصاد
259	الفهارس العامة